



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغفلة



الرأيا
عليكم يا صابغين

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

السيرة

نفسية القليل

للمعلمة تريا السيد محمد حسين الطيب البستاني

الجلد الثامن عشر

منشورات

مؤسسة الأمل للطبوعات

بغداد - العراق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الميزان في تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبائي

نشرت في الطباعة:

علامة طباطبائي

رقم الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٢	تفسیر المیزان المجلد ١٨
١٢	اشاره
١٢	اشاره
١٦	(٤٢) سورة الشورى مكيه و هي ثلاث و خمسون آيه (٥٣)
١٦	[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١ الى ٦]
١٦	اشاره
١٦	بيان
٢٣	بحث روائى
٢٨	[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٧ الى ١٢]
٢٨	اشاره
٢٨	بيان
٣٨	[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١٣ الى ١٦]
٣٨	اشاره
٣٨	بيان
٤٧	بحث روائى
٤٨	[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١٧ الى ٢٦]
٤٨	اشاره
٤٩	بيان
٦٢	بحث روائى
٦٤	[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٧ الى ٥٠]
٦٤	اشاره
٦٦	بيان
٨٠	بحث روائى

٨٣	[سوره الشورى (٤٢): الآيات ٥١ الى ٥٣]
٨٣	اشاره
٨٣	بيان
٩٠	بحث روائى
٩٣	[سوره الزخرف مكيه و هى تسع و ثمانون آيه (٨٩)]
٩٣	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١ الى ١٤]
٩٣	اشاره
٩٤	بيان
٩٩	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١٥ الى ٢٥]
٩٩	اشاره
١٠٠	بيان
١٠٥	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٢٦ الى ٤٥]
١٠٥	اشاره
١٠٦	بيان
١١٧	بحث روائى
١١٩	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٤٦ الى ٥٦]
١١٩	اشاره
١٢٠	بيان
١٢٣	بحث روائى
١٢٣	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٦٥]
١٢٣	اشاره
١٢٤	بيان
١٣٠	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٦٦ الى ٧٨]
١٣٠	اشاره
١٣١	بيان
١٣٥	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٧٩ الى ٨٩]

١٣٥	اشاره
١٣٥	بيان
١٣٩	بحث روائى
١٤٠	(٤٤) سورة الدخان مكيه و هى تسع و خمسون آيه (٥٩)
١٤٠	[سوره الدخان (٤٤): الآيات ١ الى ٨]
١٤٠	اشاره
١٤٠	بيان
١٤٥	بحث روائى
١٤٦	[سوره الدخان (٤٤): الآيات ٩ الى ٣٣]
١٤٦	اشاره
١٤٧	بيان
١٥٣	بحث روائى
١٥٤	[سوره الدخان (٤٤): الآيات ٣٤ الى ٥٩]
١٥٤	اشاره
١٥٥	بيان
١٦٣	بحث روائى
١٦٤	(٤٥) سورة الجاثيه مكيه و هى سبع و ثلاثون آيه (٣٧)
١٦٤	[سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١ الى ١٣]
١٦٤	اشاره
١٦٥	بيان
١٧٣	[سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١٤ الى ١٩]
١٧٣	اشاره
١٧٤	بيان
١٧٨	[سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٢٠ الى ٣٧]
١٧٨	اشاره
١٨٠	بيان

- ١٩٢ بحث روائى
- ١٩٥ (٤٦) سورة الأحقاف مكيه و هى خمس و ثلاثون آيه (٣٥)
- ١٩٥ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١ الى ١٤] -
- ١٩٥ اشاره
- ١٩٦ بيان
- ٢٠٣ بحث فلسفى و دفع شبهه
- ٢٠٤ [بيان]
- ٢٠٧ بحث روائى
- ٢١٠ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١٥ الى ٢٠] -
- ٢١٠ اشاره
- ٢١١ بيان
- ٢١٨ بحث روائى
- ٢٢٠ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢١ الى ٢٨] -
- ٢٢٠ اشاره
- ٢٢١ بيان
- ٢٢٦ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٩ الى ٣٥] -
- ٢٢٦ اشاره
- ٢٢٦ بيان
- ٢٣٠ بحث روائى
- ٢٣٣ (٤٧) سورة محمد مدنيه و هى ثمان و ثلاثون آيه (٣٨)
- ٢٣٣ [سوره محمد (٤٧): الآيات ١ الى ٦] -
- ٢٣٣ اشاره
- ٢٣٣ بيان
- ٢٣٨ بحث روائى
- ٢٣٩ [سوره محمد (٤٧): الآيات ٧ الى ١٥] -
- ٢٣٩ اشاره

- ٢٤٠ بيان
- ٢٤٤ بحث روائى
- ٢٤٥ [سوره محمد (٤٧): الآيات ١٦ الى ٣٢]
- ٢٤٥ اشاره
- ٢٤٦ بيان
- ٢٥٥ بحث روائى
- ٢٥٧ [سوره محمد (٤٧): الآيات ٣٣ الى ٣٨]
- ٢٥٧ اشاره
- ٢٥٧ بيان
- ٢٦١ بحث روائى
- ٢٦٢ (٤٨) سوره الفتح مدنيه و هى تسع و عشرون آيه (٢٩) -
- ٢٦٢ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١ الى ٧]
- ٢٦٢ اشاره
- ٢٦٢ بيان
- ٢٧٠ كلام فى الإيمان و ازدياده
- ٢٧٣ [بيان]
- ٢٧٥ بحث روائى
- ٢٨٤ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ٨ الى ١٠]
- ٢٨٤ اشاره
- ٢٨٤ بيان
- ٢٨٦ بحث روائى
- ٢٨٧ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١١ الى ١٧]
- ٢٨٧ اشاره
- ٢٨٨ بيان
- ٢٩٣ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١٨ الى ٢٨]
- ٢٩٣ اشاره

- ٢٩٤ بيان
- ٣٠٢ بحث روائى
- ٣١٠ [سوره الفتح (٤٨): آيه ٢٩]
- ٣١٠ اشاره
- ٣١١ بيان
- ٣١٦ (٤٩) سوره الحجرات مدنيه و هي ثمان عشره آيه (١٨)
- ٣١٦ [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ١ الى ١٠]
- ٣١٦ اشاره
- ٣١٧ بيان
- ٣٢٧ كلام فى معنى الإخوه
- ٣٢٩ بحث روائى
- ٣٣٢ [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ١١ الى ١٨]
- ٣٣٢ اشاره
- ٣٣٣ بيان
- ٣٤٣ بحث روائى
- ٣٤٨ (٥٠) سوره ق مكيه و هي خمس و أربعون آيه (٤٥)
- ٣٤٨ [سوره ق (٥٠): الآيات ١ الى ١٤]
- ٣٤٨ اشاره
- ٣٤٩ بيان
- ٣٥٤ بحث روائى
- ٣٥٥ [سوره ق (٥٠): الآيات ١٥ الى ٣٨]
- ٣٥٥ اشاره
- ٣٥٦ بيان
- ٣٦٨ بحث روائى
- ٣٧١ [سوره ق (٥٠): الآيات ٣٩ الى ٤٥]
- ٣٧١ اشاره

- ٣٧٢ بيان
- ٣٧٤ بحث روائى
- ٣٧٥ (٥١) سورة الناريات مكيه و هي ستون آيه (٦٠) -
- ٣٧٥ [سوره الناريات (٥١): الآيات ١ الى ١٩]
- ٣٧٥ اشاره
- ٣٧٥ بيان
- ٣٨٢ بحث روائى
- ٣٨٣ [سوره الناريات (٥١): الآيات ٢٠ الى ٥١]
- ٣٨٣ اشاره
- ٣٨٤ بيان
- ٣٨٩ كلام فى تكافؤ الرزق و المرزوق
- ٣٩٠ [بيان]
- ٣٩٥ بحث روائى
- ٣٩٧ [سوره الناريات (٥١): الآيات ٥٢ الى ٦٠]
- ٣٩٧ اشاره
- ٣٩٨ بيان
- ٤٠٣ بحث روائى
- ٤٠٤ تعريف مركز

سرشناسه : طباطبائی، سید محمد حسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدید آور : تفسیر المیزان / محمد حسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجاء: امیر کبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ ریال (دوره کامل)

یادداشت : جلد ۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمد باقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج. ۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج. ۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵ م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص : ۱

(٤٢) سورة الشورى مكيه و هي ثلاث و خمسون آيه (٥٣)

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١ الى ٦]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦)

بيان

تتكلم السوره حول الوحي الذى هو نوع تكليم من الله سبحانه لأبيائه و رسله كما يدل عليه ما فى مفتحتها من قوله: «كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ» الآية و ما فى مختتمها من قوله: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً إِنْ شَاءَ اللَّهُ» الآية، و رجوع الكلام إليه مره بعد أخرى فى قوله: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» الآية، و قوله:

ص: ٥

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا » الآية، وقوله: « أَللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ » الآية و ما يتكرر فى السوره من حديث الرزق على ما سيجىء .

فالوحى هو الموضوع الذى يجرى عليه الكلام فى السوره و ما فيها من التعرض لآيات التوحيد و صفات المؤمنين و الكفار و ما يستقبل كلا من الفريقين فى معادهم و رجوعهم إلى الله سبحانه مقصود بالقصد الثانى و كلام جره كلام.

و السوره مكيه و قد استثنى قوله: « وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ » إلى تمام ثلاث آيات، و قوله: « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » إلى تمام أربع آيات و سيجىء الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: « حم عسق » من الحروف المقطعه الواقعه فى أوائل عده من السور القرآنيه، و ذلك من مختصات القرآن الكريم لا يوجد فى غيره من الكتب السماويه.

و قد اختلف المفسرون من القدماء و المتأخرين فى تفسيرها و قد نقل عنهم الطبرسى فى مجمع البيان أحد عشر قولاً فى معناها:

أحدها: أنها من المتشابهات التى استأثر الله سبحانه بعلمها لا يعلم تأويلها إلا هو.

الثانى: أن كلا منها اسم للسوره التى وقعت فى مفتتحها.

الثالث: أنها أسماء القرآن أى لمجموعه.

الرابع: أن المراد بها الدلاله على أسماء الله تعالى فقوله: « الم » معناه أنا الله أعلم، و قوله: « المر » معناه أنا الله أعلم و أرى، و قوله: « المص » معناه أنا الله أعلم و أفضل، و قوله: « كهيعص » الكاف من الكافى، و الهاء من الهادى، و الياء من الحكيم، و العين من العليم، و الصاد من الصادق، و هو مروى عن ابن عباس، و الحروف المأخوذه من الأسماء مختلفه فى أخذها فمنها ما هو مأخوذ من أول الاسم كالكاف من الكافى، و منها ما هو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم، و منها ما هو مأخوذ من آخر الكلمه كالميم من أعلم.

الخامس: أنها أسماء لله تعالى مقطعه لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم تقول:

الروحمون يكون الرحمن و كذلك سائرهما إلا أنا لا نقدر على تأليفها و هو مروى عن سعيد بن جبیر.

السادس: أنها أقسام أقسم الله بها فكأنه هو أقسم بهذه الحروف على أن القرآن كلامه

و هي شريفه لكونها مباني كتبه المنزله، و أسمائه الحسنی و صفاته العلیا، و أصول لغات الأمم علی اختلافها.

السابع: أنها إشارات إلى آلائه تعالى و بلائه و مداه الأقوام و أعمارهم و آجالهم.

الثامن: أن المراد بها الإشاره إلى بقاء هذه الأمه علی ما يدل علیه حساب الجمل.

التاسع: أن المراد بها حروف المعجم و قد استغنى بذكر ما ذكر منها عن ذكر الباقي كما يقال: أب و يراد به جميع الحروف.

العاشر: أنها تسكيت للكفار لأن المشركين كانوا تواصلوا فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن و أن يلغوا فيه كما حكاه القرآن عنهم بقوله: «لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ» الآية، فربما صفقوا و ربما غلطوا فيه ليغلطوا النبي ص في تلاوته، فأنزل الله تعالى هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها استغربوها و استمعوا إليها و تفكروا فيها و اشتغلوا بها عن شأنهم فوق القرآن في مسامعهم.

الحادى عشر: أنها من قبيل تعداد حروف التهجي و المراد بها أن هذا القرآن الذى عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التى تتحاورون بها فى خطبكم و كلامكم فإذا لم تقدرُوا عليه فاعلموا أنه من عند الله تعالى، و إنما كررت الحروف فى مواضع استظهارا فى الحججه، و هو مروى عن قطرب و اختاره أبو مسلم الأصبهاني و إليه يميل جمع من المتأخرين.

فهذه أحد عشر قولاً- و فيما نقل عنهم ما يمكن أن يجعل قولاً آخر كما نقل عن ابن عباس فى «الم» أن الألف إشاره إلى الله و اللام إلى جبريل و الميم إلى محمد ص، و ما عن بعضهم أن الحروف المقطعه فى أوائل السور المفتحة بها إشاره إلى الغرض المبين فيها كان يقال: إن «ن» إشاره إلى ما تشتمل عليه السوره من النصر الموعود للنبي ص، و «ق» إشاره إلى القرآن أو القهر الإلهي المذكور فى السوره، و ما عن بعضهم أن هذه الحروف للإيقاظ.

و الحق أن شيئاً من هذه الأقوال لا تطمئن إليه النفس:

أما القول الأول فقد تقدم فى بحث المحكم و المتشابه فى أوائل الجزء الثالث من الكتاب

أنه أحد الأقوال في معنى المتشابه و عرفت أن الإحكام و التشابه من صفات الآيات التي لها دلالة لفظية على مداليلها، و أن التأويل ليس من قبيل المداليل اللفظية بل التأويلات حقائق واقعية تنبعث من مضامين البيانات القرآنية أعم من محكماتها و متشابهاتها، و على هذا فلا هذه الحروف المقطعة متشابهات و لا معانيها المراد بها تأويلات لها.

و أما الأقوال العشرة الآخر فإنما هي تصورات لا تتعدى حد الاحتمال و لا دليل يدل على شيء منها.

نعم في بعض الروايات المنسوبة إلى النبي ص و أمته أهل البيت (ع) بعض التأييد للقول الرابع و السابع و الثامن و العاشر و سيأتي نقلها و الكلام في مفادها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

و الذي لا ينبغي أن يغفل عنه أن هذه الحروف تكررت في سور شتى و هي تسع و عشرون سورة افتتح بعضها بحرف واحد و هي ص و ق و ن، و بعضها بحرفين و هي سور طه و طس و يس و حم. و بعضها بثلاثة أحرف كما في سورتي «الم» و «الر» و «طسم» و بعضها بأربعة أحرف كما في سورتي «المص» و «المر» و بعضها بخمسة أحرف كما في سورتي «كهيعص» و «حم عسق».

و تختلف هذه الحروف أيضا من حيث أن بعضها لم يقع إلا في موضع واحد مثل «ن» و بعضها واقعه في مفتتح عدة من السور مثل «الم» و «الر» و «طس» و «حم».

ثم إنك إن تدبرت بعض التدبير في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتتح بها مثل الميمات و الرءات و الطواسين و الحواميم، وجدت في السور المشتركة في الحروف من تشابه المضامين و تناسب السياقات ما ليس بينها و بين غيرها من السور.

و يؤكد ذلك ما في مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ كما في مفتتح الحواميم من قوله:

« تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ » أو ما هو في معناه، و ما في مفتتح الرءات من قوله: « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ » أو ما هو في معناه، و نظير ذلك واقع في مفتتح الطواسين، و ما في مفتتح الميمات من نفى الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه.

و يمكن أن يحسد من ذلك أن بين هذا الحروف المقطعة و بين مضامين السور المفتتحة

بها ارتباطا خاصا، و يؤيد ذلك ما نجد أن سورة الأعراف المصدره بالمص في مضمونها كأنها جامعه بين مضامين الميمات و ص، وكذا سورة الرعد المصدره بالمر في مضمونها كأنها جامعه بين مضامين الميمات و الرءاءات.

و يستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه و بين رسوله ص خفيه عنا لا سبيل لأفهامنا العاديه إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها و بين المضامين المودعه في السور ارتباطا خاصا.

و لعل المتدبر لو تدبر في مشتركات هذه الحروف و قاييس مضامين السور التي وقعت فيها بعضها إلى بعض تبين له الأمر أزيد من ذلك.

و لعل هذا معنى

ما روته أهل السنه عن علي (ع) -علي ما في المجمع: - أن لكل كتاب صفوه - و صفوه هذا الكتاب حروف التهجي..

قوله تعالى: «كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» -إلى قوله- أَلْعَلِيُّ الْعَظِيمُ «مقتضى كون غرض السوره بيان الوحي بتعريف حقيقته و الإشاره إلى غايته و آثاره أن تكون الإشاره بقوله: «كَذَلِكَ» إلى شخص الوحي بإلقاء هذه السوره إلى النبي ص فيكون تعريفا لمطلق الوحي بتشبيهه بفرد مشار إليه مشهود للمخاطب فيكون كقولنا في تعريف الإنسان مثلا هو كزيد.

و عليه يكون قوله: «إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ» في معنى إليكم جميعا، و إنما عبر بما عبر للدلاله على أن الوحي سنه إلهيه جاريه غير مبتدعه، و المعنى أن الوحي الذي نوحيه إليكم معشر الأنبياء-نبيا بعد نبي سنه جاريه- هو كهذا الذي تجده و تشاهده في تلقى هذه السوره.

و قد أخذ جمهور المفسرين قوله: «كَذَلِكَ» إشاره إلى الوحي لا من حيث نفسه بل من حيث ما يشتمل عليه من المفاد فيكون في الحقيقه إشاره إلى المعارف التي تشتمل عليها السوره و تتضمنها و استنتجوا من ذلك أن مضمون السوره مما أوحاه الله تعالى إلى جميع الأنبياء فهو من الوحي المشترك فيه، و قد عرفت أنه لا يوافق غرض السوره و ياباه سياق آياتها.

وقوله: «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» خمسة من أسمائه الحسنی، وقوله: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» في معنى المالک، وهو واقع موقع التعلیل لأصل الوحي و لكونه سنه إلهیه جاریه فالذى يعطيه الوحي شرع إلهی فيه هدايه الناس إلى سعاده حياتهم في الدنيا والآخرة و ليس المانع أن يمنعه تعالى عن ذلك لأنه عزيز غير مغلوب فيما يريد، ولا هو تعالى يهمل أمر هدايه عباده لأنه حكيم متقن في أفعاله و من إتقان الفعل أن يساق إلى غايته.

و من حقه تعالى أن يتصرف فيهم و في أمورهم كيف يشاء، لأنه مالکهم و له أن يعبدهم و يستعبدهم بالأمر و النهی لأنه على عظیم فلكل من الأسماء الخمسه حظه من التعلیل، و ينتج مجموعها أنه وليهم من كل جهه لا ولى غيره.

قوله تعالى: «تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرُونَ مِنْ فَوْقِهِنَّ» إلخ التفطر التشقق من الفطر بمعنى الشق.

الذى يهدى إليه السياق و الكلام مسرود لبيان حقيقه الوحي و غايته و آثاره أن يكون المراد من تفطر السماوات من فوقهن تفطرها بسبب الوحي النازل من عند الله العلی العظيم المار بهن سماء سماء حتى ينزل على الأرض فإن مبدأ الوحي هو الله سبحانه و السماوات طرائق إلى الأرض قال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ»: المؤمنون: ١٧.

و الوجه في تقييد «يَتَفَطَّرُونَ» بقوله: «مِنْ فَوْقِهِنَّ» ظاهر فإن الوحي ينزل عليهن من فوقهن من عند من له العلو المطلق و العظمه المطلقه فلو تفطرن كان ذلك من فوقهن.

على ما فيه من إعظام أمر الوحي و إعلاؤه فإنه كلام العلی العظيم فلكونه كلام ذی العظمه المطلقه تكاد السماوات يتفطرن بنزوله و لكونه كلاما نازلا من عند ذی العلو المطلق يتفطرن من فوقهن لو تفطرن.

فألايه في إعظام أمر كلام الله من حيث نزوله و مروره على السماوات نظيره قوله:

«حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»: سبأ: ٢٣ في إعظامه من حيث تلقى ملائكه السماوات إياه، و نظيره قوله: «لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ

عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» :الحشر: ٢١ فى إعظامه على فرض نزوله على جبل و نظيره قوله: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا»: المزمل: ٥ فى استثقاله و استصعاب حمله. هذا ما يعطيه السياق.

و قد حمل القوم الآية على أحد معنيين آخرين:

أحدهما: أن المراد تفطرهن من عظمه الله و جلاله جل جلاله كما يؤيده توصيفه تعالى قبله بالعلى العظيم.

و ثانيهما: أن المراد تفطرهما من شرك المشركين من أهل الأرض و قولهم: «اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا» فقد قال تعالى فيه: «تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرُونَ مِنْهُ»: مريم: ٩٠ فأدى ذلك إلى التكلف فى توجيه تقييد التفطر بقوله: «مِنْ فَوْقِهِنَّ» و خاصه على المعنى الثانى، و كذا فى توجيه اتصال قوله: «وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ» إلخ بما قبله كما لا يخفى على من راجع كتبهم.

و قوله: «وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ» أى ينزهونه تعالى عما لا يليق بساحه قدسه و يشنون عليه بجميل فعله، و مما لا يليق بساحه قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحى و هو منه فعل جميل، و يسألونه تعالى أن يغفر لأهل الأرض، و حصول المغفرة إنما هو بحصول سببها و هو سلوك سبيل العبوديه بالاهتداء بهدائه الله سبحانه فسؤالهم المغفرة لهم مرجعه إلى سؤال أن يشرع لهم ديناً يغفر لمن تدين به منهم فالمعنى و الملائكة يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن فى الأرض من طريق الوحى ديناً يدينون به فيغفر لهم بذلك.

و يشهد على هذا المعنى وقوع الجملة فى سياق بيان صفه الوحى و كذا تعلق الاستغفار بمن فى الأرض إذ لا معنى لطلب المغفرة منهم لمطلق أهل الأرض حتى لمن قال: «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» و قد حكى الله تعالى عنهم: «وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» X الآية: المؤمن: ٧ فالمتعين حمل سؤال المغفرة على سؤال سببها و هو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تدين به.

و قوله: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغُفُورُ الرَّحِيمُ» أى إن الله سبحانه لا تصافه بصفته المغفرة و الرحمه و تسميه باسمى الغفور الرحيم يليق بساحه قدسه أن يفعل بأهل الأرض ما ينالون

به المغفرة و الرحمة من عنده و هو أن يشرع لهم ديناً يهتدون به إلى سعادتهم من طريق الوحي و التكليم.

قيل: و فى قوله: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ» إلخ إشارة إلى قبول استغفار الملائكة و أنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمه.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» لما استفيد من الآيات السابقة أن الله تعالى هو الولي لعباده لا- ولى غيره و هو يتولى أمر من فى الأرض منهم بتشريع دين لهم يرتضيه من طريق الوحي إلى أنبيائه على ما يقتضيه أسماؤه الحسنى و صفاته العليا، و لازم ذلك أن لا يتخذ عباده أولياء من دونه، أشار فى هذه الآية إلى حال من اتخذ من دونه أولياء باتخاذهم شركاء له فى الربوبية و الألوهية فذكر أنه ليس بغافل عما يعملون و أن أعمالهم محفوظة عليهم سيؤخذون بها، و ليس على النبى ص إلا البلاغ من غير أن يكون وكيلا عليهم مسئولاً عن أعمالهم.

فقوله: «اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ» أى يحفظ عليهم شركهم و ما يتفرع عليه من الأعمال السيئة.

و قوله: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» أى مفوضاً إليك أعمالهم حتى تصلحها لهم بهدایتهم إلى الحق، و الكلام لا يخلو من نوع من التسليه للنبى ص.

بحث روائى

فى الدر المنثور، أخرج ابن إسحاق و البخارى فى تاريخه و ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رباب قال*: مر أبو ياسر بن أخطب فى رجال من يهود برسول الله ص- و هو يتلو فاتحه سورة البقره «الم ذَلِكَ الْكِتَابُ» فأتاه أخوه حبي بن أخطب فى رجال من اليهود- فقال: تعلمون؟ و الله لقد سمعت محمداً- يتلو فيما أنزل عليه «الم ذَلِكَ الْكِتَابُ» فقالوا: أنت سمعته؟ قال نعم.

فمشى أولئك نفر إلى رسول الله ص- فقالوا: يا محمد أ لم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك «الم ذَلِكَ الْكِتَابُ» قال: بلى. قالوا: قد جاءك بهذا جبريل من عند الله؟ قال: نعم. قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء- ما نعلمه بين نبى لهم ما مده ملكه؟ و ما أجل أمته غيرك.

فقال حبي بن أخطب و أقبل على من كان معه:الألف واحده و اللام ثلاثون و الميم أربعون-فهذه إحدى و سبعون سنه-أ فتدخلون في دين نبي إنما مده ملكه-و أجل أمته إحدى و سبعون سنه.

ثم أقبل على رسول الله ص فقال:يا محمد هل مع هذا غيره؟قال:نعم.قال:

ما ذا؟قال: المص -قال:هذا أثقل و أطول الألف واحده،و اللام ثلاثون و الميم أربعون و الصاد تسعون-فهذه مائه و إحدى و ستون سنه-هل مع هذا يا محمد غيره؟قال:نعم.

قال:ما ذا؟قال: الر .قال:هذه أثقل و أطول الألف واحده-و اللام ثلاثون و الراء مائتان-فهذه إحدى و ثلاثون و مائتا سنه-فهل مع هذا غيره؟قال:نعم-قال:ما ذا؟، قال المر قال:فهذه أثقل و أطول-الألف واحده و اللام ثلاثون و الميم أربعون و الراء مائتان-فهذه إحدى و سبعون سنه و مائتان.

ثم قال:لقد لبس علينا أمرك يا محمد-حتى ما ندري أ قليلا أعطيت أم كثيرا؟ثم قاموا فقال أبو ياسر لأخيه حبي و من معه من الأخبار:ما يدريكم؟لعله قد جمع هذا لمحمد كله-إحدى و سبعون و إحدى و ستون و مائه-و إحدى و ثلاثون و مائتان-فذلك سبعمائه و أربع و ثلاثون-فقالوا:لقد تشابه علينا أمره-فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم:

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ-مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ-وَأُخْرٌ مُتَشَابِهَاتٌ »:.

أقول:و روى قريبا منه عن ابن المنذر عن ابن جريح،و روى مثله أيضا القمي في تفسيره،عن أبيه عن ابن رثاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر(ع)

،و ليس في الرواية ما يدل على إمضاء النبي ص لدعواهم و لا كانت لهم على ما ادعوه حجه،و قد تقدم أن الآيات المتشابهه غير الحروف المقطعه في فواتح السور.

و في المعاني،ياسناده عن جويزيه عن سفيان الثوري قال*:قلت لجعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(ع):يا ابن رسول الله ما معنى قول الله عز و جل:

الم و المص و الر و المر و كهيعص و طه و طس -و طسم و يس و -ص و حم و حم عسق و ق و ن ؟قال(ع)أما الم في أول البقره فمعناه أنا الله الملك،و أما الم في أول آل عمران فمعناه أنا الله المجيد،و المص فمعناه أنا الله المقتدر الصادق،و الر فمعناه أنا الله الرؤوف، و المر فمعناه أنا الله المحيي المميت الرازق،و كهيعص معناه أنا الكافي الهادي-الولي العالم

الصديق الوعد، فأما طه فاسم من أسماء النبي ص- ومعناه يا طالب الحق الهادي إليه- ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد به.

و أما طس فمعناه أنا الطالب السميع، و أما طسم فمعناه أنا الطالب السميع المبدئ المعيد، و أما يس فاسم من أسماء النبي ص- ومعناه يا أيها السامع للوحى و القرآن الحكيم- إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم.

و أما -ص- فعين تنبع من تحت العرش- و هى التى توضع منها النبى ص لما عرج به- و يدخلها جبرئيل كل يوم دخله فيغتمس فيها- ثم يخرج منها فينفض أجنحته- فليس من قطره تقطر من أجنحته- إلا خلق الله تبارك و تعالى منها ملكا يسبح الله- و يقده و يكبره و يحمده إلى يوم القيامة.

و أما حم فمعناه الحميد المجيد، و أما حم عسق فمعناه الحليم الميثب العالم- السميع القادر القوى، و أما ق فهو الجبل المحيط بالأرض- و خضره السماء منه- و به يمسك الله الأرض أن تميذ بأهلها، و أما ن فهو نهر فى الجنة- قال الله عز و جل اجمد فجمد فصار مدادا- ثم قال عز و جل للقلم: اكتب- فسطر القلم فى اللوح المحفوظ ما كان- و ما هو كائن إلى يوم القيامة- فالمداد مداد من نور و القلم قلم من نور- و اللوح لوح من نور.

قال سفيان: فقلت له: يا ابن رسول الله- بين لى أمر اللوح و القلم و المداد فضل بيان- و علمنى مما علمك الله- فقال: يا ابن سعيد لو لا أنك أهل للجواب ما أجبتك- فنون ملك يؤدى إلى القلم و هو ملك، و القلم يؤدى إلى اللوح و هو ملك، و اللوح يؤدى إلى إسرافيل، و إسرافيل يؤدى إلى ميكائيل، و ميكائيل يؤدى إلى جبرئيل، و جبرئيل يؤدى إلى الأنبياء و الرسل (ص). قال: ثم قال لى: قم يا سفيان فلا آمن عليك..

أقول: ظاهر ما فى الروايه من تفسير غالب الحروف المقطعه بأسماء الله الحسنى أنها حروف مأخوذه من الأسماء إما من أولها كالميم من الملك و المجيد و المقتر، و إما من بين حروفها كاللام من الله و الياء من الولى فتكون الحروف المقطعه إشارات على سبيل الرمز إلى أسماء الله تعالى، و قد روى هذا المعنى من طرق أهل السنه عن ابن عباس و الربيع بن أنس و غيرهما لكن لا يخفى عليك أن الرمز فى الكلام إنما يصار إليه فى الإفصاح عن الأمور التى لا- يريد المتكلم أن يطلع عليه غير المخاطب بالخطاب فيرمز إليه

بما لا- يتعداه و مخاطبه و لا- يقف عليه غيرهما و هذه الأسماء الحسنی قد أوردت و بينت فى مواضع كثيره من كلامه تعالى
تصريحا و تلويحا و إجمالا و تفصيلا و لا يبقى مع ذلك فائده فى الإشاره إلى كل منها بحرف مأخوذ منه رمزا إليه.

فالوجه-على تقدير صحه الروايه-أن يحمل على كون هذه الأحرف داله على هذه المعانى دلالة غير وضعيه فتكون رموزا إليها
مستوره عنا مجهوله لنا داله على مراتب من هذه المعانى هى أدق و أرقى و أرفع من أفهامنا، و يؤيد ذلك بعض التأيد تفسيره
الحرف الواحد كالميم فى المواضع المختلفه بمعان مختلفه، و كذا ما ورد أنها من حروف اسم الله الأعظم.

و قوله: «و أما ق فهو الجبل المحيط بالأرض و خضره السماء منه» إلخ و روى قريبا منه القمى فى تفسيره، و هو مروى بعده من
طرق أهل السنه عن ابن عباس و غيره، و لفظ بعضها جبل من زمرد محيط بالدنيا على كنفى (1) السماء، و فى بعضها أنه جبل
محيط بالبحر المحيط بالأرض و السماء الدنيا مترفرقه عليها و أن هناك سبع أرضين و سبعة أبحر و سبعة أجبل و سبع سماوات.

و فى بعض ما عن ابن عباس "خلق الله جبلا- يقال له: ق محيط بالعالم- و عروقه إلى الصخره التى عليها الأرض- فإذا أراد الله أن
يزلزل قريه- أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذى يلى تلك القريه- فيزلزلها و يحركها فمن ثم تحرك القريه دون القريه.

و الروايات بظواهرها أشبه بالإسرائيليات، و لو لا- قوله: «و به يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها» لأمكن حمل قوله: «و أما ق فهو
الجبل المحيط بالدنيا و خضره السماء منه» على إرادته الهواء المحيط بالأرض بضرب من التأويل.

و أما قوله: إن طه و يس من أسماء النبى ص بالمعنى الذى فسره به فينبغى أن يحمل أيضا على ما قدمناه به و يفسر الروايات
الكثيره الوارده من طرق العامه و الخاصه فى أن طه و يس من أسماء النبى ص.

و أما قوله فى ن إنه نهر صيره الله مدادا كتب به القلم بأمره على اللوح ما كان و ما يكون

ص: ١٥

إلى يوم القيامة، و أن المداد و القلم و اللوح من النور ثم قوله: إن المداد ملك و القلم ملك و اللوح ملك فهو نعم الشاهد على أن ما ورد في كلامه تعالى من العرش و الكرسي و اللوح و القلم و نظائر ذلك و فسر بما فسر به في كلام النبي ص و أئمه أهل البيت ((ع)) من باب التمثيل أريد به تقريب معارف حقيقته هي أعلى و أرفع من سطح الأفهام العامه بتنزيلها منزله المحسوس.

و في المعانى، أيضا بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) قال: * «الم» هو حرف من حروف اسم الله الأعظم -المقطع في القرآن الذي يؤلفه النبي ص و الإمام - فإذا دعا به أجيب. الحديث.

أقول: كون هذه الحروف المقطعه من حروف اسم الله الأعظم المقطع في القرآن مروى بعده من طرق أهل السنه عن ابن عباس و غيره، و قد تبين في البحث عن الأسماء الحسنی في سورة الأعراف أن الاسم الأعظم الذى له أثره الخاص به ليس من قبيل الألفاظ، و أن ما ورد مما ظاهره أنه اسم مؤلف من حروف ملفوظه مصروف عن ظاهره بنوع من الصرف المناسب له.

و فيه، بإسناده عن محمد بن زياد و محمد بن سيار عن العسكرى (ع) أنه قال: * كذبت قريش و اليهود بالقرآن و قالوا: سحر مبین تقوله - فقال الله: «الم ذلِكَ الْكِتَابُ» أى يا محمد هذا الكتاب الذى أنزلناه عليك - هو الحروف المقطعه التى منها ألف لام ميم - و هو بلغتكم و حروف هجائكم - فأتوا بمثله إن كنتم صادقين - و استعينوا على ذلك بسائر شهدائكم.

الحديث.

أقول: و الحديث من تفسير العسكرى و هو ضعيف.

و فى تفسير القمى، و فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر ((ع)) * فى قوله تعالى: «يَنْفَطْرُنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ» أى يتصدعن.

و عن جوامع الجامع، فى قوله تعالى: «وَ يَسْتَعْفِفُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ» قال الصادق ((ع)):

لمن فى الأرض من المؤمنين:.

أقول: و روى ما فى معناه فى المجمع، عنه ((ع)) و رواه القمى مضمرا.

إشارة

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطْرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

بيان

فصل ثان من الآيات يعرف فيه الوحي من حيث الغاية المترتبة عليه كما عرفه في الفصل السابق بالإشارة إليه نفسه.

فبين في هذا الفصل أن الغرض من الوحي إنذار الناس و خاصة الإنذار المتعلق بيوم الجمع الذي يتفرق فيه الناس فريقين فريق في الجنة و فريق في السعير إذ لو لا الإنذار بيوم الجمع الذي فيه الحساب و الجزاء لم تنجح دعوته دينيه و لم ينفع تبليغ.

ثم بين أن تفرقهم فريقين هو الذي شاءه الله سبحانه فعقبه بتشريع الدين و إنذار

الناس يوم الجمع من طريق الوحي لأنه وليهم الذى يحييهم بعد موتهم الحاكم بينهم فيما اختلفوا فيه.

ثم ساق الكلام فانتقل إلى توحيد الربوبية و أنه تعالى هو الرب لا رب غيره لاختصاصه بصفات الربوبية من غير شريك يشاركه فى شىء منها.

قوله تعالى: « وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا » الإشاره إلى الوحي المفهوم من سابق السياق، و أم القرى هى مكه المشرفه و المراد بإنذار أم القرى إنذار أهلها، و المراد بمن حولها سائر أهل الجزيره ممن هو خارج مكه كما يؤيده توصيف القرآن بالعربيه.

و ذلك أن الدعوه النبويه كانت ذات مراتب فى توسعها فابتدأت الدعوه العليه بدعوه العشيره الأقربين كما قال: « وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »: الشعراء، ٢١٤ ثم توسعت فتعلقت بالعرب عامه كما قال: « قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »: حم السجده: ٣ ثم بجميع الناس كما قال: « وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ ».

و من الدليل على ما ذكرناه من الأمر بالتوسع تدريجا قوله تعالى: « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ - إلى أن قال X- إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ »: ص: ٨٧ فإن الخطاب على ما يعطيه سياق السوره لكفار قريش يقول سبحانه إنه ذكر للعالمين لا يختص ببعض دون بعض، فإذا كان للجميع فلا معنى لأن يسأل بعضهم - كالنبي ص - بعضا عليه أجرا.

على أن تعلق الدعوه بأهل الكتاب و خاصه باليهود و النصارى من ضروريات القرآن، و كذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسى و بلال الحبشى و صهيب الرومى من ضروريات التاريخ.

و قيل المراد بقوله: « مَنْ حَوْلَهَا » سائر الناس من أهل قرى الأرض كلها و يؤيده التعبير عن مكه بأم القرى.

و الآيه - كما ترى - تعرف الوحي بغايته التى هى إنذار الناس من طريق الإلقاء الإلهى و هو النبوه فالوحي إلقاء إلهى لغرض النبوه و الإنذار.

قوله تعالى: « وَ تُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » عطف

على «لِتُنذِرَ» السابق و هو من عطف الخاص على العام لأهميته كأنه قيل: لتنذر الناس و تخوفهم من الله و خاصة من سخطه يوم الجمع.

و قوله: «يَوْمَ الْجَمْعِ» مفعول ثان لقوله: «لِتُنذِرَ» و ليس بظرف له و هو ظاهر، و يوم الجمع هو يوم القيامة قال تعالى: «ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ -X إلى أن قال X- فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ»: هود: ١٠٥.

و قوله: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» فى مقام التعليل و دفع الدخل كأنه قيل:

لما ذا ينذرهم يوم الجمع؟ فقيل: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» أى إنهم يتفرقون فريقين: سعيد مثاب و شقى معذب فليندروا حتى يتحرزوا سبيل الشقاء و الهبوط فى مهبط الهلكه.

قوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً» إلى آخر الآيه لما كانت الآيه مسوقه لبيان لزوم الإنذار و النبوه من جهه تفرق الناس فريقين يوم القيامة كان الأسبق إلى الذهن من جعلهم أمه واحده مطلق رفع التفرق و التميز من بينهم بتسويتهم جميعا على صفه واحده من غير فرق و ميز، و لم تقع عند ذلك حاجه إلى النبوه و الإنذار.

و قوله: «وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ» استدراك يبين فيه أن سنته تعالى جرت على التفریق و لم يشأ جعلهم أمه واحده يدل على ذلك قوله: «يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ» الدال على الاستمرار، و لم يقل: و لكن أدخل و نحوه.

و قد قوبل فى الآيه قوله: «مَنْ يَشَاءُ» بقوله: «وَ الظَّالِمُونَ» فالمراد بمن يشاء غير الظالمين و قد فسر الظالمين يوم القيامة بقوله: «فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ»: الأعراف: ٤٥ فهم المعاندون المنكرون للمعاد.

و قوبل أيضا بين الإدخال فى الرحمه و بين نفى الولي و النصير فالمدخلون فى رحمته هم الذين وليهم الله، و الذين ما لهم من ولي و لا نصير هم الذين لا يدخلهم الله فى رحمته، و أيضا الرحمه هى الجنه و انتفاء الولاية و النصره يلازم السعير.

فمحمل معنى الآيه: أن الله سبحانه إنما قدر النبوه و الإنذار المتفرع على الوحي لمكان

«أم» تفيد الإنكار كما ذكره الزمخشري. لما أفاد في الآية السابقة أن الله سبحانه يتولى أمر المؤمنين خاصة فيدخلهم في رحمته و أن الظالمين هم الكافرون المعاندون لا ولي لهم تعرض في هذه الآية لاتخاذهم أولياء يدينون لهم و يعبدونهم من دونه و كان يجب أن يتخذوا الله وليا يدينون له و يعبدونه فأنكر عليهم ذلك و احتج على وجوب اتخاذه وليا بالحجة بعد الحجج و ذلك قوله: «فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ» إلخ.

فقوله: «فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ» تعليل للإنكار السابق لاتخاذهم من دونه أولياء فيكون حجه لوجوب اتخاذه وليا، و الجملة - فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ - تفيد حصر الولاية في الله و قد تبينت الحجج على أصل ولايته و انحصارها فيه من قوله في الآيات السابقة: «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» كما أشرنا إليه في تفسير الآيات.

و المعنى: أنه تعالى ولي ينحصر فيه الولاية فمن الواجب على من يتخذ وليا أن يتخذه وليا و لا يتعداه إلى غيره إذ لا ولي غيره.

وقوله: «وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى» حجه ثانياه على وجوب اتخاذه تعالى وحده وليا، و محصله أن عمده الغرض في اتخاذه الولي و التدبير له بعبوديته التخلص من عذاب السعير و الفوز بالجنة يوم القيامة و الميثب و المعاقب يوم القيامة هو الله الذي يحيى الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم فهو الذي يجب أن يتخذ وليا دون أوليائهم الذين هم أموات غير أحياء و لا يشعرون أيا ن بيعثون.

وقوله: «وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» حجه ثالثه على وجوب اتخاذه تعالى وليا دون غيره، و محصله أن من الواجب في باب الولاية أن يكون للولي قدره على ما يتولاه من شئون من يتولاه و أموره، و الله سبحانه على كل شيء قدير و لا قدره لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه و هو المالك لما ملكه و القادر على ما عليه أقدره فهو الولي لا ولي غيره تعالى و تقدس.

وقوله: «وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» حجه رابعه على كونه تعالى وليا لا ولي غيره، و حكم الحاكم بين المختلفين هو أحكامه و تشبيته الحق المضطرب بينهما بسبب تخالفهما بالإثبات و النفي، و الاختلاف ربما كان في عقيدة كالاختلاف في أن

الإله واحد أو كثير، وربما كان في عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف في أمور المعيشه و شؤون الحياه فهو أعنى الحكم يساوق القضاء مصداقا و إن اختلفا مفهوما.

ثم الحكم و القضاء إنما يتم إذا ملكه الحاكم بنوع من الملك و الولاية و إن كان بتملك المختلفين له ذلك كالمتنازعين إذا رجعا إلى ثالث فاتخذاه حكما ليحكم بينهما و يتسلما ما يحكم به فقد ملكاه الحكم بما يرى و أعطياه من نفسهما القبول و التسليم فهو وليهما في ذلك.

و الله سبحانه هو المالك لكل شىء لا مالك سواه لكون كل شىء بوجوده و آثار وجوده قائما به تعالى فله الحكم و القضاء بالحق قال تعالى: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»: القصص: ٨٨، و قال: «إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ»: المائدة: ٢٠ و قال: «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ»: آل عمران: ٦٠.

و حكمه تعالى إما تكوينى و هو تحقيقه و تثبيته المسببات قبالة الأسباب المجتمعه عليها المتنازعه فيها بتقديم ما نسميه سببا تاما على غيره قال تعالى حاكيا عن يعقوب ((ع)): «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ»: يوسف: ٦٧ و إما تشريعى كالتكاليف الموضوعه فى الدين الإلهى الراجعه إلى الاعتقاد و العمل قال تعالى: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»: يوسف: ٤٠.

و هناك قسم ثالث من الحكم يمكن أن يعد من كل من القسمين السابقين بوجه و هو حكمه تعالى يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه و هو إعلانه و إظهاره الحق يوم القيامة لأهل الجمع يشاهدونه مشاهده عيان و إيقان فيسعد به و بآثاره من كان مع الحق و يشقى بالاستكبار عليه و تبعات ذلك من استكبر عليه قال تعالى: «فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»: البقره: ١١٣.

ثم إن اختلاف الناس فى عقائدهم و أعمالهم اختلاف تشريعى لا يرفعه إلا الأحكام و القوانين التشريعيه و لو لا الاختلاف لم يوجد قانون كما يشير إليه قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ»: البقره: ٢١٣،

وقد تبين أن الحكم التشريعي لله سبحانه فهو الولي في ذلك فيجب أن يتخذ وحده وليا فيعبد و يدان بما أنزله من الدين.

و هذا معنى قوله: « وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ » □ و محصل الحجة أن الولي الذي يعبد و يدان له يجب أن يكون رافعا لاختلافات من يتولونه مصلحا لما فسد من شئون مجتمعهم سائقا لهم إلى سعادة الحياه الدائمه بما يضعه عليهم من الحكم و هو الدين، و الحكم في ذلك إلى الله سبحانه، فهو الولي الذي يجب أن يتخذ وليا لا غير.

و للقوم في تفسير الآيه أعنى قوله: « وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ » □ تفاسير أخر فقيل: هو حكاية قول رسول الله ص للمؤمنين أى ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب و المشركين فاختلقتم أنتم و هم فيه من أمر من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله و هو إثابه المحققين فيه من المؤمنين و معاقبه المبطلين ذكره صاحب الكشاف.

و قيل معناه ما اختلفتم فيه و تنازعتم في شىء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ص و لا تؤثروا على حكومته حكومه غيره كقوله تعالى: « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ».

و قيل: المعنى ما اختلفتم فيه من تأويل آيه و اشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى محكم كتاب الله و ظاهر سنه رسول الله ص.

و قيل: المعنى و ما اختلفتم فيه من العلوم مما لا- يتصل بتكليفكم و لا- طريق لكم إلى علمه فقولوا: الله أعلم كمعرفه الروح قال تعالى: « وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ». و الآيه على جميع هذه الأقوال من كلام النبي ص إما بنحو الحكايه و إما بتقدير «قل» في أولها.

و أنت بالتدبر في سياق الآيات ثم الرجوع إلى ما تقدم لا ترتاب في سقوط هذه الأقوال.

□ □ قوله تعالى: « ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » □ كلام محكى للنبي ص

و الإشارة بذلكم إلى من أقيمت الحجج فى الآيتين على وجوب اتخاذه وليا و هو الله سبحانه، و لازم ولايته ربوبيته.

لما أقيمت الحجج على أنه تعالى هو الولي لا ولي غيره أمر (ص) بإعلام أنه الله و أنه اتخذه وليا بالاعتراف له بالربوبية التى هى ملك التدبير ثم عقب ذلك بالتصريح بما للاتخاذ المذكور من الآثار و هو قوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ».

و ذلك أن ولايه الربوبية تتعلق بنظام التكوين بتدبير الأمور و تنظيم الأسباب و المسببات بحيث يتعين بها للمخلوق المدبر كالإنسان مثلا- ما قدر له من الوجود و البقاء، و تتعلق بنظام التشريع و هو تدبير أعمال الإنسان بجعل قوانين و أحكام يراعيها الإنسان بتطبيق أعماله عليها فى مسير حياته لتنتهى به إلى كمال سعاده.

و لازم اتخاذه تعالى ربا وليا من جهة التكوين إرجاع أمر التدبير إليه بالانقطاع عن الأسباب الظاهرية و الركون إليه من حيث أنه سبب غير مغلوب ينتهى إليه كل سبب و هذا هو التوكل، و من جهة التشريع الرجوع إلى حكمه فى كل واقعه يستقبله الإنسان فى مسير حياته و هذا هو الإنابة فقوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ» أى أرجع فى جميع أمورى، تصريح بإرجاع الأمر إليه تكويننا و تشريعا.

قوله تعالى: «فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» إلى آخر الآية لما صرح بأنه تعالى هو ربه لقيام الحجج على أنه هو الولي وحده عقب ذلك بإقامه الحجة فى هذه الآية و التى بعدها على ربوبيته تعالى وحده.

و محصل الحجة: أنه تعالى موجد الأشياء و فاطرها بالإخراج من كتم العدم إلى الوجود و قد جعلكم أزواجا فكثركم بذلك و جعل من الأنعام أزواجا فكثرها بذلك لتنتفعوا بها، و هذا خلق و تدبير، و هو سميع لما يسأله خلقه من الحوائج فيقضى لكل ما يستحقه من الحاجة، بصير لما يعمله خلقه من الأعمال فيجازيهم بما عملوا و هو الذى يملك مفاتيح خزائن السماوات و الأرض التى ادخر فيها ما لها من خواص وجودها و آثاره مما يتألف منها بظهورها النظام المشهود و هو الذى يرزق المرزوقين فيوسع فى رزقهم و يضيق عن علم منه بذلك. و هذا كله من التدبير فهو الرب المدبر للأمر.

فَقَوْلُهُ: «فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أَي مَوْجِدُهَا مِنْ كِتْمِ الْعَدَمِ عَلَى سَبِيلِ الْإِبْدَاعِ.

وَقَوْلُهُ: «جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا» وَذَلِكَ بِخَلْقِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى لِلَّذِينَ يَتِمُّ بِتَزَاوُجِهِمَا أَمْرَ التَّوَالِدِ وَالتَّنَاسُلِ وَتَكَثُرِ الْأَفْرَادِ «وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا» أَي وَجَعَلَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا «يَذَرُّوكُمْ فِيهِ» أَي يَكْثُرُكُمْ فِي هَذَا الْجَعْلِ، وَالْخَطَابُ فِي «يَذَرُّوكُمْ» لِلْإِنْسَانِ وَالْأَنْعَامِ بِتَغْلِيْبِ جَانِبِ الْعُقْلَاءِ عَلَى غَيْرِهِمْ كَمَا ذَكَرَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ.

وَقَوْلُهُ: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» أَي لَيْسَ مِثْلُهُ شَيْءٌ، فَالْكَافُ زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ وَ لَهُ نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ.

وَقَوْلُهُ: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» أَي السَّمِيعُ لَمَّا يَرْفَعُ إِلَيْهِ مِنْ مَسَائِلِ خَلْقِهِ الْبَصِيرُ لِأَعْمَالِ خَلْقِهِ قَالَ تَعَالَى: «يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»: الرَّحْمَنُ: ٢٩، وَقَالَ:

«وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ»: إِبْرَاهِيمَ: ٣٤، وَقَالَ: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»:

الْحَدِيدُ: ٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْمَقَالِيدُ الْمِفَاتِيحُ وَ فِي إِثْبَاتِ الْمَقَالِيدِ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا خَزَائِنٌ لَمَّا يَظْهَرُ فِي الْكُونِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْآثَارِ الْوَجُودِيَّةِ.

وَقَوْلُهُ: «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» بَسَطَ الرِّزْقَ تَوَسَّعَهُ وَ قَدْرَهُ تَضْيِيقَهُ وَ الرِّزْقُ كُلُّ مَا يَمُدُّ بِهِ الْبَقَاءَ وَ يَرْتَفِعُ بِهِ حَاجَهُ مِنْ حَوَائِجِ الْوَجُودِ فِي اسْتِمْرَارِهِ.

وَ تَذْيِيلُ الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الرِّزْقَ وَ اخْتِلَافَهُ فِي مَوَارِدِهِ بِالْبَسْطِ وَ الْقَدْرِ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازَفَةِ جَهْلًا- بَلْ عَنِ عِلْمِ مَنْهُ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ فَرَزَقَ كُلَّ مَرْزُوقٍ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا يَسْتَدْعِيهِ الْمَرْزُوقُ بِحَسَبِ حَالِهِ وَ الرِّزْقَ بِحَسَبِ حَالِهِ وَ مَا يَحْفَ بِهِمَا مِنَ الْأَوْضَاعِ وَ الْأَحْوَالِ الْخَارِجِيَّةِ، وَ هَذَا هُوَ الْحِكْمَةُ فَهُوَ يَبْسُطُ وَ يَقْدِرُ بِالْحِكْمَةِ.

ص: ٢٦

اشاره

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سِبْطٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجْلِ مُسَمَّىٰ لَاقْتَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)

بيان

فصل ثالث من الآيات يعرف الوحي الإلهي بأثره الذي هو مفاده و ما احتوى عليه من المضمون و هو الدين الإلهي الواحد الذي يجب على الناس أن يتخذوه سنه في الحياه و طريقه مسلوكه إلى سعادتهم.

وقد بين فيها بحسب مناسبه المقام أن الشريعه المحمديه أجمع الشرائع المنزله و أن الاختلافات الواقعه فى دين الله على وحدته ليست من ناحيه الوحي السماوى و إنما هى من بغى الناس بعد علمهم، و فى الآيات فوائد أخر أشير إليها فى خلالها.

قوله تعالى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى» يقال: شرع الطريق شرعاً أى سواه طريقاً واضحاً بيناً. قال الراغب: الوصيه التقدم إلى الغير بما يعمل مقترناً بوعظ من قولهم:

أرض واصله متصله النبات و يقال: أوصاه و وصاه انتهى. و فى معناه إشعار بالأهميه فما كل أمر يوصى به و إنما يختار لذلك ما يهتم به الموصى و يعتنى بشأنه.

فقوله: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا» أى بين و أوضح لكم من الدين و هو سنه الحياه ما قدم و عهد إلى نوح مهتماً به، و اللائح من السياق أن الخطاب للنبي ص و أمته، و أن المراد مما وصى به نوحاً شريعه نوح ((ع)).

و قوله: «وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» ظاهر المقابله بينه و بين نوح ((ع)) أن المراد بما أوحى إليه ما اختصت به شريعته من المعارف و الأحكام، و إنما عبر عن ذلك بالإيحاء دون التوصيه لأن التوصيه كما تقدم إنما تتعلق من الأمور بما يهتم به و يعتنى بشأنه خاصه و هو أهم العقائد و الأعمال، و شريعته (ص) جامعاً لكل ما جل و دق محتويه على الأهم و غيره بخلاف شرائع غيره فقد كانت محدوده بما هو الأهم المناسب لحال أممهم و الموافق لمبلغ استعدادهم.

و الالتفات فى قوله: «وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا» من الغيبه إلى التكلم مع الغير للدلاله على العظمه فإن العظماء يتكلمون عنهم و عن خدمهم و أتباعهم.

و قوله: «وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى» عطف على قوله: «مَا وَصَّى بِهِ» و المراد به ما شرع لكل واحد منهم ((ع)).

و الترتيب الذى بينهم ((ع)) فى الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ((ع))، و إنما قدم ذكر النبي ص للتشريف و التفضيل كما فى قوله تعالى: «وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى

ابن مريم: الأحزاب: ٧ و إنما قدم نوحا و بدأ به للدلالة على قدم هذه الشريعة و طول عهدها.

و يستفاد من الآيه أمور:

أحدها: أن السياق بما أنه يفيد الامتتان و خاصه بالنظر إلى ذيل الآيه و الآيه التاليه يعطى أن الشريعة المحمديه جامعه للشرائع الماضيه و لا ينافيه قوله تعالى: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَا جَاءَ»: المائده: ٤٨ لأن كون الشريعة شريعته خاصه لا ينافى جامعيتها.

الثاني: أن الشرائع الإلهيه المنتسبه إلى الوحي إنما هي شريعته نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد(ع) إذ لو كان هناك غيرها لذكر قضاء لحق الجامعيه المذكوره.

و لازم ذلك أولا: أن لا- شريعته قبل نوح(ع) بمعنى القوانين الحاكمه فى المجتمع الإنسانى الرافعه للاختلافات الاجتماعيه و قد تقدم نبذه من الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ» X الآيه X: البقره: ٢١٣.

و ثانيا: أن الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثه إبراهيم و بعدها على شريعته إبراهيم إلى بعثه موسى و هكذا.

الثالث: أن الأنبياء أصحاب الشرائع و أولى العزم هم هؤلاء الخمسه المذكورون فى الآيه إذ لو كان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء ساداه الأنبياء و يدل على تقدمهم أيضا قوله:

«وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ»:

الأحزاب: ٧.

و قوله: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا» أن تفسيريه، و إقامة الدين حفظه بالاتباع و العمل و اللام فى الدين للعهد أى أقيموا هذا الدين المشروع لكم، و عدم التفرق فيه حفظ وحدته بالاتفاق عليه و عدم الاختلاف فيه.

لما كان شرع الدين لهم فى معنى أمرهم جميعا باتباعه و العمل به من غير اختلاف فسر به بالأمر بإقامه الدين و عدم التفرق فيه فكان محصله أن عليهم جميعا إقامة الدين

جميعا و عدم التفرق و التشتت فيه بإقامه بعض و ترك بعض، و إقامته الإيمان بجميع ما أنزل الله و العمل بما يجب عليه العمل به.

فجميع الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته و عدم التفرق فيه فأما الأحكام السماويه المشترك فيها الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامه فيها ظاهر و أما الأحكام المشرعه فى بعض هذه الشرائع المنسوخه فى الشريعه اللاحقه فحقيقه الحكم المنسوخ أنه حكم ذو أمد خاص بطائفه من الناس فى زمن خاص و معنى نسخه تبين انتهاء أمده لا ظهور بطلانه قال تعالى: «وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ»: الأحزاب: ٤ فالحكم المنسوخ حق دائما غير أنه خاص بطائفه خاصه فى زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به و يعملوا به و يجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل و هذا معنى إقامته و عدم التفرق فيه.

فتبين أن الأمر بإقامه الدين و عدم التفرق فيه فى قوله: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» مطلق شامل لجميع الناس فى جميع الأزمان.

و بذلك يظهر فساد قول جمع إن الأمر بالإقامه و عدم التفرق إنما يشمل الأحكام المشتركه بين الشرائع دون المختصه فهى أحكام متفاوتة مختلفه باختلاف الأمم من حيث أحوالها و مصالحها.

و ذلك أنه لا موجب لتقييد إطلاق قوله: «أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» و لو كان كما يقولون كان الأمر بالإقامه مختصا بأصول الدين الثلاثه: التوحيد و النبوه و المعاد، و أما غيرها من الأحكام الفرعيه فلا يكاد يوجد هناك حكم واحد مشترك فيه فى جميع خصوصياته بين جميع الشرائع و هذا مما ياباه قطعاً سياق قوله: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ» الخ، و مثل قوله: «وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا»: المؤمنون: ٥٣ و قوله: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ»: آل عمران: ١٩.

و قوله: «كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» المراد بقوله: «مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ»

دين التوحيد الذى كان يدعو إليه النبي ص لا أصل التوحيد فحسب على ما تشهد به الآيه التاليه، والمراد بكبره على المشركين تخرجهم من قبوله.

□
□[□] و قوله: «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» الاجتباء هو الجمع و الاجتلاب، و مقتضى اتساق الضمائر أن يكون ضمير «إِلَيْهِ» الثانى و الثالث راجعا إلى ما يرجع إليه الأول و المعنى الله يجمع و يجتلب إلى دين التوحيد □ هو ما تدعوهم إليه - من يشاء من عباده و يهدى إليه من يرجع إليه فيكون مجموع قوله: «كَبَّرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ» فى معنى قوله: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَهُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ: الحج: ٧٨.

□
□ و قيل: الضميران لله تعالى، و لا- بأس به لكن ما تقدم هو الأنسب، و على أى حال قوله: «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ» إلى آخر الآيه موضوع موضع الاستغناء عن إيمان المشركين المستكبرين للإيمان نظير قوله تعالى: «فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَشَاءُونَ»: حم السجده: ٣٨.

□
□ و قيل: المراد بما تدعوهم إليه ما تدعوهم إلى الإيمان به و هو الرساله أى إن رسالتك كبرت عليهم، و قوله: «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ» الخ فى معنى قوله: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»: الأنعام: ١٢٤ و هو خلاف الظاهر.

□
□ و قوله تعالى: «وَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ» إلى آخر الآيه ضمير «تَفَرَّقُوا» للناس المفهوم من السياق، و البغى الظلم أو الحسد، و تقييده بقوله:

«بَيْنَهُمْ» للدلاله على تداوله، و المعنى و ما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعه باختلافهم و تركهم الاتفاق إلا حال كون تفرقهم آخذا- أو ناشئا- من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلما أو حسدا تداولوه بينهم.

و هذا هو الاختلاف فى الدين المؤدى إلى الانشعابات و التحزبات الذى ينسبه الله سبحانه فى مواضع من كلامه إلى البغى، و أما الاختلاف المؤدى إلى نزول الشريعه و هو الاختلاف فى شئون الحياه و التفرق فى أمور المعاش فهو أمر عائد إلى اختلاف طبائع الناس فى مقاصدهم و هو الذريعه إلى نزول الوحي و تشريع الشرع لرفعه كما يشير

إليه قوله: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ» البقره: ٢١٣ كما تقدم فى تفسير الآيه.

وقوله: «وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ» المراد بالكلمه مثل قوله: حين إهباط آدم(ع) إلى الأرض: «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ» البقره: ٣٦.

والمعنى: ولو لا- أن الله قضى فيهم الاستقرار و التمتع فى الأرض إلى أجل سماه و عينه لقضى بينهم إثر تفرقهم فى دينه و انحرافهم عن سبيله فأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم.

و قول القائل: إن الله قد قضى و أهلك كما يقصه فى قصص نوح و هود و صالح (ع) و قد قال تعالى: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» يونس: ٤٧.

مدفوع بأن ما قصه تعالى من القضاء و الإهلاك إنما هو فى أمة الأنبياء فى زمانهم من المكذبين بين الرادين عليهم و ما نحن فيه من قوله: «وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» الآيه فى أمهم بعدهم و هو واضح من السياق.

وقوله: «وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ» ضمير «مِنْ بَعْدِهِمْ» لأولئك الذين تفرقوا من بعد علم بغيا بينهم و هم الأسلاف، و الذين أورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فمفاد الآيه أن البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقه كانوا على علم من الحق و إنما أبدعوا ما أبدعوا، بغيا بينهم، و أخلافهم الذين أورثوا الكتاب من بعدهم فى شك مرىب-موقع فى الرىب- منه.

و ما أوردها فى معنى الآيه هو الذى يعطيه السياق، و لهم فى تفسيرها أقاويل كثيره لا جدوى فى إسقاطها فليرجع فى الوقوف عليها إلى كتبهم.

قوله تعالى: «فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ» إلى آخر الآيه. تفریع على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء و أمهم ثم انقسام أمهم إلى أسلاف اختلفوا فى الدين عن علم بغيا، و إلى أخلاف شاكين مرتابين فيما أورثوه من

الكتاب أى فلاجل أنه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم فادع و لأجل ما ذكر من تفرق بعضهم بغيا و ارتياب آخرين فاستقم كما أمرت و لا تتبع أهواءهم.

و اللام فى قوله: «فَلِذَلِكَ» للتعليل، و قيل: اللام بمعنى إلى أى إلى ما شرع لكم من الدين فادع و استقم كما أمرت، و الاستقامة - كما ذكره الراغب- لزوم المنهاج المستقيم، و قوله: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ» كالمفسر له.

و قوله: «وَقُلْ آمَنَّا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ» تسويه بين الكتب السماويه من حيث تصديقها و الإيمان بها و هى الكتب المنزله من عند الله المشتمله على الشرائع.

و قوله: «وَأْمُرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ» قيل: اللام زائده للتأكيد نظير قوله:

«وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»: الأنعام: ٧١، و المعنى: و أمرت أن أعدل بينكم أى أسوى بينكم فلا أقدم قويا على ضعيف و لا غنيا على فقير و لا- كبيرا على صغير، و لا- أفضل أبيض على أسود و لا- عربيا على عجمى و لا هاشميا أو قرشيا على غيره فالدعوه متوجهه إلى الجميع، و الناس قبال الشرع الإلهى سواء.

فقوله: «آمَنَّا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ» تسويه بين الكتب المنزله من حيث الإيمان بها، و قوله: «وَأْمُرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ» تسويه بين الناس من حيث الدعوه و توجه ما جاء به من الشرع.

و قيل: اللام فى «لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ» للتعليل، و المعنى: و أمرت بما أمرت لأجل أن أعدل بينكم، و كذا قيل: المراد بالعدل العدل فى الحكم، و قيل: العدل فى القضاء بينكم، و قيل غير ذلك، و هذه معان بعيدة لا يساعد عليها السياق.

و قوله: «اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ» الخ، فى مقام التعليل لما ذكر من التسويه بين الكتب و الشرائع فى الإيمان بها و بين الناس فى دعوتهم و شمول الأحكام لهم، و لذا جىء فى الكلام بالفصل من غير عطف.

فقوله: «اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ» يشير إلى أن رب الكل هو الله الواحد تعالى فليس لهم أرباب كثيرون حتى يلحق كل بربه و يتفاضلوا بالأرباب و يقتصر كل منهم بالإيمان بشريعته ربه بل الله هو رب الجميع و هم جميعا عباده المملوكون له المدبرون بأمره و الشرائع المنزله على الأنبياء من عنده فلا موجب للإيمان ببعضها دون بعض كما يؤمن

اليهود بشريعه موسى دون من بعده و كذا النصارى بشريعه عيسى دون محمد ص بل الواجب الإيمان بكل كتاب نازل من عنده لأنها جميعا من عنده.

و قوله: «لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ» يشير إلى أن الأعمال و إن اختلفت من حيث كونها حسنه أو سيئه و من حيث الجزاء ثوابا أو عقابا إلا- أنها لا- تتعدى عاملها فلكل امرئ ما عمل فلا ينتفع أحد بعمل آخر و لا يتضرر بعمل غيره فليس له أن يقدم امراً للانتفاع بعمله أو يؤخر امراً للتضرر بعمله نعم في الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملين لكن ذلك إلى الله فيما يحاسب به عباده لا إلى الناس-النبى فمن دونه-الذين هم جميعا عباد مملوكون لا يملك منهم نفس من نفس شيئا، وهذا هو الذى ذكره تعالى فى محاوره نوح(ع) قومه: «قَالُوا أَوْ تَزُومُنْ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَ مَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ»: الشعراء: ١١٣، و كذا قوله يخاطب النبى ص: «مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ» الأنعام: ٥٢.

و قوله: «لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ» لعل المراد أنه لا حجه تدل على تقدم بعض على بعض تكون فيما بيننا يقيمها بعض على بعض يثبت بها تقدمه عليه.

و يمكن أن يكون نفى الحجه كناية عن نفى لازمها و هو الخصومه أى لا خصومه بيننا بتفاوت الدرجات لأن ربنا واحد و نحن فى أننا جميعا عباده واحد و لكل نفس ما عملت فلا حجه فى البين أى لا خصومه حتى تتخذ لها حجه.

و من هنا يظهر أن لا وجه لقول بعضهم فى تفسير الجملة: أى لا احتجاج و لا خصومه لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حجه و لا- للمخالفة محمل سوى المكابره و العناد انتهى. إذ الكلام مسوق لبيان ما أمر به النبى ص فى نفسه و فى أمته من سنه التسويه لا لإثبات شىء من أصول المعارف حتى تحمل الحجه على ما حملها عليه.

و قوله: «اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا» المراد بضمير التكلم فيه مجموع المتكلم و المخاطب فى الجمل السابقه، و المراد بالجمع جمعه تعالى إياهم يوم القيامه للحساب و الجزاء على ما قيل.

و غير بعيد أن يراد بالجمع جمعه تعالى بينهم فى الربوبيه فهو رب الجميع و الجميع عباده فيكون قوله: «اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا» تأكيداً لقوله السابق: «اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ»

و توطئه و تمهيدا لقوله: «وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» و يكون مفاد الجملتين أن الله هو مبدئنا لأنه ربنا جميعا و إليه منتهانا لأنه إليه المصير فلا يوجد لما بيننا إلا هو عز اسمه.

و كان مقتضى الظاهر فى التعليل أن يقال: «الله ربى و ربكم لى عملى و لكم أعمالكم لا حجه بينى و بينكم على محاذاه قوله:» «أَمَنْتُ» وَ «أَمَرْتُ لِأَعْدِلَ» لكن عدل عن المتكلم وحده إلى المتكلم مع الغير لدلاله قوله السابق: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا» إلخ، و قوله: «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» إن هناك قوما يؤمنون بما آمن به النبى ص و يلبون دعوته و يتبعون شريعته.

فالمراد بالمتكلم مع الغير فى «رَبَّنَا» و «لَنَا أَعْمَالُنَا» و «بَيْنَنَا» هو (ص) و المؤمنون به، و بالمخاطبين فى قوله: «وَ رَبُّكُمْ» و «أَعْمَالُكُمْ» و «بَيْنَكُمْ» سائر الناس من أهل الكتاب و المشركين، و الآيه على وزن قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»: آل عمران: ٦٤.

قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ يَحِاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» الحجه هى القول الذى يقصد به إثبات شىء أو إبطاله من الحجج بمعنى القصد، و الدحض البطلان و الزوال.

و المعنى: -على ما قيل- و الذين يحاجون فى الله أى يحتجون على نفى ربوبيته أو على إبطال دينه من بعد ما استجاب الناس له و دخلوا فى دينه لظهور الحجه و وضوح المحجه حجتهم باطله زائله عند ربهم و عليهم غضب منه تعالى و لهم عذاب شديد.

و الظاهر أن المراد بالاستجابة له ما هو حق الاستجابة و هو التلقى بالقبول عن علم لا يداخله شك تضطر إليه الفطره الإنسانيه السليمه فإن الدين بما فيه من المعارف فطرى تصدقه و تستجيب له الفطره الحيه قال تعالى: «إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمُوتَى يَرْجِعُهُمْ اللَّهُ»: الأنعام: ٣٦، و قال: «وَ نَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا»: الشمس: ٨، و قال: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»: الروم: ٣٠.

و محصل الآيه: على هذا أن الذين يحاجون فيه تعالى أو فى دينه بعد استجابه

الفطره السليمه له أو بعد استجابه الناس بفطرتهم السليمه له حجتهم باطله زائله عند ربهم و عليهم غضب منه و لهم عذاب شديد لا يقادر قدره.

و يؤيد هذا الوجه بعض التأييد سياق الآيات السابقه حيث تذكر أن الله شرع ديناً و وصى به أنبياءه و اجتبى إليه من شاء من عباده فالمحاجه في أن الله ديناً يستعبد به عباده داحضه و من الممكن حينئذ أن يكون قوله: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ» في مقام التعليل و حجه مدحضه لحجتهم فتدبر فيه.

و قيل: ضمير «اللَّهُ» للرسول (ص) و المستجيب أهل الكتاب، و استجابتهم له اعترافهم بورود أوصافه و نعوته في كتبهم و المراد أن محاجتهم في الله بعد اعترافهم له بما اعترفوا حجتهم باطله عند ربهم.

و قيل: الضمير له (ص) و المستجيب هو الله تعالى حيث استجاب دعاءه على صنديد قريش فقتلهم يوم بدر، و دعاءه على أهل مكه فابتلاهم بالقحط و السنه، و دعاءه على المستضعفين حتى خلصهم الله من يد قريش إلى غير ذلك من معجزاته، و المعنيان بعيدان من السياق.

بحث روائى

في روح المعاني، "في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ» الآية "عن ابن عباس و مجاهد: "نزلت في طائفه من بنى إسرائيل - همت برد الناس عن الإسلام و إضلالهم - فقالوا: كتابنا قبل كتابكم و نبينا قبل نبيكم - فديننا أفضل من دينكم " و في روايه "بدل «فديننا» إلخ فنحن أولى بالله منكم.

و في الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن عكرمه قال: "لما نزلت إذا جاء نَصِيرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال المشركون بمكه لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجا - فخرجوا من بين أظهرنا - فعلام تقيمون بين أظهرنا فنزلت: «وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ» الآية.

أقول: مضمون الآية لا ينطبق على الروايه إذ لا محاجه في القصه، و كذا الخبر السابق لا يفى بتوجيه قوله: «مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ».

اشاره

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسَيْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)

فصل رابع من الآيات يعرف الوحي الإلهي بأن الدين النازل به كتاب مكتوب على الناس و ميزان يوزن به أعمالهم فيجزون بذلك يوم القيامة، و الجزاء الحسن من الرزق ثم يستطرد الكلام في ما يستقبلهم يوم القيامة من الثواب و العقاب، و فيها آية الموده في القربى و ما يلحق بذلك.

قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ» إلخ، كان مفتتح الفصول السابقه في سياق الفعل إخبارا عن الوحي و غرضه و آثاره «كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ» «وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ» و قد غير السياق في مفتتح هذا الفصل فجاء بالجمله الاسميه المتضمنه لتوصيفه تعالى بإنزال الكتاب و الميزان «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ» إلخ، و لازمه تعريف الوحي بنزول الكتاب و الميزان به.

و لعل الوجه فيه ما تقدم في الآيه السابقه من ذكر المحاجه في الله «و الَّذِينَ يُخِاجُونَ فِي اللَّهِ» فاستدعى ذلك تعريفه تعالى للمحاجين فيه بأنه الذى أنزل الكتاب بالحق و الميزان، و لازمه تعريف الوحي بأثره كما عرفت.

و كيف كان فالمراد بالكتاب هو الوحي المشتمل على الشريعة و الدين الحاكم فى المجتمع البشرى، و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» X لآيه X البقره: ٢١٣ أن هذا المعنى هو المراد بالكتاب فى الكتاب، و كون إنزاله بالحق نزوله مصاحبا للحق لا يخالطه اختلاف شيطاني و لا نفساني.

و الميزان ما يوزن و يقدر به الأشياء، و المراد به بقريته ذيل الآيه و الآيات التالیه هو الدين المشتمل عليه الكتاب حيث يوزن به العقائد و الأعمال فتحاسب عليه و يجرى بحسبه الجزاء يوم القيامة فالميزان هو الدين بأصوله و فروعه، و يؤيده قوله تعالى:

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ»: الحديد: ٢٥، على ما هو ظاهر قوله: «مَعَهُمْ».

وقيل: المراد به العدل وسمى العدل ميزانا لأن الميزان آله الإنصاف و التسويه بين الناس و العدل كذلك و أيد بسبق ذكر العدل فى قوله: «وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ».

و فيه أنه لا شاهد يشهد عليه من اللفظ، و قد تقدم أن المراد بالعدل فى «لِأَعْدِلَ» هو التسويه بين الناس فى التبليغ و فى جريان الحكم دون عدل الحاكم و القاضى.

وقيل: المراد به الميزان المعروف المقدر للأثقال. و هو كما ترى.

وقيل: المراد به النبى ص و يمكن إرجاعه إلى ما قدمناه من الوجه لأن النبى مصداق كامل و مثل أعلى للدين بأصوله و فروعه و لكل فرد من أمته من الزنه الدينيه قدر ما يشابهه و يماثله لكن لا يلائم هذا الوجه ما تقدم نقله آنفا من آيه سوره الحديد كثير ملاءمه.

و قوله: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» لما كان الميزان المشعر بالحساب و الجزاء يومئى إلى البعث و القيامه انتقل إلى الكلام فيه و إنذارهم بما سيستقبلهم فيه من الأهوال و التبشير بما أعد فيه للصالحين.

و الادراء الاعلام، و المراد بالساعه-على ما قيل-إتيانها و لذا جىء بالخبر مذكرا، و المعنى: ما الذى يعلمك لعل إتيان الساعه قريب و الخطاب للنبى ص بعنوان أنه سامع فيشمل كل من له أن يسمع و يعم الإنذار و التخويف.

قوله تعالى: «يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا» إلخ المراد استعجالهم استعجال سخرية و استهزاء و قد تكرر فى القرآن نقل قولهم: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

و الإشفاق نوع من الخوف، قال الراغب: الإشفاق عنايه مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه، قال تعالى: «وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ» فإذا عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، و إذا عدى بفى فمعنى العنايه فيه أظهر، قال تعالى: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ» «مُشْفِقُونَ مِنْهَا» انتهى.

و قوله: «أَلَا- إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» المماراه الإصرار على الجدال، و المراد إلحاحهم على إنكارها بالجدال، و إنما كانوا فى ضلال بعيد لأنهم أخطوا

طريق الحياه التى أصابتها أهم ما يتصور للإنسان فتوهموها حياه مقطوعه فانيه انكبوا فيها على شهوات الدنيا و إنما هي حياه خالده باقيه يجب عليهم أن يتزودوا من دنياهم لأخراهم لكنهم ضلوا عن سبيل الرشد فوقعوا فى سبيل الغى.

قوله تعالى: «اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» فى معنى اللطف شىء من الرفق و سهوله الفعل و شىء من الدقه فى ما يقع عليه الفعل فإذا تم الرفق و الدقه و كان الفاعل يفعل برفق و سهوله و يقع فعله على الأمور الدقيقه كان لطيفا كالهواء النافذ فى منافذ الأجسام برفق و سهوله المماس لدقائق أجزائها الباطنه. و إذا ألقيت الخصوصيات الماديه عن هذا المعنى صح أن يتصف به الله سبحانه فإنه تعالى ينال دقائق الأمور بإحاطته و علمه و يفعل فيها ما يشاء برفق فهو لطيف.

و قد رتب الرزق فى الآيه على كونه تعالى لطيفا بعباده قويا عزيزا دلالة على أنه تعالى بلطفه لا يغيب عنه أحد ممن يشاء أن يرزق و لا يعصيه و بقوته عليه لا يعجز عنه و بعزته لا يمنعه مانع عنه.

و المراد بالرزق ما يعم موهبه الدين الذى يتلبس بها من يشاء من عباده على ما يشهد به الآيه التاليه، و لذا ألحق القول فيه بقوله: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ».

قوله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ» إلخ، الحرت الزرع و المراد به نتيجة الأعمال التى يؤتاها الإنسان فى الآخرة على سبيل الاستعاره كان الأعمال الصالحه بذور و ما تنتجه فى الآخرة حرت.

و المراد بالزيادة له فى حرثه تكثير ثوابه و مضاعفته، قال تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا»: الأنعام: ١٦٠، و قال: «وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ»: البقره: ٢٦١.

و قوله: «وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» أى و من كان يريد النتائج الدنيويه بأن يعمل للدنيا و يريد نتيجة ما عمله فيها دون الآخرة نؤته من الدنيا و ما له فى الآخرة نصيب، و فى التعبير بإرادته الحرت إشاره إلى اشتراط العمل لما يريده من الدنيا و الآخرة كما قال تعالى: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى»: النجم: ٣٩.

وقد أبهم ما يعطيه من الدنيا إذ قال: «تُؤْتِيهِ مِنْهَا» إشارة إلى أن الأمر إلى المشيه الإلهيه فربما بسطت الرزق و ربما قدرت كما قال تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ» :إسراء: ١٨.

و الالتفات من الغيبه إلى التكلم بالغير فى قوله «نَزِدْ لَهُ» و «تُؤْتِيهِ مِنْهَا» للدلاله على العظمه التى يشعر بها قوله: «وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» .

و المحصل من معنى الآيتين: أن الله سبحانه لطيف بعباده جميعا ذو قوه مطلقه و عزه مطلقه يرزق عباده على حسب مشيئته و قد شاء فى من أراد الآخرة و عمل لها أن يرزقه منها و يزيد فيه، و فيمن أراد الدنيا و عمل لها فحسب أن يؤتیه منها و ما له فى الآخرة من نصيب.

و يظهر من ذلك أن الآيه الأولى عامه تشمل الفريقين، و المراد بالعباد ما يعم أهل الدنيا و الآخرة، و كذا الرزق و أن الآيه الثانيه فى مقام تفصيل ما فى قوله: «يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ» من الإجمال.

قوله تعالى: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ» إلى آخر الآيه لما بين أن الله سبحانه هو الذى أنزل الكتاب بالحق و شرع لهم الدين الذى هو ميزان أعمالهم و أنه بلطفه و قوته و عزته يرزق من أراد الآخرة و عمل لها ما أرادها منها و يزيد، و إن من أراد الدنيا و نسى الآخرة لا نصيب له فيها سجل على من كفر بالآخرة عدم النصيب فيها بإنكار أن لا دين غير ما شرعه الله يدين به هؤلاء حتى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخرة فيها إذ لا شريك لله حتى يشرع دينا غير ما شرعه الله من غير إذن منه تعالى فلا دين إلا لله و لا يرزق فى الآخرة رزقا حسنا إلا من آمن بها و عمل لها.

فقوله: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ» إلخ، فى مقام الإنكار، و قوله: «وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» إشارة إلى الكلمه التى سبقت منه تعالى أنهم يعيشون فى الأرض إلى أجل مسمى، و فيه إكبار لجرمهم و معصيتهم.

و قوله: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» و عيد لهم على ظلمهم، و إشارة إلى أنهم لا يفوتونه تعالى فإن لم يقض بينهم و لم يعذبهم فى الدنيا فلهم فى الآخرة عذاب أليم.

قوله تعالى: «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ» إلخ، الخطاب للنبي ص بعنوان أنه سامع فيشمل كل من من شأنه أن يرى، والمراد بالظالمين التاركون لدين الله الذى شرعه لعباده المعرضون عن الساعه، والمعنى: يرى الراءون هؤلاء الظالمين يوم القيامة خائفين مما كسبوا من السيئات و هو واقع بهم لا مناص لهم عنه.

و الآيه من الآيات الظاهره فى تجسم الأعمال، وقيل: فى الكلام مضاف محذوف و التقدير مشفقين من وبال ما كسبوا، ولا حاجه إليه.

وقوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ» فى المجمع: أن الروضه الأرض الخضره بحسن النبات، و الجنة الأرض التى تحفها الشجر فروضات الجنات الحدائق المشجره المخضره متونها.

وقوله: «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» أى إن نظام الأسباب مطوى فيها بل السبب الوحيد هو إرادتهم وحدها يخلق الله لهم من عنده ما يشاءون ذلك هو الفضل الكبير.

وقوله: «ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» تبشير للمؤمنين الصالحين، وإضافه العباد تشريفيه.

قوله تعالى: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» الذى نفى سؤال الأجر عليه هو تبليغ الرساله و الدعوه الدينيه، و قد حكى الله ذلك عن عده ممن قبله (ص) من الرسل كنوح و هود و صالح و لوط و شعيب فيما حكى مما يخاطب كل منهم أمته: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» الشعراء وغيرها.

و قد حكى عن النبي ص ذلك إذ قال: «وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» :

يوسف: ١٠٤، و قد أمره (ص) أن يخاطب الناس بذلك بتعبيرات مختلفه حيث قال: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» : ص ٨٦، و قال: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ» : سبأ: ٤٧، و قال: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» الأنعام: ٩٠، فأشار إلى وجه النفي و هو أنه ذكرى للعالمين لا يختص ببعض دون بعض حتى يتخذ عليه الأجر.

و قال: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلِيَّ رَبَّهُ سَبِيلًا» :

الفرقان: ٥٧، ومعناه على ما مر في تفسير الآية: إلا أن يشاء أحد منكم أن يتخذ إلى ربه سبيلاً أى يستجيب دعوتى باختياره فهو أجرى أى لا شىء هناك وراء الدعوه أى لا أجر.

وقال تعالى في هذه السوره: «قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» فجعل أجر رسالته الموده فى القربى، و من المتيقن من مضامين سائر الآيات التى فى هذا المعنى أن هذه الموده أمر يرجع إلى استجابته الدعوه إما استجابته كلها و إما استجابته بعضها الذى يهتم به و ظاهر الاستثناء على أى حال أنه متصل بدعوى كون الموده من الأجر و لا حاجه إلى ما تمحله بعضهم بتقريب الانقطاع فيه.

و أما معنى الموده فى القربى فقد اختلف فيه تفاسيرهم:

ف قيل - و نسب إلى الجمهور - أن الخطاب لقريش و الأجر المسئول هو مودتهم للنبي ص لقربته منهم و ذلك لأنهم كانوا يكذبونه و يبغضونه لتعرضه لآلهتهم على ما فى بعض الأخبار فأمر (ص) أن يسألهم: إن لم يؤمنوا به فليودوه لمكان قربته منهم و لا يبغضوه و لا يؤذوه فالقربى مصدر بمعنى القرابه، و فى اللسبيه.

و فيه أن معنى الأجر إنما يتم إذا قوبل به عمل يمتلكه معطى الأجر فيعطى العامل ما يعادل ما يمتلكه من مال و نحوه فسؤال الأجر من قريش و هم كانوا مكذبين له كافرين بدعوته إنما كان يصح على تقدير إيمانهم به (ص) لأنهم على تقدير تكذيبه و الكفر بدعوته لم يأخذوا منه شيئاً حتى يقابلوه بالأجر، و على تقدير الإيمان به - و النبوه أحد الأصول الثلاثة فى الدين - لا يتصور بغض حتى تجعل الموده أجراً للرساله و يسأل.

و بالجمله لا تحقق لمعنى الأجر على تقدير كفر المسئولين و لا تحقق لمعنى البغض على تقدير إيمانهم حتى يسألوا الموده.

و هذا الإشكال وارد حتى على تقدير أخذ الاستثناء منقطعاً فإن سؤال الأجر منهم على أى حال إنما يتصور على تقدير إيمانهم و الاستدراك على الانقطاع إنما هو عن الجمله بجميع قيودها فأجد التأمل فيه.

و قيل: المراد بالموده فى القربى ما تقدم و الخطاب للأئصار فقد قيل: إنهم

أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت الآية فرده، وقد كان له منهم قرابه من جهه سلمى بنت زيد النجاريه و من جهه أخوال أمه آمنه على ما قيل.

و فيه أن أمر الأنصار في حبههم للنبي ص أوضح من أن يرتاب فيه ذو ريب و هم الذين سألوه أن يهاجر إليهم، و بوءوا له الدار، و فدوه بالأنفس و الأموال و البنين و بذلوا كل جهدهم في نصرته و حتى في الإحسان على من هاجر إليهم من المؤمنين به، و قد مدحهم الله تعالى بمثل قوله: «و الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُوَثِّرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» :الحشر: ٩، و هذا مبلغ حبههم للمهاجرين إليهم لأجل النبي ص فما هو الظن في حبهم له؟.

و إذا كان هذا مبلغ حبهم فما معنى أن يؤمر النبي ص أن يتوسل إلى مودتهم بقرابته منهم هذه القرابه البعيده؟.

على أن العرب ما كانت تعتنى بالقرابه من جهه النساء ذاك الاعتناء و فيهم القائل:

بنونا بنو أبنائنا و بناتنا

بنوهن أبناء الرجال الأبعاد

و القائل:

و إنما أمهات الناس أوعيه

مستودعات و للأنساب آباء

و إنما هو الإسلام أدخل النساء في القرابه و ساوى بين أولاد البنين و أولاد البنات و قد تقدم الكلام في ذلك.

و قيل: الخطاب لقريش و الموده في القربى هي الموده بسبب القرابه غير أن المراد بها موده النبي ص لا- موده قريش كما في الوجه الأول، و الاستثناء منقطع، و محصل المعنى: أنى لا- أسألكم أجرا على ما أدعوكم إليه من الهدى الذى ينتهى بكم إلى روضات الجنات و الخلود فيها و لا أطلب منكم جزاء لكن حبى لكم بسبب قرابتكم منى دفعنى إلى أن أهديكم إليه و أدلكم عليه.

و فيه أنه لا يلائم ما يخده الله سبحانه له (ص) في طريق الدعوه و الهدايه فإنه تعالى يسجل عليه في مواضع كثيره من كلامه أن الأمر في هدايه الناس إلى الله و ليس له من الأمر شيء و أن ليس له أن يحزن لكفرهم و ردهم دعوته و إنما عليه البلاغ فلم يكن

له أن يندفع إلى هدايه أحد لحب قرابه أو يعرض عن هدايه آخرين لبغض أو كراهه و مع ذلك كله كيف يتصور أن يأمره الله بقوله: «قُلْ لَا أَشْرِكُكُمْ» الآية أن يخبر كفسار قريش أنه إنما اندفع إلى دعوتهم و هدايتهم بسبب حبه لهم لقرابتهم منه لا لأجر يسألهم إياه عليه.

وقيل: المراد بالموده فى القربى موده الأقرباء و الخطاب لقريش أو لعامة الناس و المعنى: لا أسألكم على دعائى أجزا إلا أن تودوا أقرباءكم.

و فيه أن موده الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب إليه فى الإسلام قال تعالى:

«لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ» المجادلة: ٢٢، و سياق هذه الآية لا يلائم كونها مخصصة أو مقيدة لعموم قوله: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» أو إطلاقه حتى تكون الموده للأقرباء المؤمنين هى أجزا الرسالة على أن هذه الموده الخاصه لا تلائم خطاب قريش أو عامه الناس.

بل الذى يفيد سيقا الآية أن الذى يندب إليه الإسلام هو الحب فى الله من غير أن يكون للقرابه خصوصيه فى ذلك، نعم هناك اهتمام شديد بأمر القرابه و الرحم لكنه بعنوان صله الرحم و إيتاء المال، على حبه ذوى القربى لا بعنوان موده القربى فلا حب إلا لله عز اسمه.

و لا مساغ للقول بأن الموده فى القربى فى الآية كناية عن صلتهم و الإحسان إليهم بإيتاء المال إذ ليس فى الكلام ما يدفع كون المراد هو المعنى الحقيقى غير الملائم لما ندب إليه الإسلام من الحب فى الله.

وقيل: معنى القربى هو التقرب إلى الله، و الموده فى القربى هى التودد إليه تعالى بالطاعه و التقرب فالمعنى: لا أسألكم عليه أجزا إلا أن توددوا إليه تعالى بالتقرب إليه.

و فيه أن فى قوله: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» على هذا المعنى إبهاما لا يصلح به أن يخاطب به المشركون فإن حاق مدلوله التودد إليه-أو وده تعالى-بالتقرب إليه و المشركون لا ينكرون ذلك بل يرون ما هم عليه من عباده الآلهه توددا إليه بالتقرب

منه فهم القائلون على ما يحكيه القرآن عنهم: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى» الزمر: ٣، «هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ»
يونس: ١٨.

فسؤال التودد إلى الله بالتقرب إليه من غير تقييده بكونه بعبادته وحده، و جعل ذلك أجرا مطلوباً ممن يرى شركة نوع تودد إلى الله بالتقرب إليه، و خطابهم بذلك على ما فيه من الإبهام-و المقام مقام تمحيضه(ص)نفسه في دعوتهم إلى دين التوحيد لا يسألهم لنفسه شيئاً قط-مما لا يرتضيه الذوق السليم.

على أن المستعمل في الآية هو الموده دون التودد فالمراد بالموده حبهم لله في التقرب إليه و لم يرد في كلامه تعالى إطلاق الموده على حب العباد لله سبحانه و إن ورد العكس كما في قوله: «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» هود: ٩٠، و قوله: «وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ» البروج: ١٤، و لعل ذلك لما في لفظ الموده من الإشعار بمراعاة حال المودود و تعاوده و تفقده، حتى قال بعضهم-على ما حكاه الراغب-أن موده الله لعباده مراعاته لهم.

و الإشكال السابق على حاله و لو فسرت الموده في القربى بمواده الناس بعضهم بعضاً و محاببتهم في التقرب إلى الله بأن تكون القربات أسباباً للموده و الحب فيما بينهم فإن للمشركين ما يماثل ذلك فيما بينهم على ما يعتقدون.

و قيل: المراد بالموده في القربى، موده قرابه النبي ص و هم عترته من أهل بيته(ع) و قد وردت به روايات من طرق أهل السنه و تكاثرت الأخبار من طرق الشيعة على تفسير الآية بمودتهم و موالاتهم، و يؤيده الأخبار المتواتره من طرق الفريقين على وجوب موالاه أهل البيت(ع) و محبتهم.

ثم التأمل الكافي في الروايات المتواتره الوارده من طرق الفريقين عن النبي ص المتضمنه لإرجاع الناس في فهم كتاب الله بما فيه من أصول معارف الدين و فروعها و بيان حقائقه إلى أهل البيت(ع) كحديث الثقلين و حديث السفينه و غيرهما لا يدع ريباً في أن إيجاب مودتهم و جعلها أجراً للرساله إنما كان ذريعه إلى إرجاع الناس إليهم فيما كان لهم من المرجعيه العلميه.

فالموده المفروضه على كونها أجراً للرساله لم تكن أمراً وراء الدعوه الدينيه

من حيث بقائها و دوامها، فالآية في مؤداها لا تغاير مؤدى سائر الآيات النافية لسؤال الأجر.

و يثول معناها إلى أنى لا أسألكم عليه أجرا إلا أن الله لما أوجب عليكم موده عامه المؤمنين و من جملتهم قرابتي فإنى أحاسب مودتكم لقرابتي و أعدّها أجرا لرسالتي، قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا» :مریم: ۹۶ و قال: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» :التوبه: ۷۱.

و بذلك يظهر فساد ما أورد على هذا الوجه أنه لا يناسب شأن النبوه لما فيه من التهمه فإن أكثر طلبه الدنيا يفعلون شيئا و يسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم و قراباتهم.

و أيضا فيه منافاه لقوله تعالى: «وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» :يوسف: ۱۰۴.

وجه الفساد أن إطلاق الأجر عليها و تسميتها به إنما هو بحسب الدعوى و أما بحسب الحقيقه فلا يزيد مدلول الآيه على ما يدل عليه الآيات الآخر النافية لسؤال الأجر كما عرفت و ما فى ذلك من النفع عائد إليهم فلا مورد للتهمه.

على أن الآيه على هذا مدنيه خوطب بها المسلمون و ليس لهم أن يتهموا نبيهم المصون بعصمه إلهيه-بعد الإيمان به و تصديق عصمته-فيما يأتيهم به من ربهم و لو جاز اتهامهم له فى ذلك و كان ذلك غير مناسب لشأن النبوه لا يصلح لأن يخاطب به، لا يطرده مثل ذلك فى خطابات كثيره قرآنيه كالأيات الداله على فرض طاعته المطلقه و الداله على كون الأنفال و الغنائم لله و لرسوله، و الداله على خمس ذوى القربى، و ما أبيض له فى أمر النساء و غير ذلك.

على أنه تعالى تعرض لهذه التهمه و دفعها فى قوله الآتى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» الآيه على ما سيأتى.

و هب أنا صرفنا الآيه عن هذا المعنى بحملها على غيره دفعا لما ذكر من التهمه فما هو الدافع لها عن الأخبار التى لا تحصي كثره الوارده من طرق الفريقين فى إيجاب موده أهل البيت عنه(ص)؟.

و أما منافاه هذا الوجه لقوله تعالى: «وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» فقد اتضح

بطلانه مما ذكرناه، والآيه بقياس مدلولها إلى الآيات النافيه لسؤال الأجر نظيره قوله تعالى: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهِي رَبًّا سَبِيلًا»: الفرقان: ٥٧.

قال فى الكشاف بعد اختياره هذا الوجه: فإن قلت: هلا- قيل: إلا موده القربى أو إلا الموده للقربى، و ما معنى قوله: إلا الموده فى القربى؟ قلت: جعلوا مكانا للموده و مقرا لها كقولك: لى فى آل فلان موده، و لى فىهم هوى و حب شديد، تريد أحبهم و هم مكان حبى و محله.

قال: و ليست فى بصله للموده كاللام إذا قلت: إلا- الموده للقربى. إنما هى متعلقه بمحذوف تعلق الظرف به فى قولك: المال فى الكيس، و تقديره: إلا الموده ثابتة فى القربى و متمكنة فيها. انتهى.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ حَيْثُ شَاءَ مِنْ رِزْقِ رَبِّهِ وَاللَّهُ شَكُورٌ» الاقتراف الاكتساب، و الحسنه الفعله التى يرتضيها الله سبحانه و يثيب عليها، و حسن العمل ملاءمته لسعاده الإنسان و الغايه التى يقصدها كما أن مساءته و قبحه خلاف ذلك، و زياده حسننها إتمام ما نقص من جهاتها و إكماله و من ذلك الزيادة فى ثوابها كما قال تعالى: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» العنكبوت: ٧، و قال:

«لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ»: النور: ٣٨.

و المعنى: و من يكتسب حسنه نزد له فى تلك الحسنه حسنا- برفع نقائصها و زياده أجرها- إن الله غفور يمحو السيئات شكور يظهر محاسن العمل من عامله.

و قيل: المراد بالحسنه موده قربى النبى ص و يؤيده ما فى روايات أئمه أهل البيت (ع) أن قوله: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» إلى تمام أربع آيات نزلت فى موده قربى النبى ص، و لازم ذلك كون الآيات مدنيه و أنها ذات سياق واحد و أن المراد بالحسنه من حيث انطباقها على المورد هى الموده، و على هذا فالإشارة بقوله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ» الخ، إلى بعض ما تفوه به المنافقون تفاقلا عن قبوله و فى المؤمنين سماعون لهم، و بقوله: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ» إلى آخر الآيتين إلى توبه الراجعين منهم و قبولها.

و فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ» التفات من التكلم إلى الغيبه و الوجه فيه الإشاره إلى عله الاتصاف بالمغفره و الشكر فإن المعنى: أن الله غفور شكور لأنه الله عز اسمه.

قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» إلى آخر الآيه أم منقطعه، و الكلام مسوق للتوبيخ و لازمه إنكار كونه (ص) مفترى على الله كذبا.

و قوله: «فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» معناه على ما يعطيه السياق أنك لست مفترى على الله كذبا فإنه ليس لك من الأمر شىء حتى تشاء الفريه فتأتى بها و إنما هو وحى من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع و الأمر إلى مشيئته تعالى فإن يشأ يختم على قلبك و سد باب الوحى إليك، لكنه شاء أن يوحى إليك و يبين الحق، و قد جرت سنته أن يمحو الباطل و يحق الحق بكلماته.

فقوله: «فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» كناية عن إرجاع الأمر إلى مشيه الله و تنزيه لساحه النبى ص أن يأتى بشىء من عنده. و هذا المعنى - كما سترى - أنسب للسياق بناء على كون المراد بالقربى قرابه النبى ص و التوبيخ متوجها إلى المنافقين و مرضى القلوب.

و قد ذكروا فى معنى الجملة وجوها أخر:

منها: ما ذكره الزمخشري فى الكشاف حيث فسر قوله: «فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» بقوله: فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يفتري على الله الكذب إلا من كان فى مثل حالهم.

و هذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله و أنه فى البعد مثل الشرك بالله و الدخول فى جملة المختوم على قلوبهم، و مثال هذا أن يخون بعض الأمناء فيقول: لعل الله خذلى لعل الله أعمى قلبى و هو لا يريد إثبات الخذلان و عمى القلب و إنما يريد استبعاد أن يخون مثله و التنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم. انتهى.

و منها ما قيل: إن المعنى لو حدثت نفسك بأن تفتري على الله الكذب لطبع

الله على قلبك ولأنساك القرآن فكيف تقدر أن تفتري على الله، وهذا كقوله: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ».

و منها ما قيل: إن معناه فإن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم: إنه مفتر و ساحر، و هي وجوه لا تخلو من ضعف.

و منها ما قيل: إن المعنى فإن يشأ الله يختم على قلبك كما ختم على قلوبهم و هو تسليه للنبي ص ليشكر ربه على ما آتاه من النعمة.

و منها ما قيل: إن المعنى فإن يشأ الله يختم على قلوب الكفار و على ألسنتهم و يعاجلهم بالعذاب، و عدل عن الغيبه إلى الخطاب و عن الجمع إلى الأفراد، و المراد:

يختم على قلبك أيها القائل: أنه افتري على الله كذبا.

و قوله: «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» الإتيان بالمضارع-يمحو و يحق-للدلالة على الاستمرار، فمحو الباطل و إحقاق الحق بالكلمات سنه جاريه له تعالى و المراد بالكلمات ما ينزل على الأنبياء من الوحي الإلهي و التكليم الربوبي و يمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث أنها مفصحة عن الضمير الغيبي.

و قوله: «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» تلييل لقوله: «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ الْخِ أَي أَنَّهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ وَ يُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ لِأَنَّهُ عَلِيمٌ بِالْقُلُوبِ وَ مَا انطوت عليه فيعلم ما تستدعيه من هدى أو ضلال أو شرح أو ختم بإنزال الوحي و توجيه الدعوه.

قيل: و في الآيه إشعار بوعد النبي ص بالنصر و لا يخلو من وجه.

قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» يقال: قبل منه و قبل عنه قال في الكشاف: يقال: قبلت منه الشيء و قبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه و جعلته مبدأ قبولي و منشأه، و معنى قبلته عنه عزلته و أبنته عنه. انتهى.

و في قوله: «وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» تحضيض على التوبه و تحذير عن اقتراف السيئات و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» فاعل «يَسْتَجِيبُ» ضمير راجع إليه تعالى و «الَّذِينَ آمَنُوا»

إلخ، في موضع المفعول بنزع الخافض و التقدير و يستجيب للذين-آمنوا على ما قيل - و قيل: فاعل «يَسْتَجِيبُ» هو «الَّذِينَ» و هو بعيد من السياق.

و الاستجابة إجابة الدعاء و لما كانت العبادة دعوه له تعالى عبر عن قبولها بالاستجابة لهم، و الدليل على هذا المعنى قوله: «و يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» فإن ظاهره زياده الثواب و كذا مقابله استجابة المؤمنين بقوله: «و الْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ».

و قيل: المراد أنه يستجيب لهم إذا دعوه و أعطاهم ما سألوه و زادهم على ما طلبوه و هو بعيد من السياق. على أن استجابة الدعاء لا يختص بالمؤمن.

بحث روائي

في المجمع، روى زاذان عن علي (ع) قال: فينا في آل حم آية لا- يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن. ثم قرأ «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى».

قال الطبرسي: و إلى هذا أشار الكميت في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آية

تأولها منا تقى و معرب

و فيه، و صح عن الحسن بن علي (ع): أنه خطب الناس فقال في خطبته:

إننا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم- على كل مسلم- فقال: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى».

و في الكافي، بإسناده عن عبد الله بن عجلان عن أبي جعفر (ع) * في قوله تعالى:

«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا- إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» قال: هم الأئمة.

أقول: و الأخبار في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت (ع) كثيرة جدا مرويه عنهم.

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخارى و مسلم و الترمذى و ابن جرير و ابن مردويه من طريق طاووس عن ابن عباس " * أنه سئل عن قوله: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» فقال سعيد بن جبيرة: هم قريبي آل محمد- فقال ابن عباس: عجلت- إن النبي ص لم يكن بطن من قريش- إلا كان له فيهم قرابه- فقال: إلا أن تصلوا ما بينى و بينكم من القرابه. ":

أقول: ورواه أيضا عن ابن عباس بطرق أخرى غير هذا الطريق، وقد تقدم في بيان الآيه أن هذا المعنى غير مستقيم ولا منطبق على سياق الآيه، ومن العجيب ما في بعض هذه الطرق أن الآيه منسوخة بقوله تعالى: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ».

وفيه، أخرج أبو نعيم والديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: *قال رسول الله ص:

لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى

-أن تحفظوني في أهل بيتي و تودوهم لى.

وفيه، أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: *لما نزلت هذه الآيه «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم - قال: على و فاطمه و ولداها.:

أقول: ورواه الطبرسي في المجمع، و فيها «و ولداها» مكان «و ولداها».

وفيه، أخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال: *لما جىء بعلى بن الحسين أسيرا فأقيم على درج دمشق - قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذى قتلكم و استأصلكم - فقال له على بن الحسين: أ قرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أ قرأت آل حم؟ قال: نعم - قال: أ ما قرأت «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»؟ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم.

وفيه، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس " * «و مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً» قال: الموده لآل محمد ":

أقول: وروى ما فى معناه فى الكافى، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر (ع) .

وفى تفسير القمى، حدثنى أبى عن ابن أبى نجران عن عاصم بن حميد عن محمد بن مسلم قال: *سمعت أبا جعفر (ع) يقول: فى قول الله عز و جل: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» يعنى فى أهل بيته.

قال: جاءت الأنصار إلى رسول الله ص - فقالوا: إنا قد آوينا و نصرنا فخذ طائفه من أموالنا - فاستعن بها على ما نابك فأنزل الله عز و جل «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» أى فى أهل بيته.

ثم قال: لا ترى أن الرجل يكون له صديق -و في نفس ذلك الرجل شىء على أهل بيته- فلا يسلم صدره- فأراد الله عز و جل أن لا- يكون في نفس رسول الله ص شىء على أمته- ففرض الله عليهم الموده فى القربى- فإن أخذوا أخذوا مفروضاً، وإن تركوا تركوا مفروضاً.

قال: فانصرفوا من عنده و بعضهم يقول: عرضنا عليه أموالنا- فقال: لا. قاتلوا عن أهل بيتى من بعدى، و قال طائفه: ما قال هذا رسول الله و جحدوه- و قالوا كما حكى الله عز و جل: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» فقال عز و جل: «فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» قال: لو افترت «و يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ» يعنى يبطله «و يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» يعنى بالأئمه و القائم من آل محمد (ع) «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»:

أقول: و روى قصه الأنصار السيوطى فى الدر المنثور، عن الطبرانى و ابن مردويه من طريق ابن جبير و ضعفه.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٧ الى ٥٠]

إشارة

وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرًا مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَ يَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَ هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَغْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٣١) وَ مِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَاءُ يُسَيِّئِ الْوَيْحَ فَيُضِلُّنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوقِنُ إِذَا مَا كَسَبُوا وَ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَ يَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ وَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَ لِمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَ لِمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) وَ مَنْ يَضِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَ تَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ يَضِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا أَنْ عَلَيْكَ إِلَّا- الْبَلَاغُ وَ إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهَا رَحْمَةً فَرحَ بِهَا وَ إِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بَلَّمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَ إِنَاءً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

صدر الآيات متصل بحديث الرزق المذكور في قوله: «اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ» و قد سبقه قوله: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ» و قد تقدمت الإشارة إلى أن من الرزق نعمه الدين التي آتاها الله سبحانه عباده المؤمنين و بهذه العناية دخل الكلام فيه في الكلام على الوحي الذي سيقته لبيان آيات السوره و انعطف عليه انعطافا بعد انعطاف.

ثم يذكر بعض آيات التوحيد المتعلقة بالرزق كخلق السماوات و الأرض و بث الدواب فيهما و السفائن الجوارى في البحر و إيتاء الأولاد الذكور و الإناث أو إحداهما لمن يشاء و جعل من يشاء عقيما.

ثم يذكر أن من الرزق ما آتاهموه في الدنيا و هو متاعها الفانى بفنائها و منه ما يخص المؤمنين في الآخرة و هو خير و أبقى، و ينتقل الكلام من هنا إلى صفات المؤمنين

و حسن عاقبتهم و إلى وصف ما يلقاه الظالمون و هم غيرهم فى عقابهم من أهوال القيامة و عذاب الآخرة.

و وراء ذلك فى خلال الآيات من إجمال بعض الأحكام و الإنذار و التخويف و الدعوه إلى الحق و حقائق المعارف شىء كثير.

قوله تعالى: «وَلَوْ بَسِطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ» القدر مقابل البسط معناه التضييق و منه قوله السابق:

«يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» و القدر بفتح الدال و سكونها كميته الشىء و هندسته و منه قوله: «وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ» أو جعل الشىء على كميته معينه و منه قوله:

«فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ»: المرسلات: ٢٣.

و البغى الظلم، و قوله: «بِعِبَادِهِ» من وضع الظاهر موضع الضمير، و النكته فيه الإشارة إلى بيان كونه خبيرا بصيرا بهم و ذلك أنهم عباده المخلوقون له القائمون به فلا- يكونون محجوبين عنه مجهولين له، و كذا قوله السابق: «لِعِبَادِهِ» لا يخلو من إشاره إلى بيان إيتاء الرزق و ذلك أنهم عباده و رزق العبد على مولاه.

و معنى الآية: و لو وسع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بإيتائه لظلموا فى الأرض- لما أن من طبع سعه المال الأشهر و البطر و الاستكبار و الطغيان كما قال تعالى:

«إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لِيَطْغَى أَنْ رَأَهُ اسْتَيْغَى»: العلق: ٧- و لكن ينزل ما يشاء من الرزق بقدر و كميته معينه أنه بعباده خبير بصير فيعلم ما يستحقه كل عبد و ما يصلحه من غنى أو فقر فيؤتاه ذلك.

ففى قوله: «وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ» بيان للسنة الإلهيه فى إيتاء الرزق بالنظر إلى صلاح حال الناس أى إن لصلاح حالهم أثرا فى تقدير أرزاقهم، و لا- ينافى ذلك ما نشاهد من طغيان بعض المثرين و نماء رزقهم على ذلك فإن هناك سنه أخرى حاكمه على هذه السنه و هى سنه الابتلاء و الامتحان، قال تعالى: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ»: التغابن: ١٥، و سنه أخرى هى سنه المكر و الاستدراج، قال تعالى:

«سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ»: الأعراف: ١٨٣.

فسنه الإصلاح بتقدير الرزق سنه ابتدائيه يصلح بها حال الإنسان إلا أن يمتحنه

الله كما قال: «وَلِيُبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ»: آل عمران: ١٥٤ أو يغير النعمة و يكفر بها فيغير الله في حقه سنته فيعطيه ما يطغيه، قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»: الرعد: ١١.

و كما أن إيتاء المال و البنين و سائر النعم الصوريه من الرزق المقسوم كذلك المعارف الحقه و الشرائع السماويه المنتهيه إلى الوحي من حيث إنزالها و من حيث الابتلاء بها و التلبس بالعمل بها من الرزق المقسوم.

فلو نزلت المعارف و الأحكام عن آخرها دفعه واحده-على ما لها من الإحاطه و الشمول لجميع شئون الحياه الإنسانيه-لشقت على الناس و لم يؤمن بها إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه أنزلها على رسوله ص تدريجا و على مكث و هياً بذلك الناس بقبول بعضها لقبول بعض، قال تعالى: «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ» إسرائ: ١٠٦.

و كذا المعارف العاليه التي هي في بطون المعارف الساذجه الدينيه لو لم يضرب عليها بالحجاب و بينت لعامه الناس على حد الظواهر المبينه لهم لم يتحملوها و دفعته أفهامهم إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه كلمهم في ذلك نوع تكليم يستفيد منه كل على قدر فهمه و سعه صدره كما قال في مثل ضربه في ذلك: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا»: الرعد: ١٧.

و كذلك الأحكام و التكاليف الشرعيه لو كلف بجمعها جميع الناس لتخرجوا منها و لم يتحملوها لكنه سبحانه قسمها بينهم حسب تقسيم الابتلاءات المقتضيه لتوجه التكاليف المتنوعه بينهم.

فالرزق بالمعارف و الشرائع من أى جهه فرض كالرزق الصورى مفروض بين الناس مقدر على حسب صلاح حالهم.

قوله تعالى: « وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ » القنوط اليأس، و الغيث المطر، قال في مجمع البيان: الغيث ما كان نافعا فى وقته، و المطر قد يكون نافعا و قد يكون ضارا فى وقته و غير وقته. انتهى. و نشر الرحمه تفريق النعمه بين الناس بإنبات النبات و إخراج الثمار التي يكون سببها المطر.

و فى الآيه انتقال من حديث الرزق إلى آيات التوحيد التى لها تعلق ما بالأرزاق، و يتلوها فى هذا المعنى آيات، و تذييل الآيه بالاسمين: الولى الحميد و هما من أسمائه تعالى الحسنى للثناء عليه فى فعله الجميل.

قوله تعالى: « وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ » إلخ، البث التفريق، و يقال: بثّ الريح التراب إذا أثاره، و الدابه كل ما يدب على الأرض فيعم الحيوانات جميعا، و المعنى ظاهر.

و ظاهر الآيه أن فى السماوات خلقا من الدواب كالأرض، و قول بعضهم: إن ما فى السماوات من دابه هى الملائكه يدفعه أن إطلاق الدواب على الملائكه غير معهود.

و قوله: « وَ هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » إشاره إلى حشر ما بثّ فيهما من دابه و قد عبر بالجمع لمقابلته البث الذى هو التفريق، و لا دلالة فى قوله: « عَلَى جَمْعِهِمْ » حيث أتى بضمير أولى العقل على كون ما فى السماوات من الدواب أولى عقل كالإنسان لقوله تعالى: « وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا - طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » الأنعام: ٣٨.

و القدير من أسمائه تعالى الحسنى و هو الذى أركزت فيه قدره و ثبتت، قال الراغب: القدره إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئه له بها يتمكن من فعل شىء ما، و إذا وصف الله بها فهى نفى العجز عنه، و محال أن يوصف غير الله بالقدره المطلقه معنى و إن أطلق عليه لفظا بل حقه أن يقال: قادر على كذا، و متى قيل: هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد، و لهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدره من وجه إلا و يصح أن يوصف بالعجز من وجه و الله تعالى هو الذى ينتفى عنه العجز من كل وجه.

و القدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضى الحكمة لا زائدا عليه و لا ناقصا عنه و لذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى قال: «إنه على ما يشاء قدير»، و المقتدر يقاربه نحو «عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ» لكن قد يوصف به البشر، و إذا استعمل فى الله فمعناه معنى القدير و إذا استعمل فى البشر فمعناه المتكلف و المكتسب للقدره، انتهى.

و هو حسن غير أن فى قوله: إن القدره إذا وصف بها الله فهى نفى العجز عنه مساهله ظاهره فإن صفاته تعالى الذاتيه كالحياه و العلم و القدره لها معان إيجابيه هى عين

الذات لا معان سلبية حتى تكون الحياه بمعنى انتفاء الموت و العلم بمعنى انتفاء الجهل و القدره بمعنى انتفاء العجز على ما يقوله الصابون و لازمه خلو الذات عن صفات الكمال.

فالحق أن معنى قدرته تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء، و لازم هذا المعنى الإيجابي انتفاء مطلق العجز عنه تعالى.

قوله تعالى: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» المصيبه النائبه تصيب الإنسان كأنها تقصده، و المراد بما كسبت أيديكم المعاصي و السيئات، و قوله: «وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» أي عن كثير مما كسبت أيديكم و هي السيئات.

و الخطاب فى الآيه اجتماعى موجه إلى المجتمع غير منحل إلى خطابات جزئيه و لازمه كون المراد بالمصيبه التى تصيبهم المصائب العامه الشامله كالفحط و الغلاء و الوباء و الزلازل و غير ذلك.

فيكون المراد أن المصائب و النوائب التى تصيب مجتمعكم و يصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم و الله يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها.

فالآيه فى معنى قوله تعالى: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَحْرِ وَ الْمَرْءُ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِ النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» الروم: ٤١، و قوله: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا بِرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْمَآرِضِ وَ لَكِن كَذَّبُوا»: الأعراف: ٩٦، و قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»: الرعد: ١١، و غير ذلك من الآيات الداله على أن بين أعمال الإنسان و بين النظام الكونى ارتباطا خاصا فلو جرى المجتمع الإنسانى على ما يقتضيه الفطره من الاعتقاد و العمل لنزلت عليه الخيرات و فتحت عليه البركات و لو أفسدوا أفسد عليهم.

هذا ما تقتضيه هذه السنه الإلهيه إلا أن ترد عليه سنه الابتلاء أو سنه الاستدراج و الإملاء فينقلب الأمر، قال تعالى: «ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَآخَذْنَاَهُمْ بِعَثَّةٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ»: الأعراف: ٩٥.

و يمكن أن يكون الخطاب فى الآيه عاما منحلا إلى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كل إنسان بمصيبه فى نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه و ما يتعلق به مستندا إلى معصيه أتى بها و سيئه عملها و يعفو الله عن كثير منها.

و كيف كان فالخطاب فى الآيه لعامه الناس من المؤمن و الكافر و هو الذى يفيد السباق و تؤيده الآيه التاليه هذا أولا، و المراد بما كسبته الأيدى المعاصى و السيئات دون مطلق الأعمال، و هذا ثانيا، و المصائب التى تصيب إنما هى آثار الأعمال فى الدنيا لما بين الأعمال و بينها من الارتباط و التداعى دون جزاء الأعمال و هذا ثالثا.

و بما ذكر يندفع أولا- ما استشكل على عموم الآيه بالمصائب النازله على الأنبياء (ع) و هم معصومون لا معصيه لهم، المصائب النازله على الأطفال و المجانين و هم غير مكلفين بتكليف فلا- معصيه لهم فيجب تخصيص الآيه بمصائب الأنبياء و مصائب الأطفال و المجانين.

وجه الاندفاع أن إثبات المعصيه لهم فى قوله: «فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» دليل على أن الخطاب فى الآيه لمن يجوز عليه صدور المعصيه فلا يشمل المعصومين و غير المكلفين من رأس فعدم شمول الآيه لهم من باب التخصص دون التخصيص.

و ثانيا ما قيل: إن مقتضى الآيه مغفره ذنوب المؤمنين جميعا فإنها بين ما يجوزون عليها بإصابه المصائب و ما يعفى عنها.

وجه الاندفاع أن الآيه مسوقه لبيان ارتباط المصائب بالمعاصى و كون المعاصى ذوات آثار دنيويه سيئه منها ما يصيب الإنسان و لا يخطئ و منها ما يعفى عنه فلا يصيب لأسباب صارفه و حكم مانعه كصله الرحم و الصدقه و دعاء المؤمن و التوبه و غير ذلك مما وردت به الأخبار، و أما جزاء الأعمال فالآيه غير ناظره إليه كما تقدم.

على أن الخطاب فى الآيه يعم المؤمن و الكافر كما تقدمت الإشارة إليه، و لا معنى لتبعضها فى الدلاله فتدل على المغفره فى المؤمن و عدمها فى الكافر.

و بعد هذا كله فالوجه الأول هو الأوجه.

قوله تعالى: «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ»، معنى الآيه ظاهر و هى باتصالها بما قبلها تفيد أنكم لا تعجزون الله حتى لا تصيبكم المصائب لذنوبكم و ليس لكم من دونه من ولى يتولى أمركم فيدفع عنكم المصائب و لا نصير ينصركم و يعينكم على دفعها.

قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ»، الجوارى جمع جاريه و هى

السفينه، والأعلام جمع علم و هو العلامه و يسمى به الجبل و شبهت السفائن بالجبال لعظمها و ارتفاعها و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «إِنْ يَشَأْ يُسَيِّدِ الرِّيحَ فَيَظْلِلَنَّ رَوَاكِدَ عَلِيٍّ ظَهْرَهُ» إلخ، ضمير «يَشَأْ» الله تعالى، و ظل بمعنى صار، و «رواكِد» جمع راكمه و هى الثابتة فى محلها و المعنى: إن يشأ الله يسكن الريح التى تجرى بها الجوارى فيصلرن أى الجوارى ثابته على ظهر البحر.

و قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» أصل الصبر الحبس و أصل الشكر إظهار نعمه المنعم بقول أو فعل، و المعنى: أن فيما ذكر من أمر الجوارى من كونها جاريه على ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقله للناس و أمتعتهم من ساحل إلى ساحل لآيات لكل من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعنيه و اشتغل بالتفكر فى نعمه و التفكر فى النعمة من الشكر.

و قيل: المراد بكل صبار شكور المؤمن لأن المؤمن لا يخلو من أن يكون فى الضراء أو فى السراء فإن كان فى الضراء كان من الصابرين و إن كان فى السراء كان من الشاكرين.

قوله تعالى: «أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ» الإيلاق الإهلاك، و ضمير التأنيث للجوارى و ضمير التذكير للناس، و يوبقهن و يعف معطوفان على «يُسْكِنِ»، و المعنى: إن يشأ يهلك الجوارى بإغراقها بسبب ما كسبوا من السيئات و يعف عن كثير منها أى إن بعضها كاف فى اقتضاء الإهلاك و إن عفا عن كثير منها.

و قيل: المراد بإهلاكها إهلاك أهلها إما مجازاً أو بتقدير مضاف، و «يُوبِقُهُنَّ» بالعطف على «يُسْكِنِ» فى معنى يرسل الرياح العاصفه فيوبقهم، و المعنى: إن يشأ يسكن الريح إلخ، و إن يشأ يرسلها فيهلكهم بالإغراق و ينج كثير منهم بالعفو، و المحصل: إن يشأ يسكن الريح أو يرسلها فيهلك ناسا بذنوبهم و ينج ناسا بالعفو عنهم و لا يخفى وجه التكلف فيه.

و قيل: إن «يَعْفُ» عطف على قوله: «يُسْكِنِ الرِّيحَ» إلى قوله: «بِمَا كَسَبُوا» و لذا عطف بالواو لا- بأو، و المعنى: إن يشأ يعاقبهم بالإسكان أو الإعصاف و إن يشأ يعف عن كثير. و هو فى التكلف كسابقه.

قوله تعالى: «وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ» قيل: هو غايه معطوفه على أخرى محذوفه، و التقدير نحو من قولنا: ليظهر به قدرته و يعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من مفر و لا مخلص، و هذا كثير الورد في القرآن الكريم غير أن المعطوف فيما ورد فيه مقارن للأمر الغايه كقوله: «وَيَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» آل عمران: ١٤٠.

و قوله: «وَلِيُكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ»: الأنعام: ٧٥.

و جوز بعضهم أن يكون معطوفا على جزاء الشرط بتقدير إن نحو إن جئني أكرمك و أعطيك كذا و كذا بنصب أعطيك، و المسألة نحويه خلافه فليرجع إلى ما ذكره فيه.

قوله تعالى: «فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» إلخ، تفصيل لما تقدم ذكره من الرزق و تقسيم له إلى ما عند الناس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن و الكافر و ما عند الله من رزق الآخرة المختص بالمؤمنين، و فيه تخلص إلى ذكر صفات المؤمنين و ذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامة.

فقوله: «فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» الخطاب للناس على ما يفيدده السياق دون المشركين خاصة، و المراد بما أُوتيتم من شيء جميع ما أعطيه للناس و رزقوه من النعيم، و إضافه المتاع إلى الحياه للإشاره إلى انقطاعه و عدم ثباته و دوامه، و المعنى: فكل شيء أعطيتموه مما عندكم متاع تتمتعون به في أيام قلائل.

و قوله: «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» المراد بما عند الله ما ادخره الله ثوابا ليشيب به المؤمنين، و اللام في «لِلَّذِينَ آمَنُوا» للملك و الظرف لغو، و قيل اللام متعلق بقوله: «أَبْقَى» و الأول أظهر، و كون ما عند الله خيرا لكونه خالصا من الألم و الكدر و كونه أبقى لكونه أدام غير منقطع الآخر.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» عطف على قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» و الآيه و آيتان بعدها تعد صفات المؤمنين الحسنه و قول بعضهم إنه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق.

و كبائر الإثم المعاصي الكبيره التي لها آثار سوء عظيمه و قد عد تعالى منها شرب

الخمير والميسر، قال تعالى: «قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ»: البقرة: ٢١٩، والفواحش جمع فاحشه و هي المعصيه الشنيعه النكراء وقد عد تعالى منها الزنا واللواط قال: «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجِيْنَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً»: إسرائ: ٣٢، وقال حاكيا عن لوط: «أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تَبْصُرُونَ»: النمل: ٥٤.

وقوله: «يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ» و هو فى سورة مكيه إشاره إلى إجمال ما سيفصل من تشريع تحريم كبائر المعاصى و الفواحش.

و فى قوله: «وَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» إشاره إلى العفو عند الغضب و هو من أخص صفات المؤمنين و لذا عبر عنه بما عبر و لم يقل: و يغفرون إذا غضبوا ففى الكلام جهات من التأكيد و ليس قصرا للمغفرة عند الغضب فيهم.

قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ» إلخ، الاستجابه هى الإجابه و استجابتهم لربهم إجابتهم لما يكلفهم به من الأعمال الصالحة-على ما يفيد السياق-و ذكر إقامة الصلاة بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه.

على أن الظاهر أن الآيات مكيه و لم يشرع يومئذ أمثال الزكاه و الخمس و الصوم و الجهاد، و فى قوله: «وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» من الإشاره إلى الإجمال الأعمال الصالحة المشرعه نظير ما تقدم فى قوله: «وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ» إلخ، و نظير الكلام جار فى الآيات التاليه.

وقوله: «وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» قال الراغب: و التشاور و المشاوره و المشوره استخراج الرأى بمراجعه البعض إلى البعض من قولهم: شرت العسل إذا أخذته من موضعه و استخراجته منه، قال تعالى: «وَ شاورُهُمْ فِي الْأَمْرِ» و الشورى الأمر الذى يتشاور فيه، قال تعالى: «وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» انتهى. فالمعنى: الأمر الذى يعزمون عليه شورى بينهم يتشاورون فيه، و يظهر من بعضهم أنه مصدر، و المعنى:

و شأنهم المشاوره بينهم.

و كيف كان ففيه إشاره إلى أنهم أهل الرشد و إصابه الواقع يعنون فى استخراج صواب الرأى بمراجعه العقول فالآيه قريبه المعنى من قول الله تعالى: «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ»: الزمر: ١٨.

وقوله: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» إشاره إلى بذل المال لمرضاه الله.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» قال الراغب: الانتصار والاستنصار طلب النصره. انتهى. فالمعنى: الذين إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصره من الآخرين و إذا كانوا متفقين على الحق كنفس واحده فكان الظلم أصاب جميعهم فطلبوا المقاومه قبله و أعدوا عليه النصره.

و عن بعضهم أن الانتصار بمعنى التناصر نظير اختصم و تخاصم و استبق و تسابق و المعنى عليه ظاهر.

و كيف كان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ينافى المغفره عند الغضب المذكوره فى جمله صفاتهم فإن المقاومه دون الظلم و سد بابه عن المجتمع لمن استطاعه و الانتصار و التناصر لأجله من الواجبات الفطريه، قال تعالى: «وَإِنِ اسْتَنْصِرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ»: الأنفال: ٧٢، و قال: «فَقَاتِلُوا آلَ تَيْبَةَ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ»: الحجرات: ٩.

قوله تعالى: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» إلى آخر الآيه بيان لما جعل للمتصير فى انتصاره و هو أن يقابل الباغى بما يماثل فعله و ليس بظلم و بغى.

قيل: و سمي الثانيه و هى ما يأتى بها المنتصر سيئه لأنها فى مقابله الأولى كما قال تعالى: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ»: البقره: ١٩٤، و قال الزمخشري: كلتا الفعلتين: الأولى و جزاؤها سيئه لأنها تسوء من تنزل به ففيه رعايه لحقيقه معنى اللفظ و إشاره إلى أن مجازاه السيئه بمثلها إنما تحمد بشرط المماثله من غير زياده.

وقوله: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» وعد جميل على العفو و الإصلاح، و الظاهر أن المراد بالإصلاح إصلاحه أمره فيما بينه و بين ربه، و قيل: المراد إصلاحه ما بينه و بين ظالمه بالعفو و الإغضاء.

وقوله: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» قيل: فيه بيان أنه تعالى لم يرغب المظلوم فى العفو عن الظالم لميله إلى الظالم أو لوجه إياه و لكن ليعرض المظلوم بذلك لجزيل الثواب، و لوجه تعالى الإحسان و الفضل.

وقيل: المراد أنه لا يحب الظالم فى قصاص و غيره بتعديه عما هو له إلى ما ليس هو له.

ووجهان و إن كانا حسنين في نفسيهما لكن سياق الآية لا يساعد عليهما و خاصه مع حيلولة قوله: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» بين التعليل و المعلل.

و يمكن أيضا أن يكون قوله: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» تعليلا لأصل كون جزاء السيئه سيئه من غير نظر إلى المماثله و المساواه. قوله تعالى: «وَلَمَنْ آتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ - إلى قوله - لَمَنْ عَزَمِ الْأُمُورِ» ضمير «ظُلْمِهِ» راجع إلى المظلوم. الإضافة من إضافه المصدر إلى مفعوله.

الآيات الثلاث تبين و رفع لبس من قوله في الآية السابقه: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» فمن الجائز أن يتوهم المظلوم أن في ذلك إلغاء لحق انتصاره فيبين سبحانه بقوله أولا: «وَلَمَنْ آتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ» أن لا سبيل على المظلومين و لا مجوز لإبطال حقهم في الشرع الإلهي، و إرجاع ضمير الأفراد إلى الموصول أولا باعتبار لفظه، و ضمير الجمع ثانيا باعتبار معناه.

و بين بقوله ثانيا: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» إن السبيل كله على الظالمين في الانتقام منهم للمظلومين، و أكد ذلك ذبلا بقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

و بين بقوله ثالثا: «وَلَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» إن الدعوه إلى الصبر و العفو ليست إبطلا لحق الانتصار و إنما هي إرشاد إلى فضيله هي من أعظم الفضائل فإن في المغفره الصبر الذي هو من عزم الأمور، و قد أكد الكلام بلام القسم أولا و باللام في خبر إن ثانيا لإفاده العنايه بمضمونه.

قوله تعالى: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَليٍّ مِنْ بَعْدِهِ» إلخ، لما ذكر المؤمنين بأوصافهم و أن لهم عند الله رزقهم المدخر لهم و فيه سعادته عقباهم التي هداهم الله إليها التفت إلى غيرهم و هم الظالمون الآيسون من تلك الهدايه الموصله إلى السعاده المحرومون من هذا الرزق الكريم فيبين أن الله سبحانه أضلهم لكفرهم و تكذيبهم فلا ينتهون إلى ما عنده من الرزق و لا يسعدهم به و ليس لهم من دونه من ولى حتى يتولى أمرهم

و يرزقهم ما حرمهم الله من الرزق، فهم صفر الأكف يتمنون عند مشاهدته العذاب الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيكونوا أمثال المؤمنين.

فقوله: «وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ» إلخ، من قبيل وضع السبب و هو إضلال الله لهم و عدم ولى آخر يتولى أمرهم فيهديهم و يرزقهم موضع المسبب و هو الهدايه و الرزق.

و قوله: «وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَيْلٌ إِلَيْنَا مِنْ سَبِيلٍ» إشاره إلى تمنيههم الرجوع إلى الدنيا بعد اليأس عن السعاده و مشاهدته العذاب.

و «تَرَى» خطاب عام وجه إلى النبي ص بما أنه راء و معناه و ترى و يرى كل من هو راء، و فيه إشاره إلى أنهم يتمنون ذلك على رءوس الأشهاد، و المرد هو الرد.

قوله تعالى: «وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» ضمير «عَلَيْهَا» للنار للدلاله المقام عليها و خفى الطرف ضعيفه و إنما ينظر من طرف خفى. إلى المكاره المهوله من ابتلى بها فهو لا يريد أن ينصرف فيغفل عنها و لا يجترئ أن يمتلى بها بصره كالمبصور ينظر إلى السيف، و الباقي ظاهر.

و قوله: «وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أى إن الخاسرين كل الخسران و بحقيقته هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها عن النجاه و أهليهم بعدم الانتفاع بهم يوم القيامة. و قيل أهلوهم أزواجهم من الحور و خدمهم فى الجنة لو آمنوا و لا يخلو من وجه نظرا إلى آيات وراثه الجنة.

و هذا القول المنسوب إلى المؤمنين إنما يقولونه يوم القيامة- و التعبير بلفظ الماضى لتحقق الوقوع- لا فى الدنيا كما يظهر من بعضهم فليس لاستناده تعالى إلى مقالة المؤمنين فى الدنيا وجه فى مثل المقام، و ليس القائلون به جميع المؤمنين كائنين من كانوا و إنما هم الكاملون منهم المأذون لهم فى الكلام الناطقون بالصواب محضا كأصحاب الأعراف و شهداء الأعمال قال تعالى: «يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ» هود: ١٠٥. و قال:

«لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا» النبأ: ٣٨.

فلا يصغى إلى ما قيل: إن القول المذكور إنما نسب إلى المؤمنين للدلاله على ابتهاجهم بما رزقوا يومئذ من الكرامه و نجوا من الخسران و إلا فالقول قول كل من يتأتى منه القول من أهل الجمع كما أن الرؤيه المذكوره قبله رؤيه كل من تتأتى منه الرؤيه.

وقوله: «أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ» تسجيل عليهم بالعذاب و أنه دائم غير منقطع، و جوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين.
 قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» إلخ، هذا التعبير أعنى قوله: «وَمَا كَانَ لَهُمْ» إلخ، دون أن يقال: و ما لهم من ولي كما قيل أولاً للدلالة على ظهور بطلان دعواهم و لايه أوليائهم فى الدنيا و أن ذلك كان باطلا من أول الأمر.
 وقوله: «وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ» صالح لتعليل صدر الآيه و هو كالنتيجة لجميع ما تقدم من الكلام فى حال الظالمين فى عقابهم، و نوع انعطاف إلى ما سبق من حديث تشريع الشريعة و السبيل بالوحى.

فهو كناية عن أنه لا سبيل إلى السعادة إلا سبيل الله الذى شرعه لعباده من طريق الوحى و الرساله فمن أضله عن سبيله لكفره و تكذيبه بسبيله فلا سبيل له يهتدى به إلى سعادته العقبى و التخلص من العذاب و الهلاك.

قوله تعالى: «اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ» دعوه و إنذار بيوم القيامة المذكور فى الآيات السابقة على ما يعطيه السياق، و قول بعضهم: إن المراد باليوم يوم الموت غير وجيه.

و فى قوله: «لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» «لَا» لنفى الجنس و «مَرَدَّ» اسمه و «لَهُ» خبره و «مِنَ اللَّهِ» حال من «مَرَدَّ» و المعنى، يوم لا رد له من قبل الله أى أنه مقضى محتوم لا يرده الله البتة فهو فى معنى ما تكرر فى كلامه تعالى من وصف يوم القيامة بأنه لا ريب فيه.

و قد ذكروا للجمله أعنى قوله: «يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» وجوها آخر من الإعراب لا جدوى فى نقلها.

و قوله: «مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ» الملجأ الملاذ الذى يلتجأ إليه و النكير - كما قيل - مصدر بمعنى الإنكار، و المعنى: ما لكم من ملاذ تلتجئون إليه من الله و ما لكم من إنكار لما صدر منكم لظهور الأمر من كل جهه.

قوله تعالى: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ» عدول من خطابهم إلى خطاب النبى ص لإعلام أن ما حملة من الأمر إنما هو التبليغ

فقط لمن يشاء و لذلك كررت المشيه، قيل: وجه تعريف الذكور أنهم المطلوبون لهم المعهودون في أذهانهم و خاصة العرب.

و قوله: «أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا» أى يجمع بينهم حال كونهم ذكرا و إناثا معا فالتزويج فى اللغة الجمع، و قوله: «وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا» أى لا- يلد و لا يولد له، و لما كان هذا أيضا قسما برأسه قيده بالمشيه كالتسمين الأولين، و أما قسم الجمع بين الذكران و الإناث فإنه بالحقيقه جمع بين القسمين الأولين فاكتفى بما ذكر من المشيه فيهما.

و قوله: «إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ» تعليل لما تقدم أى أنه عليم لا يزيد ما يزيد لجهل قدير لا ينقص ما ينقص عن عجز.

بحث روائى

□ فى الدر المنثور، أخرج الحاكم و صححه و البيهقى عن على قال*: إنما أنزلت هذه الآية فى أصحاب الصفة: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ» و ذلك أنهم قالوا: لو أن لنا فتمنوا الدنيا.

أقول: و الآية على هذا مدنيه لكن الروايه أشبه بالتطبيق منها بسبب النزول.

□ و فى تفسير القمى،: قوله: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ» قال الصادق (ع): لو فعل لفعلا-و لكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض-و استعبدهم بذلك و لو جعلهم أغنياء لبغوا» و لَكِنَّ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ» مما يعلم أنه يصلحهم فى دينهم و دنياهم» إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ».

و فى المجمع، روى أنس عن النبى ص* عن جبرئيل عن الله جل ذكره: أن من عبادى من لا- يصلحه إلا- السقم و لو صحته لأفسده، و إن من عبادى من لا- يصلحه إلا- الصحه و لو أسقمته لأفسده، و إن من عبادى من لا- يصلحه إلا الغنى و لو أفقرته لأفسده، و إن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر و لو أغنيته لأفسده، و ذلك أنى أدبر عبادى لعلمى بقلوبهم.

و فى تفسير القمى، حدثنى أبى عن ابن أبى عمير عن منصور بن يونس عن أبى حمزه

عن الأصمغ بن نباته عن أمير المؤمنين (ع) قال: *إني سمعته يقول: إني أحدثكم بحديث ينبغي لكل مسلم أن يعيه. ثم أقبل علينا فقال: ما عاقب الله عبدا مؤمنا في هذه الدنيا إلا كان الله أحكم و أجود- و أمجد من أن يعود في عقابه يوم القيامة.

ثم قال: و قد يتلى الله عز و جل المؤمن-بالبلية في بدنه أو ماله أو ولده أو أهله- ثم تلا هذه الآية: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ-وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» و حثا بيده ثلاث مرات.

و في الكافي، بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (ع) قال: *أما أنه ليس من عرق يضرب و لا نكبه و لا صداع و لا مرض إلا بذنب-و ذلك قول الله عز و جل في كتابه: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» قال: ثم قال:

و ما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به.

أقول: و روى هذا المعنى بطريق آخر عن مسمع عنه (ع)،

و روى مثله في الدر المنثور، عن الحسن عن النبي ص و لفظه: لما نزلت هذه الآية «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» قال رسول الله ص: و الذي نفسى بيده-ما من خدش عود و لا اختلاج عرق و لا نكبه حجر-و لا عثره قدم إلا بذنب، و ما يعفو الله عنه أكثر.

و في الكافي، أيضا بإسناده عن علي بن رئاب قال: *سألت أبا عبد الله عن قول الله عز و جل: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» أ رأيت ما أصاب عليا و أهل بيته (ع) من بعده-أ هو بما كسبت أيديهم و هم أهل بيت طهاره معصومون؟ فقال: إن رسول الله ص كان يتوب إلى الله-و يستغفر في كل يوم و ليلة مائه مره من غير ذنب-إن الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها.

و في المجمع، روى عن علي (ع) أنه قال: *قال رسول الله ص: خير آية في كتاب الله هذه الآية. يا علي ما من خدش عود و لا نكبه قدم إلا بذنب، و ما عفا إله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، و ما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثنى على عبده.:

أقول: و رواه في الدر المنثور، عن عده من أرباب الجوامع عن علي (ع) عنه (ص)

، و فحوى الرواية أن قوله تعالى: «وَمَا أَصَابَكُمْ» الآية خاص بالمؤمنين و الخطاب

لهم و أن مفاده غفران ذنوبهم كافة فلا يعاقبون عليها في برزخ و لا قيامه لأن الآيه تقصر الذنوب في مأخوذ به بإصابه المصيبة و معفو عنه و مفاد الروايه نفى المؤاخذة بعد المؤاخذة و نفى المؤاخذة بعد العفو.

فيشكل الأمر أولاً: من جهة ما عرفت أن الآيه في سياق يفيد عموم الخطاب للمؤمن و الكافر.

و ثانياً: من جهة معارضة الروايه لما ورد في أخبار متكاثره لعلها تبلغ حد التواتر المعنوي من أن من المؤمنين من يعذب في قبره أو في الآخره.

و ثالثاً: من جهة مخالفه الروايه لظواهر ما دلت من الآيات على أن موطن جزاء الأعمال هي الدار الآخره كقوله تعالى: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكُوا عَلَيْهِمْ مِنْ ذَاتِهِمْ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَمَا إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ»: النحل: ٦١، و غيره من الآيات الداله على أن كل مظلمه و معصيه مأخوذ بها و أن موطن الأخذ هو ما بعد الموت و في القيامه إلا ما غفرت بالتوبه أو تذهب بحسنه أو بشفاعه في الآخره أو نحو ذلك.

على أن الآيه أعنى قوله: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» - كما تقدمت الإشارة إليه - غير ظاهره في كون أصابه المصيبة جزاء للعمل و لا في كون العفو بمعنى إبطال الجزاء و إنما هو الأثر الدنيوي للسيئه يصيب مره و يمحي أخرى.

فالحرى أن تحمل الروايه - لو قبلت - على الأخذ بحسن الظن بالله سبحانه.

و في المجمع: في قوله تعالى: «وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ»: و

قد روى عن النبي ص أنه قال: ما من رجل يشاور أحداً إلا هدى إلى الرشد.

و في تفسير القمي، في روايه أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) * في قوله عز و جل:

«يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً» يعنى ليس معهن ذكور «و يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ» يعنى ليس معهم أنثى «أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَ إِنَاءً» أى يهب لمن يشاء ذكراً و إناثاً جميعاً - يجمع له البنين و البنات أى يهبهم جميعاً لواحد.

و في التهذيب، بإسناده عن الحسين بن علوان عن زيد بن على عن آباءه عن على

(ع) قال: * أتى النبي ص رجل فقال: يا رسول الله- إن أبي عمد إلى مملوك لي فأعتقه كهيئته المضرة لي- فقال رسول الله ص: أنت و مالك من هبه الله لأبيك- أنت سهم من كنانته «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ- أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَ إِنِثَاءً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا» جازت عتاقه أبيك يتناول والدك من مالك و بدنك- و ليس لك أن تتناول من ماله- و لا من بدنه شيئاً إلا بإذنه.

أقول: و هذا المعنى مروى عن الرضا(ع) فى جواب مسائل محمد بن سنان فى العلل و مروى من طرق أهل السنه عن عائشه عنه(ص).

[سوره الشورى (٤٢): الآيات ٥١ الى ٥٣]

اشاره

وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا- وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٍ (٥١) وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطٍ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

بيان

تتضمن الآيات آخر ما يفيد سبجانه فى تعريف الوحي فى هذه السوره و هو تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا- فيوحي بإذنه ما يشاء ثم يذكر أنه يوحى إليه(ص) ما يوحى، على هذه الوتيره و أن ما أوحى إليه منه تعالى لم يكن النبي ص يعلم ذلك من نفسه بل هو نور يهدى به الله من يشاء من عباده و يهدى به النبي ص بإذنه.

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذُنِهِ مَا يَشَاءُ» إلخ، قد تقدم البحث عن معنى كلامه تعالى في الجزء الثاني من الكتاب، وإطلاق الكلام على كلامه تعالى والتكليم على فعله الخاص سواء كان إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً واقع في كلامه تعالى قال: «يَا مُوسَىٰ إِنَّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي»: الأعراف: ١٤٤ و قال: «وَكَلامَ اللَّهِ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا» النساء: ١٦٤، و من مصاديق كلامه ما يتلقاه الأنبياء (ع) منه تعالى بالوحي.

و على هذا لا موجب لعد الاستثناء في قوله: «إِلَّا وَحِيًّا» منقطعاً بل الوحي و القسمان المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً فكل واحد من الوحي و ما كان من وراء حجاب و ما كان بإرسال رسول نوع من تكليمه للبشر.

فقوله: «وَحِيًّا» -و الوحي الإشارة السريعه على ما ذكره الراغب- مفعول مطلق نوعي و كذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النوعي، و المعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعاً من أنواع التكليم إلا- هذه الأنواع الثلاثة أن يوحى وحيًا أو يكون من وراء حجاب أو أن يرسل رسولا فيوحي بآذنه ما يشاء.

ثم إن ظاهر التريد في الآية بأو هو التقسيم على مغايره بين الأقسام و قد قيد القسمان الأخيران بقيد كالحجاب، و الرسول الذي يوحى إلى النبي و لم يقيد القسم الأول بشيء فظاهر المقابلة يفيد أن المراد به التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطه بينه تعالى و بين النبي أصلاً، و أما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد و هو الحجاب أو الرسول الموحى و كل منهما واسطه غير أن الفارق أن الواسطه الذي هو الرسول يوحى إلى النبي بنفسه و الحجاب واسطه ليس بموح و إنما الوحي من ورائه.

فتحصل أن القسم الثالث «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا- فَيُوحِيَ بآذُنِهِ مَا يَشَاءُ» وحي بتوسط الرسول الذي هو ملك الوحي فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه قال تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ»: الشعراء: ١٩٤، و قال: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ»: البقره: ٩٧، و الموحى مع ذلك هو الله سبحانه كما قال: «بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ»: يوسف: ٣.

و أما قول بعضهم: إن المراد بالرسول في قوله: «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا - فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ» هو النبي يبلغ الناس الوحي فلا يلائمه قوله: «فَيُوحِي» إذ لا يطلق الوحي على تبليغ النبي.

و إن القسم الثاني «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» وحي مع واسطه هو الحجاب غير أن الواسطه لا- يوحى كما فى القسم الثالث و إنما يتبدئ الوحي مما وراءه لمكان من، و ليس وراء بمعنى خلف و إنما هو الخارج عن الشىء المحيط به، قال تعالى: «وَ اللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ»: البروج: ٢٠، و هذا كتكليم موسى (ع) فى الطور، قال تعالى: «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ»: القصص: ٣٠، و من هذا الباب ما أوحى إلى الأنبياء فى مناماتهم.

و إن القسم الأول تكليم إلهى للنبي من غير واسطه بينه و بين ربه من رسول أو أى حجاب مفروض.

و لما كان للوحي فى جميع هذه الأقسام نسبه إليه تعالى على اختلافها صح إسناد مطلق الوحي إليه بأى قسم من الأقسام تحقق و بهذه العناية أسند جميع الوحي إليه فى كلامه كما قال: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ»: النساء: ١٦٣.

و قال: «وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ»: النحل: ٤٣.

هذا ما يعطيه التدبير فى الآيه الكريمة، و للمفسرين فيها أبحاث طويله الذيل و مشاجرات أضربنا عن الاشتغال بها من أرادها فليراجع المفصلات.

و قوله: «إنه على حكيم» تعليل لمضمون الآيه فهو تعالى لعلوه عن الخلق و النظام الحاكم فيهم يجعل أن يكلمهم كما يكلم بعضهم بعضاً، و لعلوه و حكمته يكلمهم بما اختار من الوحي و ذلك أن هدايه كل نوع إلى سعادته من شأنه تعالى كما قال: «الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»: طه: ٥٠، و قال: «وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» النحل: ٩، و سعادته الإنسان الذى يسلك سبيل سعادته بالشعور و العلم فى إعلام سعادته و الدلاله إلى سنه الحياه التى تنتهى إليها و لا يكفى فى ذلك العقل الذى من شأنه الإخطاء و الإصابه فاختر سبحانه لذلك طريق الوحي الذى لا يخطئ البتة، و قد فصلنا القول فى هذه الحجه فى موارد من هذا الكتاب.

قوله تعالى: « وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » إلخ، ظاهر السياق كون « كَذَلِكَ » إشاره إلى ما ذكر في الآيه السابقه من الوحي بأقسامه الثلاث، و يؤيده الروايات الكثيره الداله على أنه (ص) كما كان يوحي إليه بتوسط جبريل و هو القسم الثالث كان يوحي إليه في المنام و هو من القسم الثاني و يوحي إليه من دون توسط واسطه و هو القسم الأول.

و قيل: الإشاره إلى مطلق الوحي النازل على الأنبياء و هذا متعين على تقدير كون المراد بالروح هو جبريل أو الروح الأمرى كما سيأتى.

و المراد بإيحاء الروح-على ما قيل-إيحاء القرآن و أيد بقوله: «و لكن جعلناه نورا» إلخ، و من هنا قيل: إن المراد بالروح القرآن.

لكن يبقى عليه أولا: أنه لا ريب أن الكلام مسوق لبيان أن ما عندك من المعارف و الشرائع التى تتلبس بها و تدعو الناس إليها ليس مما أدركته بنفسك و أبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزل إليك بوحينا، و على هذا فلو كان المراد بالروح الموحى القرآن كان من الواجب الاقتصار على الكتاب فى قوله: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ» لأن المراد بالكتاب القرآن فيكون الإيمان زائدا مستغنى عنه.

و ثانيا: أن القرآن و إن أمكن أن يسمى روحا باعتبار إحيائه القلوب بهداه كما قال تعالى: «إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ»: الأنفال: ٢٤، و قال: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ»: الأنعام: ١٢٢، لكن لا وجه لتقيده حينئذ بقوله: «مِنْ أَمْرِنَا» و الظاهر من كلامه تعالى أن الروح من أمره خلق من العالم العلوى يصاحب الملائكه فى نزولهم، قال تعالى: «تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَ الرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ»: القدر: ٤، و قال: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صَفًّا»: النبأ: ٣٨، و قال: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي»: إسرائ: ٨٥، و قال: «وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»: البقره: ٨٧، و قد سمي جبريل الروح الأمين و روح القدس حيث قال: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ»: الشعراء: ١٩٣، و قال: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ»: النحل: ١٠٢.

و يمكن أن يجاب عن الأول بأن مقتضى المقام و إن كان هو الاقتصار على ذكر

الكتاب فقط لكن لما كان إيمانه (ص) بتفاصيل ما فى الكتاب من المعارف و الشرائع من لوازم نزول الكتاب غير المنفكه عنه و آثاره الحسنه صح أن يذكر مع الكتاب فالمعنى: و كذلك أوحينا إليك كتابا ما كنت تدري ما الكتاب و لا ما تجده فى نفسك من أثره الحسن الجميل و هو إيمانك به.

و عن الثانى أن المعهود من كلامه فى معنى الروح و إن كان ذلك لكن حمل الروح فى الآيه على ذلك المعنى و إرادته الروح الأمرى أو جبريل منه يوجب أخذ «أَوْحَيْنَا» بمعنى أرسلنا إذ لا- يقال: أوحينا الروح الأمرى أو الملك فلا مفر من كون الإيحاء بمعنى الإرسال و هو كما ترى فأخذ الروح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال و الجوابان لا يخلوان عن شىء.

و قيل: المراد بالروح جبريل فإن الله سماه فى كتابه روحا قال: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ»: الشعراء: ١٩٤ و قال: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ».

و قيل: المراد بالروح الروح الأمرى الذى ينزل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى: «يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا:

النحل: ٢، فالمراد بإيحاؤه إليه إنزاله عليه.

و يمكن أن يوجه التعبير عن الإنزال بالإيحاء بأن أمره تعالى على ما يعرفه فى قوله: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ» يس: ٨٢، هو كلمته، و الروح من أمره كما قال: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي»: إسراء: ٨٥، فهو كلمته، و هو يصدق ذلك قوله فى عيسى بن مريم (ع): «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ»: النساء: ١٧١، و إنزال الكلمه تكليم فلا ضير فى التعبير عن إنزال الروح بإيحاؤه، و الأنبياء مؤيدون بالروح فى أعمالهم كما أنهم يوحى إليهم الشرائع به قال تعالى: «وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» و قد تقدمت الإشارة إليه فى تفسير قوله تعالى:

«وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِتْيَاءَ الزَّكَاةِ»: الأنبياء: ٧٣.

و يمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الإنزال و الإرسال بالقول بكون قوله:

«رُوحاً» منصوبا بنزع الخافض و رجوع ضمير «جعلناه» إلى القرآن المعلوم من السياق أو الكتاب و المعنى و كذلك أوحينا إليك القرآن بروح منا ما كنت تدري ما الكتاب

و ما الإيمان و لكن جعلنا القرآن أو الكتاب نورا إلخ، هذا و ما أذكر أحدا من المفسرين قال به.

و قوله: «مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ» قد تقدم أن الآيه مسوقه لبيان أن ما عنده (ص) الذي يدعو إليه إنما هو من عند الله سبحانه لا من قبل نفسه و إنما أوتى ما أوتى من ذلك بالوحي بعد النبوه فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقاديه و الشرائع العمليه فإن ذلك هو الذي أوتى العلم به بعد النبوه و الوحي، و بعدم درايته بالإيمان عدم تلبسه بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقه و الأعمال الصالحه و قد سمي العمل إيمانا في قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ الْبقره: ١٤٣».

فالمعنى: ما كان عندك قبل وحي الروح الكتاب بما فيه من المعارف و الشرائع و لا كنت متلبسا بما أنت متلبس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقادي و العملي بمضامينه و هذا لا ينافي كونه (ص) مؤمنا بالله موحدا قبل البعثه صالحا في عمله فإن الذي تنفيه الآيه هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب و الالتزام بها اعتقادا و عملا و نفى العلم و الالتزام التفصيليين لا يلازم نفى العلم و الالتزام الإجماليين بالإيمان بالله و الخضوع للحق.

و بذلك يندفع ما استدل بعضهم بالآيه على أنه (ص) كان غير متلبس بالإيمان قبل بعثته.

و يندفع أيضا ما عن بعضهم أنه (ص) لم يزل كاملا في نفسه علما و عملا و هو ينافي ظاهر الآيه أنه ما كان يدري ما الكتاب و لا الإيمان.

و وجه الاندفاع أن من الضروري وجود فرق في حاله (ص) قبل النبوه و بعدها و الآيه تشير إلى هذا الفرق، و أن ما حصل له بعد النبوه لا صنع له فيه و إنما هو من الله من طريق الوحي.

و قوله: «وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» ضمير «جَعَلْنَاهُ» للروح و المراد بقوله: «مَنْ نَشَاءُ» على تقدير أن يراد بالروح القرآن هو النبي ص و من آمن به فإنهم جميعا مهتدون بالقرآن.

و على تقدير أن يراد به الروح الأمرى فالمراد بمن نشاء جميع الأنبياء و من آمن بهم

من أممهم فإنه يهدى بالوحي الذى نزل به، الأنبياء و المؤمنين من أممهم و يسدد الأنبياء خاصه و يهديهم إلى الأعمال الصالحه و يشير عليهم بها.

و على هذا تكون الآية فى مقام تصديق النبى ص تصدقه فى دعواه أن كتابه من عند الله بوحي منه، و تصدقه فى دعواه أنه مؤمن بما يدعو إليه فى معنى قوله تعالى: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ»: يس: ٥.

و قوله: «وَ إِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» إشاره إلى أن الذى يهدى إليه صراط مستقيم و أن الذى يهديه من الناس هو الذى يهديه الله سبحانه، فهدايته (ص) هدايه الله.

قوله تعالى: «صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» إلخ، بيان للصراط المستقيم الذى يهدى إليه النبى ص، و توصيفه تعالى بقوله: «الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» للدلاله على الحججه على استقامه صراطه فإنه تعالى لما ملك كل شىء ملك الغايه التى تسير إليها الأشياء و السعاده التى تتوجه إليها، فكانت الغايه و السعاده هى التى عينها، و كان الطريق إليها و السبيل الذى عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الذى شرعه و بينه، و ليس يملك أحد شيئاً حتى ينصب له غايه و نهايه أو يشرع له إليها سبيلاً، فالسعاده التى يدعو سبحانه إليها حق السعاده و الطريق الذى يدعو إليه حق الطريق و مستقيم الصراط.

و قوله: «الْأَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» تنبيه على لازم ملكه لما فى السماوات و ما فى الأرض فإن لازمه رجوع أمورهم إليه و لازمه كون السبيل الذى يسلكونه - و هو من جملة أمورهم - راجعاً إليه فالصراط المستقيم هو صراطه فالمضارع أعنى قوله: «تَصِيرُ» للاستمرار.

و فيه إشعار بلم الوحي و التكليم الإلهى، إذ لما كان مصير الأشياء إليه تعالى كان لكل نوع إليه تعالى سبيل يسلكه و كان عليه تعالى أن يهديه إليه و يسوقه إلى غايته كما قال: «وَ عَلَى اللَّهِ قَضِيَّةُ السَّبِيلِ»: النحل: ٩، و هو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته و هو فى الإنسان التكليم المسمى بالوحي و الإرسال.

وقيل: المضارع للاستقبال والمراد مصيرها جميعا إليه يوم القيامة، وقد سيقمت الجملة لوعده المهتدين إلى الصراط المستقيم و عيد الضالين عنه، وأول الوجهين أظهر.

بحث روائى

فى الدر المنثور، أخرج البخارى و مسلم و البيهقى عن عائشه * أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ص كيف يأتىك الوحي؟ قال: أحيانا يأتىنى الملك فى مثل صلصلة الجرس -فيفصم عنى و قد وعيت عنه ما قال و هو أشده على، و أحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول:

قالت عائشه: و لقد رأيتة ينزل عليه الوحي -فى اليوم الشديد البرد فيفصم- و إن جبينه ليتفصد عرقا.

و فى التوحيد، بإسناده عن زراره قال: * قلت لأبى عبد الله (ع): جعلت فداك -الغشيه التى كانت تصيب رسول الله ص إذا نزل عليه الوحي؟ قال: فقال: ذلك إذا لم يكن بينه و بين الله أحد- ذاك إذا تجلى الله له. قال: ثم قال: تلك النبوه يا زراره و أقبل يتخشع.

و فى العلل، بإسناده عن ابن أبى عمير عن عمرو بن جميع عن أبى عبد الله (ع) قال: * كان جبرئيل إذا أتى النبى ص قعد بين يديه قعده العبد، و كان لا يدخل حتى يستأذنه.

و فى أمالى الشيخ، بإسناده عن ابن أبى عمير عن هشام بن سالم عن أبى عبد الله (ع) قال: * قال بعض أصحابنا: أصلحك الله -كان رسول الله ص يقول: قال جبرئيل، و هذا جبرئيل يأمرنى- ثم يكون فى حال أخرى يغمى عليه، فقال أبو عبد الله (ع):

أنه إذا كان الوحي من الله إليه -ليس بينهما جبرئيل- أصابه ذلك لثقل الوحي من الله، و إذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك- فقال: قال لى جبرئيل و هذا جبرئيل.

و فى البصائر، عن على بن حسان عن ابن بكير عن زراره قال: * سألت أبا جعفر (ع) من الرسول؟ من النبى؟ من المحدث؟ فقال: الرسول الذى يأتىه جبرئيل فيكلمه

قبلا-فيراه كما يرى أحدكم صاحبه الذى يكلمه فهذا الرسول، و النبی الذى يؤتى فى النوم نحو رؤيا إبراهيم(ع)، و نحو ما كان يأخذ رسول الله ص من السبات-إذا أتاه جبرئيل فى النوم فهكذا النبی، و منهم من يجمع له الرساله و النبوه-فكان رسول الله ص رسولا- نبيًا-يأتيه جبرئيل قبلا فيكمله و يراه، و يأتيه فى النوم، و أما المحدث فهو الذى يسمع كلام الملك-فيحدثه من غير أن يراه-و من غير أن يأتيه فى النوم.

أقول:و فى معناه روايات أخر.

و فى التوحيد، بإسناده عن محمد بن مسلم و محمد بن مروان عن أبى عبد الله(ع) قال*: ما علم رسول الله ص أن جبرئيل من قبل الله إلا بالتوفيق.

و فى تفسير العياشى، عن زراره قال*: قلت لأبى عبد الله(ع): كيف لم يخف رسول الله ص-فيما يأتيه من قبل الله-أن يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان؟ قال:

فقال: إن الله إذا اتخذ عبدا رسولا-أنزل عليه السكينه و الوقار-فكان يأتيه من قبل الله مثل الذى يراه بعينه.

و فى الكافى، بإسناده عن أبى بصير قال*: سألت أبا عبد الله(ع) عن قول الله تبارك و تعالى: «وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا-مَا كُنْتَ تَدْرِي مِمَّا الْكُتُبُ وَلَا-الْأَيْمَانُ» قال: خلق من خلق أعظم من جبرئيل و ميكائيل-كان مع رسول الله ص يخبره و يسدده، و هو مع الأئمه من بعده.

أقول:و فى معناها عدّه روايات و فى بعضها أنه من الملكوت،

قال فى روح المعانى،:و نقل الطبرسى عن أبى جعفر و أبى عبد الله: أن المراد من هذا الروح ملك أعظم من جبرائيل و ميكائيل- كان مع رسول الله ص و لم يصعد إلى السماء، و هذا القول فى غايه الغرابه و لعله لا يصح عن هذين الإمامين. انتهى.

و الذى فى مجمع البيان، عن أبى جعفر و أبى عبد الله(ع) قالوا: و لم يصعد إلى السماء و إنه لفينا. انتهى.

و استغرابه فيما لا دليل له على نفيه غريب. على أنه يسلم تسديد هذا الروح لبعض الأمه غير النبی كما هو ظاهر لمن راجع قسم الإشارات من تفسيره.

و فى النهج،: و لقد قرن الله به(ص) من لدن كان فطيما-أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم-و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره.

وفى الدر المنثور، أخرج أبو نعيم فى الدلائل و ابن عساكر عن على قال*: قيل للنبي ص: هل عبت و ثنا قط؟ قال: لا. قالوا: فهل شربت خمرًا قط؟ قال:

لا- و ما زلت أعرف أن الذى هم عليه كفر- و ما كنت أدري ما الكتاب و ما الإيمان، و بذلك نزل القرآن «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ».

وفى الكافى، بإسناده عن أبى عمرو الزبيرى عن أبى عبد الله (ع) فى حديث، * و قال فى نبيه ص: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» يقول: تدعو.

وفى الكافى، بإسناده عن جابر عن أبى جعفر (ع) قال*: سمعته يقول: وقع مصحف فى البحر فوجدوه- و قد ذهب ما فيه إلا هذه الآية: «أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ».

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ (٤) أَ فَضْرِبُ عَنْكُمْ
الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) وَ كَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (٧) فَأَهْلَكْنَا
أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ
تُخْرَجُونَ (١١) وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَمْزَاجَ كُلَّهَا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لَيْسَتُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَهُ
رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)

السورة موضوعه للإنذار كما تشهد به فاتحتها وخاتمتها والمقاصد المتخلله بينهما إلا ما فى قوله: «إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» إلى تمام ست آيات استطراديه.

تذكر أن السنه الإلهيه إنزال الذكر و إرسال الأنبياء و الرسل و لا يصده عن ذلك إسراف الناس فى قولهم و فعلهم بل يرسل الأنبياء و الرسل و يهلك المستهزين بهم و المكذبين لهم ثم يسوقهم إلى نار خالده.

و قد ذكرت إرسال الأنبياء بالإجمال أولاً ثم سمي منهم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى (ع)، و ذكرت من إسراف الكفار أشياء و من عمدتها قولهم بأن الله سبحانه ولدا و أن الملائكه بنات الله ففيها عنايه خاصه بنفى الولد عنه تعالى فكررت ذلك و ردتة و أوعدتهم بالعذاب، و فيها حقائق متفرقه أخرى.

و السوره مكيه بشهاده مضامين آياتها إلا قوله: «وَسئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا» الآية، و لم يثبت كما سيأتى إن شاء الله.

قوله تعالى: «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ» ظاهره أنه قسم و جوابه قوله: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» إلى آخر الآيتين، و كون القرآن مبينا هو إبانته و إظهاره طريق الهدى كما قال تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» النحل: ٨٩، أو كونه ظاهرا فى نفسه لا يرتاب فيه كما قال: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ» البقره: ٢.

قوله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» الضمير للكتاب، و «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» أى مقروا باللغه العربيه و «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» غايه الجعل و غرضه.

و جعل رجاء تعقله غايه للجعل المذكور يشهد بأن له مرحله من الكينونه و الوجود لا ينالها عقول الناس، و من شأن العقل أن ينال كل أمر فكرى و إن بلغ من اللطافه و الدقه ما بلغ فمفاد الآية أن الكتاب بحسب موطنه الذى له فى نفسه أمر وراء الفكر أجنبى عن العقول البشرىه و إنما جعله الله قرآنا عربيا و ألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه، و الرجاء فى كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلم كما تقدم غير مره.

قوله تعالى: «وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَمَدِينًا لَعَلِّي حَكِيمٌ» تأكيد و تبين لما تدل عليه الآية السابقة أن الكتاب في موطنه الأصلي وراء تعقل العقول.

و الضمير للكتاب، والمراد بأم الكتاب اللوح المحفوظ كما قال تعالى: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ»: البروج: ٢٢، و تسميته بأم الكتاب لكونه أصل الكتب السماويه يستسخ منه غيره، و التقييد بأم الكتاب و «لَمَدِينًا» للتوضيح لا- للاحتراز، و المعنى: أنه حال كونه في أم الكتاب لدينا-حالا- لازمه-لعلى حكيم، و سيجيء في أواخر سورة الجاثية كلام في أم الكتاب إن شاء الله.

و المراد بكونه عليا على ما يعطه مفاد الآية السابقة أنه رفيع القدر و المنزله من أن تناله العقول، و بكونه حكيما أنه هناك محكم غير مفصل و لا مجزى إلى سور و آيات و جمل و كلمات كما هو كذلك بعد جعله قرآنا عربيا كما استفدناه من قوله تعالى:

«كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»: هود: ١.

و هذان النعتان أعنى كونه عليا حكيما هما الموجبان لكونه وراء العقول البشريه فإن العقل في فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم و الألفاظ أولا و كان مؤلفا من مقدمات تصديقيه يترتب بعضها على بعض كما في الآيات و الجمل القرآنيه، و أما إذا كان الأمر وراء المفاهيم و الألفاظ و كان غير متجزى إلى أجزاء و فصول فلا طريق للعقل إلى نيئه.

فمحصل معنى الآيتين: أن الكتاب عندنا في اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع و أحكام لا تناله العقول لذينك الوصفين و إنما أنزلناه بجعله مقروا عربيا رجاء أن يعقله الناس.

فإن قلت: ظاهر قوله: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» إمكان تعقل الناس هذا القرآن العربى النازل تعقلا تاما فهذا الذى نقرؤه و نعقله إما أن يكون مطابقا لما فى أم الكتاب كل المطابقه أو لا يكون، و الثانى باطل قطعا كيف؟ و هو تعالى يقول: «وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ» و «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ»: البروج: ٢٢، و «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ»: الواقعة: ٧٨، فتعين الأول و مع مطابقته لأم الكتاب كل المطابقه ما معنى كون القرآن العربى الذى عندنا معقولا لنا و ما فى أم الكتاب عند الله غير معقول لنا.

قلت: يمكن أن تكون النسبه بين ما عندنا و ما فى أم الكتاب نسبه المثل و الممثل فالمثل هو الممثل بعينه لكن الممثل له لا يفقه إلا المثل فافهم ذلك.

و بما مر يظهر ضعف الوجوه التي أوردوها في تفسير الوصفين كقول بعضهم: إن المراد بكونه عليا أنه عال في بلاغته مبین لما يحتاج إليه الناس، و قول بعضهم: معناه أنه يعلو كل كتاب بما اختص به من الإعجاز و هو ينسخ الكتب غيره و لا ينسخه كتاب، و قول بعضهم يعنى أنه يعظمه الملائكة و المؤمنون.

و كقول بعضهم فى معنى «حَكِيمٌ» إنه مظهر للحكمه البالغه، و قول بعضهم معناه أنه لا- ينطق إلا بالحكمه و لا يقول إلا الحق و الصواب، ففى توصيفه بالحكيم تجوز لغرض المبالغه. و ضعف هذه الوجوه ظاهر بالتدبر فى مفاد الآيه السابقه و ظهور أن جعله قرآنا عربيا بالنزول عن أم الكتاب.

قوله تعالى: «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَاحِبًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ» الاستفهام للإنكار، و الفاء للتفريع على ما تقدم، و ضرب الذكر عنهم صرفه عنهم. قال فى المجمع:، و أصل ضربت عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابه فأراد أن يصرفه عن جهه ضربه بعضا أو سوط ليعدل به إلى جهه أخرى ثم وضع الضرب موضع الصرف و العدل.

انتهى. و الصفح بمعنى الإعراض فصفحا مفعول له، و احتمال أن يكون بمعنى الجانب «وَأَنْ كُنْتُمْ» محذوف الجار و التقدير لأن كنتم و هو متعلق بقوله: «أَفَنَضْرِبُ».

و المعنى: أفنصرف عنكم الذكر- هو الكتاب الذى جعلناه قرآنا لتعقلوه- للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أفنصرفه عنكم إلى جانب لكونكم مسرفين أى أنا لا نصرّفه عنكم لذلك.

قوله تعالى: «وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» «كَمْ» للتكثير، و الأولون هم الأمم الدارجه و «مَا يَأْتِيهِمْ» إلخ، حال و العامل فيها «أَرْسَلْنَا».

و الآيتان و ما يتلوها فى مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم بيان أن كونكم قوما مسرفين لا يمنعنا من إجراء سنه الهدايه من طريق الوحي فإننا كثيرا ما أرسلنا من نبي فى الأمم الماضين و الحال أنه ما يأتيتهم من نبي إلا استهزءوا به و انجر الأمر إلى أن أهلكنا من أولئك من هو أشد بطشا منكم.

فكما كانت عاقبه إسرافهم و استهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبه إسرافكم ففى الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبي ص و وعيد لقومه.

قوله تعالى: «فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» قال الراغب:

البطش تناول الشيء بصوله. انتهى و في الآيه التفات في قوله: «مِنْهُمْ» من الخطاب إلى الغيبه، و كان الوجه فيه العدول عن خطابهم إلى خطاب النبي ص لعدم اعتبارهم بهذه القصص و العبر و ليكون تمهيدا لقوله بعد: «وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» و يؤيده قوله بعد: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ» خطابا للنبي ص. و معنى قوله: «وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» و مضى في السور النازله قبل هذه السوره من القرآن و وصف الأمم الأولين و أنه كيف حاق بهم ما كانوا به يستهزون.

قوله تعالى: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» في الآيه و ما يتلوها إلى تمام ست آيات احتجاج على ربوبيته تعالى و توحده فيها مع إشاره ما إلى المعاد و تبكيت لهم على إسرافهم مأخوذ من اعترافهم بأنه تعالى هو خالق الكل ثم الأخذ بجهات من الخلق هي بعينها تدبير لأمر العباد كجعل الأرض لهم مهذا و جعله فيها سبلا و إنزال الأمطار فينتج أنه تعالى وحده مالك مدبر لأمرهم فهو الرب لا رب غيره.

و بذلك تبين أن الآيه تقدمه و توطئه لما تتضمنه الآيات التاليه من الحججه و قد تقدم في هذا الكتاب مرارا أن الوثنيه لا تنكر رجوع الصنع و الإيجاد إليه تعالى وحده و إنما تدعى رجوع أمر التدبير إلى غيره.

قوله تعالى: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» أي جعل لكم الأرض بحيث تربون فيها كما يربي الأطفال في المهد، و جعل لكم في الأرض سبلا و طرقا تسلكونها و تهتدون بها إلى مقاصدكم.

و قيل: معنى «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» رجاء أن تهتدوا إلى معرفه الله و توحيده في العباده و الأول أظهر.

و في الكلام التفات إلى خطاب القوم بعد صرف الخطاب عنهم إلى النبي ص و لعل الوجه فيه إظهار العناية بهذا المعنى في الخلقه و هو أن التدبير بعينه من الخلق فاعترافهم بكون الخلق مختصا بالله سبحانه و قولهم برجوع التدبير إلى غيره من خلقه من التهافت في القول جهلا فقرعهم بهذا الخطاب من غير واسطه.

قوله تعالى: «وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ» قيد تنزيل الماء بقدر للإشارة إلى أنه عن إرادته و تدبير لا كيف اتفق و الإنشار الإحياء، و الميت مخفف الميت بالتحديد، و توصيف البلده به باعتبار أنها مكان لأن البلده أيضا إنما تتصف بالموت و الحياه باعتبار أنها مكان، و الالتفات عن الغيبه إلى التكلم مع الغير في «فَأَنْشَرْنَا» لإظهار العناية.

و لما استدلت بتنزيل الماء بقدر و إحياء البلده الميتة على خلقه و تدبيره استنتج منه أمر آخر لا يتم التوحيد إلا به و هو المعاد الذى هو رجوع الكل إليه تعالى فقال:

«كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ» أى كما أحيا البلده الميتة كذلك تبعثون من قبوركم أحياء.

قيل: فى التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذى هو إحياء الموتى و عن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات و تهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال و توضيح منهاج القياس.

قوله تعالى: «وَالَّذِي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّهَا وَ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الفُلكِ وَ الأنعامِ مَا تَرْكَبُونَ» قيل: المراد بالأزواج أصناف الموجودات من ذكر و أنثى و أبيض و أسود و غيرها، و قيل: المراد الزوج من كل شىء فكل ما سوى الله كالفوق و تحت و اليمين و اليسار و الذكر و الأنثى زوج.

و قوله: «وَ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الفُلكِ وَ الأنعامِ مَا تَرْكَبُونَ» أى تركبونه، و الركوب إذا نسب إلى الحيوان كالفرس و الإبل تعدى بنفسه فيقال: ركبت الفرس و إذا نسب إلى مثل الفلك و السفينه تعدى بفى فيقال ركب فيه قال تعالى: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفُلكِ» ففى قوله: «مَا تَرْكَبُونَ» أى تركبونه تغليب لجانب الأنعام.

قوله تعالى: «لَتَسْبِتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا -إلى قوله- لَمُنْقَلِبُونَ» الاستواء على الظهر الاستقرار عليها، و الضمير فى «ظُهُورِهِ» راجع إلى لفظ الموصول فى «مَا تَرْكَبُونَ»، و الضمير فى قوله: «إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ» للموصول أيضا فكما يقال: استويت على ظهر الدابة يقال: استويت على الدابة.

و المراد بذكر نعمه الرب سبحانه بعد الاستواء على ظهر الفلك و الأنعام ذكر النعم التى ينتفع بها الإنسان بتسخيره تعالى له هذه المراكب كالانتقال من مكان إلى

مكان و حمل الأثقال قال تعالى: «وَسَيَحْزَنُ لَكُمْ الْفُلُوكَ لَتَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ» إبراهيم: ٣٢، وقال: «وَاللَّاتِغَامَ خَلَقَهَا -X إلى أن قال X- وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ» النحل: ٧، أو المراد ذكر مطلق نعمه تعالى بالانتقال من ذكر هذه النعم إليه.

و قوله: «وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» أى مطيقين و الإقران الإطاقة.

و ظاهر ذكر النعمة عند استعمالها و الانتفاع بها شكر منعمها و لازم ذلك أن يكون ذكر النعمة غير قول: «سُبْحَانَ الَّذِي» إلخ، فإن هذا القول تسييح و تنزيه له عما لا يليق بساحه كبريائه و هو الشريك فى الربوبية و الألوهية، و ذكر النعمة شكر - كما تقدم - و الشكر غير التنزيه.

و يؤيد هذا ما ورد عن النبى ص و أمته أهل البيت (ع) فى ما يقال عند الاستواء على المركوب فإن الروايات على اختلافها تتضمن التحميد وراء التسييح يقول «سُبْحَانَ الَّذِي» إلخ.

و روى فى الكشاف، عن الحسن بن على (ع) * أنه رأى رجلا يركب دابه فقال:

سبحان الذى سخر لنا هذا- فقال: أ بهذا أمرتم؟ فقال: و بم أمرنا؟ قال: إن تذكروا نعمه ربكم.

و قوله: «وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» أى صائرون شهاده بالمعاد.

سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١٥ الى ٢٥

اشاره

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفًا كَمَا بِالْبَيْنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مِمَّنْ يَنْشَوْنَ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَمِ امٍ غَيْرٌ مُّبِينٌ (١٨) وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَ إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٢) وَ كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَوْمِهِ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَ إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْزَلْنَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ (٢٥)

حكايه بعض أقوالهم التى دعاهم إلى القول بها الإسراف و الكفر بالنعمة و هو قولهم بالولد و أن الملائكه بنات الله سبحانه،و احتجاجهم على عبادتهم الملائكه و رده عليهم.

قوله تعالى: « وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ » المراد بالجزء الولد فإن الولاده إنما هى الاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصور بصورته.

و إنما عبر عن الولد بالجزء للإشارة إلى استحاله دعواهم، فإن جزئيه شىء من شىء كيفما تصورت لا تتم إلا بتركب فى ذلك الشىء و الله سبحانه واحد من جميع الجهات.

و قد بان بما تقدم أن « مِنْ عِبَادِهِ » بيان لقوله: « جُزْءًا » و لا ضير فى تقدم هذا النوع من البيان على المبين و لا فى جمعيه البيان و أفراد المبين.

قوله تعالى: « أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ » أى أخلصكم للبنين

فلکم بنون و ليس له إلا البنات و أنتم ترون أن البنت أخس من الابن فتشبتون له أخس الصنفين و تخصون أنفسكم بأشرفهما و هذا مع كونه قولاً محالاً في نفسه إزراء و إهانته ظاهره و كفران.

و تقييد اتخاذ البنات بكونه مما يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكة-على ربوبيتهم و ألوهيتهم-مخلوقين لله، و الالتفات في الآية إلى خطابهم لتأكيد الإلزام و تثبيت التوبيخ، و التنكير و التعريف في «بنات» و «البنين» للتحقير و التفضيم.

قوله تعالى: «وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ» المثل هو المثل و الشبهه المجانس للشيء و ضرب الشيء مثلاً أخذه مجانسا للشيء «وَ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا» الأثنى، و الكظيم المملوء كرباً و غيظاً.

و المعنى: و حالهم أنه إذا بشر أحدهم بالأثنى الذي جعلها شبهها مجانسا للرحمان صار وجهه مسوداً من الغم و هو مملوء كرباً و غيظاً لعدم رضاهم بذلك و عده عاراً لهم لكنهم يرضونه له.

و الالتفات في الآية إلى الغيبة لحكاية شنيع سيرتهم و قبيح طريقتهم للغير حتى يتعجب منه.

قوله تعالى: «أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْحَلِيِّ وَ هُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» أى أ و جعلوا لله سبحانه من ينشأ في الحلية أى يتربى في الزينه و هو في المخاصمه و المحاجه غير مبين لحجته لا يقدر على تقرير دعواه.

و إنما ذكر هذين النعتين لأن المرأه بالطبع أقوى عاطفه و شفقه و أضعف تعقلاً بالقياس إلى الرجل و هو بالعكس و من أوضح مظاهر قوه عواطفها تعلقها الشديد بالحليه و الزينه و ضعفها في تقرير الحجه المبني على قوه التعقل.

قوله تعالى: «وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا» الخ، هذا معنى قولهم: إن الملائكة بنات الله و قد كان يقول به طوائف من عرب الجاهليه و أما غيرهم من الوثنيه فربما عدوا في آلهتهم إلهه هى أم إله أو بنت إله لكن لم يقولوا بكون جميع الملائكة إناثاً كما هو ظاهر المحكى في الآية الكريمة.

و إنما وصف الملائكة بقوله: «الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ» رداً لقولهم بأنوثتهم لأن الإناث لا- يطلق عليهن العباد، و لا- يلزم منه اتصافهم بالذكوره بالمعنى الذى يتصف به

الحيوان فإن الذكور و الأنوثة اللتين في الحيوان من لوازم وجوده المادى المجهز للتناسل و توليد المثل، و الملائكة في معزل من ذلك.

و قوله: «أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْتَلُونَ» رد لدعواهم الأنوثة في الملائكة بأن الطريق إلى العلم بذلك الحس و هم لم يروهم حتى يعلموا بها فلم يكونوا حاضرين عند خلقهم حتى يشاهدوا منهم ذلك.

فقوله: «أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ إِيح» استفهام إنكارى و وعيد على قولهم بغير علم أى لم يشهدوا خلقهم و ستكتب فى صحائف أعمالهم هذه الشهادة عليهم و يسألون عنه يوم القيامة.

قوله تعالى: «وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» حجة عقلية داحضة محكية عنهم يمكن أن تقرر تاره لإثبات صحة عبادة الشركاء بأن يقال: لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ما عبدناهم ضروره لاستحاله تخلف مراده تعالى عن إرادته لكننا نعبدهم فهو لم يشأ ذلك و عدم مشيئته عدم عبادتهم إذن فى عبادتهم فلا منع من قبله تعالى عن عبادة الشركاء و الملائكة منهم، و هذا المعنى هو المنساق إلى الذهن من قوله فى سورة الأنعام: «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ»: الأنعام: ١٤٨، على ما يعطيه السياق ما قبله و ما بعده.

و تقرر تاره لإبطال النبوه القائله إن الله يوجب عليكم كذا و كذا و يحرم عليكم كذا كذا بأن يقال لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء و لا نحل و لا نحرم شيئا لم نعبد الشركاء و لم نضع من عندنا حكما لاستحاله تخلف مراده تعالى عن إرادته لكننا نعبدهم و نحل و نحرم أشياء فلم يشأ الله سبحانه منا شيئا، فقول إن الله يأمركم بكذا و ينهاكم عن كذا و بالجمله أنه شاء كذا باطل.

و هذا المعنى هو الظاهر المستفاد من قوله تعالى فى سورة النحل: «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ»: النحل: ٣٥، بالنظر إلى السياق.

و قولهم فى محكى الآيه المبحوث عنها: «لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ» على ما يفيدته سياق الآيات السابقه و اللاحقه مسوق للاحتجاج على المعنى الأول و هو تصحيح

عبادتهم للملائكة فيكون في معنى آية سورة الأنعام و أخص منها.

وقوله: «مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ» أى هو منهم قول مبنى على الجهل فإنه مغالطه خلطوا فيها بين الإرادة التكوينية و الإرادة التشريعية و أخذ الأولى مكان الثانية، فمقتضى الحجة أن لا إرادته تكوينيه منه تعالى متعلقه بعدم عبادتهم الملائكة و انتفاء تعلق هذا النوع من الإرادة بعدم عبادتهم لهم لا يستلزم انتفاء تعلق الإرادة التشريعية به.

فهو سبحانه لما لم يشأ أن لا يعبدوا الشركاء بالإرادة التكوينية كانوا مختارين غير مضطرين على فعل أو ترك فأراد منهم بالإرادة التشريعية أن يوحده و لا يعبدوا الشركاء، و الإرادة التشريعية لا يستحيل تخلف المراد عنها لكونها اعتباريه غير حقيقيه، و إنما تستعمل فى الشرائع و القوانين و التكاليف المولويه، و الحقيقه التى تبتنى عليها هى اشمال الفعل على مصلحه أو مفسده.

و بما تقدم يظهر فساد ما قيل: إن حجتهم مبنيه على مقدمتين: الأولى أن عبادتهم للملائكة بمشيته تعالى، و الثانية أن ذلك مستلزم لكونها مرضيه عنده تعالى و قد أصابوا فى الأولى و أخطأوا فى الثانية حيث جهلوا أن المشيه عباره عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائنا ما كان من غير اعتبار الرضا و السخط فى شىء من الطرفين.

وجه الفساد: أن مضمون الحجة عدم تعلق المشيه على ترك العباده و عدم تعلق المشيه بالترك لا يستلزم تعلق المشيه بالفعل بل لازمه الإذن الذى هو عدم المنع من الفعل. ثم إن ظاهر كلامه قصر الإراده فى التكوينية و إهمال التشريعية التى عليها المدار فى التكاليف المولويه و هو خطأ منه.

و يظهر أيضا فساد ما نسب إلى بعضهم أن المراد بقولهم: «لو شاء الرحمن ما عبدناهم» الاعتذار عن عبادته الملائكة بتعلق مشيه الله بها مع الاعتراف بكونها قبيحه.

و ذلك أنهم لم يكونوا مسلمين لقبح عبادته آلهتهم حتى يعتذروا عنها و قد حكى عنهم ذيلا قولهم: «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَ إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ».

وقوله: «إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» الخرص -على ما يظهر من الراغب- القول على الظن و التخمين، و فسر أيضا بالكذب.

قوله تعالى: «أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ» ضمير «مِنْ قَبْلِهِ»

للقرآن، وفي الآيه نفى أن يكون لهم حجه من طريق النقل كما أن في الآيه السابقه نفى حجتهم من طريق العقل، و محصل الآيتين أن لا حجه لهم على عباده الملائكه لا من طريق العقل و لا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها.

قوله تعالى: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتِدُونَ» الأمه الطريقه التي تؤم و تقصد، و المراد بها الدين، و الإضراب عما تحصل من الآيتين، و المعنى: لا دليل لهم على حقيه عبادتهم بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على دين و إنا على آثارهم مهتدون أى إنهم متشبثون بتقليد آباءهم فحسب.

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا» إلخ، أى إن التشبث بذيل التقليد ليس مما يختص بهؤلاء فقد كان ذلك دأب أسلافهم من الأمم المشركين و ما أرسلنا من قبلك فى قريه من نذير و هو النبى إلا تشبث متعموها بذيل التقليد و قالوا: إنا وجدنا أسلافنا على دين و إنا على آثارهم مقتدون لن نتركها و لن نخالفهم.

و نسبه القول إلى مترفيهم للإشارة إلى أن الإتراف و التنعيم هو الذى يدعوهم إلى التقليد و يصرفهم عن النظر فى الحق.

قوله تعالى: «قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ» إلخ، القائل هو النذير، و الخطاب للمترفين و يشمل غيرهم بالتبعيه، و العطف فى «أَوْ لَوْ جِئْتُمْ» على محذوف يدل عليه كلامهم، و التقدير أنكم على آثارهم مقتدون و لو جئتم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ و المحصل: هل أنتم لازمون لدينهم حتى لو كان ما جئتم به من الدين أهدى منه؟ و عد النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلا لا هدى فيه من باب مجاراه الخصم.

و قوله: «قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» جواب منهم لقول النذير: «أَوْ لَوْ جِئْتُمْ» إلخ و هو تحكم من غير دليل.

قوله تعالى: «فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» أى تفرع على ذلك الإرسال و الرد بالتقليد و التحكم أنا أهلكتناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبه أولئك السابقين من أهل القرى و فيه تهديد لقوم النبى ص.

وَ إِذْ قَالَ اِبْرَاهِيمُ لآيِيهِ وَ قَوْمِهِ اِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) اِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي فَاِنَّهُ سَيَّهْدِينِ (٢٧) وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَ اٰبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُوْلٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوْا هٰذَا سِحْرٌ وَ اِنَّا بِهٖ كَافِرُوْنَ
(٣٠) وَ قَالُوْا لَوْلَا نَزَّلَ هٰذَا الْقُرْاٰنُ عَلٰى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْيْتَيْنِ عَظِيْمٍ (٣١) اَمْ هُمْ يَقْسِمُوْنَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيْشَتَهُمْ فِي
الْحَيٰةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سِيْرًا وَّ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُوْنَ (٣٢) وَ لَوْلَا اَنْ
يَكُوْنَ النَّاسُ اُمَّةً وَّاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ اٰيٰتِيْهِمْ سِيْفًا مِّنْ فَوْقِ سَمٰوٰتِهِمْ وَ مَعٰرِجًا عَلَيْهِمْ يَصْهَرُوْنَ (٣٣) وَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ اٰيٰتِيْهِمْ
عَلَيْهَا يَتَّكِبُوْنَ (٣٤) وَ زُخْرُفًا وَ اِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعٌ الْحَيٰةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِيْنَ (٣٥) وَ مَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ
نَقِيْضٌ لِّهٖ شَيْطٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ (٣٦) وَ اِنَّهُمْ لَيَصُدُّوْنَهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ وَ يَحْسَبُوْنَ اَنْهُمْ مُّهْتَدُوْنَ (٣٧) حَتَّىٰ اِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِيْ وَ
بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِيْنُ (٣٨) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمْ اَلْيَوْمَ اِذْ ظَلَمْتُمْ اَنْكُمْ فِي الْعٰذَابِ مُشْتَرِكُوْنَ (٣٩) اَفَاَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ اَوْ
تَهْدِي الْعُمْىَ وَ مَنْ كَانَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ (٤٠) فَاِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَاِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُوْنَ (٤١) اَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَاِنَّا عَلَيْهِمْ
مُقْتَدِرُوْنَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى اُوْحِيَ اِلَيْكَ اِنَّكَ عَلٰى صِرٰطٍ مُسْتَقِيْمٍ (٤٣) وَ اِنَّهٗ لَذِكْرٌ لَّكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُوْنَ (٤٤)
وَ سْئَلُ مَنْ اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا اَمْ جَعَلْنَا مِنْ دُوْنِ الرَّحْمٰنِ اٰلِهَةً يُعْبَدُوْنَ (٤٥)

لما انجر الكلام إلى ردهم رساله الرسول و كفرهم بها تحكما و تشبثهم فى الشرك بذيل تقليد الآباء و الأسلاف من غير دليل عقب ذلك بالإشارة إلى قصه إبراهيم(ع) و رفضه تقليد أبيه و قومه و تبريه عما يعبدونه من دون الله سبحانه و استهدائه هدى ربه الذى فطره.

ثم يذكر تمتيعه لهم بنعمه و كفرانهم بها بالكفر بكتاب الله و طعنهم فيه و فى رسوله بما هو مردود عليهم. ثم يذكر تبعه الإعراض عن ذكر الله و ما تنتهى إليه من الشقاء و الخسران، و يعطف عليه إياس النبى ص من إيمانهم و تهديدهم بالعذاب و يؤكد الأمر للنبي ص أن يستمسك بالقرآن و إنه لذكر له و لقومه و سوف يسألون عنه، و إن الذى فيه من دين التوحيد هو الذى كان عليه الأنبياء السابقون عليه.

قوله تعالى: «وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنِّي بِرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ» البراء مصدر من برىء يبرأ فهو برىء فمعنى «إِنِّي بِرَاءٌ» إننى: ذو براء أو برىء على سبيل المبالغه مثل زيد عدل.

و فى الآيه إشارة إلى تبرى إبراهيم(ع) مما كان يعبده أبوه و قومه من الأصنام

و الكواكب بعد ما حاجهم فيها فاستندوا فيها إلى سيره آباؤهم على ما ذكر في سور الأنعام و الأنبياء و الشعراء و غيرها.

و المعنى: و اذكر لهم إذ تبرأ إبراهيم عن آلهه أبيه و قومه إذ كانوا يعبدونها تقليدا لآبائهم من غير حجه و قام بالنظر وحده.

قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ» أى إلا الذى أوجدنى و هو الله سبحانه، و فى توصيفه تعالى بالفطر إشارة إلى الحجه على ربوبيته و ألوهيته فإن الفطر و الإيجاد لا ينفك عن تدبير أمر الموجود المفطور فالذى فطر الكل هو الذى يدبر أمرهم فهو الحقيق أن يعبد.

و قوله: «فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ» أى إلى الحق الذى أطلبه، و قيل: أى إلى طريق الجنة، و فى هذه الجملة إشارة إلى خاصه أخرى ربويه و هى الهدايه إلى السبيل الحق يجب أن يسلكه الإنسان فإن السوق إلى الكمال من تمام التدبير فعلى الرب المدبر لأمر مربوبه أن يهديه إلى كماله و سعادته، قال تعالى: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» طه: ٥٠، و قال: «وَعَلَى اللَّهِ قَصِيدُ السَّبِيلِ» النحل: ٩، فالرجوع إلى الله بتوحيد العباده يستتبع الهدايه كما قال تعالى: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» العنكبوت: ٦٩.

و الاستثناء فى قوله: «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي» منقطع لأن الوثنيين لا- يعبدون الله كما مر مرارا، فقول بعضهم: إنه متصل، و إنهم كانوا يقولون: الله ربنا مع عبادتهم الأوثان، كما ترى.

قوله تعالى: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» الظاهر أن ضمير الفاعل المستتر فى «جَعَلَهَا» الله سبحانه، و الضمير البارز- على ما قيل- لكلمه البراءه التى تكلم بها إبراهيم (ع) و معناها معنى كلمه التوحيد فإن مفاد لا إله إلا الله نفى الآلهه غير الله لا نفى الآلهه و إثبات الإله تعالى (١) و هو ظاهر فلا- حاجه إلى ما تكلف به بعضهم أن الضمير لكلمه التوحيد المعلوم مما تكلم به إبراهيم (ع).

و المراد بعقبه ذريته و ولده، و قوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أى يرجعون من عباده

ص: ٩٦

١- ١) و ذلك أن الله فيها مرفوع على البدليه لا منصوب على الاستثناء.

آله غير الله إلى عبادته تعالى أى يرجع بعضهم- وهم العابدون لغير الله بدعوه بعضهم و هم العابدون لله- إلى عبادته تعالى، و بهذا يظهر أن المراد ببقاء الكلمه فى عقبه عدم خلوهم عن الموحد ما داموا، و لعل هذا عن استجابته دعائه (ع) إذ يقول: «وَ اجْتَنِبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»: إبراهيم: ٣٥.

و قيل: الضمير فى «جعل» لإبراهيم (ع) فهو الجاعل هذه الكلمه باقيه فى عقبه رجاء أن يرجعوا إليها، و المراد بجعلها باقيه فيهم وصيته لهم بذلك كما قال تعالى:

﴿وَصَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: البقره: ١٣٢.

و أنت خير بأن الوصيه بكلمه التوحيد لا تسمى جعلاً للكلمه باقيه فى العقب و إن صح أن يقال: أراد بها ذلك لكنه غير جعلها باقيه فيهم.

و قيل: المراد أن الله جعل الإمامه كلمه باقيه فى عقبه و سيجىء الكلام فيه فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله.

و يظهر من الآيه أن ذريه إبراهيم (ع) لا تخلو من هذه الكلمه إلى يوم القيامه.

قوله تعالى: «يَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ» إضراب عما يفهم من الآيه السابقه، و المعنى: أن رجوعهم عن الشرك إلى التوحيد كان هو الغايه المرجوه منهم لكنهم لم يرجعوا بل تمتعت هؤلاء من قومك و آباءهم فتمتعوا بنعمى «حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ».

و لعل الالتفات إلى التكلم وحده فى قوله: «يَلْ مَتَّعْتُ» للإشاره إلى تفخيم جرمهم و أنهم لا يقصدون فى كفرانهم للنعمه و كفرهم بالحق و رميه بالسحر إلا إياه تعالى وحده.

و المراد بالحق الذى جاءهم هو القرآن، و بالرسول المبين محمد ص.

قوله تعالى: «وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ» هذا طعنهم فى الحق الذى جاءهم و هو القرآن و يستلزم الطعن فى الرسول. كما أن قولهم الآتى: «لَوْ لَا نُزِّلَ الْإِنْجِيلُ كَذَلِكَ».

قوله تعالى: « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » المراد بالقريتين مكة و الطائف، و مرادهم بالعظمه-على ما يفيدہ السياق-ما هو من حيث المال و الجاه اللذين هما ملاك الشرافه و علو المنزله عند أبناء الدنيا، و المراد بقوله: « رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » رجل من إحدى القريتين حذف المضاف إيجازا.

و مرادهم أن الرساله منزله شريفه إلهيه لا ينبغي أن يتلبس به إلا رجل شريف في نفسه عظيم مطاع في قومه، و النبي ص فقير فاقد لهذه الخصله، فلو كان القرآن الذي جاء به و حيا نازلا- من الله فلو لا نزل على رجل عظيم من مكة أو الطائف كثير المال رفيع المنزله.

و في المجمع: و يعنون بالرجل العظيم من إحدى القريتين الوليد بن المغيرة بن مكة و أبا مسعود عروه بن مسعود الثقفي من الطائف. عن قتاده، و قيل: عتبه بن أبي ربيعه من مكة و ابن عبد ياليل من الطائف. عن مجاهد، و قيل: الوليد بن المغيرة من مكة و حبيب بن عمر الثقفي من الطائف. عن ابن عباس. انتهى.

و الحق أن ذلك من تطبيق المفسرين و إنما قالوا ما قالوا على الإبهام و أرادوا أحد هؤلاء من عظماء القريتين على ما هو ظاهر الآيه.

قوله تعالى: « أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » إلخ، المراد بالرحمه-على ما يعطيه السياق- النبوه.

و قال الراغب: العيش الحياه المختصه بالحيوان، و هو أخص من الحياه لأن الحياه تقال في الحيوان و في الباري تعالى و في الملك، و يشتق منه المعيشه لما يتعيش به.

انتهى. و قال: التسخير سياقه إلى الغرض المختص قهرا- إلى أن قال: و السخرى هو الذي يقهر فيتسخر بإرادته. انتهى.

و الآيه و الآيتان بعدها في مقام الجواب عن قولهم: « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ » إلخ، و محصلها أن قولهم هذا تحكم ظاهر ينبغي أن يتعجب منه فإنهم يحكمون فيما لا يملكون. هذه معيشتهم في الحياه الدنيا يعيشون بها و يرتزقون و هي رحمه منا لا قدر لها و لا منزله عندنا و ليست إلا متاعا زائلا نحن نقسمها بينهم و هي خارجه عن مقدرتهم و مشيتهم فكيف يقسمون النبوه التي هي الرحمه الكبرى و هي مفتاح سعادة البشر الدائمه و الفلاح الخالد فيعطونها لمن شاءوا و يمنعونها ممن شاءوا.

فقوله: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ» الاستفهام للإنكار، والالتفات إلى الغيبه في قوله: «رَحْمَتَ رَبِّكَ» و لم يقل: رحمتنا، للدلاله على اختصاص النبي ص بعنايه الربوبيه فى النبوه.

و المعنى: أنهم لا يملكون النبوه التى هى رحمه الله خاصه به حتى يمنعوك منها و يعطوها لمن هووا.

و قوله: «نَحْنُ قَسِمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» بيان لوجه الإنكار فى الجملة السابقه بأنهم عاجزون عن قسمه ما هو دون النبوه بمراحل و لا منزله له و هو معيشتهم فى الحياه الدنيا فنحن قسمناها بينهم فكيف يقسمون ما هو أرفع منزله منها بما لا يقدر قدره و هو النبوه التى هى رحمه ربك الخاصه به.

و الدليل على أن الأرزاق و المعاييش ليست بيد الإنسان اختلاف أفراده بالغنى و الفقر و العافيه و الصحه و فى الأولاد و سائر ما يعد من الرزق، و كل يريد أن يقتنى منها ما لا مزيد عليه، و لا يكاد يتيسر لأحد منهم جميع ما يتمناه و يرتضيه فلو كان ذلك بيد الإنسان لم يوجد معدم فقير فى شىء منها بل لم يختلف اثنان فيها فاختلفا فهم فيها أوضح دليل على أن الرزق مقسوم بمشيئه من الله دون الإنسان.

على أن الإراده و العمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصه لحصول المطلوب الذى هو الرزق و وراءهما أسباب كونه لا تحصى خارجه عن مقدره الإنسان لا يحصل المطلوب إلا بحصولها جميعا و اجتماعها عليه و ليست إلا بيد الله الذى إليه تنتهى الأسباب.

هذا كله فى المال و أما الجاه فهو أيضا مقسوم من عند الله فإنه يتوقف على صفات خاصه بها ترتفع درجات الإنسان فى المجتمع فيتمكن من تسخير من هو دونه كالفظنه و الدهاء و الشجاعه و علو الهمة و أحكام العزيمه و كثره المال و العشيره و شىء من ذلك لا يتم إلا بصنع من الله سبحانه، و ذلك قوله: «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا».

فيتبين بمجموع القولين أعنى قوله: «نَحْنُ قَسِمْنَا» إلخ، و قوله: «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ» إلخ، إن القاسم للمعيشه و الجاه بين الناس هو الله سبحانه لا غير، و قوله:

«وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ» أى النبوه خير من المال فكيف يملكون قسمها و هم لا يملكون قسم المال فيما بينهم.

و من الممكن أن يكون قوله: « وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ » عطف تفسير على قوله: « نَحْنُ قَسِدٌ مِّنَّا يَبْتَهُم مَّعِيشَتَهُمْ » إلخ، يبين قسم المعيشه بينهم ببيان علل انقسامها فى المجتمع الإنسانى، بيان ذلك أن كثره حوائج الإنسان فى حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها فى عيش انفرادى أحوجته إلى الاجتماع مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام و الاستدرار أولا- و على طريق التعاون و التعاضد ثانيا كما مر فى مباحث النبوه من الجزء الثانى من الكتاب.

فآل الأمر إلى المعاوضه العامه المفيده لنوع من الاختصاص بأن يعطى كل مما عنده من حوائج الحياه ما يفضل من حاجته و يأخذ به من الغير ما يعادله مما يحتاج إليه فيعطى مثلا ما يفضل من حاجته من الماء الذى عنده و قد حصله و اختص به و يأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغذاء، و لازم ذلك أن يسعى كل فرد بما يستعد له و يحسنه من السعى فيقتنى مما يحتاج إليه ما يختص به، و لازم ذلك أن يحتاج غيره إليه فيما عنده من متاع الحياه فيتسخر له فيفيده ما يحتاج إليه كالبخاز يحتاج إلى ما عند السقاء من الماء و بالعكس فيتعاونان بالمعاوضه و كالمخدوم يتسخر للخادم لخدمته و الخادم يتسخر للمخدوم لماله و هكذا فكل بعض من المجتمع مسخر لآخرين بما عنده و الآخرون متسخرون له بلا واسطه أو بواسطه أو وسائط لما أن كلا يرتفع على غيره بما يختص به مما عنده بدرجات مختلفه باختلاف تعلق الهمم و القصود به.

و على ما تقدم فالمراد بالمعيشه كل ما يعاش به أعم من المال و الجاه أو خصوص المال و غيره تبع له كما يؤيده قوله ذيلًا: « وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » فإن المراد به المال و غيره من لوازم الحياه مقصود بالتبع.

قوله تعالى: « وَ لَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » - إلى قوله - « وَ مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ » الآية و ما يتلوهها لبيان أن متاع الدنيا من مال و زينه لا قدر لها عند الله سبحانه و لا منزله.

قالوا: المراد بكون الناس أمه واحده كونهم مجتمعين على سنه واحده هى الكفر بالله لو رأوا أن زينه الدنيا بحذافيرها عند الكافر بالله و المؤمن صفر الكف منها مطلقا، و المعارج الدرجات و المصاعد.

و المعنى: و لو لا أن يجتمع الناس على الكفر لو رأوا تنعم الكافرين و حرمان

المؤمنين لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضه و درجات عليها يظهرون لغيرهم.

و يمكن أن يكون المراد بكون الناس أمه واحده كونهم جميعا على نسبه واحده تجاه الأسباب العامله فى حظوظ العيش من غير فرق بين المؤمن و الكافر، فمن سعى لسعيه للرزق و وافقته الأسباب و العوامل الموصله الأخرى نال منه مؤمنا كان أو كافرا، و من لم يجتمع له حرم ذلك و قتر عليه الرزق مؤمنا أو كافرا.

و المعنى: لو لا ما أردنا أن يتساوى الناس تجاه الأسباب الموصله إلى زخارف الدنيا و لا يختلفوا فيها بالإيمان و الكفر لجعلنا لمن يكفر، إلخ.

قوله تعالى: « وَ لِيُؤْتِيَهُمْ أَبُوَابًا وَ سُرُرًا عَلَیْهَا يَتَّكُونَ وَ زُخْرَفًا » تنكير « أَبُوَابًا » و « سُرُرًا » للتفخيم، و الزخرف الذهب أو مطلق الزينه، قال فى المجمع: الزخرف كمال حسن الشىء و منه قيل للذهب، و يقال: زخرفه زخرفه إذا حسنه و زينه، و منه قيل للنقوش و التصاوير: زخرف،

و فى الحديث: أنه (ص) لم يدخل الكعبه - حتى أمر بالزخرف فنجى. انتهى. و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: « وَ إِنْ كُنْ ذَلِكُ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » « إِنْ » للنفي و « لَمَّا » بمعنى إلا أى ليس كل ما ذكر من مزايا المعيشه إلا متاع الحياه الدنيا الزائله الفانيه التى لا تدوم.

و قوله: « وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » المراد بالآخره بقرينه المقام الحياه الآخره السعيده كان الحياه الآخره الشقيه لا تعد حياه.

و المعنى: أن الحياه الآخره السعيده بحكم من الله تعالى و قضاء منه مختصه بالمتقين، و هذا التخصيص و القصر يؤيد ما قدمناه من معنى كون الناس أمه واحده فى الدنيا بعض التأييد.

قوله تعالى: « وَ مَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » يقال: عشى يعشى عشا من باب علم يعلم إذا كان يبصره آفه لا يبصر مطلقا أو بالليل فقط، و عشا يعشو عشوا و عشوا من باب نصر ينصر إذا تعامى و تعشى بلا آفه، و التقييض التقدير و الإتيان بشىء إلى شىء، يقال: قويضه له إذا جاء به إليه.

لما انتهى الكلام إلى ذكر المتقين و أن الآخره لهم عند الله قرنه بعاقبه أمر

المعرضين عن الحق المتعامين عن ذكر الرحمن مشيراً إلى أمرهم من أوله و هو أن تعاميتهم عن ذكر الله يورثهم ملازمه قرناء الشياطين فيلازمونهم مضلين لهم حتى يردوا عذاب الآخرة معهم.

فقوله: «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضُ لَهُ شَيْطَانًا» أي من تعامى عن ذكر الرحمن و نظر إليه نظر الأعشى جننا إليه بشيطان، و قد عبر تعالى عنه في موضع آخر بالإرسال فقال: «أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا»: مريم: ٨٣، و إضافه الذكر إلى الرحمن للإشارة إلى أنه رحمه.

و قوله: «فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» أي مصاحب لا يفارقه.

قوله تعالى: «وَإِنَّهُمْ لَيُضِلُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ» ضمير «أنهم» للشياطين، و ضمائر الجمع الباقية للعاشين عن الذكر، و اعتبار الجمع نظراً إلى المعنى في «وَمَنْ يَعِشْ» إلخ، و الصد الصرف، و المراد بالسبيل ما يدعو إليه الذكر من سبيل الله الذي هو دين التوحيد.

و المعنى: و إن الشياطين ليصرفون العاشين عن الذكر و يحسب العاشون أنهم - أي العاشين أنفسهم - مهتدون إلى الحق.

و هذا أعنى حسابانهم أنهم مهتدون عند انصدادهم عن سبيل الحق أماره تقيض القرين و دخولهم تحت ولايه الشيطان فإن الإنسان بطبعه الأولى مفطور على الميل إلى الحق و معرفته إذا عرض عليه ثم إذا عرض عليه فأعرض عنه اتباعاً للهوى و دام عليه طبع الله على قلبه و أعمى بصره و قيص له القرين فلم ير الحق الذي تراءى له و طبق الحق الذي يميل إليه بالفطره على الباطل الذي يدعو إليه الشيطان فيحسب أنه مهتد و هو ضال و يخيل إليه أنه على الحق و هو على الباطل.

و هذا هو الغطاء الذي يذكر تعالى أنه مضروب عليهم في الدنيا و أنه سينكشف عنهم يوم القيامة، قال تعالى: «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي - إلى أن قال - قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا»: الكهف: ١٠٤، و قال فيما يخاطبه يوم القيامة و معه قرينه: «لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَيْفَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» - إلى أن قال X - «قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعَيْتُهُ وَ لَكِنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ»: ق: ٢٧.

قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ» «حَتَّىٰ» غايه لاستمرار الفعل الذى يدل عليه قوله فى الآيه السابقه: «لِيُصِدُّوهُمْ» وقوله: «يَحْسَبُونَ» أى لا يزال القرناء يصدونهم ولا يزالون يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا الواحد منهم.

و المراد بالمجىء إليه تعالى البعث، و ضمير «جاء» و «قال» راجع إلى الموصول باعتبار لفظه، و المراد بالمشرقين المشرق و المغرب غلب فيه جانب المشرق.

و المعنى: و أنهم يستمرون على صدهم عن السبيل و يستمر العاشون عن الذكر على حساب أنهم مهتدون فى انصدادهم حتى إذا حضر الواحد منهم عندنا و معه قرينه و كشف له عن ضلاله و ما يستتبعه من العذاب الأليم، قال مخاطبا لقرينه متأذيا من صحابته: يا ليت بينى و بينك بعد المشرق و المغرب فبئس القرين أنت.

و يستفاد من السياق أنهم معذبون بصحابه القرناء و راء عذابهم بالنار، و لذا يتمنون التباعد عنهم و يخصوصونه بالذكر و ينسون سائر العذاب.

قوله تعالى: «وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» الظاهر أنه معطوف على ما قبله من وصف حالهم، و المراد باليوم يوم القيامة، و قوله: «أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» فاعل «لَنْ يَنْفَعَكُمُ» و المراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر و قرناؤهم، و «إِذْ ظَلَمْتُمْ» واقع موقع التعليل.

و المراد- و الله أعلم- أنكم إذا أساء بعضكم إلى بعض فى الدنيا فأوقعه فى مصيبه ربما تسليتم بعض التسلى لو ابتلى هو نفسه بمثل ما ابتلاكم به فينفعكم ذلك تسليا و تشفيا لكن لا ينفعكم يوم القيامة اشتراك قرنائكم معكم فى العذاب فإن اشتراكهم معكم فى العذاب و كونهم معكم فى النار هو بعينه عذاب لكم.

و ذكر بعض المفسرين أن فاعل «لَنْ يَنْفَعَكُمُ» ضمير راجع إلى تمنيههم المذكور فى الآيه السابقه، و قوله: «إِذْ ظَلَمْتُمْ» أى لأجل ظلمكم أنفسكم فى الدنيا باتباعكم إياهم فى الكفر و المعاصى، و قوله: «أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» تعليل لنفى النفع و المعنى: و لن ينفعكم تمنى التباعد عنكم لأن حقكم أن تشاركونهم فى العذاب.

و فيه أن فيه تدافعا فإنه أخذ قوله: «إِذْ ظَلَمْتُمْ» تعليلا لنفى نفع التمنى أولا

وقوله: «أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» تعليلاً له ثانياً ولازم التتابع بين التعليقين أن يذكر ثانياً القضاء على المتمنين التابعين بالعذاب لا باشتراك التابعين والمتبوعين فيه.

وقال بعضهم: معنى الآية أنه لا يخفف الاشتراك عنكم شيئاً من العذاب لأن لكل واحد منكم و من قرنائكم الحظ الأوفر من العذاب.

و فيه أن ما ذكر من سبب عدم النفع و إن فرض صحيحاً في نفسه لكن لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية و لا سياق الكلام.

وقال بعضهم: المعنى: لا- ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم في تحمل أعبائها و تقسمهم لعنائها لأن لكل منكم و من قرنائكم من العذاب ما لا تبلغه طاقته.

و فيه ما في سابقه من الكلام، و رد أيضاً بأن الانتفاع بذلك الوجه ليس مما يخطر ببالهم حتى يرد عليهم بنفيه.

قوله تعالى: «أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» لما ذكر تقييضه القرآن لهم و تقليبهم إدراكهم بحيث يرون الضلال هدى و لا- يقدر على معرفه الحق فرع عليه أن نبه (ص) أن هؤلاء صم عمى لا يقدر هو على أسماعهم كلمه الحق و هدايتهم إلى سبيل الرشده فلا يتجشم و لا يتكلف في دعوتهم و لا يحزن لإعراضهم، و الاستفهام للإنكار، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ» المراد بالإذهاب به توفيه (ص) قبل الانتقام منهم، و قيل:

المراد إذهابه بإخراجه من بينهم، و قوله: «فَأَمَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ» أى لا- محاله، و المراد بإراءته ما وعدهم الانتقام منهم قبل توفيه (ص) أو حال كونه بينهم، و قوله: «فإننا عليهم مقتدرون» أى اقتدارنا يفوق عليهم.

و قوله فى الصدر: «فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ» أصله أن نذهب بك زيدت عليه ما و النون للتأكيد، و محصل الآية إننا منتقمون منهم بعد توفيك أو قبلها لا محاله.

قوله تعالى: «فَأَسِئْتَمَسُكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّا عَلَيْنَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» الظاهر أنه تفريع لجميع ما تقدم من أن إنزال الذكر من طريق الوحي و النبوه من سننه تعالى

و أن كتابه النازل عليه حق و هو رسول مبين لا- يستجيب دعوته إلا المتقون و لا يعرض عنها إلا قرناء الشياطين، و لا مطمع في إيمانهم و سينتقم الله منهم.

فأكد عليه الأمر بعد ذلك كله أن يجد في التمسك بالكتاب الذي أوحى إليه لأنه على صراط مستقيم.

قوله تعالى: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ» الظاهر أن المراد بالذكر ذكر الله، و بهذا المعنى تكرر مرارا في السوره، و اللام في «لَكَ وَ لِقَوْمِكَ» للاختصاص بمعنى توجه ما فيه من التكليف إليهم، و يؤيده بعض التأييد قوله: «وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ» أي عنه يوم القيامة.

و عن أكثر المفسرين أن المراد بالذكر الشرف الذي يذكر به، و المعنى: و إنه لشرف عظيم لك و لقومك من العرب تذكرون به بين الأمم.

قوله تعالى: «وَ سِئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» قيل: المراد بالسؤال منهم السؤال من أممهم و علماء دينهم كقوله تعالى:

«فَسِئَلِ الَّذِينَ يَفْرُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ»: يونس: ٩٤، و فائده هذا المجاز أن المسئول عنه السؤال منهم عين ما جاءت به رسالهم لا ما يجيبونه من تلقاء أنفسهم.

و قيل: المراد السؤال من أهل الكتابين: التوراه و الإنجيل فإنهم و إن كفروا لكن الحجه تقوم بتواتر خبرهم، و الخطاب للنبي ص و التكليف لأمته.

و بعد الوجهين غير خفى و يزيد الثاني بعدا التخصيص بأهل الكتابين من غير مخصص ظاهر.

و قيل: الآيه مما خوطب به النبي ص ليله المعراج أن يسأل أرواح الأنبياء (ع) و قد اجتمع بهم أن يسألهم هل جاءوا بدين وراء دين التوحيد.

و قد وردت به غير واحده من الروايات عن أئمة أهل البيت (ص) و سيوافيك في البحث الروائي الآتى إن شاء الله.

فى المجمع،: فى قوله تعالى: « وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقْبِهِ » وقيل: الكلمه الباقيه فى عقبه هى الإمامه إلى يوم الدين: عن أبى عبد الله (ع). .

أقول: وفى هذا المعنى روايات أخر و قد طبقت الآيه فى بعضها على الإمامه فى عقب الحسين (ع).

و التأمل فى الروايات يعطى أن بناءها على إرجاع الضمير فى « جَعَلَهَا » إلى الهدايه المفهومه من قوله: « سَيَّيْهِدِينَ » و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » إن الإمام وظيفته هدايه الناس فى ملكوت أعمالهم بمعنى سوقهم إلى الله سبحانه بإرشادهم و إيرادهم درجات القرب من الله سبحانه و إنزال كل ذى عمل منزله الذى يستدعيه عمله، و حقيقه الهدايه من الله سبحانه و تنسب إليه بالتبع أو بالعرض.

و فعليه الهدايه النازله من الله إلى الناس تشمله أولا- ثم تفيض عنه إلى غيره فله أتم الهدايه و لغيره ما هى دونها و ما ذكره إبراهيم (ع) فى قوله: « فَإِنَّهُ سَيَّيْهِدِينَ » هدايه مطلقه تقبل الانطباق على أتم مراتب الهدايه التى هى حظ الإمام منها فهى الإمامه و جعلها كلمه باقيه فى عقبه جعل الإمامه كذلك.

و فى الإحتجاج، عن العسكرى عن أبيه (ع) قال*: إن رسول الله ص كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبه- إذ قال له عبد الله بن أميه المخزومى: لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولا- لبعث أجل من فيما بيننا مالا و أحسنه حالا- فهلا نزل هذا القرآن الذى تزعم أن الله أنزله عليك- و ابتعثك به رسولا، على رجل من القريتين عظيم: إما الوليد بن المغيره بمكه- و إما عروه بن مسعود الثقفى بالطائف.

ثم ذكر (ع) فى كلام طويل- جواب رسول الله ص عن قوله- بما فى معنى الآيات.

ثم قال: و ذلك قوله تعالى: « وَ قَالُوا لَوْ لَّا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » قال الله: « أ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ » يا محمد « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » فأحوجنا بعضنا إلى بعض أحوج هذا إلى مال ذلك- و أحوج ذلك إلى سلعه هذا و إلى خدمته.

فترى أجل الملوک و أغنى الأغنياء محتاجا- إلى أفقر الفقراء فى ضرب من الضروب-

إما سلعه معه ليست معه، وإما خدمه يصلح لها-لا يتهياً لذلك الملك أن يستغنى إلا به- و أما باب من العلوم والحكم هو فقير- إلى أن يستفيدا من هذا الفقير-الذي يحتاج إلى مال ذلك الملك الغنى، وذلك الملك يحتاج إلى علم هذا الفقير أو رأيه أو معرفته.

ثم ليس للملك أن يقول: هلا اجتمع إلى مالى علم هذا الفقير-و لا للفقير أن يقول:

هلا اجتمع إلى رأبي و معرفتي و علمي-و ما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغنى، ثم قال تعالى: « وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ».

ثم قال: يا محمد « وَ رَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » أى ما يجمعه هؤلاء من أموال الدنيا.

و فى الكافى، بإسناده عن سعيد بن المسيب قال*: سألت على بن الحسين (ع) عن قول الله عز و جل: « وَ لَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » قال: عنى بذلك أمه محمد- أن يكونوا على دين واحد كفارا كلهم « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ » إلى آخر الآية.

و فى تفسير القمى، بإسناده عن يحيى بن سعيد عن أبى عبد الله (ع) قال*: « فَإِذَا نَذَهَبَنَّ بِكَ » يا محمد من مكه إلى المدينة-فإما رادوك إليها و منتقمون منهم بعلى بن أبى طالب (ع).

و فى الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه عن قتاده " * فى قوله: « فَإِذَا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِذَا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ » قال: قال أنس: "ذهب رسول الله ص و بقيت النقمه-و لم ير الله نبيه فى أمته شيئا يكرهه حتى قبض-و لم يكن نبى قط إلا و قد رأى العقوبه فى أمته-إلا نبيكم رأى ما يصيب أمته بعده-فما رنى ضاحكا منبسطا حتى قبض.

أقول: و روى فيه هذا المعنى عنه و عن على بن أبى طالب و عن غيرهما بطرق أخرى.

و فيه، أخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبى صالح عن جابر بن عبد الله عن النبى ص * فى قوله تعالى: « فَإِذَا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِذَا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ » نزلت فى على بن أبى طالب أنه ينتقم من الناكثين-و القاسطين بعدى.

أقول: ظاهر الروايه و ما قبلها و ما فى معناهما أن الوعيد فى الآيتين للمنحرفين عن الحق من أهل القبله دون كفار قريش.

و فى الإحتجاج، عن أمير المؤمنين (ع) فى حدیث طویل یقول فیه: و أما قوله تعالى: « وَ سِئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا » فهذا من براهین نبینا (ص) التى آتاه الله إیاهها- و أوجب به الحجة على سائر خلقه- لأنه لما ختم به الأنبياء و جعله الله رسولا- إلى جمیع الأمم و سائر الملل- خصه بالارتقاء إلى السماء عند المعراج- و جمع له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به- و حملوه من عزائم الله و آیاته و براهینه. الحدیث.

أقول: و روى هذا المعنى القمى فى تفسيره، بإسناده عن أبى الربیع عن أبى جعفر (ع) فى جواب ما سأله نافع بن الأزرق، و رواه فى الدر المنثور، بطرق عن سعید بن جبیر و ابن جریح و ابن زید.

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٤٦ الى ٥٦]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَ مَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَ نَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَآ يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَايِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦)

لما ذكر طغيانهم بعد تمتيعهم بنعمه و رميهم الحق الذي جاءهم به رسول مبين بأنه سحر و أنهم قالوا: «لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتِينَ عَظِيمٍ» فرجحوا الرجل على النبي ص بكثره ماله مثل لهم بقصه موسى (ع) و فرعون و قومه حيث أرسله الله إليهم بآياته الباهره فضحكوا منها و استهزءوا بها، و احتج فرعون فيما خاطب به قومه على أنه خير من موسى بملك مصر و أنهار تجرى من تحته فاستخفهم فأطاعوه فآل أمر استكبارهم أن انتقم الله منهم فأغرقهم.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» اللام في «لَقَدْ» للقسم، و الباء في قوله: «بِآيَاتِنَا» للمصاحبه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ» المراد بمجيئهم بالآيات إظهار المعجزات للدلالة على الرساله، و المراد بالضحك ضحك الاستهزاء استخفافا بالآيات.

قوله تعالى: «وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» إلخ، الأخت المثل، و قوله: «هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» كناية عن كون كل واحده منها بالغه في الدلالة على حقيه الرساله، و جمله «وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ» إلخ، حال من ضمير «مِنْهَا»، و المعنى:

فلما أتاهم بالمعجزات إذا هم منها يضحكون و الحال أن كلا منها تامه كامله في إعجازها و دلالتها من غير نقص و لا قصور.

و قوله: «وَأَخَذْنَا هُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أي رجاء أن يرجعوا عن استكبارهم إلى قبول رسالته، و المراد بالعذاب الذي أخذوا به آيات الرجز التي نزلت عليهم من السنين و نقص من الثمرات و الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات كما في سوره الأعراف.

قوله تعالى: « وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ » ما فى « بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ » مصدرية أى بعهده عندك و المراد به عهده أن يكشف عنهم العذاب لو آمنوا كما قيل أو أن يستجيب دعاءه إذا دعا كما احتمله بعضهم.

و قولهم: يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ خُطِّبْ استهزاء استكباراً منهم كما قالوا: ادع ربك و لم يقولوا: ادع ربنا أو ادع الله استكباراً، و المراد أنهم طلبوا منه الدعاء لكشف العذاب عنهم و وعدوه الاهتداء.

و قيل: معنى الساحر فى عرفهم العالم و كان الساحر عندهم عظيماً يعظمونه و لم يكن صفه ذم. و ليس بذاك بل كانوا ساحرين على استكبارهم كما يشهد به قولهم:

ادْعُ لَنَا رَبَّكَ

قوله تعالى: « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ » النكت نقض العهد و خلف الوعد، و وعدهم هو قولهم: « إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ ».

قوله تعالى: « وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ » أى ناداهم و هو بينهم، و فصل « قَالَ » لكونه فى موضع جواب السؤال كأنه قيل: فما ذا قال؟ فقيل: قال كذا.

و قوله: « وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي » أى من تحت قصرى أو من بستانى الذى فيه قصرى المرتفع العالى البناء، و الجملة أعنى قوله: « وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ » إلخ، حاله أو « وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ » معطوف على « مُلْكُ مِصْرَ »، و قوله: « تَجْرِي مِن تَحْتِي » حال من الأنهار، و الأنهار أنهار النيل.

و قوله: « أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ » فى معنى تكرير الاستفهام السابق فى قوله: « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ » إلخ.

قوله تعالى: « أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ بَيِّنٌ » المهين الحقير الضعيف من المهانه بمعنى الحقاره، و يريد بالمهين موسى (ع) لما به من الفقر و رثائه الحال.

و قوله: « وَ لَا يَكَادُ بَيِّنٌ » أى يفصح عن مراده و لعله كان يصف موسى (ع) به باعتبار ما كان عليه قبل الرساله لكن الله رفع عنه ذلك لقوله: « قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى » طه: ٣٦ بعد قوله (ع): « وَ اخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي » طه: ٢٨.

و قوله فى صدر الآيه: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» إلخ، أم فيه إما منقطعه لتقرير كلامه السابق و المعنى: بل أنا خير من موسى لأنه كذا و كذا، و إما متصله، و أحد طرفى التردد محذوف مع همزه الاستفهام، و التقدير: أ هذا خير أم أنا خير إلخ، و فى المجمع، قال سيويه و الخليل: عطف أنا بأم على «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» لأن معنى «أَنَا خَيْرٌ» معنى أم تبصرون فكأنه قال: أفلا تبصرون أم تبصرون لأنهم إذا قالوا له: أنت خير منه فقد صاروا بصراء عنده انتهى. أى إن وضع «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» موضع أم تبصرون من وضع المسبب موضع السبب أو بالعكس.

و كيف كان فالإشارة إلى موسى بهذا من دون أن يذكر باسمه للتحقير و توصيفه بقوله: «الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ يُبِينُ» للتحقير و للدلالة على عدم خيريته.

قوله تعالى: «فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ» الأسورة جمع سوار بالكسر، و قال الراغب: هو معرب دستواره قالوا: كان من دأبهم أنهم إذا سودوا رجلا- سوروه بسوار من ذهب و طوقه بطوق من ذهب فالمعنى لو كان رسولا و ساد الناس بذلك لألقى إليه أسوره من ذهب.

و قوله: «أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ» الظاهر أن الاقتران بمعنى التقارن كالاستباق و الاستواء بمعنى التسابق و التساوى، و المراد إتيان الملائكة معه متقارنين لتصديق رسالته، و هذه الكلمه مما تكررت على لسان مكذبي الرسل كقولهم: «لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا»: الفرقان: ٧.

قوله تعالى: «فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» أى استخف عقول قومه و أحلامهم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ» الإيساف الإغصاب أى فلما أغضبونا بنسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين، و الغضب منه تعالى إرادته العقوبه.

قوله تعالى: «فَجَعَلْنَاهُمْ سِلْفًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ» السلف المتقدم و الظاهر أن المراد بكونهم سلفا للآخرين تقدمهم عليهم فى دخول النار، و المثل الكلام السائر الذى يتمثل به و يعتبر به، و الظاهر أن كونهم مثلا- لهم كونهم مما يعتبر به الآخرون لو اعتبروا و اتعظوا.

فى تفسير القمى، فى قوله تعالى: «وَلَا يَكَاذُ يَبِينُ» قال: لم يبين الكلام.

وفى التوحيد، بإسناده إلى أحمد بن أبى عبد الله رفعه إلى أبى عبد الله (ع): فى قول الله عز وجل «فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» قال: إن الله لا يأسف كأسفنا- ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون و يرضون- وهم مخلوقون مدبرون- فجعل رضاهم لنفسه رضى و سخطهم لنفسه سخطا- وذلك لأنه جعلهم الدعاه إليه و الأدلاء عليه- فلذلك صاروا كذلك.

و ليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه- و لكن هذا معنى ما قال من ذلك، و قد قال أيضا من أهان لى وليا- فقد بارزنى بالمحاربه و دعانى إليها، و قال أيضا:

«مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ»، و قال أيضا: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» و كل هذا و شبهه على ما ذكرت لك، و هكذا الرضا و الغضب و غيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك.

و لو كان يصل إلى المكون الأسف و الضجر- و هو الذى أحدثهما و أنشأهما- لجاز لقائل أن يقول: إن المكون يبىد يوما- لأنه إذا دخله الضجر و الغضب دخله التغيير- فإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإباده، و لو كان ذلك كذلك لم يعرف المكون من المكون- و إلا القادر من المقدور و لا الخالق من المخلوقين- تعالى الله عن هذا القول علوا كبيرا.

هو الخالق للأشياء لا لحاجه- فإذا كان لا لحاجه استحال الحد و الكيف فيه- فافهم ذلك إن شاء الله..

أقول: و روى مثله فى الكافى، بإسناده عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن عمه حمزه بن بزيع عنه (ع).

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٦٥]

اشاره

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ (٥٧) وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠) وَ إِنَّهُ لَعَلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَ اتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لا يَصِدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (٦٣) إِنْ أَلَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (٦٥)

إشاره إلى قصه عيسى بعد الفراغ عن قصه موسى (ع) و قدم عليها مجادلتهم النبي ص فى عيسى (ع) و أجيب عنها.

قوله تعالى: «**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ** - إلى قوله - **خَصِمْتُمْ أُولَئِكَ مَا كُنْتُمْ لَهَا شُعْرًا**» الآية إلى تمام أربع آيات أو ست آيات حول جدال القوم فيما ضرب من مثل ابن مريم، و الذى يتحصل بالتدبر فيها نظرا إلى كون السوره مكيه و مع قطع النظر عن الروايات هو أن المراد بقوله: «**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا**» هو ما أنزله الله من وصفه فى أول سوره مريم فإنها السوره المكيه الوحده التى وردت فيها قصه عيسى بن مريم (ع) تفصيلا، و السوره تقص قصص عده من النبيين بما أن الله أنعم عليهم كما تختتم قصصهم بقوله: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ**»: مريم: ٥٨، و قد وقع فى

هذه الآيات قوله: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» وهو من الشواهد على كون قوله:

«وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا» إشاره إلى ما فى سورة مريم.

و المراد بقوله: «إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» بكسر الصاد أى يضحجون و يضحكون ذم لقريش فى مقابلتهم المثل الحق بالتهكم و السخرية، و قرئ «يَصِدُّونَ» بضم الصاد أى يعرضون و هو أنسب للجمله التاليه.

و قوله: «وَقَالُوا أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» الاستفهام للإنكار أى آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمه و الكرامه أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن و أخذوه بما له من الصفه عند النصارى أنه إله ابن إله فردوا على النبى ص بأن آلهتنا خير منه و هذا من أسخف الجدل كأنهم يشيرون بذلك إلى أن الذى فى القرآن من وصفه لا يعتنى به و ما عند النصارى لا ينفع فإن آلهتهم خير منه.

و قوله: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا» أى ما وجهوا هذا الكلام: «أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» إليك إلا جدلا يريدون به إبطال المثل المذكور و إن كان حقا «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» أى ثابتون على خصومتهم مصرون عليها.

و قوله: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» رد لما يستفاد من قولهم: «أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» أنه إله النصارى كما سيجىء.

و قال الزمخشري فى الكشف، و كثير من المفسرين و نسب إلى ابن عباس و غيره فى تفسير الآيه: أن النبى ص لما قرأ قوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» على قريش امتعضوا من ذلك امتعاضا شديدا فقال ابن الزبيرى: يا محمد، أخاصه لنا و لآلهتنا- أم لجميع الأمم؟ فقال (ع): هو لكم و لآلهتكم و لجميع الأمم.

فقال: خصمتك و رب الكعبه - أ لست تزعم أن عيسى بن مريم نبى و تثنى عليه خيرا و على أمه؟ و قد علمت أن النصارى يعبدونهما، و عزيز يعبد و الملائكه يعبدون فإن كان هؤلاء فى النار- فقد رضينا أن نكون نحن و آلهتنا معهم- ففرحوا و ضحكوا و سكت النبى ص- فأنزل الله: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ- أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» و نزلت هذه الآيه.

و المعنى: و لما ضرب ابن الزبيرى عيسى بن مريم مثلا و جادل رسول الله ص بعباده النصارى إياه إذا قومك يعنى قريشا من هذا المثل يضحجون فرحا و ضحكا بما

سمعوا منه من إسكات رسول (ص)، وقالوا: آلهتنا خير أم هو أى إن عيسى عندك خير من آلهتنا وإذا كان هو حصب جهنم فأمر آلهتنا هين. ما ضربوا هذا المثل لك إلا جدلاً و غلبه فى القول لا لميز الحق من الباطل.

وفيه أنه تقدم فى تفسير (١) قوله: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ الْأَنْبِيَاءُ: ٩٨، أن هذه الروايه بما فيها من وجوه الوهن والخلل ضعيفه لا يعبأ بها حتى نقل عن الحافظ ابن حجر أن الحديث لا أصل له ولم يوجد فى شىء من كتب الحديث لا- مسندا ولا غير مسند. وقصه ابن الزبعرى هذه وإن رويت من طرق الشيعة على وجه سليم عن المناقشه لكن لم يذكر فيها نزول قوله: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ» الآية هناك.

على أن ظاهر قوله: «ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا» وقوله: «أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» لا يلائم ما فسرتة تلك الملاءمه.

وقيل: إنهم لما سمعوا قوله تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»: آل عمران: ٥٩، قالوا: نحن أهدي من النصارى لأنهم يعبدون آدميا ونحن نعبد الملائكه- يريدون أرباب الأصنام- فآلهتنا خير من إلههم فالذى ضرب المثل بابن مريم هو الله سبحانه، وقولهم: «أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» لتفضيل آلهتهم على عيسى لا بالعكس كما فى الوجه السابق.

وفيه أن قوله تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ» مدنيه. وهذه الآيات أعنى قوله: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ» إلخ، آيات مكيه من سوره مكيه.

على أن الأساس فى قولهم- على هذا الوجه- تفضيلهم أنفسهم على النصارى فلا يرتبط على هذا قوله: «إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» إلخ، بما تقدمه.

وقيل: إنهم لما سمعوا قوله: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ» ضجوا وقالوا: ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبد كما يعبد النصارى المسيح، وآلهتنا خير منه أى من محمد.

وفيه ما فى سابقه.

ص: ١١٥

وقيل: مرادهم بقولهم: «أَ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» التنصل و التخلص عما أنكر عليهم من قولهم: الملائكة بنات الله، و من عبادتهم لهم كأنهم قالوا: ما كان ذلك منا بدعا فإن النصارى يعبدون المسيح و ينسبونهُ إلى الله و هو بشر و نحن نعبد الملائكة و ننسبهم إلى الله و هم أفضل من البشر.

و فيه أنه لا يفي بتوجيه قوله: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» على أن قوله: «إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» على هذا الوجه لا يرتبط بما قبله كما في الوجهين السابقين.

وقيل: معنى قولهم: «أَ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» أن مثلنا في عبادة الآلهة مثل النصارى في عبادة المسيح فأيهما خير؟ عبادة آلهتنا أم عبادة المسيح؟ فإن قال: عبادة المسيح خير فقد اعترف بعبادة غير الله، و إن قال: عبادة الآلهة فكذلك، و إن قال:

ليس في عبادة المسيح خير فقد قصر به عن منزلته و جوابه أن اختصاص المسيح بضرب من التشريف و الإنعام من الله تعالى لا يوجب جواز عبادته.

و فيه أنه في نفسه لا بأس به لكن الشأن في دلالة قوله تعالى: «أَ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» على هذا التفصيل.

و قال في المجمع، في الوجه التي أوردها في معنى الآية: و رابعها

ما رواه سادة أهل البيت عن علي (ع) أنه قال: جئت إلى رسول الله ص يوما فوجدته في ملاء من قريش فنظر إلى ثم قال: يا علي، إنما مثلك في هذه الأمة مثل عيسى بن مريم - أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا، و أبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا، و اقتصد فيه قوم فنجوا. فعظم ذلك عليهم فضحكوا و قالوا: يشبهه بالأنبياء و الرسل، فنزلت الآية.

أقول: و الرواية غير متعرضة لتوجيه قولهم: «أَ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» و لئن كانت القصه سببا للنزول فمعنى الجملة: لئن نتبع آلهتنا و نطيع كبراءنا خير من أن نتولى عليا فيتحكم علينا أو خير من أن نتبع محمدا فيحكم علينا ابن عمه.

و يمكن أن يكون قوله: «وَقَالُوا أَ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» إلخ، استئنافا و النازل في القصه هو قوله: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا» الآية.

قوله تعالى: «إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ» الذي

يستدعيه السياق أن يكون الضمير لابن مريم، والمراد بكونه مثلا-على ما قيل- كونه آيه عجيبه إلهيه يسير ذكره كالأمثال السائر.

و المعنى: ليس ابن مريم إلا عبدا متظاهرا بالعبوديه أنعمنا عليه بالنبوه و تأييده بروح القدس و إجراء المعجزات الباهره على يديه و غير ذلك و جعلناه آيه عجيبه خارقه نصف به الحق لبني إسرائيل.

و هذا المعنى كما ترى رد لقولهم: «أَ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» الظاهر في تفضيلهم آلهتهم في ألوهيتها على المسيح (ع) في ألوهيته و محصله أن المسيح لم يكن إلها حتى ينظر في منزلته في ألوهيته و إنما كان عبدا أنعم الله عليه بما أنعم، و أما آلهتهم فنظر القرآن فيهم ظاهر.

قوله تعالى: «وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ» الظاهر أن الآيه متصله بما قبلها مسروده لرفع استبعاد أن يتلبس البشر من الكمال ما يقصه القرآن عن عيسى (ع) فيخلق الطير و يحيى الموتى و يكلم الناس في المهد إلى غير ذلك، فيكون كالملائكه المتوسطين في الإحياء و الإمامته و الرزق و سائر أنواع التدبير و يكون مع ذلك عبدا غير معبود و مألوها غير إله فإن هذا النوع من الكمال عند الوثنيه مختص بالملائكه و هو ملاك ألوهيتهم و معبوديتهم و بالجمله هم يحيلون تلبس البشر بهذا النوع من الكمال الذي يخصونه بالملائكه.

فأجيب بأن الله أن يزكى الإنسان و يطهره من أدناس المعاصي بحيث يصير باطنه باطن الملائكه فظاهره ظاهر البشر و باطنه باطن الملك يعيش في الأرض يخلف مثله و يخلفه مثله و يظهر منه ما يظهر من الملائكه (1).

و على هذا فمن في قوله «مِنْكُمْ» للتبعيض، و قوله: «يَخْلُقُونَ» أى يخلف بعضهم بعضا.

و في المجمع، أن «من» فى قوله: «مِنْكُمْ» تفيد معنى البدليه كما فى قوله:

ص: ١١٧

١- ١) و ليس هذا من الانقلاب المحال فى شىء بل نوع من التكامل الوجودى بالخروج من حد منه أدنى إلى حد منه أعلى كما بين فى محله.

فليت لنا من ماء زمزم شربه

مبرده باتت على الطهيان (١)

وقوله: «يخلفون» أى يخلفون بنى آدم و يكونون خلفاء لهم، والمعنى: لو نشاء أهلكناكم و جعلنا بدلکم ملائكه يسكنون الأرض و يعمرونها و يعبدون الله.

و فيه أنه لا يلائم النظم تلك الملاءمه.

قوله تعالى: «وَ إِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَ اتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ» ضمير «إِنَّهُ» لعيسى (ع) و المراد بالعلم ما يعلم به، و المعنى: و إن عيسى يعلم به الساعه فى خلقه من غير أب و إحيائه الموتى فيعلم به أن الساعه ممكنه فلا- تشكوا فى الساعه و لا ترتابوا فيها البته.

و قيل: المراد بكونه علما للساعه كونه من أشراتها ينزل على الأرض فيعلم به قرب الساعه.

و قيل: الضمير للقرآن و كونه علما للساعه كونه آخر الكتب المنزل من السماء.

و فى الوجهين جميعا خفاء التفریع الذى فى قوله: «فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا».

و قوله: «وَ اتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ» قيل: هو من كلامه تعالى، و المعنى:

اتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى، و قيل: من كلام الرسول بأمر منه تعالى.

قوله تعالى: «وَ لَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» الصد الصرف، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ» إلخ، المراد بالبينات الآيات البينات من المعجزات، و بالحكمه المعارف الإلهيه من العقائد الحقه و الأخلاق الفاضله.

و قوله: «وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» أى فى حكمه من الحوادث و الأفعال، و الذى يختلفون فيه و إن كان أعم من الاعتقادات التى يختلف فى كونها حقه أو باطله و الحوادث و الأفعال التى يختلف فى مشروع حكمها لكن المناسب لسبق قوله:

«قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ» أن يختص ما اختلفوا فيه بالحوادث و الأفعال و الله أعلم.

ص: ١١٨

وقيل: المراد بقوله: «بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» كل الذي تختلفون فيه.

و هو كما ترى.

وقيل: المراد لأبين لكم أمور دينكم دون أمور دنياكم ولا دليل عليه من لفظ الآية ولا من المقام.

وقوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا النَّبِيَّ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ» «نَسَبَ التَّقْوَى إِلَى اللَّهِ وَ الطَّاعَةَ إِلَى نَفْسِهِ لِيَسْجَلَ أَنَّهُ لَا يَدْعَى إِلَّا رِسَالَهُ».

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» دَعَا مِنْهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَ حُدِّدَهُ وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّهُ وَ رَبُّهُمْ جَمِيعًا وَ إِتِمَامَ لِلْحُجَّةِ عَلَى مَنْ يَقُولُ بِالْوَهْيَةِ.

قوله تعالى: «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ» ضمير «مِنْ بَيْنِهِمْ» لمن بعث إليهم عيسى (ع) والمعنى: فاختلف الأحزاب المتشعبة من بين أمته في أمر عيسى من كافر به قال فيه، و من مؤمن به غال فيه، و من مقتصد لزم الاعتدال.

وقوله: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ» تهديد و وعيد للقالى منهم و الغالى.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٦٦ إلى ٧٨]

إشارة

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَائٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ وَ فِيهَا مَا تَشْتَهُهِ النَّفْسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْتَلِسُونَ (٧٥) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَ زَادُوا بِمَا مَالِكٌ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لَكِنْ أَكْثَرْتُمْ لِحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨)

رجوع إلى إنذار القوم وفيه تخويفهم بالساعة و الإشارة إلى ما يؤول إليه حال المتقين و المجرمين فيها من الثواب و العقاب.

قوله تعالى: « هَيْلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ » النظر الانتظار، و البغته الفجأه، و المراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بأمور الدنيا كما قال تعالى: « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ »: يس: ٤٩، فلا يتكرر المعنى في قوله: « بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ».

و المعنى: ما ينتظر هؤلاء الكفار بكفرهم و تكذيبهم لآيات الله إلا أن تأتيهم الساعة مباغته لهم و هم غافلون عنها مشتغلون بأمور دنياهم أي إن حالهم حال من هدده الهلاك فلم يتوسل بشيء من أسباب النجاه و قعد ينتظر الهلاك ففي الكلام كناية عن عدم اعتنائهم بالإيمان بالحق ليتخلصوا به عن أليم العذاب.

قوله تعالى: « الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » الأخلاء جمع خليل و هو الصديق حيث يرفع خله صديقه و حاجته، و الظاهر أن المراد بالأخلاء المطلق الشامل للمخاله و التحاب في الله كما في مخالاه المتقين أهل الآخرة و المخالاه في غيره كما في مخالاه أهل الدنيا فاستثناء المتقين متصل.

و الوجه في عداوه الأخلاء غير المتقين أن من لوازم المخالاه إعاناه أحد الخليلين الآخر في مهام أموره فإذا كانت لغير وجه الله كان فيها الإعاناه على الشقوه الدائمه و العذاب الخالد كما قال تعالى حاكيا عن الظالمين يوم القيامة: « يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا »

لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي: الفرقان: ٢٩، و أما الأخلاء من المتقين فإن مخالفتهم تتأكد و تنفعهم يومئذ.

و في الخبر النبوي: إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام و قلت الأنساب - و ذهب الأ-خوه إلا-الأخوه في الله -و ذلك قوله: «
الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ

(١)

قوله تعالى: «يَا عِبَادِ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» من خطابه تعالى لهم يوم القيامة كما يشهد به قوله بعد: «أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ» إلخ، و في الخطاب تأمين لهم من كل مكروه محتمل أو مقطوع به فإن مورد الخوف المكروه المحتمل و مورد الحزن المكروه المقطوع به فإذا ارتفعا ارتفعا.

قوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ» الموصول بدل من المنادى المضاف في «يَا عِبَادِ» أو صفة له، و الآيات كل ما يدل عليه تعالى من نبي و كتاب و أى آية أخرى داله، و المراد بالإسلام التسليم لإرادة الله و أمره.

قوله تعالى: «أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ» ظاهر الأمر بدخول الجنة أن المراد بالأزواج هى النساء المؤمنات فى الدنيا دون الحور العين لأنهن فى الجنة غير خارجات منها.

و الحبور -على ما قيل- السرور الذى يظهر أثره و حباره فى الوجه و الحبره الزينه و حسن الهيئه، و المعنى: ادخلوا الجنة أنتم و أزواجكم المؤمنات و الحال أنكم تسرون سرورا يظهر أثره فى وجوهكم أو تزينون بأحسن زينه.

قوله تعالى: «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ» إلخ الصحف جمع صحفه و هى القصعه أو أصغر منها، و الأكواب جمع كوب و هو كوز لا عروه له، و فى ذكر الصحف و الأكواب إشارة إلى تنعمهم بالطعام و الشراب.

و فى الالتفات إلى الغيبه فى قوله: «يُطَافُ عَلَيْهِمْ» بين الخطابين «أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ» و «أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» تفخيم لإكرامهم و إنعامهم أن ذلك بحيث ينبغى أن يذكر

ص: ١٢١

غيرهم ليزيد به اغتباطهم و يظهر به صدق ما وعدوا به.

وقوله: ﴿ وَ فِيهَا مِمَّا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلْمِذُ الْأَعْيُنُ ﴾ الظاهر أن المراد بما تشتهيه الأنفس ما تتعلق به الشهوة الطبيعية من مذوق و مشموم و مسموع و ملموس مما يتشارك فيه الإنسان و عامه الحيوان، و المراد بما تلذذه الأعين الجمال و الزينه و ذلك مما الالتذاذ به كالمختص بالإنسان كما في المناظر البهجه و الوجه الحسن و اللباس الفاخر، و لذا غير التعبير فعبر عما يتعلق بالأنفس بالاشتفاء و فيما يتعلق بالأعين باللذذ و في هذين القسمين تنحصر اللذائذ النفسانية عندنا.

و يمكن أن تندرج اللذائذ الروحية العقلية فيما تلذذه الأعين فإن الالتذاذ الروحي يعد من رؤيه القلب.

قال في المجمع، و قد جمع الله سبحانه في قوله: ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمتها هاتان الصفتان. انتهى.

وقوله: ﴿ وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ إخبار و وعد و تبشير بالخلود و لهم في العلم به من اللذذ الروحية ما لا يقاس بغيره و لا يقدر بقدر.

قوله تعالى: ﴿ وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قيل: المعنى أعطيتموها بأعمالكم، و قيل أورثتموها من الكفار و كانوا داخلها لو آمنوا و عملوا صالحا، و قد تقدم الكلام في المعنيين في تفسير قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ المؤمنون: ١٠.

قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أضاف الفاكهه إلى ما مرت الإشارة إليه من الطعام و الشراب لإحصاء النعمه، و من في ﴿ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ للتبعيض و لا يخلو من إشارة إلى أنها لا تنفذ بالأكل.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ المراد بالمجرمين المتلبسون بالإجرام فيكون أعم من الكفار و يؤيده إيراد في مقابله المتقين و هو أخص من المؤمنين.

و التفتير التخفيف و التقليل، و الإبلاس اليأس و يأسهم من الرحمه أو من الخروج من النار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ و ذلك أنه تعالى جازاهم بأعمالهم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوه و الهلكه.

قوله تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾ مالِك هو الملك الخازن للنار على ما وردت به الأخبار من طرق العامه و الخاصه.

و خطابهم مالكا بما يسألونه من الله سبحانه لكونهم محجوبين عنه كما قال تعالى:

﴿كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾: المطففين: ١٥، و قال: ﴿قَالَ اخْسَؤْا فِيهَا وَ لا تُكَلِّمُونِ﴾: المؤمنون: ١٠٨.

فالمعنى: أنهم يسألون مالكا أن يسأل الله أن يقضى عليهم.

و المراد بالقضاء عليهم إمامتهم، و يريدون بالموت الانعدام و البطلان لينجوا بذلك عما هم فيه من الشقوه و أليم العذاب، و هذا من ظهور ملكاتهم الدنيويه فإنهم كانوا يرون فى الدنيا أن الموت انعدام و فوت لا انتقال من دار إلى دار فيسألون الموت بالمعنى الذى ارتكز فى نفوسهم و إلا فهم قد ماتوا و شاهدوا ما هى حقيقته.

و قوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾ أى فيما أتم فيه من الحياه الشقيه و العذاب الأليم، و القائل هو مالِك جوابا عن مسألتهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ظاهره أنه من تمام كلام مالِك يقوله عن لسان الملائكه و هو منهم، و قيل: من كلامه تعالى و يبعده أنهم محجوبون يومئذ عن ربهم لا يكلمهم الله تعالى.

و الخطاب لأهل النار بما أنهم بشر، فالمعنى: لقد جئناكم معشر البشر بالحق و لكن أكثركم و هم المجرمون كارهون للحق.

و قيل: المراد بالحق مطلق الحق أى حق كان فهم يكرهونه و ينفرون منه و أما الحق المعهود الذى هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشتمزون منه.

و المراد بكرهتهم للحق الكراهه بحسب الطبع الثانى المكتسب بالمعاصى و الذنوب لا بحسب الطبع الأول الذى هو الفطره التى فطر الناس عليها إذ لو كرهوه بحسبها لم يكلفوا بقبوله، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾: الروم: ٣٠، و قال: ﴿وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا﴾: الشمس: ٨.

و يظهر من الآيه أن الملائك فى السعاده و الشقاء قبول الحق و رده.

اشاره

أَمْ أُبْرِمُوا أَمرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ
 وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا
 يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ
 بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)
 فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

بيان

رجوع إلى سابق الكلام وفيه توبيخهم على ما يريدون من الكيد برسول الله ص و تهديدهم بأن الله يكيدهم، ونفى الولد الذي
 يقولون به، وإبطال القول بمطلق الشريك وإثبات الربوبية المطلقة لله وحده، وتختتم السورة بالتهديد والوعيد.

قوله تعالى: « أَمْ أُبْرِمُوا أَمرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ » الإبرام خلاف النقض و هو الإحكام، و أم منقطعه.

و المعنى: على ما يفيد سياق الآيه و الآيه التاليه: بل أحكموا أمرا من الكيد بك يا محمد فإننا محكمون الكيد بهم فالآيه فى معنى قوله تعالى: «أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ»: الطور: ٤٢.

قوله تعالى: «أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَعَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ» السر ما يستسرونه فى قلوبهم و النجوى ما يناجيه بعضهم بعضا بحيث لا يسمعه غيرهما، و لما كان السر حديث النفس عبر عن العلم بالسر و النجوى جميعا بالسمع.

و قوله: «بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَعَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ» أى بلى نحن نسمع سرهم و نجواهم و رسلنا الموكلون على حفظ أعمالهم عليهم يكتبون ذلك.

قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ» إبطال لألوهيه الولد بإبطال أصل وجوده من جهه علمه بأنه ليس، و التعبير بأن الشرطيه دون لو الداله على الامتناع - و كان مقتضى المقام أن يقال: لو كان للرحمن ولد، لاستنزلهم عن رتبه المكابره إلى مرحله الانتصاف.

و المعنى: قل لهم إن كان للرحمن ولد كما يقولون، فأنا أول من يعبده أداء لحق بنوته و مسانخته لوالده، لكنى أعلم أنه ليس و لذلك لا أعبده لا لبغض و نحوه.

و قد أوردوا للآيه معانى أخرى:

منها: أن المعنى لو كان لله ولد كما تزعمون فأنا أعبد الله وحده و لا أعبد الولد الذى تزعمون.

و منها: أن «إِنْ» نافية و المعنى: قل ما كان لله ولد فأنا أول العابدين الموحدين له من بينكم.

و منها: أن «الْعَابِدِينَ» من عبد بمعنى أنف و المعنى: قل لو كان للرحمن ولد فأنا أول من أنف و استنكف عن عبادته لأن الذى يلد لا يكون إلا جسما و الجسميه تنافى الألوهيه.

و منها: أن المعنى: كما أنى لست أول من عبد الله كذلك ليس لله ولد أى لو جاز لكم أن تدعوا ذاك المحال جاز لى أن أدعى هذا المحال. إلى غير ذلك مما قيل لكن الظاهر من الآيه ما قدمناه.

قوله تعالى: «سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» تسييح

له سبحانه عما ينسبون إليه، والظاهر أن «رَبِّ الْعَرْشِ» عطف بيان لرب السماوات والأرض لأن المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود وهو عرش ملكه تعالى الذى استوى عليه وحكم فيه ودبر أمره.

ولا يخلو من إشاره إلى حجه على الوجدانية إذ لما كان الخلق مختصا به تعالى حتى باعتراف الخصم وهو من شئون عرش ملكه، والتدبير من الخلق والإيجاد فإنه إيجاد النظام الجارى بين المخلوقات فالتدبير أيضا من شئون عرشه فربوبيته للعرش ربوبية لجميع السماوات والأرض.

قوله تعالى: «فَمَذَرْتَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ» وعيد إجمالى لهم بأمر النبى ص بالإعراض عنهم حتى يلاقوا ما يحذرهم منه من عذاب يوم القيامة.

والمعنى: فاتركهم يخوضوا فى أباطيلهم ويلعبوا فى دنياهم و يشتغلوا بذلك حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدهم وهو يوم القيامة كما ذكر فى الآيات السابقة: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ» إلخ.

قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ» أى هو الذى هو فى السماء إله مستحق للمعبودية وهو فى الأرض إله أى هو المستحق لمعبودية أهل السماوات والأرض وحده، ويفيد تكرار «إِلَهٌ» كما قيل التأكيد والدلالة على أن كونه تعالى إلهها فى السماء والأرض بمعنى تعلق ألوهيته بهما لا بمعنى استقراره فيهما أو فى أحدهما.

وفى الآية مقابلة لما يثبت الوثنية لكل من السماء والأرض إلهها أو آلهه، وفى تذييل الآية بقوله: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ» الدال على الحصر إشاره إلى وحدانيته فى الربوبية التى لازمها الحكمه والعلم.

قوله تعالى: «وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهٗ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» ثناء عليه تعالى بالتبارك وهو مصدريته للخير الكثير.

وكل من الصفات الثلاث المذكوره حجه على توحده فى الربوبية أما ملكه للجميع فظاهر فإن الربوبية لمن يدبر الأمر والتدبير للملك، وأما اختصاص علم الساعه به فلأن

الساعة هي المنزل الأقصى إليه يسير الكل و كيف يصح أن يرب الأشياء من لا علم له بمنتهاى مسيرها فهو تعالى رب الأشياء لا من يدعونه، و أما رجوع الناس إليه فإن الرجوع للحساب و الجزاء و هو آخر التدبير فمن إليه الرجوع فإليه التدبير و من إليه التدبير له الربوبية.

قوله تعالى: «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» السياق سياق العموم فالمراد بالذين يدعون، أى يعبدونهم من دونه، كل معبود غيره تعالى من الملائكة و الجن و البشر و غيرهم.

و المراد «بِالْحَقِّ» الحق الذى هو التوحيد، و الشهادة به الاعتراف به، و المراد بقوله: «و هُمْ يَعْلَمُونَ» حيث أطلق العلم علمهم بحقيقته حال من شفَعوا له و حقيقته عمله كما قال: «لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ قَالَ صَوَابًا» :النبأ: ٣٨، و إذا كان هذا حال الشفعاء لا يملكونها إلا بعد الشهادة بالحق فما هم بشافعين إلا لأهل التوحيد كما قال: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» .

و الآيه مصرحه بوجود الشفاعة.

قوله تعالى: «وَلَيْسَ سَيِّئَاتِهِمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَمَا نِي يُؤْفِكُونَ» أى إلى متى يصرفون عن الحق الذى هو التوحيد إلى الباطل الذى هو الشرك، و ذلك أنهم معترفون أن لا خالق إلا الله و التدبير الذى هو ملاك الربوبية غير منفك عن الخلق كما اتضح مرارا فالرب المعبود هو الذى بيده الخلق و هو الله سبحانه.

قوله تعالى: «وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ» ضمير «قِيلَ» للنبي ص بلا- إشكال، و القيل مصدر كالقول و القال، و «قِيلَ» معطوف على ما قيل على الساعة فى قوله: «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ»، و المعنى: و عنده علم قوله: «يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ» .

قوله تعالى: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ أَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ وَ اللَّهُ سَرِيعٌ» و قوله: «وَأَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ» أى وادعهم موادعه ترك من غير هم لك فيهم، و فى قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» تهديد و وعيد.

فى الإحتجاج، عن على (ع) فى حديث طويل يقول فيه: قوله: **إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** (أى الجاحدين، والتأويل فى هذا القول باطنه مضاد لظاهره.

أقول: الظاهر أن المراد أنه خلاف ما ينصرف إليه لفظ عابد عند الإطلاق.

وفى الكافى، بإسناده عن هشام بن الحكم قال*: قال أبو شاعر الديصانى: إن فى القرآن آية هى قولنا. قلت: و ما هى؟ قال: **هُوَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ** - فلم أدر بما أجيبه فحججت فخبرت أبا عبد الله (ع) فقال: هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل: ما اسمك بالكوفة؟ فإنه يقول: فلان، فقل: ما اسمك بالبصرة؟ فإنه يقول: فلان، فقل: كذلك الله ربنا فى السماء إله، و فى الأرض إله، و فى البحار إله، و فى القفار إله، و فى كل مكان إله.

قال: فقدمت فأتيت أبا شاعر فأخبرته - فقال: هذه نقلت من الحجاز.

وفى تفسير القمى،: فى قوله تعالى: **(وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ)** قال: هم الذين عبدوا فى الدنيا - لا يملكون الشفاعة لمن عبدهم.

وفى الكافى، بإسناده عن أبى هاشم الجعفرى قال*: سألت أبا جعفر الثانى (ع):

ما معنى الواحد؟ فقال: إجماع الألسن عليه بالوحدانية لقوله: **(وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ .**

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨)

بيان

يتلخص غرض السوره في إنذار المرتابين في الكتاب بعذاب الدنيا و عذاب الآخرة و قد سيق بيان ذلك بأنه كتاب مبين نازل من عند الله على من أرسله إلى الناس لإنذارهم و قد نزل رحمه منه تعالى لعباده خير نزول في ليله القدر التي فيها يفرق كل أمر حكيم.

غير أن الناس و هم الكفار ارتابوا فيه لاعبين في هوساتهم و سيغشاهم أليم عذاب الدنيا ثم يرجعون إلى ربهم فينتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد.

ثم يذكر لهم تنظيراً لأول الوعدين قصه إرسال موسى (ع) إلى قوم فرعون لإنجاء بني إسرائيل و تكذيبهم له و إغراقهم نكالا منه.

ثم يذكر إنكارهم لثاني الواعدين و هو الرجوع إلى الله فى يوم الفصل فيقيم الحجج على أنه آت لا- محاله ثم يذكر طرفا من أخباره و ما سيجرى فيه على المجرمين و يصيبهم من ألوان عذابه، و ما سيثاب به المتقون من حياه طيبه و مقام كريم.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: «**حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ**» الواو للقسم و المراد بالكتاب المبين القرآن.

قوله تعالى: «**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**» المراد بالليله المباركه التى نزل فيها القرآن ليله القدر على ما يدل عليه قوله تعالى: «**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ الْقَدْرِ**»: القدر: ١، و كونها مباركه ظرفيتها للخير الكثير الذى ينسبط على الخلق من الرحمه الواسعه، و قد قال تعالى: «**وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**»: القدر: ٣.

و ظاهر اللفظ أنها إحدى الليالى التى تدور على الأرض و ظاهر قوله: «**فِيهَا يُفْرَقُ**» الدال على الاستمرار أنها تتكرر و ظاهر قوله تعالى: «**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**»: البقره: ١٨٥، أنها تتكرر بتكرر شهر رمضان فهى تتكرر بتكرر السنين القمرية و تقع فى كل سنه قمرية مره واحده فى شهر رمضان، و أما إنها أى ليله هى؟ فلا- إشعار فى كلامه تعالى بذلك، و أما الروايات فستوافيك فى البحث الروائى التالى.

و المراد بنزول الكتاب فى ليله مباركه على ما هو ظاهر قوله: «**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ**» و قوله: «**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ الْقَدْرِ**»: القدر: ١، و قوله: «**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَ الْفُرْقَانِ**»: البقره: ١٨٥، أن النازل هو القرآن كله.

و لا- يدفع ذلك قوله: «**وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا**»: اسراء: ١٠٦، و قوله: «**وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَأُنزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا**»: الفرقان: ٣٢، الظاهرين فى نزوله تدريجا، و يؤيد ذلك آيات أخر كقوله: «**فَإِذَا أَنْزَلْتُمْ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ**»: سوره محمد: ٢٠، و قوله:

«**وَ إِذَا مِمَّا أَنْزَلْتُمْ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**»: التوبه: ١٢٧ و غير ذلك و يؤيد ذلك أيضا ما لا يحصى من الأخبار المتضمنه لأسباب النزول.

و ذلك أنه يمكن أن يحمل على نزول القرآن مرتين مره مجموعا و جمله فى ليله

واحد من ليالى شهر رمضان، و مره تدريجا و نجوما فى مده ثلاث و عشرين سنه و هى مده دعوته(ص).

لكن الذى لا- ينبغى الارتياب فيه أن هذا القرآن المؤلف من السور و الآيات بما فيه من السياقات المختلفه المنطبقه على موارد النزول المختلفه الشخصيه لا- يقبل النزول دفعه فإن الآيات النازله فى وقائع شخصيه و حوادث جزئيه مرتبطه بأزمته و أمكنه و أشخاص و أحوال خاصه لا- تصدق إلا مع تحقق موارد المتفرقه زمانا و مكانا و غير ذلك بحيث لو اجتمعت زمانا و مكانا و غير ذلك انقلبت عن تلك الموارد و صارت غيرها فلا يمكن احتمال نزول القرآن و هو على هيئته و حاله بعينها مره جمله، و مره نجوما.

فلو قيل بنزوله مرتين كان من الواجب أن يفرق بين المرتين بالإجمال و التفصيل فيكون نازلا مره إجمالا و مره تفصيلا و نعى بهذا الإجمال و التفصيل ما يشير إليه قوله تعالى: «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»: هود: ١، و قوله:

«إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ» الزخرف: ٤، و قد مر الكلام فى معنى الإحكام و التفصيل فى تفسير سورتى هود و الزخرف.

و قيل: المراد بنزول الكتاب فى ليله مباركه افتتاح نزوله التدريجى فى ليله القدر من شهر رمضان فأول ما نزل من آيات القرآن- هو سوره العلق أو سوره الحمد- نزل فى ليله القدر.

و هذا القول مبنى على استشعار منافاه نزول الكتاب كله فى ليله و نزوله التدريجى الذى تدل عليه الآيات السابقه و قد عرفت أن لا منافاه بين الآيات.

على أنك خبير بأنه خلاف ظاهر الآيات.

و قيل: إنه نزل أولا جمله على السماء الدنيا فى ليله القدر ثم نزل من السماء الدنيا على الأرض تدريجا فى ثلاث و عشرين سنه مده الدعوه النبويه.

و هذا القول مأخوذ من الأخبار الوارده فى تفسير الآيات الظاهره فى نزوله جمله و ستمر بك فى البحث الروائى التالى إن شاء الله.

و قوله: «إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ» واقع موقع التعليل، و هو يدل على استمرار الإنذار منه تعالى قبل هذا الإنذار، فيدل على أن نزول القرآن من عنده تعالى ليس ببدع،

فإنما هو إنذار و الإنذار سنه جاريه له تعالى لم تزل تجرى فى السابقين من طريق الوحي إلى الأنبياء و الرسل و بعثهم لإنذار الناس.

قوله تعالى: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» ضمير «فِيهَا» لليله و الفرق فصل الشىء من الشىء بحيث يتمايزان و يقابله الأحكام فالأمر الحكيم ما لا يتميز بعضه أجزاءه من بعض و لا يتعين خصوصياته و أحواله كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ»: الحجر: ٢١.

فالأمر بحسب القضاء الإلهي مرحلتان: مرحله الإجمال و الإبهام و مرحله التفصيل، و ليله القدر على ما يدل عليه قوله: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» - ليله يخرج فيها الأمور من مرحله الإحكام إلى مرحله الفرق و التفصيل، و قد نزل فيها القرآن و هو أمر من الأمور المحكمه فرق فى ليله القدر.

و لعل الله سبحانه أطلع نبيه على جزئيات الحوادث التى ستقع فى زمان دعوته و ما يقارن منها نزول كل آيه أو آيات أو سوره من كتابه فيستدعى نزولها و أطلعه على ما ينزل منها فيكون القرآن نازلا عليه دفعه و جملة قبل نزوله تدريجا و مفرقا.

و مآل هذا الوجه اطلاع النبى ص على القرآن فى مرحله نزوله إلى القضاء التفصيلى قبل نزوله على الأرض و استقراره فى مرحله العين، و على هذا الوجه لا حاجة إلى تفريق المرتين بالإجمال و التفصيل كما تقدم فى الوجه الأول.

و ظاهر كلام بعضهم أن المراد بقوله: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» تفصيل الأمور المبينه فى القرآن من معارف و أحكام و غير ذلك. و يدفعه أن ظاهر قوله:

«فِيهَا يُفْرَقُ» الاستمرار و الذى يستمر فى هذه الليله بتكررها تفصيل الأمور الكونيه بعد إحكامها و أما المعارف و الأحكام الإلهيه فلا استمرار فى تفصيلها فلو كان المراد فرقتها كان الأنسب أن يقال: «فِيهَا فُرِقَ».

و قيل: المراد بكون الأمر حكيمًا إحكامه بعد الفرق لا الإحكام الذى قبل التفصيل، و المعنى: يقضى فى الليله كل أمر محكم لا يتغير بزياده أو نقصان أو غير ذلك هذا، و الأظهر ما قدمناه من المعنى.

قوله تعالى: «أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» المراد بالأمر الشأن و هو حال من الأمر السابق و المعنى فيها يفرق كل أمر حال كونه أمرا من عندنا و مبتدأ من

لدنا، ويمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهى و المعنى: يفرق فيها كل أمر بأمر منا، و هو على أى حال متعلق بقوله: «يُفْرَقُ».

و يمكن أن يكون متعلقا بقوله: «أَنْزَلْنَاهُ» أى حال كون الكتاب أمرا أو بأمر من عندنا، وقوله: «إِنَّا كُنَّا مُرْسَلِينَ» لا يخلو من تأييد لذلك، و يكون تعليلا له و المعنى: إنا أنزلناه أمرا من عندنا لأن سنتنا الجارية إرسال الأنبياء و الرسل.

قوله تعالى: «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أى إنزاله رحمه من ربك أو أنزلناه لأجل إفاضه الرحمه على الناس أو لاقتضاء رحمه ربك إنزاله فقوله: «رَحْمَةً» حال على المعنى الأول و مفعول له على الثانى و الثالث.

و فى قوله: «مِنْ رَبِّكَ» التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبه و وجهه إظهار العنايه بالنبي ص لأنه هو الذى أنزل عليه القرآن و هو المنذر المرسل إلى الناس.

و قوله: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أى السميع للمسائل و العليم بالحوائج فيسمع مسألتهم و يعلم حاجتهم إلى الاهتداء بهدى ربك فينزل الكتاب و يرسل الرسول رحمه منه لهم.

قوله تعالى: «رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» لما كانت الوثنيه يرون أن لكل صنف من الخلق إلها أو أكثر و ربما اتخذ قوم منهم إلها غير ما يتخذ غيرهم عقب قوله: «مِنْ رَبِّكَ» بقوله: «رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»، لئلا يتوهم متوهم منهم أن ربوبيته للنبي ص ليست بالاختصاص كالتى بينهم بل هو تعالى ربه و رب السماوات و الأرض و ما بينهما، و لذلك عقبه أيضا فى الآيه التاليه بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

و قوله: «إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» هذا الاشتراط كما ذكره الزمخشري من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الذى تسامع الناس بكرمه و اشتهروا سخاءه أن بلغك حديثه و حدثت بقصته فالمعنى هو الذى يعرفه الموقنون بأنه رب السماوات و الأرض و ما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنه رب كل شىء.

قوله تعالى: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» لما كان مدلول الآيه السابقه انحصار الربوبيه و هى الملك و التدبير فيه تعالى و الألوهيه و هى

المعبودية بالحق من لوازم الربوبية عقبه بكلمه التوحيد النافيه لكل إله دونه تعالى.

وقوله: «يُحْيِي وَيُمِيتُ» من أخص الصفات به تعالى و هما من شئون التدبير، و فى ذكرهما نوع تمهيد لما سيأتى من إنذارهم بالمعاد.

وقوله: «رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» فيه كمال التصريح بأنه ربهم و رب آبائهم فليعبدوه و لا يتعللوا باتباع آبائهم فى عباده الأصنام، و لتكميل التصريح سقت الجملة بالخطاب فقول: «رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ».

و هما أعنى قوله: «يُحْيِي وَيُمِيتُ» و قوله: «رَبُّكُمْ» خبران لمبتدأ محذوف و التقدير هو يحيى و يميت إلخ.

بحث روائى

فى المجمع: فى قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ» و الليله المباركه هى ليله القدر: و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع). .

و فى الكافى، بإسناده عن على بن إبراهيم عن أبىه عن ابن أبى عمير عن عمر بن أذينة عن الفضيل و زراره و محمد بن مسلم عن حمران * أنه سأل أبا جعفر (ع) عن قول الله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ» قال: نعم ليله القدر و هى فى كل سنه فى شهر رمضان فى العشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلا فى ليله القدر- قال الله تعالى: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» قال: يقدر فى ليله القدر كل شىء- يكون فى تلك السنه إلى مثلها من قابل: خير و شر و طاعه و معصيه و مولود و أجل و رزق- فما قدر فى تلك السنه و قضى فهو المحتوم- و لله تعالى فيه المشيه.

أقول: قوله: فهو المحتوم و لله فيه المشيه أى أنه محتوم من جهه الأسباب و الشرائط فلا شىء يمنع عن تحقيقه إلا- أن يشاء الله ذلك.

و فى البصائر، عن عباس بن معروف عن سعدان بن مسلم عن عبد الله بن سنان قال*:

سألته عن النصف من شعبان فقال: ما عندى فيه شىء- و لكن إذا كانت ليله تسع عشره من شهر رمضان- قسم فيها الأرزاق و كتب فيها الآجال- و خرج فيها صكاك الحاج و اطلع الله إلى عباده- فغفر الله لهم إلا شارب خمر مسكر.

فإذا كانت ليله ثلاث و عشرين فيها يفرق كل أمر حكيم-ثم ينهى ذلك و يمضى ذلك.

قلت:إلى من؟قال:إلى صاحبكم و لو لا ذلك لم يعلم.

و فى الدر المنثور،أخرج محمد بن نصر و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس "فى قوله تعالى:«فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» قال:يكتب من أم الكتاب فى ليله القدر ما يكون فى السنه-من رزق أو موت أو حياه أو مطر-حتى يكتب الحاج:يحج فلان و يحج فلان.

أقول:و الأخبار فى ليله القدر و ما يقضى فيها و فى تعيينها كثيره جدا و سيأتى عمدتها فى تفسير سوره القدر إن شاء الله تعالى.

[سوره الدخان (٤٤): الآيات ٩ الى ٣٣]

اشاره

بَيْلٌ هُمْ فِي شَكِّكَ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَذُوا إِلَىٰ آلِي الْعَبَادِ اللَّهُ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَزْجُمُونِ (٢٠) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاغْتَرِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَاءِ قَوْمٍ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَاسْرِبْ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٢٣) وَ اتَّرَكِ الْبَحْرَ رَهِيوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَابٍ وَ عِيُونٍ (٢٥) وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَ نَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَ لَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَ آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ (٣٣)

تذكر الآيات ارتيابهم في كتاب الله بعد ما ذكرت أنه كتاب مبين نازل في خير ليله على رسوله لغرض الإنذار رحمه من الله، ثم تهددهم بعذاب الدنيا و بطش يوم القيامة و تتمثل لهم بقصه إرسال موسى إلى قوم فرعون و تكذيبهم له و إغراقهم.

و لا تخلو القصه من إيماء إلى أنه تعالى سينجي النبي ص و المؤمنين به من عتاه قريش بإخراجهم من مكة ثم إهلاك صنائيد قريش في تعقيبهم النبي و المؤمنين به.

قوله تعالى: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ» ضمير الجمع لقوم النبي ص، و الإضراب عن محذوف يدل عليه السياق السابق أي إنهم لا يوقنون و لا- يؤمنون بما ذكر من رساله الرسول و صفه الكتاب الذي أنزل عليه بل هم في شك و ارتياب فيه يلعبون بالاشتغال بدنياهم، و ذكر الزمخشري أن الإضراب عن قوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ».

قوله تعالى: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ» الارتقاب الانتظار و هذا وعيد بالعذاب و هو إتيان السماء بدخان مبين يغشى الناس.

و اختلف فى المراد بهذا العذاب المذكور فى الآيه.

فقيل: المراد به المجاعه التى ابتلى بها أهل مكه فإنهم لما أصروا على كفرهم و أذاهم للنبي ص و المؤمنين به دعا عليهم النبي ص فقال: اللهم سنين كسنى يوسف فأجدبت الأرض و أصابت قريشا مجاعه شديده، و كان الرجل لما به من الجوع يرى بينه و بين السماء كالدخان و أكلوا الميتة و العظام ثم جاءوا إلى النبي ص و قالوا:

يا محمد جئت تأمر بصله الرحم و قومك قد هلكوا، و وعدوه إن كشف الله عنهم الجذب أن يؤمنوا، فدعا و سأل الله لهم بالخصب و السعه فكشف عنهم ثم عادوا إلى كفرهم و نقضوا عهدهم.

و قيل: إن الدخان المذكور فى الآيه من أشراط الساعه و هو لم يأت بعد و هو يأتى قبل قيام الساعه فيدخل أسمع الناس حتى أن رءوسهم تكون كالرأس الحنيد.

و يصيب المؤمن منه مثل الزكمه و تكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص (1) و يمكث ذلك أربعين يوما.

و ربما قيل: إن المراد بيوم الدخان يوم فتح مكه حين دخل جيش المسلمين مكه فارتفع الغبار كالدخان المظلم، و ربما قيل: المراد به يوم القيامة، و القولان كما ترى.

و قوله: «يَعْشَى النَّاسَ» أى يشملهم و يحيط بهم، و المراد بالناس أهل مكه على القول الأول، و عامه الناس على القول الثانى.

قوله تعالى: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ» حكاية قول الناس عند نزول عذاب الدخان أى يقول الناس يوم تأتى السماء بدخان ميبين:

هذا عذاب أليم و يسألون الله كشفه بالاعتراف بربوبيته و إظهار الإيمان بالدعوه الحقه فيقولون: رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ .

قوله تعالى: «أَنْتَ لَهُمُ الذُّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ» أى من أين لهم أن يتذكروا و يذعنوا بالحق و الحال أنه قد جاءهم رسول ميبين ظاهر فى رسالته لا يقبل الارتياب و هو محمد ص، و فى الآيه رد صدقهم فى وعدهم.

قوله تعالى: «ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ» التولى الإعراض، و ضمير

ص: ١٣٧

«عَنْهُ» للرسول و«مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ» خيران لمبتدئ محذوف هو ضمير راجع إلى الرسول و المعنى: ثم أعرضوا عن الرسول و قالوا هو معلم مجنون فرموه أولاً بأنه معلم يعلمه غيره فيسند ما تعلمه إلى الله سبحانه، قال تعالى: «وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» النحل: ١٠٣، و ثانياً بأنه مجنون مختل العقل.

قوله تعالى: «إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ» أى إنا كاشفون للعذاب زماناً أنكم عائدون إلى ما كنتم فيه من الكفر و التكذيب هذا بناء على القول الأول و الآية تأكيد لرد صدقهم فيما وعدوه من الإيمان.

و أما على القول الثانى فالأقرب أن المعنى: أنكم عائدون إلى العذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ» البطش -على ما ذكره الراغب- تناول الشىء بصوله، و هذا اليوم بناء على القول الأول المذكور يوم بدر و بناء على القول الثانى يوم القيامة، و ربما أيد توصيف البطشه بالكبرى هذا القول الثانى فإن بطش يوم القيامة و عذابه أكبر البطش و العذاب، قال تعالى: «فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ» الغاشية: ٢٤، كما أن أجره أكبر الأجر قال تعالى: «وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ» النحل: ٤١.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ» الفتنة الامتحان و الابتلاء للحصول على حقيقه الشىء، و قوله: «وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ» إلخ، تفسير للامتحان، و الرسول الكريم موسى (ع)، و الكريم هو المتصف بالخصال الحميده قال الراغب: الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه و إنعامه المتظاهر نحو قوله: «فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ» و إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق و الأفعال المحموده التى تظهر منه، و لا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه، قال: و كل شىء شرف فى بابه فإنه يوصف بالكرم قال تعالى: «أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ» «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ» «وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا» انتهى.

قوله تعالى: «أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» تفسير لمجىء الرسول فإن معنى مجىء الرسول تبليغ الرساله و كان من رساله موسى (ع) إلى فرعون و قومه أن يرسلوا معهم بنى إسرائيل و لا يعذبوهم، و المراد بعباد الله بنو إسرائيل و عبر عنهم

بذلك استرحاما و تلويا إلى أنهم في استكبارهم و تعديهم عليهم إنما يستكبرون على الله لأنهم عباد الله.

و في قوله: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» حيث وصف نفسه بالأمانة دفع لاحتمال أن يخونهم في دعوى الرسالة و إنجاء بنى إسرائيل من سيطرتهم فيخرج معهم عليهم فيخرجهم من أرضهم كما حكى تعالى عن فرعون إذ قال للملا حوله: «إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ»: الشعراء: ٢٥.

و قيل: «عِبَادَ اللَّهِ» نداء لفرعون و قومه و التقدير أن أدوا إلى ما أمركم به يا عباد الله، و لا يخلو من التقدير المخالف للظاهر.

قوله تعالى: «وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» أى لا تتجبروا على الله بتكذيب رسالتي و الإعراض عما أمركم الله فإن تكذيب الرسول في رسالته استعلاء و تجبر على من أرسله و الدليل على أن المراد ذلك تلعيل النهى بقوله: «إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» أى حجه بارزه من الآيات المعجزة أو حجه المعجزة و حجه البرهان.

قيل: و من حسن التعبير الجمع بين التأديه و الأمين و كذا بين العلو و السلطان.

قوله تعالى: «وَإِنِّي عِذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ» أى التجأت إليه تعالى من رجمكم إياى فلا تقدرتون على ذلك، و الظاهر أنه إشاره إلى ما آمنه ربه قبل المجيء إلى القوم كما فى قوله تعالى: «قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى»: طه: ٤٦.

و بما مر يظهر فساد ما قيل: إن هذا كان قبل أن يخبره الله بعجزهم عن رجمه بقوله سبحانه: «فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا».

قوله تعالى: «وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُونِ» أى إن لم تؤمنوا لى فكونوا بمعزل منى لا لى و لا على و لا تتعرضوا لى بخير أو شر، و قيل: المراد تنحوا عنى و انقطعوا، و هو بعيد.

قوله تعالى: «فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَأَقْوَمُ مُجْرِمُونَ» أى دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون و قد ذكر من دعائه السبب الداعى له إلى الدعاء و هو إجرامهم إلى حد يستحقون معه الهلاك و يعلم ما سأله مما أجاب به ربه تعالى إذ قال: «فَأَسْرِ بِعَبَادِي»

إلخ، وهو الإهلاك.

قوله تعالى: «فَأَسْرِرْ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ» الإسراء: السير بالليل فيكون قوله: «لَيْلًا» تأكيداً له و تصريحاً به، والمراد بعبادى بنو إسرائيل، وقوله: «إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ» أى يتبعكم فرعون و جنوده، وهو استئناف يخبر عما سيقع عقب الإسراء.

و فى الكلام إيجاز بالحذف و التقدير فقال له: أسر بعبادى ليلا إنكم متبعون يتبعكم فرعون و جنوده.

قوله تعالى: «وَ اتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ» قال فى المفردات: و اترك البحر رهوا أى ساكنا، وقيل: سعه من الطريق و هو الصحيح. انتهى. وقوله:

«إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ» تعليل لقوله: «وَ اتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا».

و فى الكلام إيجاز بالحذف اختصارا و التقدير: أسر بعبادى ليلا يتبعكم فرعون و جنوده حتى إذا بلغت البحر فاضربه بعصاك لينفتح طريق لجوازكم فجاوزوه و اتركه ساكنا أو مفتوحا على حاله فيدخلونه طمعا فى إدراككم فهم جند مغرقون.

قوله تعالى: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ» «كَمْ» للتكثير أى كثيرا ما تركوا، وقوله: «مِنْ جَنَّاتٍ» إلخ...

بيان لما تركوا، و المقام الكريم المساكن الحسنه الزاهيه، و النعمه فتح النون التنعم و بناؤها بناء المره كالضربه و بكسر النون قسم من التنعم و بناؤها بناء النوع كالجلسه و فسروا النعمه هاهنا بما يتنعم به و هو أنسب للترك، و فاكهين من الفكاهه بمعنى حديث الأنس و لعل المراد به هاهنا التمتع كما يتمتع بالفواكه و هى أنواع الثمار.

و قوله: «كَذَلِكَ» قيل: معناه الأمر كذلك، و قيل: المعنى نفعل فعلا كذلك لمن نريد إهلاكه، و قيل: الإشارة إلى الإخراج المفهوم من الكلام السابق، و المعنى:

مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها.

و يمكن أن يكون حالا من مفعول «تركوا» المحذوف و المعنى: كثيرا ما تركوا أشياء كذلك أى على حالها و الله أعلم.

قوله تعالى: «وَ أَوْزَنَّا قَوْمًا آخِرِينَ» الضمير لمفعول «تَرَكُوا» المحذوف المبين بقوله: «مِنْ جَنَّاتٍ» إلخ، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ بكاء السماء والأرض على شيء فأتت كناية تخيلية عن تأثرهما عن فوته وفقداه فعدم بكائهما عليهم بعد إهلاكهم كناية عن هوان أمرهم على الله وعدم تأثير هلاكهم في شيء من أجزاء الكون.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ كناية عن سرعه جريان القضاء الإلهي والقهر الربوبي في حقهم وعدم مصادفته لمانع يمنعه أو يحتاج إلى علاج في رفعه حتى يتأخر به.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ وهو ما يصيبهم وهم في إساره فرعون من ذبح الأبناء واستحياء النساء وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ «مِنْ فِرْعَوْنَ» بدل من قوله: ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ إما بحذف مضاف والتقدير من عذاب فرعون، أو من غير حذف بجعل فرعون عين العذاب دعوى للمبالغة، وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى متكبرا من أهل الإسراف والتعدي عن الحد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ أى اخترناهم على علم منا باستحقاقهم الاختيار على ما يفيد السياق.

والمراد بالعالمين جميع العالمين من الأمم إن كان المراد بالاختيار الاختيار من بعض الوجوه ككثره الأنبياء فإنهم يمتازون من سائر الأمم بكثره الأنبياء المبعوثين منهم و يمتازون بأن مر عليهم دهر طويل فى التيه وهم يتظللون بالغمام و يأكلون المن و السلوى إلى غير ذلك.

و عالمو أهل زمانهم إن كان المراد بالاختيار مطلقه فإنهم لم يختاروا على الأمة الإسلامية التى خاطبهم الله تعالى بمثل قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: آل عمران: ١١٠، وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: الحج: ٧٨.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ البلاء الاختبار والامتحان أى وأعطينا بنى إسرائيل من الآيات المعجزات ما فيه امتحان ظاهر ولقد أوتوا من الآيات المعجزات ما لم يعهد فى غيرهم من الأمم و ابتلوا بذلك ابتلاء مبينا.

قيل: وفى قوله: ﴿فِيهِ﴾ إشارة إلى أن هناك أمورا أخرى ككونه معجزه.

و فى تذييل القصة بهذه الآيات الأربع أعنى قوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

-إلى قوله- «بَلُّوْا مُبِيْنٌ» نوع تطيب لنفس النبي ص و إيماء إلى أن الله تعالى سينجيهِ و المؤمنين به من فراعنه مكه و يختارهم و يمكنهم فى الأرض فينظر كيف يعملون.

بحث روائى

عن جوامع الجامع،: فى قوله تعالى: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ» و اختلف فى الدخان فقيل: إنه دخان يأتى من السماء قبل قيام الساعة-يدخل فى أسمع الكفره-حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيد (1)و يعترى المؤمن منه كهينه الزكام- و يكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه-ليس فيه خصاص يمد ذلك أربعين يوما، و روى ذلك عن على و ابن عباس و الحسن:

أقول: و رواه فى الدر المنثور، عنهم و أيضا عن حذيفه بن اليمان و أبى سعيد الخدرى عن النبي ص

، و رواه أيضا عن ابن عمر موقوفا.

و فى تفسير القمى،: فى الآية قال: ذلك إذا خرجوا فى الرجعه من القبر-يغشى الناس كلهم الظلمه-فيقولون: هذا عذاب أليم-ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون.

و فى المجمع، و روى زراره بن أعين عن أبى عبد الله (ع) أنه قال*: بكت السماء على يحيى بن زكريا-و الحسين بن على (ع) أربعين صباحا. قلت: فما بكاؤها؟ قال: كانت تطلع حمراء و تغيب حمراء.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى حاتم عن عبيد المكتب عن إبراهيم قال " *: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قيل لعبيد: أليس السماء و الأرض تبكى على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه و حيث يصعد عمله. قال: و تدرى ما بكاء السماء؟ قال: لا. قال:

تحمر و تصير ورده كالدهان. إن يحيى بن زكريا لما قتل احمرت السماء و قطرت دما، و إن الحسين بن على يوم قتل احمرت السماء.

و فى الفقيه، عن الصادق (ع) قال: إذا مات المؤمن بكت عليه بقاع الأرض - التى كان يعبد الله عز و جل فيها- و الباب الذى كان يصعد منه عمله و موضع سجوده.

ص: ١٤٢

أقول: وفي هذا المعنى و معنى الروایتین السابقتین روايات أخر من طرق الشيعة و أهل السنه.

و لو بنى فى معنى بقاء السماء و الأرض على ما يظهر من هذه الروايات لم يحتج إلى حمل بكائهما على الكنايه التخيليه.

و فى تفسير القمى، "فى قوله تعالى: «وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ» قال: قالوا ذلك لما نزل الوحي على رسول الله ص - فأخذته الغشى فقالوا: هو مجنون.

[سوره الدخان (٤٤): الآيات ٣٤ الى ٥٩]

اشاره

إِنَّ هُوَ لَآيَقُولُونَ (٣٤) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَ مَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ
وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِاعْبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئاً وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ
(٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامٌ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِي
الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ
(٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ
مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ (٥٥) لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَ
وَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ
مُرْتَقِبُونَ (٥٩)

لما أنذر القوم بالعذاب الدنيوى ثم بالعذاب الأخرى و تمثل للعذاب الدنيوى بما جرى على قوم فرعون إذ جاءهم موسى (ع) بالرسالة من ربه فكذبوه فأخذهم الله بعذاب الإغراق فاستأصلهم.

رجع إلى الكلام فى العذاب الأخرى فذكر إنكار القوم للمعاد و قولهم أن ليس بعد الموت الأولى حياه فاحتج على إثبات المعاد بالبرهان ثم أنبأ عن بعض ما سيلقاه المجرمون من العذاب فى الآخرة و بعض ما سيلقاه المتقون من النعيم المقيم و عند ذلك تختتم السوره بما بدأت به و هو نزول الكتاب للتذكر و أمره (ص) بالارتقاب.

قوله تعالى: « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَ مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ » رجوع إلى أول الكلام من قوله: « بَلَىٰ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ » و الإشارة بهؤلاء إلى قريش و من يلحق بهم من العرب الوثنيين المنكرين للمعاد، و قولهم: « إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ » يريدون به نفى الحياه بعد الموت الملازم لنفى المعاد بدليل قولهم بعده: « وَ مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ » أى بمبعوثين، قال فى الكشاف يقال: أنشر الله الموتى و نشرهم إذا بعثهم. انتهى.

فقولهم: «إِنْ هِيَ إِلَّا- مَوْتُنَا الْأُولَى» الضمير فيه للعاقبه و النهايه أى ليست عاقبه أمرنا و نهايه وجودنا و حياتنا إلا موتنا الأولى فنعدم بها و لا حياه بعدها أبدا.

و وجه تقييد الموته فى الآيه بالأولى، بأنه ليس بقيد احترازى إذ لا ملازمه بين الأول و الآخر أو بين الأول و الثانى فمن الجائز أن يكون هناك شىء أول و لا ثانى له و لا فى قبالة آخر، كذا قيل.

و هناك وجه آخر ذكره الزمخشري فى الكشاف فقال: فإن قلت: كان الكلام واقعا فى الحياه الثانیه لا فى الموت فهلا قيل: إلا حياتنا الأولى و ما نحن بمنشرين كما قيل: إن هى إلا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين، و ما معنى قوله: «إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى»؟ و ما معنى ذكر الأولى؟ كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها و جحدوها و أثبتوا الأولى.

قلت: معناه- و الله الموفق للصواب- أنهم قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقبها حياه كما تقدمتكم موتة قد تعقبها حياه و ذلك قوله عز و جل: «وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» فقالوا: إن هى إلا- موتنا الأولى يريدون ما الموتة التى من شأنها أن تتعقبها حياه إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانیه، و ما هذه الصفه التى تصفون بها الموتة من تعقب الحياه لها إلا للموتة الأولى خاصة فلا فرق إذا بين هذا و بين قوله:

«إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا» فى المعنى انتهى.

و يمكن أن يوجه بوجه ثالث و هو أن يقولوا: «إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى» بعد ما سمعوا قوله تعالى: «قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ» الآيه، و قد تقدم فى تفسير الآيه أن الإمامة الأولى هى الموتة بعد الحياه الدنيا، و الإمامة الثانیه هى التى بعد الحياه البرزخيه فهم فى قولهم: «إِنْ هِيَ إِلَّا- مَوْتُنَا الْأُولَى» ينفون الموتة الثانیه الملازمه للحياه البرزخيه التى هى حياه بعد الموت فإنهم يرون موت الإنسان انعداما له و بطلانا لذاته.

و يمكن أن يوجه بوجه رابع و هو أن يرجع التقييد بالأولى إلى الحكايه دون المحكى و ذلك بأن يكون الذى قالوا إنما هو «إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا» و يكون معنى الكلام

أن هؤلاء ينفون الحياة بعد الموت و يقولون: إن هي إلا موتتنا يريدون الموتة الأولى من الموتين اللتين ذكرنا في قولنا: «قَالُوا رَبَّنَا
أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ» الآية.

و الوجوه الأربع مختلفه فى القرب من الفهم فأقربها ثالثها ثم الرابع ثم الأول.

قوله تعالى: «فَأْتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» تتمه كلام القوم و خطاب منهم للنبي ص و المؤمنين به حيث كانوا يذكرون لهم
البعث و الإحياء فاحتجوا لرد الإحياء بعد الموت بقولهم: «فَأْتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» أى فليحي آباؤنا الماضون بدعائكم أو
بأى وسيله اتخذتموها حتى نعلم صدقكم فى دعواكم أن الأموات سيحيون و أن الموت ليس بانعدام.

قوله تعالى: «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبع و
الذين من قبلهم من الأمم.

و تبع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن و اسمه على ما ذكروا أسعد أبو كرب و قيل: سعد أبو كرب و سيأتى فى البحث الروائى
نبذه من قصته و فى الكلام نوع تلويح إلى سلامه تبع نفسه من الإهلاك.

قوله تعالى: «وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» ضمير التثنيه فى
قوله: «وَ مَا بَيْنَهُمَا» «الجنسى السماوات و الأرض و لذا لم يجمع، و الباء فى قوله «بِالْحَقِّ» للملابسه أى ما خلقناهما إلا متلبستين
بالحق، و جوز بعضهم كونها للسببيه أى ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذى هو الإيمان و الطاعة و البعث و
الجزاء، و لا يخفى بعده.

و مضمون الآيتين حجه برهانية على ثبوت المعاد و تقريرها أنه لو لم يكن وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان الله لا يزال
يوجد أشياء ثم يعدمها ثم يوجد أشياء آخر ثم يعدمها و يحيى هذا ثم يميتة و يحيى آخر و هكذا كان لاعبا فى فعله عابثا به و
اللعب عليه تعالى محال ففعله حق له غرض صحيح فهناك عالم آخر باق دائمى ينتقل إليه الأشياء و ما فى هذا العالم الدنيوى
الفانى البائد مقدمه للانتقال إلى ذلك العالم و هو الحياه الآخرة.

و قد فصلنا القول فى هذا البرهان فى تفسير الآية ١٦ من سوره الأنبياء، و الآية ٢٧ من سوره ص فليراجع.

و قوله: «و لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» تفرّيع لهم بالجهل.

قوله تعالى: «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ» بيان لصفه اليوم الذى يثبت البرهان السابق و هو يوم القيامة الذى فيه يقوم الناس لرب العالمين.

و سماه الله يوم الفصل لأنه يفصل فيه بين الحق و الباطل و بين المحق و المبطل و المتقين و المجرمين أو لأنه يوم القضاء الفصل منه تعالى.

و قوله: «مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ» أى موعد الناس أجمعين أو موعد من تقدم ذكره من قوم تبع و قوم فرعون و من تقدمهم و قريش و غيرهم.

قوله تعالى: «يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ» بيان ليوم الفصل، و المولى هو الصاحب الذى له أن يتصرف فى أمور صاحبه و يطلق على من يتولى الأمر و على من يتولى أمره و المولى الأول فى الآيه هو الأول و الثانى هو الثانى.

و الآيه تنفى أولاً- إغناء مولى عن مولا- يومئذ، و تخبر ثانياً أنهم لا ينصرون و الفرق بين المعنيين أن الإغناء يكون فيما استقل المغنى فى عمله و لا- يكون لمن يغنى عنه صنع فى ذلك، و نصره إنما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصه و يتم له ذلك بنصره الناصر.

و الوجه فى انتفاء الإغناء و النصر يومئذ أن الأسباب المؤثره فى نشأ الحياه الدنيا تسقط يوم القيامة، قال تعالى: «وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ» البقره: ١٦٦، و قال:

«فَرَبَّلْنَا بَيْنَهُمْ» : يونس: ٢٨.

قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» استثناء من ضمير «لَا هُمْ يُنصَرُونَ» و الآيه من أدله الشفاعة يومئذ و قد تقدم تفصيل القول فى الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب.

هذا على تقدير رجوع ضمير «لَا هُمْ يُنصَرُونَ» إلى الناس جميعا على ما هو الظاهر.

و أما لو رجع إلى الكفار كما قيل فالاستثناء منقطع و المعنى: لكن من رحمه الله و هم المتقون فإنهم فى غنى عن مولى يغنى عنهم و ناصر ينصرهم.

و أما ما جوزه بعضهم من كونه استثناء متصلا من «مَوْلَى» فقد ظهر فسادها مما قدمناه فإن الإغناء إنما هو فيما لم يكن عند الإنسان شىء من أسباب النجاه و من كان

على هذه الصفة لم يغن عنه مغن ولا استثناء و الشفاعة نصره تحتاج إلى بعض أسباب النجاه و هو الدين المرضى و قد تقدم فى بحث الشفاعة، نعم يمكن أن يوجه بما سيجىء فى روايه الشحام.

و قوله: « إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى الغالب الذى لا يغلبه شىء حتى يمنعه من تعذيب من يريد عذابه، و مفيض الخير على من يريد أن يرحمه و يفيض الخير عليه و مناسبه الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهره.

قوله تعالى: « إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامٌ لِلْأَثِيمِ » تقدم الكلام فى شجره الزقوم فى تفسير سوره الصافات، و الأثيم من استقر فيه الإثم إما بالمدامه على معصيه أو بالإكثار من المعاصى و الآيه إلى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار.

قوله تعالى: « كَالْمُهْلِ يَغْلَى فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ » المهل هو المذاب من النحاس و الرصاص و غيرهما، و الغلى و الغليان معروف، و الحميم الماء الحار الشديد الحرارة، و قوله: « كَالْمُهْلِ » خبر ثان لقوله: « إِنَّ » كما أن قوله: « طَعَامٌ لِلْأَثِيمِ » خبر أول، و قوله: « يَغْلَى فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ » خبر ثالث، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: « خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ » الاعتلاء الزعزعه و الدفع بعنف و سواء الجحيم وسطه، و الخطاب للملائكه الموكلين على النار أى نقول للملائكه خذوا الأثيم و ادفعوه بعنف إلى وسط النار لتحيط به قال تعالى: « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ »: التوبه: ٤٩.

قوله تعالى: « ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ » كان المراد بالعذاب ما يعذب به، و إضافته إلى الحميم بيانيه و المعنى: ثم صبوا فوق رأسه من الحميم الذى يعذب به.

قوله تعالى: « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » خطاب يخاطب به الأثيم و هو يقاسى العذاب بعد العذاب، و توصيفه بالعزه و الكرامه على ما هو عليه من الذله و اللآمه استهزاء به تشديدا لعذابه و قد كان يرى فى الدنيا لنفسه عزه و كرامه لا تفارقانه كما يظهر مما حكى الله سبحانه من قوله: « وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى »: حم السجده: ٥٠.

قوله تعالى: «إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَذَابًا عَظِيمًا» [١]، وفيها تأكيد وإعلام لهم بخطاهم وزلتهم في الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهده عيان، ولذا عبر عن تحمل العذاب بالذوق لما أنه يعبر عن إدراك ألم المولمات و لذه الملمذات إدراكا تاما بالذوق.

و يمكن أن تكون الآية استثناءفا من كلام الله سبحانه يخاطب به الكفار بعد ذكر حالهم فى يوم القيامة، و ربما أیده قوله: «كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ» بخطاب الجمع و الخطاب فى الآيات السابقة بالإفراد.

قوله تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ» [٢] المقام محل القيام بمعنى الثبوت و الركوز و لذا فسر أيضا بموضع الإقامه، و الأمين صفه من الأمن بمعنى عدم إصابه المكروه، و المعنى: أن المتقين-يوم القيامة-ثابتون فى محل ذى أمن من إصابه المكروه مطلقا.

و بذلك يظهر أن نسبة الأمن إلى المقام بتوصيف المقام بالأمين من المجاز فى النسبه.

قوله تعالى: «فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ» [٣] بيان لقوله: «فِي مَقَامٍ أَمِينٍ» و جعل العيون ظرفا لهم باعتبار المجاوره و وجودها فى الجنات التى هى ظرف، و جمع الجنات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أن لكل منهم وحده جنه أو أكثر.

قوله تعالى: «يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ» [٤] السندس الرقيق من الحرير و الإستبرق الغليظ منه و هما معربان من الفارسيه.

و قوله: «مُتَقَابِلِينَ» أى يقابل بعضهم بعضا للاستيناس إذ لا شر و لا مكروه عندهم لكونهم فى مقام أمين.

قوله تعالى: «كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ» [٥] أى الأمر كذلك أى كما وصفناه و المراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهم من الزوج بمعنى القرين و هو أصل التزويج فى اللغه، و الحور جمع حوراء بمعنى شديده سواد العين و بياضها أو ذات المقلة السوداء كالظباء، و العين جمع عيناء بمعنى عظيمه العينين، و ظاهر كلامه تعالى أن الحور العين غير نساء الدنيا الداخله فى الجنه.

قوله تعالى: «يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ» [٦] أى آمنين من ضررها.

قوله تعالى: «لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» أي إنهم في جنه الخلد أحياء بحياه أبدية لا يعترئها موت.

و قد استشكل في الآيه بأن استثناء الموتة الأولى من قوله: «لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ» يفيد أنهم يذوقون الموتة الأولى فيها، والمراد خلافه قطعاً، و بتقرير آخر الموتة الأولى هي موته الدنيا و قد مضت بالنسبه إلى أهل الجنة، و التلبس في المستقبل بأمر ماض محال قطعاً فما معنى استثناء الموتة الأولى من عدم الذوق في المستقبل؟.

و هنا إشكال آخر لم يتعرضوا له و هو أنه قد تقدم في قوله تعالى: «رَبَّنَا آمَنَّا اِثْنَيْنِ وَأُحْيَيْنَا اِثْنَيْنِ»: المؤمن: ١١، إن بين الحياه الدنيا و الساعه موتتين: موته بالانتقال من الدنيا إلى البرزخ و موته بالانتقال من البرزخ إلى الآخرة، و الظاهر أن المراد بالموتة الأولى في الآيه هي موته الدنيا الناقله للإنسان إلى البرزخ فهب أنا أصلحنا استثناء الموتة الأولى بوجه فما بال الموتة الثانيه لم تستثن؟ و ما الفرق بينهما و هما موتتان ذاقوهما قبل الدخول في جنه الخلد؟.

و أجيب عن الإشكال الأول بأن الاستثناء منقطع، و المعنى: لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا و قد مضت فعموم قوله: «لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ» على حاله.

و على تقدير عدم كون الاستثناء منقطعاً «إلا» بمعنى سوى و «إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ» بدل من «الْمَوْتَ» و ليس من الاستثناء في شيء، و المعنى: لا يذوقون فيها سوى الموتة الأولى من الموت أما الموتة الأولى فقد ذاقوها و محال أن تعود و تذاق و هي أولى.

و أجيب بعض وجوه آخر لا يعبأ به، و أنت خير بأن شيئاً من الوجهين لا يوجه اتصاف الموتة بالأولى و قد تقدم في تفسير قوله: «إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ» الآيه، وجوه في ذلك.

و أما الإشكال الثاني فيمكن أن يجاب عنه بالجواب الثاني المتقدم لما أن هناك موتتين الموتة الأولى و هي الناقله للإنسان من الدنيا إلى البرزخ و الموتة الثانيه و هي الناقله له من البرزخ إلى الآخرة فإذا كان «إِلَّا» في قوله: «إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ» بمعنى سوى و المجموع بدلاً من الموت كانت الآيه مسوقه لنفي غير الموتة الأولى و هي الموتة الثانيه التي هي موته البرزخ فلا موت في جنه الآخرة لا موته الدنيا لأنها تحققت لهم قبلاً و لا غير موته الدنيا التي هي موته البرزخ، و يتبين بهذا وجه تقييد الموتة بالأولى.

وقوله: « وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ » الوقايه حفظ الشىء مما يؤذيه و يضره، فالمعنى: و حفظهم من عذاب الجحيم، و ذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفى الموت عنهم تتميم لقسمه المكاره أى إنهم مصونون من الانتقال من دار إلى دار و من نشأه الجنه إلى نشأه غيرها و هو الموت و مصونون من الانتقال من حال سعيده إلى حال شقيه و هى عذاب الجحيم.

قوله تعالى: « فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » حال مما تقدم ذكره من الكرامه و النعمه، و يمكن أن يكون مفعولا مطلقا أو مفعولا-له، و على أى حال هو تفضل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقا يوجب عليه تعالى و يلزمه على الإثابه فإنه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكم عليه شىء، و إنما هو وعده لعباده ثم أخبر أنه لا يخلف وعده، و قد تقدم تفصيل القول فى هذا المعنى فى الأبحاث السابقه.

وقوله: « ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » الفوز هو الظفر بالمراد و كونه فوزا عظيما لكونه آخر ما يسعد به الإنسان.

قوله تعالى: « فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » تفریع على جميع ما تقدم من أول السوره إلى هنا و فذلكه للجميع، و التيسير التسهيل، و الضمير للكتاب و المراد بلسان النبى ص العربيه.

و المعنى: فإنما سهلنا القرآن-أى فهم مقاصده-بالعربيه لعلهم-أى لعل قومك-يتذكرون فتكون الآيه قريبه المعنى من قوله: « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »: الزخرف: ٣.

وقيل: المراد من تيسير الكتاب بلسان النبى ص إجراؤه على لسانه و هو أمى لا يقرأ و لا يكتب ليكون آيه لصدق نبوته، و هو بعيد من سياق الفذلكه.

قوله تعالى: « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمُرْسَلِينَ » كأنه متفرع على ما يتفرع على الآيه السابقه، و محصل المعنى أنا يسرناه بالعربيه رجاء أن يتذكروا فلم يتذكروا بل هم فى شك يلعبون و ينتظرون العذاب الذى لا مرد له من المكذبين فانتظر العذاب إنهم منتظرون له.

فإطلاق المرتقيين على القوم من باب التهكم، و من سخييف القول قول من يقول إن فى الآيه أمرا بالمتاركة و هى منسوخه بآيه السيف.

في المجمع، في قوله تعالى: «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِّعُ»:

روى سهل بن ساعد عن النبي ص أنه قال: لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم.

أقول: وروى هذا المعنى في الدر المنثور، عن ابن عباس أيضاً، وأيضاً عن ابن عساكر عن عطاء بن أبي رباح عن النبي ص.

وفيه، وروى الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله (ع) قال*: إن تبعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبي، أما أنا فلو أدركته لخدمته وخرجت معه.

وفي الدر المنثور، أخرج أبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن سلام قال*: لم يمت تبع حتى صدق بالنبي ص -لما كان يهود يثرب يخبرونه.

أقول: والأخبار في أمر تبع كثيرة، وفي بعضها أنه أول من كسا الكعبة.

وفي الكافي، بإسناده عن زيد الشحام قال*: قال لي أبو عبد الله (ع) ونحن في الطريق في ليله الجمعة: اقرأ فإنها ليله الجمعة قرآنا، فقرأت: «إِنَّ يَوْمَ الْفُضَيْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ - يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً - وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ» فقال أبو عبد الله (ع): نحن والله الذي استثنى الله -فكنا نغني عنهم.

أقول: يشير (ع) إلى الشفاعة وقد أخذ الاستثناء عن «مولى» الأول.

وفي تفسير القمي، ثم قال: «إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْمَأْتِمِ» نزلت في أبي جهل بن هشام، وقوله: «كَالْمُهَيْلِ» قال: المهمل الصفر المذاب «يَعْلَى فِي الْبُطُونِ كَعَلِي الْحَمِيمِ» وهو الذي قد حمى وبلغ المنتهى.

أقول: ومن طرق أهل السنه أيضا روايات تؤيد نزول الآية في أبي جهل.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَى حَيْدِثٍ بَعِيدٍ اللَّهُ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيُلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرَهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)

غرض السوره دعوه عامه على الإنذار تفتتح بآيات الوجدانيه ثم تذكر تشريع الشريعه للنبي ص و تشير إلى لزوم اتباعها له و لغيره بما أن أمامهم يوما يحاسبون فيه على أعمالهم الصالحه من الإيمان و اتباع الشريعه و اجتراحهم السيئات بالإعراض عن الدين، ثم تذكر ما سيجرى على الفريقين فى ذلك اليوم و هو يوم القيامه.

و فى خلال مقاصدها إنذار و وعيد شديد للمستكبرين المعرضين عن آيات الله و الذين اتخذوا إلههم هواهم و أضلهم الله على علم.

و من طرائف مطالبها بيان معنى كتابه الأعمال و استنساخها.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها و استثنى بعضهم قوله تعالى: «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا» الآية، و لا شاهد له.

قوله تعالى: «حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» الظاهر أن «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» من إضافة الصفه إلى الموصوف و المصدر بمعنى المفعول، و «مِنَ اللَّهِ» متعلق بتنزيل، و المجموع خبر لمبتدأ محذوف.

و المعنى: هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم، و قد تقدم الكلام فى مفردات الآية فيما تقدم.

قوله تعالى: «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ» آيه الشىء علامته التى تدل عليه و تشير إليه، و المراد بكون السماوات و الأرض فيها آيات كونها بنفسها آيات له فليس وراء السماوات و الأرض و سائر ما خلق الله أمر مطروف لها هو آيه داله عليه تعالى.

و من الدليل على ما ذكرنا اختلاف التعبير فيها فى كلامه تعالى فتاره يذكر أن فى الشىء آيه له و أخرى يعده بنفسه آيه كقوله تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ

وَ اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لآيَاتٍ: آل عمران: ١٩٠، و قوله: «وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»: الروم: ٢٢، و نظائرهما كثيره، و يستفاد من اختلاف التعبير الذى فيها أن معنى كون الشىء فيه آيه هو كونه بنفسه آيه كما يستفاد من اختلاف التعبير فى مثل قوله: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لآيَاتٍ»، و قوله: «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لآيَاتٍ» الآيه، أن المراد من خلق السماوات و الأرض نفسها لا غير.

و العناية فى أخذ الشىء ظرفا للآيه مع كونه بنفسه آيه اعتبار جهات وجوده و إن لوجوده جهه أو جهات كل واحده منها آيه من الآيات و لو أخذت نفس الشىء لم يستقم إلا أخذها آيه واحده كما فى قوله تعالى: «وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ»: الذاريات:

٢٠، و لو أخذت الآيه نفس الأرض لم يستقم إلا أن يقال: و الأرض آيه للموقنين و ضاع المراد و هو أن فى وجود الأرض جهات كل واحده منها آيه وحدها.

فمعنى قوله: «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» إلخ، إن لوجود السماوات و الأرض جهات داله على أن الله تعالى هو خالقها المدبر لها وحده لا شريك له فإنها بحاجتها الذاتيه إلى من يوجد لها و عظمه خلقتها و بداعه تركيبها و اتصال وجود بعضها ببعض و ارتباطه على كثرتها الهائله و اندراج أنظمتها الجزئيه الخاصه بكل واحد تحت نظام عام يجمعها و يحكم فيها تدل على أن لها خالقا هو وحده ربها المدبر أمرها فلو لا أن هناك من يوجد لها لم توجد من رأس، و لو لا أن مدبرها واحد لتناقضت النظمات و تدافعت و اختلف التدبير.

و مما تقدم يظهر أن قول بعضهم: إن قوله: «فِي السَّمَاوَاتِ» بتقدير مضاف محذوف و التقدير فى خلق السماوات، تكلف من غير ضروره تدعو إليه.

قوله تعالى: «وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ مَا يَبِئُثُّ مِنْ دَابِّهِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» البث التفريق و الإثارة و بثه تعالى للدواب خلقها و تفريقها و نشرها على الأرض كما قال فى خلق الإنسان:

«ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ»: الروم: ٢٠.

و معنى الآيه: و فيكم من حيث وجودكم المخلوق و فيما يفرقه الله من دابه من حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين. و خلق الإنسان على كونه موجودا أرضيا له ارتباط بالماده نوع آخر من الخلق يغاير خلق السماوات و الأرض لأنه مركب من بدن أرضى مؤلف من مواد كونه

عنصريه تفسد بالموت بالتفرق والتلاشى و أمر آخر وراء ذلك علوى غير مادى لا يفسد بالموت بل يتوفى و يحفظ عند الله، و هو الذى يسميه القرآن بالروح قال تعالى: «وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» الحجر: ٢٩، و قال بعد ذكر خلق الإنسان من نطفه ثم من علقه ثم مضغه ثم تميم خلق بدنه: «ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ»: المؤمنون: ١٤ و قال: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ»: الم السجده: ١١.

فالناظر فى خلق الإنسان ناظر فى آيه ملكوته وراء الآيات الماديه و كذا الناظر فى خلق الدواب و لها نفوس ذوات حياه و شعور و إن كانت دون الإنسان فى حياتها و شعورها كما أنها دونه فى تجهيزاتها البدنيه ففى الجميع آيات لأهل اليقين يعرفون بها الله سبحانه بأنه واحد لا شريك له فى ربوبيته و ألوهيته.

قوله تعالى: «وَ اٰخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ» إلى آخر الآيه هذا القبيل من الآيات آيات ما بين السماء و الأرض.

و قوله: «وَ اٰخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ» يريد به اختلافهما فى الطول و القصر اختلافًا منظمًا باختلاف الفصول الأربعة بحسب بقاع الأرض المختلفه و يتكرر بتكرر السنين يدبر سبحانه بذلك أقوات أهل الأرض و يرببهم بذلك تربيته صالحه قال تعالى: «وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيَوْمٍ»: حم السجده: ١٠.

و قوله: «وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» المراد بالرزق الذى ينزله الله من السماء هو المطر تسميه للسبب باسم المسبب مجازًا أو لأن المطر أيضا من الرزق فإن مياه الأرض من المطر، و المراد بالسماء جهه العلو أو السحاب مجازًا، و إحياء الأرض به بعد موتها هو إحياء ما فيها من النبات بالأخذ فى الرشد و النمو، و لا يخلو التعرض للإحياء بعد الموت من تلويح إلى المعاد.

و قوله: «وَ تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ» أى تحويلها و إرسالها من جانب إلى جانب، لتصرفها فوائد عامه كثيره من أعمها سوق السحب إلى أقطار الأرض و تلقيح النباتات و دفع العفونات و الروائح الممتنه.

و قوله: «آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» أى يميزون بين الحق و الباطل و الحسن و القبيح بالعقل الذى أودعه الله سبحانه فيهم.

و قد خص كل قبيل من الآيات بقوم خاص فخصت آيه السماوات و الأرض

بالمؤمنين و آيه الإنسان و سائر الحيوان يقوم يوقنون، و آيه اختلاف الليل و النهار و الأمطار و تصريف الرياح يقوم يعقلون.

و لعل الوجه فى ذلك أن آيه السماوات و الأرض تدل بدلاله بسيطه ساذجه على أنها لم توجد نفسها بنفسها و لا عن اتفاق و صدفة بل لها موجد أوجدها مع ما لها من الآثار و الأفعال التى يتحصل منها النظام المشهود فخالقها خالق الجميع و رب الكل، و الإنسان يدرك ذلك بفهمه البسيط الساذج و المؤمنون بجميع طبقاتهم يفهمون ذلك و ينتفعون به.

و أما أنه خلق الإنسان و سائر الدواب التى لها حياه و شعور فإنها من حيث أرواحها و نفوسها الحيه الشاعره من عالم وراء عالم الماده و هو المسمى بالملكوت و قد خص القرآن كمال إدراكه و مشاهدته بأهل اليقين كما قال: «وَ كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» : الأنعام: ٧٥.

و أما آيه اختلاف الليل و النهار و الأمطار المحييه للأرض و تصريف الرياح فإنها لتنوع أقسامها و تعدد جهاتها و ارتباطها بالأرض و الأرضيات و كثره فوائدها و سعه منافعها تحتاج إلى تعقل فكرى تفصيلى عميق و لا تنال بالفهم البسيط الساذج و لذلك خصت يقوم يعقلون و الآيات آيات لجميع الناس لكن لما كان المنتفع بها بعضهم خصت بهم.

و قد عبر عن أهل اليقين و العقل يقوم يوقنون و يقوم يعقلون و عن أهل الإيمان بالمؤمنين لأن بساطه آيه أهل الإيمان تفيد أن المراد بالإيمان أصله و هو ثابت فيهم فناسب التعبير عنهم بالوصف بخلاف آيتى أهل اليقين و العقل فإنهما لمدقتهما و علو منالهما تدر كان شيئا فشيئا فناسبنا التعبير بالفعل المضارع الدال على الاستمرار التجددى.

و قيل فى وجه ما فى الآيات الثلاث من الترتيب بين أهلها حيث ذكر أولا أهل الإيمان ثم الإيقان ثم العقل أنه على ترتيب الترقى فإن الإيقان مرتبه خاصه فى الإيمان فهو بعد الإيمان و العقل مدار الإيمان و الإيقان و نعى العقل المؤيد بنور البصيره فبسببه يخلص اليقين من اعتراء الشكوك من كل وجه و فى استحكامه كل خير. و روعى فى ترتيب الآيات ما روعى فى ترتيب المراتب الثلاث. (١)

ص: ١٥٧

و فيه أن مقتضى ما وصفه من أمر العقل وقوعه قبل الثانى بل قبل أول المراتب على أن ما ذكره من إمكان اعتراء الشكوك على اليقين مما لا سبيل إلى تصوره.

وقيل فى وجه الترتيب: أن تمام النظر فى الثانى يضطر إلى النظر فى الأول لأن السماوات والأرض من أسباب تكون الحيوان بوجه فيجب أن تذكر قبله، وكذلك النظر فى الثالث يضطر إلى النظر فى الأولين أما الأول فظاهر، وأما الثانى فلأنه العله الغائيه فلا بد أن يكون جامعا أى إن الثالث و هو المعلول يتوقف فى معرفته على ذكر علته الغائيه قبله.

و فيه أنه على تقدير صحته وجه لترتب الآيات دون مراتب الصفات الثلاث أعنى الإيمان والإيقان والعقل. على أن الثالث أيضا كالأول من أسباب تكون الحيوان فيجب أن يتقدم على الثانى، و بوجه آخر الثانى عله غائيه للأول فيجب أن يتقدم على الأول كما تقدم على الثالث.

وقيل: إن السبب فى ترتيب هذه الفواصل أنه قيل: إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم بمؤمنين و كنتم من طلاب الجزم و اليقين فافهموا هذه الدلائل، و إن كنتم لستم بمؤمنين و لا موقنين فاجتهدوا فى معرفه هذه الدلائل.

و فيه أنه على تقدير صحته وجه لترتب الصفات الثلاث دون أقسام الآيات الثلاثه على أن لازمه أن لا يختص شىء من الآيات الثلاث بواحد من الصفات الثلاث بل يكون الجميع للجميع و السياق لا يساعد عليه على أن ظاهر كلامه أنه فسر اليقين بالجزم و هو العلم فلا يبقى للعقل إلا الحكم الظنى و لا يعبأ به فى المعارف الاعتقديه.

قوله تعالى: « تِلْمَكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَىِّ حَيْدِثٍ بَعِيدٍ اللَّهُ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ » الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملا فلو لم يلتزم لم يكن إيمانا و إن كان هناك علم، قال تعالى: « وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ »: النمل: ١٤، و قال:

« وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ »: الجاثية: ٢٣.

و الآيات هى العلامات الداله فآيات الله الكونيه هى الأمور الكونيه الداله بوجودها الخارجى على كونه تعالى واحدا فى الخلق متصفا بصفات الكمال منزها عن كل نقص و حاجه، و الإيمان بهذه الآيات هو الإيمان بدلالاتها عليه تعالى و لازمه الإيمان به

تعالى كما تدل هي عليه.

و الآيات القرآنية آيات له تعالى بما تدل على الآيات الكونية الداله عليه سبحانه أو على معارف اعتقادية أو أحكام عمليه أو أخلاق يرتضيها الله سبحانه و يأمر بها فإن مضامينها داله عليه و من عنده، و الإيمان بهذه الآيات أيضا إيمان بدلالاتها و يلزمه الإيمان بمدلولها.

و الآيات المعجزه أيضا إما آيات كونه و دلالتها دلاله الآيات الكونية و إما غير كونه كالقرآن فى إعجازه و مرجع دلالتها إلى دلاله الآيات الكونية.

و قوله: «تَلَكَّ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ» الإشاره إلى الآيات القرآنيه المتلوه عليه (ص)، و يمكن أن تكون إشاره إلى الآيات الكونية المذكوره فى الآيات الثلاث السابقه بعنايه الاتحاد بين الدال و المدلول.

و قوله: «فَبَأَى حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ» قيل: هو من قبيل قولك:

أعجبني زيد و كرمه، و إنما أعجبك كرمه و المعنى بحسب النظر الدقيق أعجبني كرم زيد و زيد من حيث كرمه، فمعنى الآيه فبأى حديث بعد آيات الله يعنى الآيات القرآنيه يؤمنون؟ يعنى إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأى حديث بعده يؤمنون؟.

و قيل: الكلام بتقدير حديث أى إذا لم يؤمنوا فبأى حديث بعد حديث الله و آياته يؤمنون، و الأنسب على هذا المعنى أن يكون المراد بالآيات الآيات الكونية و لذا قال الطبرسى بعد ذكر هذا المعنى: و الفرق بين الحديث الذى هو القرآن و بين الآيات أن الحديث قصص يستخرج منه عبر تبين الحق من الباطل، و الآيات هى الأدله الفاصله بين الصحيح و الفاسد. انتهى و أول الوجهين اللطف.

قوله تعالى: «وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ» الويل و الهلاك، و الأفاك مبالغه من الإفك و هو الكذب، و الأثيم من الإثم بمعنى المعصيه و المعنى: ليكن الهلاك على كل كذاب ذى معصيه.

قوله تعالى: «يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصَدِّقُ مُسَدِّكِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا» إلخ صفه لكل أفاك أثيم، و «ثُمَّ» للتراخي الرتبى و تفيد معنى الاستبعاد، و الإصرار على الفعل ملازمته و عدم الانفكاك عنه.

والمعنى: يسمع آيات الله - وهي آيات القرآن - تقرأ عليه ثم يلازم الكفر والحال أنه مستكبر لا يتواضع للحق كأن لم يسمع تلك الآيات فبشره بعذاب أليم.

قوله تعالى: «وَ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا» إلخ، ظاهر السياق أن ضمير «اتخذها» للآيات، وجعل الهزء متعلقا بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله، والمعنى: وإذا علم ذلك الأفاك الأثيم المصر المستكبر بعض آياتنا استهزأ بآياتنا جميعا.

وقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ» أى مذل مخز، و توصيف العذاب بالإهانه مقابله لاستكبارهم و استهزائهم، و الإشاره بأولئك إلى كل أفاك، و قيل فى الآيه بوجوه أخر أعرضنا عنها لعدم الجدوى فيها.

قوله تعالى: «مِنْ وَّرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ» إلخ، لما كانوا مشتغلين بالدنيا معرضين عن الحق غير ملتفتين إلى تبعات أعمالهم جعلت جهنم وراءهم مع أنها قدامهم و هم سائرون نحوها متوجهون إليها.

وقيل: وراءهم بمعنى قدامهم قال فى المجمع: وراء اسم يقع على القدام و الخلف فما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك. انتهى و فى قوله: «من ورائهم جهنم» قضاء حتم.

وقوله: «وَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا» المراد بما كسبوا ما حصلوه فى الدنيا من مال و نحوه، و تنكير «شَيْئًا» للتحقير أى و لا يغنى عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال و جاه و أنصار فى الدنيا شيئا يسيرا حقيرا.

وقوله: «وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ» «مَا» مصدرية و المراد بالأولياء أرباب الأصنام الذين اتخذوهم أربابا آلهم و زعموا أنهم لهم شفعاء أو الأصنام.

وقوله: «وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» تأكيد لو عيدهم و قد أوعدهم الله سبحانه أولا بقوله: «وَ يُلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ» إلخ، و ثانيا بقوله: «فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» و ثالثا بقوله:

«أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ» و رابعا بقوله: «مِنْ وَّرَائِهِمْ جَهَنَّمُ» إلخ، و خامسا بقوله:

«وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»، و وصف عذابهم فى خلالها بأنه أليم مهين عظيم.

قوله تعالى: «هَذَا هُدًى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ»

الإشارة بقوله: «لِلَّذِينَ هُدُوا» إلى القرآن و وصفه بالهدى للمبالغه نحو زيد عدل و الرجز - كما قيل - أشد العذاب و أصله الاضطراب.

و الآيه فى مقام الرد لما رموا به القرآن و عدوه مهانا بالهزاء و السخرية و خلاصه و عيد من كفر بآياته.

□ قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيََ الْفُلُوكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ» إلخ، لما ذكر سبحانه حال الأفاكين من الاستكبار عن الإيمان بالآيات إذا تليت عليهم و الاستهزاء بما علموا منها و أوعدهم أبلغ الإيعاد بأشد العذاب رجع إليهم بخطاب الجميع ممن يؤمن و يكفر، و ذكر بعض آيات ربوبيته التى فيها من عظيم عليهم و ليس فى وسعهم إنكارها فذكر أولاً - تسخير البحر لهم ثم ما فى السماوات و الأرض جميعاً فيها آيات لا يكفر بها إلا من انسلخ عن الفطره الإنسانيه و نسى التفكير الذى هو من أجلى خواص الإنسان.

□ قوله: «اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ» اللام فى «لَكُمْ» للغايه أى سخر لأجلكم البحر بأن خلقه على نحو يحمل الفلك و يقبل أن تجرى فيه فينتفع به الإنسان، و يمكن أن تكون للتعديه فيكون الإنسان يسخر البحر بإذن الله.

و قوله: «لَتَجْرِيََ الْفُلُوكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ» غايه لتسخير البحر، و جريان الفلك فيه بأمره، هو إيجاد الجريان بكلمه كن فآثار الأشياء كنفس الأشياء منسوبه إليه تعالى و قوله: «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى و لتطلبوا بركوبه عطيته تعالى و هو رزقه.

و قوله: «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أى رجاء أن تشكروه تعالى قبال هذه النعمه التى هى تسخير البحر.

قوله تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ» إلخ، هذا من الترقى بعطف العام على الخاص، و الكلام فى «لَكُمْ» كالكلام فى مثله فى الآيه السابقه، و قوله: «جَمِيعاً» تأكيد لما فى السماوات و الأرض أو حال منه.

و قوله: «وَسَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» معنى تسخيرها للإنسان أن أجزاء العالم المشهود تجرى على نظام واحد يحكم فيها و يربط بعضها ببعض و يربط

الجميع بالإنسان فينتفع في حياته من علويها و سفليها و لا يزال المجتمع البشرى يتوسع في الانتفاع بها و الاستفادة من توسيطها و التوسل بثباتها في الحصول على مزايا الحياة فالكل مسخر له.

و قوله: «مِنَّهُ» من للابتداء، و الضمير لله تعالى و هو حال مما في السماوات و الأرض، و المعنى: سخر لكم ما في السماوات و الأرض جميعا حال كونه مبتدأ منه حاصلًا من عنده فذوات الأشياء تبتدئ منه بإيجاده لها من غير مثال سابق و كذلك خواصها و آثارها بخلقه و من خواصها و آثارها ارتباط بعضها ببعض و هو النظام الجارى فيها المرتبط بالإنسان قال تعالى: «اللَّهُ يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» الروم: ١١، و قال:

«إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ»: البروج: ١٣.

و قد ذكروا لقوله: «مِنَّهُ» معانى أخر لا يخلو شىء منها عن التكلف تركنا التعرض لها.

و قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» وجه تعلقها بالتفكر ظاهر.

[سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١٤ الى ١٩]

اشاره

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (١٦) وَ آتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِّ عِجَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعْهَا وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)

لما ذكر آيات الوجدانية و أشار فيها بعض الإشاره إلى المعاد و كذا إلى النبوه فى ضمن ذكر تنزيل الكتاب و إيعاد المستكبرين المستهزئين به ذكر فى هذه الآيات تشريع الشريعة للنبي ص، و توسل إلى ذلك بمقدمتين تربطانه بما تقدم من الكلام إحداهما دعوه المؤمنين إلى أن يكفوا عن التعرض لحال الكفار الذين لا- يرجون أيام الله فإن الله مجازيهم لأن الأعمال مسئول عنها صالحه أو طالحه، و هذا هو السبب لتشريع الشريعة، و الثانيه: أن إنزال الكتاب و الحكم و النبوه ليس ببدع فقد آتى الله بنى إسرائيل الكتاب و الحكم و النبوه و آتاهم البينات التى لا- يبقى معها فى دين الله ريب لمرتاب إلا أن علماءهم اختلفوا فيه بغيا منهم و سيقضى الله بينهم.

ثم ذكر سبحانه تشريع الشريعة له و أمره باتباعها و نهاه عن اتباع أهواء الجاهلين.

قوله تعالى: « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا- يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » الخ، أمر منه تعالى لنبيه (ص) أن يأمر المؤمنين أن يغفروا للكفار فيصير تقدير الآية: قل لهم:

اغفروا يغفروا فهى كقوله تعالى: « قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ » إبراهيم: ٣١.

و الآية مكيه واقعه فى سياق الآيات السابقه الواصفه لحال المستكبرين المستهزئين بآيات الله المهدده لهم بأشد العذاب و كان المؤمنين بالنبي ص كانوا إذا رأوا هؤلاء المستهزئين يبالغون فى طعنهم و إهانتهم للنبي و استهزائهم بآيات الله لم يتمالكوا أنفسهم دون أن يدافعوا عن كتاب الله و من أرسله به و يدعوههم إلى رفض ما هم فيه و الإيمان مع كونهم ممن حقت عليهم كلمه العذاب كما هو ظاهر الآيات السابقه، فأمر الله سبحانه نبيه ص أن يأمرهم بالعفو و الصفح عنهم و عدم التعرض لحالهم فإن وبال أعمالهم

سيلحق بهم و جزاء ما كسبوه سينالهم.

و على هذا فالمراد بالمغفرة فى قوله: «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا» الصفح و الإعراض عنهم بترك مخاصمتهم و مجادلتهم، و المراد بالذين لا يرجون أيام الله هم الذين ذكروا فى الآيات السابقة فإنهم لا يتوقعون الله أياما لا حكم فيها و لا ملك إلا له تعالى كيوم الموت و البرزخ و يوم القيامة و يوم عذاب الاستئصال.

و قوله: «لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» تعليل للأمر بالمغفرة أو للأمر بالأمر بالمغفرة و محصله ليصفحوا عنهم و لا يتعرضوا لهم، فلا حاجة إلى ذلك لأن الله سيجزيهم بما كانوا يكسبون فتكون الآية نظيره قوله: «وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا»: المزمّل: ١٢، و قوله: «ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» الأنعام: ٩١ و قوله: «فَلَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ»: المعارج: ٤٢، و قوله: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»: الزخرف: ٨٩.

و معنى الآية: مر الذين آمنوا أن يعفوا و يصفحوا عن أولئك المستكبرين المستهزئين بآيات الله الذين لا يتوقعون أيام الله ليجزيهم الله بما كانوا يكسبون و يوم الجزاء يوم من أيامه أى ليصفحوا عن هؤلاء المنكرين لأيام الله حتى يجزيهم بأعمالهم فى يوم من أيامه.

و فى قوله: «لِيَجْزِيَ قَوْمًا» وضع الظاهر موضع الضمير، و كان مقتضى الظاهر أن يقال: ليجزيهم، و النكته فيه مع كون «قَوْمًا» نكرة غير موصوفة بتحقيق أمرهم و عدم العناية بشأنهم كأنهم قوم منكرون لا يعرف شخصهم و لا يهتم بشيء من أمرهم.

و بما تقدم من تقرير معنى الآية تتصل الآية و ما بعدها بما قبلها و تندفع الإشكالات التى أوردوها عليها و اهتموا بالجواب عنها، و يظهر فساد المعانى المختلفة التى ذكروها لها و من أراد الاطلاع عليها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» فى موضع التعليل لقوله: «لِيَجْزِيَ قَوْمًا» إلخ، و لذا لم يعطف و ليس من الاستئناف فى شيء.

و محصل المعنى: ليجزيهم الله بما كسبوا فإن الأعمال لا تذهب سدى و بلا أثر

بل من عمل صالحا انتفع به و من أساء العمل تضرر به ثم إلى ربكم ترجعون فيجزىكم حسب أعمالكم إن خيرا فخييرا و إن شرا فشرا.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ» إلخ، لما بين أن للأعمال آثارا حسنة أو سيئة تلحق صاحبها أراد التنبيه على تشريع شريعة للنبي ص إذ كان على الله سبحانه أن يهدي عباده إلى ما فيه خيرهم و سعادتهم كما قال تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِزٌ»: النحل: ٩.

ففيه على ذلك بقوله الآتي: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيْعِهِ مِنَ الْأُمْرِ» إلخ، و قد قدم على ذلك الإشارة إلى ما آتى بنى إسرائيل من الكتاب و الحكم و النبوه و رزقهم من الطيبات و تفضيلهم و إيتائهم البنات ليؤذن به أن الإفاضه الإلهيه بالشريعة و النبوه و الكتاب ليست ببدع لم يسبق إليه بل لها نظير فى بنى إسرائيل و هم بمرآهم و مسمعهم.

فقوله: «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ» المراد بالكتاب التوراه المشتمله على شريعة موسى (ع) و أما الإنجيل فلا يتضمن الشريعة و شريعته شريعة التوراه، و أما زبور داود فهى أدعيه و أذكار، و يمكن أن يراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراه و الإنجيل و الزبور كما قيل لكن يبعده أن الكتاب لم يطلق فى القرآن إلا على ما يشتمل على الشريعة.

و المراد بالحكم بقرينه ذكره مع الكتاب ما يحكم و يقضى به الكتاب من وظائف الناس كما يذكره قوله تعالى: «وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيْمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ»: البقره: ٢١٣، و قال فى التوراه: «يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَ الرُّبَائِيُّونَ وَ الْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ»: المائده: ٤٤، فالحكم من لوازم الكتاب كما أن النبوه من لوازمه.

و المراد بالنبوه معلوم و قد بعث الله من بنى إسرائيل جما غفيرا من الأنبياء كما فى الأخبار و قص فى كتابه جماعه من رسلهم.

و قوله: «وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» أى طيبات الرزق و من ذلك المن و السلوى.

و قوله: «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» إن كان المراد جميع العالمين فقد فضلوا من بعض الجهات ككثرة الأنبياء المبعوثين و المعجزات الكثيره الظاهره من أنبيائهم، و إن كان المراد عالمى زمانهم فقد فضلوا من جميع الجهات.

قوله تعالى: «وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ» إلى آخر الآيه المراد بالبينات الآيات البينات التي تزيل كل شك وريب و تمحوه عن الحق و يشهد بذلك تفریع قوله: «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ».

و المراد بالأمر قيل: هو أمر الدين، و «مَنْ» بمعنى فى و المعنى: و أعطيناهاهم دلائل بينه فى أمر الدين و يندرج فيه معجزات موسى (ع).

و قيل: المراد به أمر النبى ص و المعنى: آتيناهاهم آيات من أمر النبى و علامات مبينه لصدقه كظهوره فى مكه و مهاجرته منها إلى يثرب و نصره أهله و غير ذلك مما كان مذكورا فى كتبهم.

و قوله: «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ» يشير إلى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف فى الدين و اختلاط الباطل بالحق لم يكن عن شبهه أو جهل و إنما أوجدها علماؤهم بغيا و كان البغى دائرا بينهم.

و قوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» إشاره إلى أن اختلافهم الذى لا يخلو من اختلاط الباطل بالحق لا يذهب سدى و سيؤثر أثره و يقضى الله بينهم يوم القيامة فيجزون على حسب ما يستدعيه أعمالهم.

قوله تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعُهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» الخطاب للنبى ص و يشاركه فيه أمته، و الشريعه طريق ورود الماء و الأمر أمر الدين، و المعنى: بعد ما آتينا بنى إسرائيل ما آتينا جعلناك على طريقه خاصه من أمر الدين الإلهى و هى الشريعه الإسلاميه التى خص الله بها النبى ص و أمته.

و قوله: «فَاتَّبَعُهَا» إلخ، أمر للنبى ص باتباع ما يوحى إليه من الدين و أن لا يتبع أهواء الجاهلين المخالفه للدين الإلهى.

و يظهر من الآيه أولا: أن النبى ص مكلف بالدين كسائر الأمم.

و ثانيا: أن كل حكم عملى لم يستند إلى الوحي الإلهى و لم ينته إليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب إلى العلم.

قوله تعالى: «إِنَّهُمْ لَنْ يُعْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» إلخ، تعليل للنهى عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، و الإغناء من شىء رفع الحاجه إليه، و المحصل: أن لك إلى الله سبحانه حوائج ضروريه لا يرفعها إلا هو و الذريعه إلى ذلك اتباع دينه لا غير فلا

يغنى عنك هؤلاء الذين اتبعت أهواءهم شيئا من الأشياء إليها الحاجة أو لا يغنى شيئا من الإغناء.

وقوله: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» الذى يعطيه السياق أنه تعليل آخر للنهي عن اتباع أهواء الجاهلين، و أن المراد بالظالمين المتبعون لأهوائهم المبتدعه و بالمتقين المتبعون لدين الله.

و المعنى: أن الله ولى الذين يتبعون دينه لأنهم متقون و الله وليهم، و الذين يتبعون أهواء الجهله ليس هو تعالى ولى لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون و الظالمون بعضهم أولياء بعض فاتبع دين الله يكن لك ولى و لا تتبع أهواءهم حتى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيئا.

و تسميه المتبعين لغير دين الله بالظالمين هو الموافق لما يستفاد من قوله: «أَنْ لَّغَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عَوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ» الأعراف: ٤٥.

[سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٢٠ الى ٣٧]

اشاره

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّصَوْمِ يُوفُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَخْلِيَهُمْ وَ مَمَّاتُهُمْ سَاءً مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَمْ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ اضْلَمَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَ قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُونَ (٢٤) وَ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مِمَّا كَانُوا يَحْبِبُونَ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّتُمْ إِتَّوَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُضْطَلُونَ (٢٧) وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلِّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِذَا كُنَّا نَسِيحًا نَسِيحًا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي عَلَيْكُمْ فَاسِيَةً تَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١) وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَ مَا نَحْنُ بِمُسْتَقِينَ (٣٢) وَ بَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَ مَا أَوْكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَ عَزَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)

لما أشار إلى جعل النبي ص على شريعته من الأمر و هو تشريع الشريعة الإسلامية أشار في هذه الآيات إلى أنها بصائر للناس يبصرون بها ما يجب عليهم أن يسلكوه من سبيل الحياة الطيبة في الدنيا و تتلوها سعادته الحياة الآخرة، و هدى و رحمه لقوم يوقنون بآيات الله.

و أشار إلى أن الذى يدعو مجترحي السيئات أن يستنكفوا عن التشريع بالشريعة إنكارهم المعاد فيحسبون أنهم و المتشرعون بالدين سواء فى الحياة و الممات و أن لا أثر للتشريع بالشريعة فلا ثمره للعمل الصالح الذى تهدى إليه الشريعة إلا إتعاب النفس بالتقيد من غير موجب. فبرهن تعالى على بطلان حسابانهم بإثبات المعاد ثم أردفه بوصف المعاد و ما يثيب به الصالحين يومئذ و ما يعاقب به الطالحين أهل الجحود و الاجرام، و عند ذلك تختتم السورة بالتحميد و التسبيح.

قوله تعالى: « هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ » الإشاره بهذا إلى الأمر المذكور الذى هو الشريعة أو إلى القرآن بما يشتمل على الشريعة، و البصائر جمع بصيره و هى الإدراك المصيب للواقع، و المراد بها ما يبصر به، و إنما كانت الشريعة بصائر لأنها تتضمن أحكاما و قوانين كل منها يهدى إلى واجب العمل فى سبيل السعاده.

و المعنى: هذه الشريعة المشرعه أو القرآن المشتمل عليها و وظائف عمليه يتبصر بكل منها الناس و يهتدون إلى السبيل الحق و هو سبيل الله و سبيل السعاده، فقوله بعد ذكر تشريع الشريعة: « هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ » كقوله بعد ذكر آيات الوحدايه فى أول السوره: « هَذَا هُدًى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا » إلخ.

و قوله: « وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى دلالة واضحه و إفاضه خير لهم، و المراد بقوم يوقنون: الذين يوقنون بآيات الله الداله على أصول المعارف فإن المعهود فى

و تخصيص الهدى و الرحمة بقوم يوقنون مع التصريح بكونه بصائر للناس لا يخلو من تأييد لكون المراد بالهدى الوصول إلى المطلوب دون مجرد التبصر، و بالرحمة الرحمة الخاصه بمن اتقى و آمن برسوله بعد الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الحديد: ٢٨، و قال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ -X إلى أن قال X- وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: البقره: ٤، و للرحمة درجات كثيره تختلف سعه و ضيقا ثم للرحمة الخاصه بأهل الإيمان أيضا مراتب مختلفه باختلاف مراتب الإيمان فلكل مرتبه من مراتبه ما يناسبها منها.

و أما الرحمة بمعنى مطلق الخير الفائض منه تعالى فإن القرآن بما يشتمل على الشريعه رحمة للناس كافه كما أن الرسول المبعوث به رحمة لهم جميعا، قال تعالى: ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: الأنبياء: ١٠٧، و قد أوردنا بعض الكلام فى هذا المعنى فى بعض المباحث السابقه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَ مَمَاتُهُمْ﴾: إلخ، قال فى الجمع:، الاجترح الاكتساب، يقال:

جرح و اجترح و كسب و اكتسب و أصله من الجراح لأن لذلك تأثيرا كتأثير الجراح.

قال: و السيئه الفعله القبيحه التى يسوء صاحبها باستحقاق الدم عليها. انتهى.

و الجعل بمعنى التصيير، و قوله: ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فى محل المفعول الثانى للجعل، و التقدير كائنين كالذين آمنوا، إلخ.

و جزم الزمخشري فى الكشاف على كون الكاف فى «كَالَّذِينَ» اسما بمعنى المثل هو مفعول ثان لقوله: ﴿نَجْعَلُهُمْ﴾، و قوله: ﴿سَوَاءً﴾ بدلا منه.

و قوله: ﴿سَوَاءً﴾ بالنصب على القراءه الدائره و هو مصدر بمعنى اسم الفاعل أى مستويا أو متساويا، و قوله: ﴿مَحْيَاهُمْ﴾ مصدر ميمى و فاعل «سَوَاءً» و ضميره راجع إلى مجموع المجترحين و المؤمنين، و «مَمَاتُهُمْ» معطوف على «مَحْيَاهُمْ» و حاله كحاله.

و الآيه مسوقه سوق الإنكار و «أَمْ» منقطعه، و المعنى: بل أ حسب و ظن الذين يكتسبون السيئات أن نصيرهم مثل الذين آمنوا و عملوا الصالحات مستويا محياهم

و مماتهم أى تكون حياه هؤلاء كحياه أولئك و موتهم كموتهم فيكون الإيمان و التشرع بالدين لغوا لا أثر له فى حياه و لا موت و يستوى وجوده و عدمه.

و قوله: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» رد لحسابانهم المذكور و حكمهم بالمماثله بين مجترحي السيئات و الذين آمنوا و عملوا الصالحات و مساء الحكم كنايه عن بطلانه.

فالفريقان لا يتساويان فى الحياه و لا فى الممات.

أما أنهما لا يتساويان فى الحياه فلأن الذين آمنوا و عملوا الصالحات فى سلوكهم مسلك الحياه على بصيره من أمرهم و هدى و رحمه من ربهم كما ذكره سبحانه فى الآيه السابقه و المسىء صفر الكف، من ذلك و قال تعالى فى موضع آخر: «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» :طه: ١٢٤، و قال فى موضع آخر: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا»: الأنعام: ١٢٢.

و أما أنهما لا يتساويان فى الممات فلأن الموت كما ينطق به البراهين الساطعه ليس انعداما للشىء و بطلانا للنفس الإنسانيه كما يحسبه المبطلون بل هو رجوع إلى الله سبحانه و انتقال من نشأه الدنيا إلى نشأه الآخره التى هى دار البقاء و عالم الخلود يعيش فيها المؤمن الصالح فى سعادته و نعمه و غيره فى شقاء و عذاب.

و قد أشار سبحانه إليه فيما تقدم من كلامه بقوله: «كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ» و قوله: «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» و غير ذلك، و سيتعرض له بقوله: «وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» إلخ.

و الآيه من حيث تركيب ألفاظها و المعنى المتحصل منها من معارك الآراء بين المفسرين و قد ذكروا لها محامل كثيره و الذى يعطيه السياق و يساعد عليه هو ما قدمناه و لا- كثير فائده فى التعرض لوجوه آخر ذكروها فمن أراد الاطلاع عليها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: «وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لَتُنْجِزِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» الظاهر أن المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم المشهود و الباء فى «بِالْحَقِّ» للملابسه فكون خلق العالم بالحق كونه حقا لا باطلا و لعبا و هو أن يكون لهذا العالم الكائن الفاسد غايه ثابتة باقيه وراءه.

و قوله: «وَ لَتُنْجِزِي» إلخ، عطف على «بِالْحَقِّ» و الباء فى قوله: «بِمَا كَسَبَتْ»

للتعديه أو للمقابله أى لتجزى مقابل ما كسبت إن كان طاعه فالثواب و إن كان معصيه فالعقاب، و قوله: « وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ » حال من كل نفس أى و لتجزى كل نفس بما كسبت بالعدل.

فيقول معنى الآيه إلى مثل قولنا و خلق الله السماوات و الأرض بالحق و بالعدل فكون الخلق بالحق يقتضى أن يكون وراء هذا العالم عالم آخر يخلد فيه الموجودات و كون الخلق بالعدل يقتضى أن تجزى كل نفس ما تستحقه بكسبها فالمحسن يجزى جزاء حسنا و المسىء يجزى جزاء سيئا و إذ ليس ذلك فى هذه النشأه فى نشأه أخرى.

و بهذا البيان يظهر أن الآيه تتضمن حجتين على المعاد إحداهما ما أشير إليه بقوله:

« وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » و يسلك من طريق الحق، و الثانيه ما أشير إليه بقوله: « وَ لَتَجْزَىٰ إِيَّاهُ مِنْ طَرِيقِ الْعَدْلِ ». الخ، و يسلك من طريق العدل.

فتقول الحجتان إلى ما يشتمل عليه قوله: « وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بِطَرَاةٍ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ »: ص: ٢٨.

و الآيه بما فيها من الحجه تبطل حسابهم أن المسىء كالمحسن فى الممات فإن حديث المجازاه بالثواب و العقاب على الطاعه و المعصيه يوم القيامه ينفى تساوى المطيع و العاصى فى الممات، و لازم ذلك إبطال حسابهم أن المسىء كالمحسن فى الحياه فإن ثبوت المجازاه يومئذ يقتضى وجوب الطاعه فى الدنيا و المحسن على بصيره من الأمر فى حياته يأتى بواجب العمل و يتزود من يومه لغده بخلاف المسىء العائش فى عمى و ضلال فليسا بمتساويين.

قوله تعالى: « أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » إلى آخر الآيه ظاهر السياق أن قوله: « أَفَرَأَيْتَ » مسوق للتعجيب أى ألا تعجب ممن حاله هذا الحال؟ و المراد بقوله: « اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ » حيث قدم « إِلَهَهُ » على « هَوَاهُ » إنه يعلم أن له إلهها يجب أن يعبده - و هو الله سبحانه - لكنه يبدله من هواه و يجعل هواه مكانه فيعبده فهو كافر بالله سبحانه على علم منه، و لذلك عقبه بقوله: « وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » أى أنه ضال عن السبيل و هو يعلم.

و معنى اتخاذ الإله العباده و المراد بها الإطاعه فإن الله سبحانه عد الطاعه عباده كما فى قوله: « أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَ أَنْ

اعْبُدُونِي» :يس: ٦١، وقوله: «اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» التوبة: ٣١، وقوله: «وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ»: آل عمران: ٦٤.

و الاعتبار يوافقهُ إذ ليست العباده إلا إظهار الخضوع و تمثيل أن العابد عبد لا يريد و لا يفعل إلا ما أراده و رضيه معبوده فمن أطاع شيئاً فقد اتخذه إلهاً و عبده فمن أطاع هواه فقد اتخذ إلهه هواه و لا طاعه إلا لله أو من أمر بطاعته.

فقوله: «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» أى أ لا تعجب ممن يعبد هواه بإطاعته و اتباعه و هو يعلم أن له إلهاً غيره يجب أن يعبده و يطيعه لكنه يجعل معبوده و مطاعه هو هواه.

و قوله: «وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ» أى هو ضال بإضلال منه تعالى يضلّه به مجازاه لاتباعه الهوى حال كون إضلاله مستقراً على علم هذا الضال، و لا ضير فى اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل و معرفته كما فى قوله تعالى: «وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ»: النمل:

١٤ و ذلك أن العلم لا يلزم الهدى و لا الضلال يلزم الجهل بل الذى يلزم الهدى هو العلم مع التزام العالم بمقتضى علمه فيتعقبه الاهتداء و أما إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لاتباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال و إن كان معه علم.

و أما قول بعضهم: إن المراد بالعلم هو علمه تعالى و المعنى: و أضله الله على علم منه تعالى بحاله فبعيد عن السياق.

و قوله: «وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً» كالعطف التفسيري لقوله: «وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ» و الختم على السمع و القلب هو أن لا يسمع الحق و لا يعقله، و جعل الغشاوة على البصر هو أن لا يبصر الحق من آيات الله و محصل الجميع: أن لا يترتب على السمع و القلب و البصر أثرها و هو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحق إذا أدركه لاستكبار من نفسه و اتباع للهوى، و قد عرفت أن الضلال عن السبيل لا ينافى العلم به إذا لم يكن هناك التزام بمقتضاه.

و قوله: «فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ» الضمير لمن اتخذ إلهه هواه و التفرغ على ما تحصل من حاله أى إذا كان حاله هذا الحال و قد أضله الله على علم الخ، فمن يهديه من بعد الله سبحانه فلا هادى دونه قال تعالى: «قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى»: البقرة: ١٢٠ و قال: «وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»: المؤمن: ٣٣.

وقوله: «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» أى أفلا تتفكرون فى حاله فتذكروا أن هؤلاء لا سبيل لهم إلى الهدى مع اتباع الهوى فتتعظوا.

قوله تعالى: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» إلى آخر الآيه، قال الراغب: الدهر فى الأصل اسم لمدته العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، وعلى ذلك قوله تعالى: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ» ثم يعبر به عن كل مده كثيره، وهو خلاف الزمان فإن الزمان يقع على المده القليله والكثيره. انتهى.

والآيه على ما يعطيه السياق-سياق الاحتجاج على الوثنيين المثبتين للصانع المنكرين للمعاد-حكاية قول المشركين فى إنكار المعاد لا كلام الدهريين الناسبين للحوادث وجودا و عدما إلى الدهر المنكرين للمبدأ والمعاد جميعا إذا لم يسبق لهم ذكر فى الآيات السابقه.

فقولهم: «مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا» الضمير للحياه أى لا حياه لنا إلا حياتنا الدنيا لا حياه وراءها فلا وجود لما يدعيه الدين الإلهى من البعث والحياه الآخره، وهذا هو القرينه المؤيده لأن يكون المراد بقوله: «نَمُوتُ وَنَحْيَا» يموت بعضنا ويحيا بعضنا الآخر فيستمر بذلك بقاء النسل الإنسانى بموت الأسلاف وحياه الأخلاف و يؤيد ذلك بعض التأييد قوله بعده: «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» المشعر بالاستمرار.

فالمعنى: وقال المشركون: ليست الحياه إلا حياتنا الدنيا التى نعيش بها فى الدنيا فلا يزال يموت بعضنا وهم الأسلاف و يحيى آخرون وهم الأخلاف و ما يهلكنا إلا الزمان-الذى بمروره يبلى كل جديد و يفسد كل كائن و يميت كل حى-فليس الموت انتقالا من دار إلى دار منتهيا إلى البعث و الرجوع إلى الله.

ولعل هذا كلام بعض الجهله من وثنيه العرب و إلا فالعقيده الدائره بين الوثنيه هى التناسخ و هو أن نفوس غير أهل الكمال إذا فارقت الأبدان تعلقت بأبدان أخرى جديده فإن كانت النفس المفارقة اكتسبت السعاده فى بدنها السابق تعلقت ببدن جديد تتنعم فيه و تسعد، وإن كانت اكتسبت الشقاء فى البدن السابق تعلقت ببدن لاحق تشقى فيه و تعذب جزاء لعملها السيئ و هكذا، و هؤلاء لا ينكرون استناد أمر الموت كالحياه إلى وساطه الملائكه.

ولهذا أعنى كون القول بالتناسخ دائرا بين الوثنيه ذكر بعض المفسرين أن المراد بالآيه قولهم بالتناسخ، والمعنى: «مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا» فلسنا نخرج من الدنيا أبدا «نَمُوتُ» عن حياه دنيا «وَنَحْيَا» بعد الموت بالتعلق ببدن جديد وهكذا «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ».

وهذا لا يخلو من وجه لكن لا يلانمه قولهم المنقول ذيلًا: «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» إلا أن يوجه بأن مرادهم من نسبه الإهلاك إلى الدهر كون الدهر وسيله يتوسل بها الملك الموكل على الموت إلى الإماتة، وكذا لا تلانمه حجتهم المنقوله ذيلًا: «إِتُّوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» الظاهره فى أنهم يرون آباءهم معدومين باطلى الذوات.

و ذكر فى معنى الآيه وجوه أخر لا يعبأ بها كقول بعضهم: المعنى نكون أمواتا لا حياه فيها و هو قبل ولوج الروح ثم نحيا بولوجها على حد قوله تعالى: «وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ»: البقره: ٢٨.

وقول بعضهم: المراد بالحياه بقاء النسل مجازًا، والمعنى: نموت نحن و نحيا ببقاء نسلنا. إلى غير ذلك مما قيل.

وقوله: «وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» أى إن قولهم ذلك المشعر بإنكار المعاد قول بغير علم و إنما هو ظن يظنونه و ذلك أنهم لا دليل لهم يدل على نفي المعاد مع ما هناك من الأدله على ثبوته.

قوله تعالى: «وَإِذَا تَنَالَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِبَيِّنَاتٍ مِّمَّا كَانُوا يَحْتَجُّهُمْ إِلَّا- أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» تأكيد لكون قولهم بنفى المعاد و حصر الحياه فى الحياه الدنيا قولًا بغير علم.

و المراد بالآيات البينات الآيات المشتمله على الحجج المثبتة للمعاد و كونها بينات وضوح دلالتها على ثبوته بلا شك، و تسميه قولهم: «إِتُّوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» مع كونه اقتراحًا جزافيا بعد قيام الحججه إنما هو من باب التهكم فإنه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنه قيل: ما كانت حجتهم إلا اللاحجه.

و المعنى: و إذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشتمله على الحجج المثبتة للمعاد و الحال أنها واضحات الدلاله على ثبوته ما قابلوها إلا بجزاف من القول و هو طلب الدليل على إمكانه بإحياء آباءهم الماضين.

قوله تعالى: «قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» - إلى قوله - وَ الْأَرْضِ «ما ذكر من اقتراحهم الحجة على مطلوب قامت عليه الحجة و إن كان اقتراحا جزافيا لا يستدعى شيئا من الجواب لكنه سبحانه أمر نبيه ص أن يجيبهم بإثبات إمكانه الذى كانوا يستبعدونه.

و محصله: أن الذى يحييكم لأول مره ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة الذى لا- ريب فيه هو الله سبحانه و لله ملك السماوات و الأرض يحكم فيها ما يشاء و يتصرف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس إليه و يتصرف فيكم بجمعكم إلى يوم القيامة و القضاء بينكم ثم الجزاء، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «و يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنذِرُ الْمُبْطِلُونَ» قال الراغب: الخسر و الخسران انتقاص رأس المال و ينسب ذلك إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، و إلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، قال تعالى: «تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ» و يستعمل ذلك في المقتنيات الخارجيه كالمال و الجاه فى الدنيا و هو الأكثر، و فى المقتنيات النفسيه كالصحة و السلامه و العقل و الإيمان و الثواب و هو الذى جعله الله تعالى الخسران المبين.

قال: و كل خسران ذكره الله تعالى فى القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلق بالمقتنيات المالىه و التجارات البشريه.

و قال: و الإبطال يقال فى إفساد الشىء و إزالته سواء كان ذلك الشىء حقا أو باطلا قال تعالى: «لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يَبْطِلَ الْبَاطِلَ» و قد يقال فيمن يقول شيئا لا حقيقه له نحو «و لئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون»، و قوله تعالى: «خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ» أى الذين يبطلون الحق. انتهى.

و الأشبه أن يكون المراد بقيام الساعه فعليه ما يقع فيها من البعث و الجمع و الحساب و الجزاء و ظهوره، و بذلك صح جعل الساعه مظهرا لليوم و هما واحد، و الأشبه أن يكون قوله: «يَوْمَ يُنذِرُ الْمُبْطِلُونَ» تأكيداً لقوله: «يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ».

و المعنى: و يوم تقوم الساعه و هى يوم الرجوع إلى الله يومئذ يخسر المبطلون الذين أبطلوا الحق و عدلوا عنه.

قوله تعالى: «و ترى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا» إلخ، الجثو البروك على الركبتين كما أن الجذو البروك على أطراف الأصابع.

و الخطاب عام لكل من يصح منه الرؤيه و إن كان متوجها إلى النبي ص و المراد بالدعوه إلى الكتاب الدعوه إلى الحساب على ما ينطق به الكتاب بإحصائه الأعمال بشهادته قوله بعده: «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

و المعنى: و ترى أنت و غيرك من الرائين كل أمه من الأمم جالسه على الجثو جلسه الخاضع الخائف كل أمه منهم تدعى إلى كتابها الخاص بها و هى صحيفه الأعمال و قيل لهم: «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

و يستفاد من ظاهر الآيه أن لكل أمه كتابا خاصا بهم كما أن لكل إنسان كتابا خاصا به قال تعالى: «وَكُلِّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا»: إسرء: ١٣.

قوله تعالى: «هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسِيحِينَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» قال فى الصحاح: و نسخت الكتاب و انتسخته و استنسخته كله بمعنى، و النسخه اسم المنتسخ منه. انتهى، و قال الراغب: النسخ إزاله الشىء بشىء يتعقبه كنسخ الشمس الظل و نسخ الظل الشمس و الشيب الشباب- إلى أن قال- و نسخ الكتاب نقل صورته المجرده إلى كتاب آخر و ذلك لا يقتضى إزاله الصوره الأولى بل يقتضى إثبات مثلها فى ماده أخرى كاتخاذ نقش الخاتم فى شموع كثيره، و الاستنساخ التقدم بنسخ الشىء و الترشح للنسخ. انتهى.

و مقتضى ما نقل أن المفعول الذى يتعدى إليه الفعل فى قولنا: استنسخت الكتاب هو الأصل المنقول منه، و لازم ذلك أن تكون الأعمال فى قوله: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» كتابا و أصلا و إن شئت فقل: فى أصل و كتاب يستنسخ و ينقل منه و لو أريد به ضبط الأعمال الخارجيه القائمه بالإنسان بالكتابه لقليل: إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون إذ لا نكتبه تستدعى فرض هذه الأعمال كتابا و أصلا يستنسخ، و لا دليل على كون «يستنسخ» بمعنى يستكتب كما ذكره بعضهم.

و لازم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجيه بما أنها فى اللوح المحفوظ فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ و تكون

صحيفه الأعمال صحيفه الأعمال و جزء من اللوح المحفوظ، و يكون معنى كتابه الملائكه للأعمال تطبيقهم ما عندهم من نسخه اللوح على الأعمال.

و هذا هو المعنى الذى وردت به الروايه من طرق الشيعة عن الصادق(ع) و من طرق أهل السنه عن ابن عباس، و سيوافيك فى البحث الروائى التالى.

و على هذا فقوله: «هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» من كلامه تعالى لا من كلام الملائكه، و هو من خطابه تعالى لأهل الجمع يوم القيامة يحكيه لنا فيكون فى معنى:

«و يقال لهم هذا كتابنا» إلخ.

و الإشارة بهذا-على ما يعطيه السياق-إلى صحيفه الأعمال و هى بعينها إشارة إلى اللوح المحفوظ على ما تقدم و إضافه الكتاب إليه تعالى نظرا إلى أنه صحيفه الأعمال من جهه أنه مكتوب بأمره تعالى و نظرا إلى أنه اللوح المحفوظ من جهه التشريف و قوله: «يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» أى يشهد على ما عملتم و يدل عليه دلاله واضحة ملابسا للحق.

و قوله: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» تعليل لكون الكتاب ينطق عليهم بالحق أى إن كتابنا هذا دال على عملكم بالحق من غير أن يتخلف عنه لأنه اللوح المحفوظ المحيط بأعمالكم بجميع جهاتها الواقعيه.

و لو لا- أن الكتاب يريهم أعمالهم بنحو لا يداخله شك و لا يحتمل منهم التكذيب لكذبوه، قال تعالى: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا»: آل عمران: ٣٠.

و للقوم فى الآيه أقوال آخر:

منها ما قيل: إن الآيه من كلام الملائكه لا من كلام الله و معنى الاستنساخ الكتابه و المعنى: هذا أى صحيفه الأعمال كتابنا معشر الملائكه الكاتبين للأعمال يشهد عليكم بالحق إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون.

و فيه أن كونه من كلام الملائكه بعيد من السياق على أن كون الاستنساخ بمعنى مطلق الكتابه لم يثبت لغه.

و منها: أن الآيه من كلام الله، و الإشارة بهذا إلى صحيفه الأعمال، و قيل: إلى اللوح المحفوظ، و الاستنساخ بمعنى الاستكتاب مطلقا.

قوله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ» تفصيل حال الناس يومئذ بحسب اختلافهم بالسعادة و الشقاء و الثواب و العقاب، و السعداء المثابون هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و الأشقياء المعاقبون هم الذين كفروا من المستكبرين المجرمين.

و المراد بالرحمة الإفاضة الإلهية تسعد من استقر فيها و منها الجنة، و الفوز المبين الفلاح الظاهر، و الباقي واضح.

قوله تعالى: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ» المراد بالذين كفروا المتلبسون بالكفر عن تكذيب و جحود بشهادة قوله: «أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ» إلخ.

و الفاء في «أَلَمْ تَكُنْ» للتفريع فتدل على مقدر متفرع عليه هو جواب لما، و التقدير: فيقال لهم أ لم تكن آياتي تتلى عليكم، و المراد بالآيات الحجج الإلهية الملقاه إليهم عن وحى و دعوته، و المجرم هو المتلبس بالأجرام و هو الذنب.

و المعنى: و أما الذين كفروا جاحدين للحق مع ظهوره فيقال لهم توبيخا و تقريرا:

أ لم تكن حججى تقرأ و تبين لكم فى الدنيا فاستكبرتم عن قبولها و كنتم قوما مذنبين.

قوله تعالى: «وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ» إلخ، المراد بالوعد الموعود و هو ما وعده الله بلسان رسله من البعث و الجزاء فيكون قوله: «وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا» من عطف التفسير، و يمكن أن يراد بالوعد المعنى المصدرى.

و قولهم: «مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ» معناه أنه غير مفهوم لهم و الحال أنهم أهل فهم و درايه فهو كناية عن كونه أمرا غير معقول و لو كان معقولا لدروه.

و قوله: «إِنْ نَظَرْنَا إِلَّا ظَنًّا وَ مَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ» أى ليست مما نقطع به و نجزم بل نظن ظنا لا يسعنا أن نعلم عليه، ففى قولهم: «مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ» إلخ، غب ما تليت عليهم من الآيات البينه أفحش المكابره مع الحق.

قوله تعالى: «وَ يَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» إضافة السيئات إلى ما عملوا بيانيه أو بمعنى من، و المراد بما عملوا جنس ما عملوا أى

ظهر لهم أعمالهم السيئه أو السيئات من أعمالهم فالآيه فى معنى قوله: «يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ»: آل عمران: ٣٠.

فالآيه من الآيات الداله على تمثل الأعمال، وقيل: إن فى الكلام حذفاً و التقدير:

و بدا لهم جزاء سيئات ما عملوا.

و قوله: «وَ حَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ» أى و حل بهم العذاب الذى كانوا يسخرون منه فى الدنيا إذا أنذروا به بلسان الأنبياء و الرسل.

قوله تعالى: «وَ قِيلَ الْيَوْمَ نُنَّاكُم كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَ مَأْوَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» النسيان كناية عن الإعراض و الترك فنسيانهم تعالى لهم يوم القيامة إعراضه عنهم و تركه لهم فى شدائده و أهواله، و نسيانهم لقاء يومهم ذاك فى الدنيا إعراضهم عن تذكره و تركهم التأهب للقائه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «ذَلِكُمْ بِأَنكُم اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَ عَرَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» إلخ، الإشاره بقوله: «ذَلِكُمْ» إلى ما ذكر من عقابهم من ظهور السيئات و حلول العذاب و الهزء السخريه التى يستهزأ بها و الباء للسببيه.

و المعنى: ذلكم العذاب الذى يحل بكم بسبب أنكم اتخذتم آيات الله سخريه تستهزءون بها و بسبب أنكم غرتكم الحياه الدنيا فأخذتم إليها و تعلقتم بها.

و قوله: «فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» صرف الخطاب عنهم إلى النبى ص، و يتضمن الكلام خلاصه القول فيما يصيبهم من العذاب يومئذ و هو الخلود فى النار و عدم قبول العذر منهم.

و الاستعتاب طلب العتبي و الاعتذار، و نفى الاستعتاب كناية عن عدم قبول العذر.

قوله تعالى: «فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» تحميد له تعالى بالتفريع على ما تقدم فى السوره من كونه خالق السماوات و الأرض و ما بينهما و المدبر لأمر الجميع و من بديع تدبيره خلق الجميع بالحق المستتب ليوم الرجوع إليه و الجزاء بالأعمال و هو المستدعى لجعل الشرائع التى تسوق إلى السعاده و الثواب و يتعقبه الجمع ليوم الجمع ثم الجزاء و استقرار الجميع على الرحمه و العدل بإعطاء كل شىء ما يستحقه فلم يدبر إلا تدبيراً جميلاً و لم يفعل إلا فعلاً محموداً فله الحمد كله.

وقد كرر «الرب» فقال: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ ثم أبدل منهما قوله:

«رَبِّ الْعَالَمِينَ» ليأتى بالتصريح بشمول الربوبية للجميع فلو جىء برب العالمين و اكتفى به أمكن أن يتوهم أنه رب المجموع لكن للسماوات خاصه رب آخر و للأرض وحدها رب آخر كما ربما قال بمثله الوثنيه، و كذا لو اكتفى بالسماوات و الأرض لم يكن صريحا في ربوبيته لغيرهما، و كذا لو اكتفى بإحداهما.

قوله تعالى: «وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» الكبرياء على ما عن الراغب: الترفع عن الانقياد، و عن ابن الأثير: العظمة و الملك و في المجمع، السلطان القاهر و العظمة القاهره و العظمة و الرفعه.

و هي على أى حال أبلغ معنى من الكبر و تستعمل في العظمة غير الحسيه و مرجعه إلى كمال وجوده و لا تنهى كماله.

و قوله: «وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أى له الكبرياء في كل مكان فلا يتعالى عليه شىء فيهما و لا يستصغره شىء و تقديم الخبر في «لَهُ الْكِبْرِيَاءُ» يفيد الحصر كما في قوله: «فَلِلَّهِ الْحَمْدُ».

و قوله: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» أى الغالب غير المغلوب فيما يريد من خلق و تدبير في الدنيا و الآخرة و البانى خلقه و تدبيره على الحكمة و الإتيان.

بحث روائى

في تفسير القمى، "في قوله تعالى: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» قال: نزلت في قريش كلما هووا شيئا عبده.

و في الدر المنثور، أخرج النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال " *: كان الرجل من العرب يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه أخذه و ألقى الآخر - فأنزل الله «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ».

و في المجمع، في قوله تعالى: «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» و

قد روى في الحديث عن النبى ص أنه قال: لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر.

أقول: قال الطبرسى بعد إيراد الحديث: و تأويله أن أهل الجاهليه كانوا ينسبون

الحوادث المجحفه و البلايا النازله إلى الدهر فيقولون: فعل الدهر كذا، و كانوا يسبون الدهر

فقال(ص): إن فاعل هذه الأمور هو الله فلا تسبوا فاعلها انتهى. و يؤيد هذا الوجه الروايه التاليه.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى هريره قال*: قال رسول الله ص: قال الله تبارك و تعالى: لا يقل ابن آدم يسب الدهر- يا خيبه الدهر فإنى أنا الدهر- أرسل الليل و النهار فإذا شئت قبضتهما.

و فى تفسير القمى، فى قوله تعالى: « هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » الآيه،

حدثنى أبى عن ابن أبى عمير عن عبد الرحيم القصير عن أبى عبد الله(ع) قال: سألته عن « ن وَ الْقَلَمِ » قال: إن الله خلق القلم من شجره فى الجنة يقال لها الخلد- ثم قال لنهر فى الجنة: كن مدادا فجمد النهر- و كان أشد بياضا من الثلج و أحلى من الشهد. ثم قال للقلم: اكتب. قال: يا رب ما أكتب؟ قال: اكتب ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة- فكتب القلم فى رق أشد بياضا من الفضة- و أصفى من الياقوت. ثم طواه فجعله فى ركن العرش ثم ختم على فم القلم- فلن ينطق أبدا.

فهو الكتاب المكنون الذى منه النسخ كلها- أ و لستم عربا؟ فكيف لا تعرفون معنى الكلام؟ و أحدكم يقول لصاحبه: انسخ ذلك الكتاب- أ و ليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل؟ و هو قوله: « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ».

أقول:

قوله(ع): فكتب القلم فى رق إلخ، تمثيل للوح المكتوب فيه الحوادث بالرق و الرق ما يكتب فيه شبه الكاغد- على ما ذكره الراغب- و قد تقدم الحديث عنه(ع) أن القلم ملك و اللوح ملك، و قوله: فجعله فى ركن العرش تمثيل للعرش بعرش الملك ذى الأركان و القوائم و قوله: ثم ختم على فم القلم «إلخ» كناية عن كون ما كتب فى الرق قضاء محتوما لا يتغير و لا يتبدل، و قوله: أ و لستم عربا «إلخ»، إشاره إلى ما تقدم توضيحه فى تفسير الآيه.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال " *: إن الله خلق النون و هو الدوا و خلق القلم- فقال: اكتب؟ قال: ما أكتب- قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول- بر أو فاجر أو رزق مرزوق حلال أو حرام- ثم ألزم كل شىء من ذلك شأنه: دخوله فى الدنيا و مقامه فيها كم، و خروجه منها كيف؟.

ص: ١٨٢

ثم جعل على العباد حفظه و على الكتاب خزانة تحفظه-ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم-فإذا فنى ذلك الرزق انقطع الأمر و انقضى الأجل-أتت الحفظه الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم-فيقول لهم الخزنة: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً-فيرجع الحفظه فيجدونهم قد ماتوا.

قال ابن عباس: أ لستم قوما عربا؟ تسمعون الحفظه يقولون: «إِذَا كُنَّا نَسِيْتِنَسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» و هل يكون الاستنساخ إلا من أصل؟.

أقول: و الخبر كما ترى يجعل الآيه من كلام الملائكة الحفظه.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: "في الآيه قال: يستنسخ الحفظه من أم الكتاب- ما يعمل بنو آدم-فإنما يعمل الإنسان على ما استنسخ الملك من أم الكتاب.

و عن كتاب سعد السعود لابن طاووس، قال بعد ذكر الملكين الموكلين بالعبد: و في روايه: أنهما إذا أرادا النزول صباحا و مساء- ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللوح المحفوظ- فيعطيها ذلك فإذا صعدا صباحا و مساء بديوان العبد-قابه إسرافيل بالنسخ التي انتسخ لهما-حتى يظهر أنه كان كما نسخ منه.

و في المجمع، "في قوله تعالى: «وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»-و

في الحديث يقول الله: الكبرياء ردائي و العظمة إزاري-فمن نازعني واحده منهما ألقيته في نار جهنم.

أقول: و رواه في الدر المنثور، عن مسلم و أبي داود و ابن ماجه و غيرهم عن أبي هريره عن النبي ص .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَبَقُونَا هَذَا إِنْكُ فَدِيمٌ (١١) وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبَشْرٍ لِّلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

غرض السوره إنذار المشركين الرادين للدعوه إلى الإيمان بالله و رسوله بالمعاد بما فيه من أليم العذاب لمنكريه المعرضين عنه، و لذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد:

« مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » ثم يعود إليه عوده بعد عوده كقوله:

« وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ »، و قوله: « وَالَّذِي قَالَ لِيُؤْتِيهِ أَفٍّ لَكُمْ أَوْ تَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ »، و قوله: « وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ »، و قوله: « وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ »، و قوله فى مختتم السوره: « كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ » الآية.

و فيها احتجاج على الوحدييه و النبوه، و إشاره إلى هلاك قوم هود و هلاك القرى التى حول مكه و إنذارهم بذلك، و إنباء عن حضور نفر من الجن عند النبى ص و استماعهم القرآن و إيمانهم به و رجوعهم إلى قومهم منذرين لهم.

و السوره مكيه كلها إلا- آيتين اختلف فيهما سنشير إليهما فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله، قوله تعالى: « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
إِلْح، و قوله: « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْآيَه.

قوله تعالى: « حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » تقدم تفسيره.

قوله تعالى: « مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَيَّءٍ » إلخ، المراد بالسماوات و الأرض و ما بينهما
مجموع العالم المشهود علويه و سفليه، و الباء فى « بِالْحَقِّ » للملابسه، و المراد بالأجل المسمى ما ينتهى إليه أمد وجود الشىء، و
المراد به فى الآيه الأجل المسمى لوجود مجموع العالم و هو يوم القيامه الذى تطوى (١) فيه السماء كطى السجل للكتب و تبدل
الأرض (٢) غير الأرض و السماوات و برزوا لله الواحد القهار.

و المعنى: ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلويه و السفليه إلا- ملابسا للحق له غايه ثابتة و ملابسا لأجل معين لا يتعداه
وجوده و إذا كان له أجل معين يفنى عند حلوله و كانت مع ذلك له غايه ثابتة فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء و هو
المعاد الموعود، و قد تكرر الكلام فيما تقدم فى معنى كون الخلق بالحق.

و قوله: « وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ » المراد بالذين كفروا هم المشركون بدليل الآيه التاليه لكن ظاهر السياق أن المراد
بكفرهم كفهرم بالمعاد، و « عَمَّا » فى « عَمَّا » مصدرية أو موصوله و الثانى هو الأوفق للسياق و المعنى: و المشركون الذين كفروا
بالمعاد عما أنذروا به- و هو يوم القيامه بما فيه من أليم العذاب لمن أشرك بالله- معرضون منصرفون.

قوله تعالى: « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » إلى آخر الآيه « أَرَأَيْتُمْ » بمعنى أخبرونى و المراد بما تدعون من دون الله
الأصنام التى كانوا يدعونها و يعبدونها و إرجاع ضمائر أولى العقل إليها بعد لكونهم ينسبون إليه أفعال أولى العقل و حجه الآيه
و ما بعدها مع ذلك تجرى فى كل إله معبود من دون الله.

ص: ١٨٦

١-١) إشاره إلى الآيه ١٠٤ فيه من سوره الأنبياء.

٢-٢) إشاره إلى الآيه ٤٨ من سوره إبراهيم.

وقوله: «أَرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» أروني بمعنى أخبروني و«مَا» اسم استفهام و«ذَا» بعده زائده و المجموع مفعول «خَلَقُوا» و من الأرض متعلق به.

وقوله: «أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ» أي شركه في خلق السماوات فإن خلق شيء من السماوات و الأرض هو المسئول عنه.

توضيح ذلك أنهم و إن لم ينسبوا إليها إلا- تدبير الكون و خصوا الخلق به سبحانه كما قال تعالى: «وَلَيْنِ سَاءَ لَتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»: الزمر: ٣٨، و قال: «وَلَيْنِ سَاءَ لَتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»: الزخرف: ٨٧، لكن لما كان الخلق لا ينفك عن التدبير أوجب ذلك أن يكون لمن له سهم من التدبير سهم في الخلق و لذلك أمر تعالى نبيه ص أن يسألهم عما لأربابهم الذين يدعون من دون الله من النصيب في خلق الأرض أو في خلق السماوات فلا معنى للتدبير في الكون من غير خلق.

وقوله: «إِنِّي بكتابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ آثَارِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» الإشارة بهذا إلى القرآن، والمراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماوى كالتوراه نازل من عند الله يذكر شركه آلهتهم في خلق السماوات أو الأرض.

و الأثاره على ما ذكره الراغب مصدر بمعنى النقل و الروايه قال: و أثرت العلم رويته آثره أثرا و أثاره و أثره و أصله تتبعت أثره انتهى. و عليه فالأثاره في الآيه مصدر بمعنى المفعول أي شيء منقول من علم يثبت أن لآلهتهم شركه في شيء من السماوات و الأرض، و فسره غالب المفسرين بمعنى البقيه و هو قريب مما تقدم.

و المعنى: ائتوني للدلاله على شركهم لله في خلق شيء من الأرض أو في خلق السماوات بكتاب سماوى من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشيء منقول من علم أو بقيه من علم أورثتموها يثبت ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم أنهم شركاء لله سبحانه.

قوله تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» إلخ، الاستفهام إنكارى، و تحديد عدم استجابتهم الدعوه بيوم القيامة لما أن يوم القيامة أجل مسمى للدنيا و الدعوه مقصوره في الدنيا و لا دنيا بعد قيام الساعه.

وقوله: «وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ» صفه أخرى من صفات آلهتهم مضافه إلى صفه عدم استجابتهم و ليس تعليلا لعدم الاستجابه فإن عدم استجابتهم معلول كونهم

لا يملكون لعبادهم شيئاً قال تعالى: «قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا»: المائدة: ٧٦.

بل هي صفة مضافه إلى صفة المذكوره لتكون توطئه و تمهيدا لما سيدكره في الآيه التاليه من عداوتهم لهم و كفرهم بعبادتهم يوم القيامة فهم في الدنيا غافلون عن دعائهم و سيطلعون عليه يوم القيامة فيعادونهم و يكفرون بعبادتهم.

و في الآيه دلالة على سرايه الحياه و الشعور في الأشياء حتى الجمادات فإن الأصنام من الجماد و قد نسب إليها الغفله و الغفله من شئون ذوى الشعور لا تطلق إلا على ما من شأن موصوفه أن يشعر.

قوله تعالى: «وَ إِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ» الحشر إخراج الشيء من مقره بإزعاج، والمراد بعث الناس من قبورهم و سوقهم إلى المحشر يوم القيامة فيومئذ يعاديهم آلهتهم و يكفرون بشرك عبادهم بالتبري منهم كما قال تعالى: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ»: فاطر: ١٤، و قال حكاية عنهم: «تَبَّرْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ»: القصص: ٦٣، و قال: «فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ»: يونس: ٢٩.

و في سياق الآيتين تلويح إلى أن هذه الجمادات التي لا تظهر لنا في هذه النشأة أن لها حياه لعدم ظهور آثارها سيظهر في النشأة الآخره أن لها حياه و تظهر آثارها و قد تقدم بعض الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى: «قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ»: الم السجده: ٢١.

قوله تعالى: «وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» الآيه و التي بعدها مسوقتان للتوبيخ، و المراد بالآيات البينات آيات القرآن تتلى عليهم، ثم بدلها من الحق الذي جاءهم حيث قال: «لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ» - و كان مقتضى الظاهر أن يقال: «لها» للدلالة على أنها حق جاءهم لا- مسوغ لرميها بأنها سحر مبين و هم يعلمون أنها حق مبين فهم متحكمون مكابرون للحق الصريح.

قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» إلخ، «أَمْ» منقطعه أى بل يقولون افترى القرآن على الله في دعواه أنه كلامه.

و قوله: «قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» أى إن افتريت القرآن لأجلكم أخذنى بالعذاب أو عاجلنى بالعذاب على الافتراء و لستم تقدرّون على دفع عذابه عنى فكيف أفتريه عليه لأجلكم، و المحصل أنى على يقين من أمر الله و أعلم أنه يأخذ المفترى عليه أو يعاجل فى عقوبته و أنكم لا تقدرّون على دفع ما يريدّه فكيف أفترى عليه فأعرض نفسى على عذابه المقطوع لأجلكم؟ أى لست بمفتر عليه.

و يتبين بذلك أن جزاء الشرط فى قوله: «إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي» إلخ، محذوف و قد أقيم مقامه ما يجرى مجرى ارتفاع المانع، و التقدير: إن افتريته أخذنى بالعذاب أو عاجلنى بالعذاب و لا- مانع من قبلكم يمنع عنه، و ليس من قبيل وضع المسبب موضع السبب كما قيل.

و قوله: «هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ» الإفاضة فى الحديث الخوض فيه و «بِمَا» موصولة يرجع إليه ضمير «فيه» أو مصدرية و مرجع الضمير هو القرآن، و المعنى:

الله سبحانه أعلم بالذى تخوضون فيه من التكذيب برمى القرآن بالسحر و الافتراء على الله أو المعنى: هو أعلم بخوضكم فى القرآن.

و قوله: «كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» احتجاج ثان على نفي الافتراء و أول الاحتجاجين قوله: «إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» و قد تقدم بيانه آنفاً، و معنى الجملة: أن شهادة الله سبحانه فى كلامه بأنه كلامه و ليس افتراء منى يكفى فى نفي كونى مفترى به عليه، و قد صدق سبحانه هذه الدعوى بقوله: «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» النساء: ١٦٦، و ما فى معناه من الآيات، و أما أنه كلامه فيكفى فى ثبوته آيات التحدى.

و قوله: «وَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ» تذييل الآيه بالاسمين الكريمين للاحتجاج على نفي ما يتضمنه تحكّمهم الباطل من نفي رساله كأنه قيل: إن قولكم: «إِفْتِرَاءُ» يتضمن دعويين: دعوى عدم كون هذا القرآن من كلام الله و دعوى بطلان رساله- و الوثنيون ينفونها مطلقاً- أما الدعوى الأولى فيدفعه أولاً: أنه إن افتريته فلا تملكون، إلخ، و ثانياً: أن الله يكفينى شهيداً على كونه كلامه لا كلامى.

و أما الدعوى الثانية فيدفعها أن الله سبحانه غفور رحيم، و من الواجب فى حكمته أن يعامل خلقه بالمغفرة و الرحمة و لا تشملان إلا التائبين الراجعين إليه الصالحين

لذلك و ذلك بأن يهديهم إلى صراط يقربهم منه سلوكه فتشملهم مغفرته و رحمته بحط السيئات و الاستقرار في دار السعاده الخالده، و كونه واجبا في حكمته لأن فيهم صلاحيه هذا الكمال و هو الجواد الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[□] :إسراء:

٢٠، و قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصِيدُ السَّبِيلِ﴾: النحل: ٩، و السبيل إلى هذه الهدايه هي الدعوه من طريق الرساله فمن الواجب في الحكمه أن يرسل إلى الناس رسولا يدعوهم إلى سبيله الموصله إلى مغفرته و رحمته.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾[□] الخ، البدع ما كان غير مسبوق بالمثل من حيث صفاته أو من حيث أقواله و أفعاله و لذا فسره بعضهم بأن المعنى: ما كنت أول رسول أرسل إليكم لا رسول قبلي، و قيل:

المعنى: ما كنت مبدعا في أقوالى و أفعالى لم يسبقنى إليها أحد من الرسل.

و المعنى الأول لا يلائم السياق و لا قوله المتقدم: ﴿وَهُوَ الْعَفْوَُ الرَّحِيمُ﴾ بالمعنى الذى تقدم توجيهه فتانى المعنيين هو الأنسب، و عليه فالمعنى: لست أخالف الرسل السابقين فى صورته أو سيره و فى قول أو فعل بل أنا بشر مثلهم فى من آثار البشرىه ما فيهم و سيبلهم فى الحياه سببلى.

و بهذه الجملة يجاب عن مثل ما حكاه الله من قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾: الفرقان: ٨.

و قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾[□] نفى لعلم الغيب عن نفسه فهو نظير قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾: الأعراف: ١٨٨، و الفرق بين الآيتين أن قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾[□] الخ، نفى للعلم بمطلق الغيب و استشهاد له بمس السوء و عدم الاستكثار من الخير، و قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾[□] نفى للعلم بغيب خاص و هو ما يفعل به و بهم من الحوادث التى يواجهونها جميعا، و ذلك أنهم كانوا يزعمون أن المتلبس بالنبوه لو كان هناك نبى يجب أن يكون عالما فى نفسه بالغيوب ذا قدره مطلقه غيبه كما يظهر من اقتراحاتهم المحكيه فى القرآن فأمر (ص) أن يعترف-مصرحا به- أنه لا يدرى ما يفعل به و لا بهم فينفى عن

نفسه العلم بالغيب، و أن ما يجرى عليه و عليهم من الحوادث خارج عن إرادته و اختياره و ليس له فى شىء منها صنع بل يفعله به و بهم غيره و هو الله سبحانه.

فقوله: «وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» كما ينفى عنه العلم بالغيب ينفى عنه القدره على شىء مما يصيبه و يصيبهم مما هو تحت أستار الغيب.

و نفى الآيه العلم بالغيب عنه (ص) لا- ينافى علمه بالغيب من طريق الوحي كما يصرح تعالى به فى مواضع من كلامه كقوله: «ذَلِكُمْ مِنَ الْإِبْرَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ» آل عمران: ٤٤، يوسف: ١٠٢، و قوله: «تَلَمَّكَ مِنَ الْإِبْرَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ» هود: ٤٩، و قوله: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ» الجن: ٢٧ و من هذا الباب قول المسيح (ع): «وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ»: آل عمران: ٤٩، و قول يوسف (ع) لصاحبي السجن: «لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا»: يوسف: ٣٧.

وجه عدم المنافاه أن الآيات النافيه للعلم بالغيب عنه و عن سائر الأنبياء (ع) إنما تنفيه عن طبيعتهم البشريه بمعنى أن تكون لهم طبيعه بشريه أو طبيعه هى أعلى من طبيعه البشر من خاصتها العلم بالغيب بحيث يستعمله فى جلب كل نفع و دفع كل شر كما نستعمل ما يحصل لنا من طريق الأسباب و هذا لا- ينافى انكشاف الغيب لهم بتعليم إلهى من طريق الوحي كما أن إتيانهم بالمعجزات فيما أتوا بها ليس عن قدره نفسه فيهم يملكونها لأنفسهم بل بإذن من الله تعالى و أمر، قال تعالى: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا»: الإسراء: ٩٣، جوابا عما اقترحوا عليه من الآيات، و قال: «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ» العنكبوت: ٥٠، و قال: «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ»: المؤمن: ٧٨.

و يشهد بذلك قوله بعده متصلا به: «إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ» فإن اتصاله بما قبله يعطى أنه فى موضع الإضراب، و المعنى: أنى ما أدرى شيئا من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسى و إنما أتبع ما يوحى إلى من ذلك.

و قوله: «وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ» تأكيد لجميع ما تقدم فى الآيه من قوله: «مَا كُنْتُ بِدَعَا» إلخ، و «وَمَا أَدْرِى» إلخ، و قوله: «إِنْ أَتَّبِعْ» إلخ.

تظافرت الأخبار من طرق أئمة أهل البيت أن الله سبحانه علم النبي ص و الأئمة (ع) علم كل شيء، و فسر ذلك في بعضها أن علم النبي ص من طريق الوحي و أن علم الأئمة (ع) ينتهي إلى النبي ص.

و أورد عليه أن المأثور من سيرتهم أنهم كانوا يعيشون مدى حياتهم عيشه سائر الناس فيقصدون مقاصدهم ساعين إليها على ما يرشد إليه الأسباب الظاهرية و يهدى إليه السبل العاديه فربما أصابوا مقاصدهم و ربما أخطأ بهم الطريق فلم يصيبوا، و لو علموا الغيب لم يخيّبوا في سعيهم أبدا فالعاقل لا يترك سيلا يعلم يقينا أنه مصيب فيه و لا يسلك سيلا يعلم يقينا أنه مخطئ فيه.

و قد أصيبوا بمصائب ليس من الجائز أن يلقي الإنسان نفسه في مهلكتها لو علم بواقع الأمر كما أصيب النبي ص يوم أحد بما أصيب، و أصيب على (ع) في مسجد الكوفه حين فتك به المرادى لعنه الله، و أصيب الحسين (ع) فقتل في كربلاء، و أصيب سائر الأئمة بالسم، فلو كانوا يعلمون ما سيجرى عليهم كان ذلك من إلقاء النفس في التهلكه و هو محرم، و الإشكال كما ترى مأخوذ من الآيتين: «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ» «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ».

و يردّه أنه مغالطه بالخلط بين العلوم العاديه و غير العاديه فالعلم غير العادى بحقائق الأمور لا أثر له في تغيير مجرى الحوادث الخارجيه.

توضيح ذلك أن أفعالنا الاختياريه كما تتعلق بإرادتنا كذلك تتعلق بعلة و شرائط أخرى ماديه زمانيه و مكانيه إذا اجتمعت عليها تلك العلة و الشرائط و تمت بالإراداه تحققت العله التامه و كان تحقق الفعل عند ذلك واجبا ضروريا إذ من المستحيل تخلف المعلول عن علته التامه.

فنسبه الفعل و هو معلول إلى علته التامه نسبه الوجوب و الضروره كنسبه جميع الحوادث إلى عللها التامه، و نسبه إلى إرادتنا و هي جزء علته نسبه الجواز و الإمكان.

فتبين أن جميع الحوادث الخارجيه و منها أفعالنا الاختياريه واجبه الحصول في

الخارج واقعه فيها على صفه الضروره و لا ينافى ذلك كون أفعالنا الاختياريه ممكنه بالنسبه إلينا مع وجوبها على ما تقدم.

فإذا كان كل حادث و منها أفعالنا الاختياريه بصفه الاختيار معلولا له عله تامه يستحيل معها تخلفه عنها كانت الحوادث سلسله منتظمه يستوعبها الوجوب لا يتعدى حلقه من حلقاتها موضعها و لا تتبدل من غيرها و كان الجميع واجبا من أول يوم سواء فى ذلك ما وقع فى الماضى و ما لم يقع بعد، فلو فرض حصول علم بحقائق الحوادث على ما هى عليها فى متن الواقع لم يؤثر ذلك فى إخراج حادث منها و إن كان اختياريا عن ساحه الوجوب إلى حد الإمكان.

فإن قلت: بل يقع هذا العلم اليقيني فى مجرى أسباب الأفعال الاختياريه كالعلم الحاصل من الطرق العاديه فيستفاد منه فيما إذا خالف العلم الحاصل من الطرق العاديه فيصير سببا للفعل أو الترك حيث يبطل معه العلم العادى.

قلت: كلا- فإن المفروض تحقق العله التامه للعلم العادى مع سائر أسباب الفعل الاختيارى فمثله كمثل أهل الجحود و العناد من الكفار يستيقنون بأن مصيرهم مع الجحود إلى النار و مع ذلك يصرون على جحودهم لحكم هواهم بوجوب الجحود و هذا منهم هو العلم العادى بوجوب الفعل، قال تعالى فى قصه آل فرعون: ﴿وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾: النمل: ١٤.

و بهذا يندفع ما يمكن أن يقال: لا يتصور علم يقينى بالخلاف مع عدم تأثيره فى الإراده فليكشف عدم تأثيره فى الإراده عن عدم تحقق علم على هذا الوصف.

وجه الاندفاع: أن مجرد تحقق العلم بالخلاف لا يستوجب تحقق الإراده مستنده إليه و إنما هو العلم الذى يتعلق بوجوب الفعل مع التزام النفس به كما مر فى جحود أهل الجحود و إنكارهم الحق مع يقينهم به و مثله الفعل بالعنايه فإن سقوط الواقف على جذع عال، منه على الأرض بمجرد تصور السقوط لا يمنع عنه علمه بأن فى السقوط هلاكه القطعى.

[بيان]

و قد أجاب بعضهم عن أصل الإشكال بأن للنبي ص و الأئمه (ع)

تكاليف خاصه بكل واحد منهم فعليهم أن يقتحموا هذه المهالك و إن كان ذلك منا إلقاء النفس فى التهلكه و هو حرام، و إليه إشاره فى بعض الأخبار.

و أجاب بعضهم عنه بأن الذى ينجز التكاليف من العلم هو العلم من الطرق العاديه و أما غيره فليس بمنجز، و يمكن توجيه الوجهين بما يرجع إلى ما تقدم.

قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ» الخ، ضمائر «كَانَ» و «بِهِ» و «مِثْلِهِ» على ما يعطيه السياق للقرآن، و قوله: «وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» الخ، معطوف على الشرط و يشاركه فى الجزاء، و المراد بمثل القرآن مثله من حيث مضمونه فى المعارف الإلهيه و هو كتاب التوراه الأصلية التى نزلت على موسى (ع)، و قوله: «فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ» أى فآمن الشاهد الإسرائيلى المذكور بعد شهادته.

و قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» تعليل للجزاء المحذوف دال عليه، و الظاهر أنه أ لستم ضالين لا ما قيل: إنه أ لستم ظلمتم لأن التعليل بعدم هدايه الله الظالمين إنما يلائم ضلالهم لا ظلمهم و إن كانوا متصفين بالوصفين جميعا.

و المعنى: قل للمشركين: أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله و الحال أنكم كفرتم به و شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثل ما فى القرآن من المعارف فآمن هو و استكبرتم أنتم أ لستم فى ضلال؟ فإن الله لا يهدى القوم الظالمين.

و الذى شهد على مثله فآمن على ما فى بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود، و الآيه على هذا مدنيه لا مكيه لأنه ممن آمن بالمدينه، و قول بعضهم: من الجائر أن يكون التعبير بالماضى فى قوله: «وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ» لتحقق الوقوع و القصه واقعه فى المستقبل سخييف لأنه لا يلائم كون الآيه فى سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلموا للنبي ص صدقه فيما يخبرهم به من الأمور المستقبله.

و فى معنى الآيه أقوال آخر منها أن المراد ممن شهد على مثله فآمن هو موسى (ع) شهد على التوراه فآمن به و إنما عدلوا عن المعنى السابق إلى هذا المعنى للبناء على كون الآيه مكيه، و أنه إنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينه.

و فيه أولاً: عدم الدليل على كون الآيه مكيه و لتكن القصه دليلا على كونها مدنيه، و ثانياً: بعد أن يجعل موسى الكليم (ع) قرينا لهؤلاء المشركين الأجلاف

يقاسون به فيقال ما محصله: أن موسى (ع) آمن بالكتاب النازل عليه و أنتم استكبرتم عن الإيمان بالقرآن فسخافته ظاهره.

و مما قيل إن المثل في الآية بمعنى نفس الشيء كما قيل في قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» الشورى: ١١، و هو في البعد كسابقه.

قوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ» إلى آخر الآية قيل: اللام في قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» للتعليل أى لأجل إيمانهم و يثول إلى معنى فى، و ضمير «كان» و «إليه» للقرآن من جهة الإيمان به.

و المعنى: و قال الذين كفروا فى الذين آمنوا- أى لأجل إيمانهم- لو كان الإيمان بالقرآن خيرا ما سبقونا- أى المؤمنون- إليه.

و قال بعضهم: إن المراد بالذين آمنوا بعض المؤمنين و بالضمير العائد إليه فى قوله: «سبقونا» البعض الآخر، و اللام متعلق بقال و المعنى: و قال الذين كفروا لبعض المؤمنين لو كان خيرا ما سبقنا البعض من المؤمنين و هم الغائبون إليه، و فيه أنه بعيد من سياق الآية.

و قال آخرون: إن المراد بالذين آمنوا المؤمنون جميعا لكن فى قوله: «مَا سَبَقُونَا التَّفَاتَا وَ الْأَصْلُ مَا سَبَقْتُمُونَا وَ هُوَ فِي الْبَعْدِ كَسَابِقِهِ وَ لَيْسَ خَطَابُ الْحَاضِرِينَ بِصِيغَةِ الْغَيْبِ مِنَ الْإِلْتِفَاتِ فِي شَيْءٍ».

و قوله: «وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكُ قَدِيمٌ» ضمير «به» للقرآن و كذا الإشاره بهذا إليه و الإفك الافتراء أى و إذ لم يهتدوا بالقرآن لاستكبارهم عن الإيمان به فسيقولون أى الذين كفروا هذا أى القرآن إفك و افتراء قديم، و قولهم: هذا إفك قديم كقولهم: أساطير الأولين .

قوله تعالى: «وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً وَ هَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا» إلخ، الظاهر أن قوله: «وَ مِنْ قَبْلِهِ» جملة حالیه و المعنى: فسيقولون هذا إفك قديم و الحال أن كتاب موسى حال كونه إماما و رحمه قبله أى قبل القرآن و هذا القرآن كتاب مصدق له حال كونه لسانا عربيا ليكون منذرا للذين ظلموا و هو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكا.

و كون التوراه إماما و رحمه هو كونها بحيث يقتدى بها بنو إسرائيل و يتبعونها فى أعمالهم و رحمه للذين آمنوا بها و اتبعوها فى إصلاح نفوسهم.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» إلى آخر الآيه المراد بقولهم ربنا الله إقرارهم و شهادتهم بانحصار الربوبيه فى الله سبحانه و توحده فيها، و باستقامتهم ثباتهم على ما شهدوا به من غير زيغ و انحراف و التزامهم بلوازمه العمليه.

و قوله: «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» أى ليس قبالهم مكروه محتمل يخافونه من عقاب محتمل، و لا مكروه محقق يحزنون به من عقاب أو هول، فالخوف إنما يكون من مكروه ممكن الوقوع، و الحزن من مكروه محقق الوقوع، و الفاء فى قوله: «فَلَا خَوْفٌ» إلخ، لتوهم معنى الشرط فإن الكلام فى معنى من قال ربنا الله ثم استقام فلا خوف إلخ.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» المراد بصحابه الجنه ملازماتها، و قوله: «خَالِدِينَ فِيهَا» حال مؤكده لمعنى الصحابه.

و المعنى: أولئك الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ملازمون للجنه حال كونهم خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون فى الدنيا من الطاعات و القربات.

بحث روائى

فى الكافى، بإسناده عن أبى عبيده قال: سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله تعالى:

«إِنِّي نَزَّيْتُ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَارَهُ مِنْ عِلْمٍ - إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ» قال: عنى بالكتاب التوراه و الإنجيل «و أَنَارَهُ مِنْ عِلْمٍ» فإنما عنى بذلك علم أوصياء الأنبياء.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه من طريق أبى سلمه بن عبد الرحمن عن ابن عباس عن النبى ص * «أَوْ أَنَارَهُ مِنْ عِلْمٍ» قال: الخط.

أقول: لعل المراد بالخط كتاب مخطوط موروث من الأنبياء أو العلماء الماضين لكن فى بعض ما روى فى تفسير قوله: «أَوْ أَنَارَهُ مِنْ عِلْمٍ» أنه حسن الخط و فى بعض آخر أنه جوده الخط و هو أجنبى من سياق الاحتجاج الذى فى الآيه.

و في العيون، في باب مجلس الرضا مع المأمون عنه (ع) حدثني أبي عن جدي عن آبائه عن الحسين بن علي (ع) قال: اجتمع المهاجرون و الأنصار إلى رسول الله ص - فقالوا: إن لك يا رسول الله مثونه في نفقتك - و فيمن يأتيك من الوفود، و هذه أموالنا مع دماننا فاحكم فيها بارا مأجورا - أعط ما شئت و احكم ما شئت من غير حرج.

قال: فأنزل الله تعالى إليه الروح الأمين - فقال: يا محمد « قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا - إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » يعني أن تودوا قرابتي من بعدى، فخرجوا فقال المنافقون: ما حمل رسول الله على ترك ما عرضنا عليه - إلا ليحثنا على قرابته من بعده، و إن هو إلا شيء افتراه في مجلسه - و كان ذلك من قولهم عظيما.

فأنزل الله عز و جل هذه الآية « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ - كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ » فبعث إليهم النبي ص فقال: هل من حدث؟ فقالوا: إي و الله يا رسول الله - لقد قال بعضنا كلاما غليظا كرهناه - فتلا عليهم رسول الله ص الآية فبكوا و اشتد بكأؤهم - فأنزل الله تعالى: « وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ - وَ يَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ».

و في الدر المنثور، أخرج أبو داود في ناسخه من طريق عكرمه عن ابن عباس " * في قوله: « وَ مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَ لَا بِكُمْ » قال: نسختها هذه (1) الآية التي في الفتح - فخرج إلى الناس فبشرهم بالذي غفر له - ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

فقال رجل من المؤمنين: هنيئا لك يا نبي الله - قد علمنا الآن ما يفعل بك فما ذا يفعل بنا؟ فأنزل الله في سورة الأحزاب « وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا » و قال: « لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ - جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا - وَ يُكْفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ - وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا » فبين الله ما به يفعل و بهم.

أقول: الرواية لا تخلو من شيء:

ص: ١٩٧

(١ - ١) يريد قوله تعالى: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر» الفتح. ٢.

أما أولاً: فلما تقدم بيانه في تفسير الآية أعنى قوله: «وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» أنها أجيبه عن العلم بالغيب الذى هو من طريق الوحي بدلاله صريحه من القرآن فلا ينفى بها العلم بالمغفرة من طريق الوحي حتى تنسخها آية سورة الفتح.

و أما ثانياً: فلأن ظاهر الرواية أن الذنب الذى تصرح بمغفرته آية سورة الفتح هو الذنب بمعنى مخالفه الأمر و النهى المولويين و سيأتى فى تفسير سورة الفتح- إن شاء الله تعالى- أن الذنب فى الآية لغير هذا المعنى.

و أما ثالثاً: فلأن الآيات الداله على دخول المؤمنين الجنة كثيرة جدا فى مكيه السور و مدنيتهها و لا تدل آيتا سورة الأحزاب على أزيد مما يدل عليه سائر الآيات فلا وجه لتخصيصهما بالدلاله على دخول المؤمنين الجنة و شمول المغفرة لهم.

على أن سورة الأحزاب نازله قبل سورة الفتح بزمان.

و فيه، أخرج أبو يعلى و ابن جرير و الطبرانى و الحاكم و صححه بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال*: انطلق النبي ص و أنا معه حتى دخلنا على كنيسة اليهود- يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم.

فقال لهم رسول الله ص: أرونى اثنى عشر رجلاً منكم- يشهدون أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله- يحبط الله عن كل يهودى تحت أديم السماء- الغضب الذى عليه- فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد فثلث فلم يجبه أحد- فقال:

أبيتم فوالله لأنا الحاشر و أنا العاقب- و أنا المقفى آمنتتم أو كذبتتم.

ثم انصرف و أنا معه حتى كدنا أن نخرج- فإذا رجل من خلفه فقال: كما أنت يا محمد، فأقبل فقال ذلك الرجل: أى رجل تعلموننى فيكم يا معشر اليهود؟ فقالوا: و الله لا- نعلم فينا رجلاً- أعلم بكتاب الله- و لا- أفقه منك و لا- من أيبك و لا- من جدك، فقال:

إنى أشهد بالله أنه النبى الذى تجدونه فى التوراه و الإنجيل، قالوا: كذبت ثم ردوا عليه و قالوا شراً، فقال رسول الله ص: كذبتتم لن يقبل منكم قولكم.

فخرجنا و نحن ثلاث: رسول الله ص- و أنا و ابن سلام فأنزل الله: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ- وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ- إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

أقول: و فى نزول الآية فى عبد الله بن سلام روايات أخرى من طرق أهل السنه

غير هذه الروايه، و سياق الآيه و خاصه قوله: «مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» لا يلائم كون الخطاب فيها لبنى إسرائيل، و قد عد الإنجيل فى الروايه من كتبهم و ليس من كتبهم و اليهود لا يصدقونه.

و فى بعض الروايات أن الآيه نزلت فى ابن يامين من علمائهم حين شهد و أسلم فكذبتة اليهود، و الإشكال السابق على حاله.

[سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١٥ الى ٢٠]

اشاره

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَ حَمَلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَىٰ وَالِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَ أَضِلِّحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَ عَدَّ الصَّادِقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَ الَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ مَا تَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُمَا يَسْتَتِعِيَانِ اللَّهَ وَ يَلْتَكِمُ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلتِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوقَفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

لما قسم الناس في قوله: «لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرِيَ الْمُحْسِنِينَ» إلى ظالمين و محسنين و أشير فيه إلى أن للظالمين ما يخاف و يحذر و للمحسنين ما يسر الإنسان و يبشر به عقب ذلك في هذا الفصل من الآيات بتفصيل القول فيه، و أن الناس بين قوم تائبين إلى الله مسلمين له و هم الذين يتقبل أحسن أعمالهم و يتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، و قوم خاسرين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن و الإنس.

و مثل الطائفة الأولى بمن كان مؤمنا بالله مسلما له بارا بوالديه يسأل الله أن يلهمه الشكر على ما أنعم عليه و على والديه و العمل الصالح و إصلاح ذريته، و الطائفة الثانية بمن كان عاقا لوالديه إذا دعوا إلى الإيمان بالله و اليوم الآخر فيزجرهما و يعد ذلك من أساطير الأولين.

قوله تعالى: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا» إلى آخر الآية، الوصية على ما ذكره الراغب هو التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ و التوصية تفعيل من الوصية قال تعالى: «وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ» البقرة: ١٣٢، فمفعوله الثاني الذي يتعدى إليه بالباء من قبيل الأفعال، فالمراد بالتوصية بالوالدين التوصية بعمل يتعلق بهما و هو الإحسان إليهما.

و على هذا فتقدير الكلام: و وصينا الإنسان بوالديه أن يحسن إليهما إحسانا.

و في إعراب: «إِحْسَانًا» أقوال أخر كقول بعضهم: إنه مفعول مطلق على تضمين «وصينا» معنى أحسنا، و التقدير: وصينا الإنسان محسنين إليهما إحسانا، و قول بعضهم: إنه صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أى إيضاء ذا إحسان، و قول بعضهم:

هو مفعول له، و التقدير: وصيناه بهما لإحساننا إليهما، إلى غير ذلك مما قيل.

و كيف كان فبر الوالدين و الإحسان إليهما من الأحكام العامة المشرعة في جميع

الشرائع كما تقدم فى تفسير قوله تعالى: «قُلْ نَعْمَا لَوْ أَنَا أُنْتَلِمُ حَرَمَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً» الأنعام: ١٥١، و لذلك قال: « وَ وَصَيْنَا الْإِنْسَانَ » فعممه لكل إنسان.

ثم عقبه سبحانه بالإشارة إلى ما قاسته أمه فى حمله و وضعه و فصاله إشعاراً بملاك الحكم و تهييجاً لعواطفه و إثارة لغريزه رحمته و رأفته فقال: « حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَ حَمَلَهُ وَ فَصَلَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » أى حملته أمه حملاً ذا كره أى مشقه و ذلك لما فى حمله من الثقل، و وضعته وضعاً ذا كره و ذلك لما عنده من ألم الطلق.

و أما قوله: « وَ حَمَلَهُ وَ فَصَلَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » فقد أخذ فيه أقل مدة الحمل و هو ستة أشهر، و الحولان الباقيان إلى تمام ثلاثين شهراً مدة الرضاع، قال تعالى: « وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ »: البقره: ٢٣٣، و قال: « وَ فَصَلَهُ فِي عَامَيْنِ »: لقمان: ١٤.

و الفصال التفريق بين الصبى و بين الرضاع، و جعل العامين ظرفاً للفصال بعنايه أنه فى آخر الرضاع و لا يتحقق إلا بانقضاء عامين.

و قوله: « حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سِنَهُ » بلوغ الأشد بلوغ زمان من العمر تشتد فيه قوى الإنسان، و قد مر نقل اختلافهم فى معنى بلوغ الأشد فى تفسير قوله: « وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا »: يوسف: ٢٢، و بلوغ الأربعين ملازم عادة لكمال العقل.

و قوله: « قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَى وَالِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ » الإيزاع الإلهام، و هذا الإلهام ليس بإلهام علم يعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع كما فى قوله: « وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا » الشمس: ٨، بل هو إلهام عملى بمعنى البعث و الدعوه الباطنيه إلى فعل الخير و شكر النعمه و بالجمله العمل الصالح.

و قد أطلق النعمه التى سأل إلهام الشكر عليها فتعم النعم الظاهريه كالحياه و الرزق و الشعور و الإراده، و الباطنيه كالإيمان بالله و الإسلام و الخشوع له و التوكل عليه و التفويض إليه فى قوله: « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ » إلخ، سؤال أن يلهمه الثناء عليه بإظهار نعمته قولاً و فعلاً: أما قولاً فظاهر، و أما فعلاً فباستعمال هذه النعم

استعمالاً يظهر به أنها لله سبحانه أنعم بها عليه و ليست له من قبل نفسه و لازمه ظهور العبوديه و المملوكيه من هذا الإنسان في قوله و فعله جميعاً.

و تفسير النعمه بقوله: «الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَيَّ وَالْإِدَّتَى» يفيد شكره من قبل نفسه على ما اختص به من النعمه و من قبل والديه فيما أنعم به عليهما فهو لسان ذاك لهما بعدهما.

و قوله: «وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ» عطف على قوله: «أَنْ أَشْكُرَ» إلخ، سؤال متمم لسؤال الشكر على النعم فإن الشكر يحلى ظاهر الأعمال، و الصلاحيه التي يرضيها الله تعالى تحلى باطنها و تخلصها له تعالى.

و قوله: «وَ أَصْرِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» الإصلاح في الذريه إيجاد الصلاح فيهم و هو من الله سبحانه توفيقهم للعمل الصالح و ينجر إلى إصلاح نفوسهم، و تقييد الإصلاح بقوله:

«لى» للدلاله على أن يكون إصلاحهم بنحو ينتفع هو به أى أن يكون ذريته له فى بره و إحسانه كما كان هو لوالديه.

و محصل الدعاء سؤال أن يلهمه الله شكر نعمته و صالح العمل و أن يكون باراً محسناً بوالديه و يكون ذريته له كما كان هو لوالديه، و قد تقدم (1) غير مره أن شكر نعمه تعالى بحقيقه معناه هو كون العبد خالصاً لله فيقول معنى الدعاء إلى سؤال خلوص النفس و صلاح العمل.

و قوله: «إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» أى الذين يسلمون الأمر لك فلا تريد شيئاً إلا أرادوه بل لا يريدون إلا ما أردت.

و الجمله فى مقام التعليل لما يتضمنه الدعاء من المطالب، و يتبين بالآيه حيث ذكر الدعاء و لم يرد بل أيده بما وعد فى قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ» إلخ، إن التوبه و الإسلام لله سبحانه إذا اجتمعا فى العبد استعقب ذلك الهامه تعالى بما يصير به العبد من المخلصين - بفتح اللام - ذاتا و المخلصين - بكسر اللام - عملاً أما إخلاص الذات فقد تقدمت الإشاره إليه آنفاً، و أما إخلاص العمل فلأن العمل لا يكون صالحاً لقبوله

ص: ٢٠٢

تعالى مرفوعا إليه إلا إذا كان خالصا لوجهه الكريم، قال تعالى: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ»: الزمر: ٣.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ» إلخ، التقبل أبلغ من القبول، والمراد بأحسن ما عملوا طاعاتهم من الواجبات و المندوبات فإنها هي المقبولة المتقبلة و أما المباحات فإنها و إن كانت ذات حسن لكنها ليست بمتقبلة، كذا ذكر في مجمع البيان و هو تفسير حسن و يؤيده مقابلة تقبل أحسن ما عملوا بالتجاوز عن السيئات فكأنه قيل: إن أعمالهم طاعات من الواجبات و المندوبات و هي أحسن أعمالهم فتقبلها و سيئات فتجاوز عنها و ما ليس بطاعة و لا حسنة فلا شأن له من قبول و غيره.

و قوله: «فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ» متعلق بقوله: «تَتَجَاوَزُ» أي نتجاوز عن سيئاتهم في جملة من نتجاوز عن سيئاتهم من أصحاب الجنة، فهو حال من ضمير «عَنْهُمْ».

و قوله: «وَعِدَ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ» أي يعدهم الله بهذا الكلام وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه إلى هذا الحين بلسان الأنبياء و الرسل، أو المراد أنه ينجز لهم بهذا التقبل و التجاوز يوم القيامة وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه في الدنيا.

قوله تعالى: «وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي» لما ذكر الإنسان الذي تاب إلى الله و أسلم له و سأله الخلوص و الإخلاص و بر والديه و إصلاح أولاده له قابله بهذا الإنسان الذي يكفر بالله و رسوله و المعاد و يعق والديه إذا دعوا إلى الإيمان و أنذراه بالمعاد.

فقوله: «وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا» الظاهر أنه مبتدأ في معنى الجمع و خبره قوله بعد: «أُولَئِكَ الَّذِينَ» إلخ، و «أف» كلمه تبرم يقصد بها إظهار التسخط و التوجع و «أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ» الاستفهام للتوبيخ، و المعنى: أتعدانني أن أخرج من قبري فأحيا و أحضر للحساب أي أتعدانني المعاد «وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي» أي و الحال أنه هلكت أمم الماضون العائشون من قبلي و لم يحي منهم أحد و لا بعث.

و هذا على زعمهم حجة على نفي المعاد و تقريره أنه لو كان هناك إحياء و بعث لأحيى بعض من هلك إلى هذا الحين و هم فوق حد الإحصاء عددا في أزمنة طويلة لا

أمد لها ولا خبر عنهم ولا أثر ولم يتنبهوا أن القرون السالفه لو عادوا كما يقولون كان ذلك بعثا لهم وإحياء في الدنيا والذى وعده الله سبحانه هو البعث للحياه الآخره والقيام لنشأه أخرى غير الدنيا.

وقوله: « وَهُمَا يَسْتَتِعِنَانِ اللَّهَ وَيَلْكَ آمِنٌ إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ » الاستغاثه طلب الغوث من الله أى والحال أن والديه يطلبان من الله أن يغيثهما ويعينهما على إقامه الحججه واستمالته إلى الإيمان ويقولان له: ويلك آمن بالله وبما جاء به رسوله ومنه وعده تعالى بالمعاد إن وعد الله بالمعاد من طريق رسله حق.

ومنه يظهر أن مرادهما بقولهما: « آمِنٌ » هو الأمر بالإيمان بالله ورسوله فيما جاء به من عند الله، وقولهما: « إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ » المراد به المعاد، وتعليل الأمر بالإيمان به لغرض الإنذار والتخويف.

وقوله: « فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » الإشارة بهذا إلى الوعد الذى ذكره وأنذراه به أو مجموع ما كانا يدعوانه إليه والمعنى: فيقول هذا الإنسان لوالديه ليس هذا الوعد الذى تذراننى به أو ليس هذا الذى تدعواننى إليه إلا خرافات الأولين وهم الأمم الأوليه الهمجيه.

قوله تعالى: « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » إلخ، تقدم بعض الكلام فيه فى تفسير الآيه ٢٥ من سوره حم السجده.

قوله تعالى: « وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا » إلى آخر الآيه أى لكل من المذكورين وهم المؤمنون البرره والكافرون الفجره منازل و مراتب مختلفه صعودا و حودورا فللجنه درجات و للنار دركات.

و يعود هذا الاختلاف إلى اختلافهم فى أنفسهم و إن كان ظهوره فى أعمالهم و لذلك قال: « لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا » فالدرجات لهم و منشؤها أعمالهم.

وقوله: « وَ لِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ » اللام للغايه و الجملة معطوفه على غايه أو غايات أخرى محذوفه لم يتعلق بذكرها غرض، و إنما جعلت غايه لقوله: « لِكُلِّ دَرَجَاتٍ » لأنه فى معنى و جعلناهم درجات، والمعنى: جعلناهم درجات لكذا و كذا و ليوفيهم أعمالهم و هم لا يظلمون.

و معنى توفيتهم أعمالهم إعطاؤهم نفس أعمالهم فالآيه من الآيات الداله على تجسم الأعمال، وقيل: الكلام على تقدير مضاف و التقدير و ليوفيتهم أجور أعمالهم.

قوله تعالى: « وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ » الخ، عرض الماء على الدابه و للدابه وضعه بمرأى منها بحيث إن شاءت شربته، و عرض المتاع على البيع وضعه موضعا لا مانع من وقوع البيع عليه.

و قوله: « وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ » قيل: المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم: عرض فلان على السيف إذا قتل و هو مجاز شائع.

و فيه أن قوله فى آخر السوره « وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ » لا يلائمه تلك الملاءمه حيث فرع ذوق العذاب على العرض فهو غيره.

و قيل: إن فى الآيه قلبا و الأصل عرض النار على الذين كفروا لأن من الواجب فى تحقق معنى العرض أن يكون فى المعروض عليه شعور بالمعروض و النار لا شعور لها بالذين كفروا بل الأمر بالعكس فى الكلام قلب، و المراد عرض النار على الذين كفروا.

و وجهه بعض المفسرين بأن المناسب أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه كما فى قولنا: عرضت الماء على الدابه و عرضت الطعام على الضيف، و لما كان الأمر فى عرض النار على الذين كفروا بالعكس فإنهم هم المسيرون إلى النار فقلب الكلام رعايه لهذا الاعتبار.

و فيه نظر أما ما ذكر من أن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور و إدراك بالمعروض حتى يرغب إليه أو يرغب عنه و النار لا شعور لها فيه أولا: أنه ممنوع كما يؤيده قولهم: عرضت المتاع على البيع، و قوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ»: الأحزاب: ٧٢، و ثانيا: أنا لا نسلم خلو نار الآخره عن الشعور، فى الأخبار الصحيحه أن للجنه و النار شعورا و يشعر به قوله:

«يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ»: ق: ٣٠، و غيره من الآيات.

و أما ما قيل من أن المناسب تحريك المعروض إلى المعروض عليه فلا نسلم لزومه و لا اطراده فهو منقوض بقوله: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»:

X الآية X، الأحزاب: ٧٢.

على أن فى كلامه تعالى ما يدل على الإتيان بالنار إلى الذين كفروا كقوله: «وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى»: الفجر: ٢٣.

فالحق أن العرض و هو إظهار عدم المانع من تلبس شىء بشىء معنى له نسبة إلى الجانبين يمكن أخذ كل منهما أصلا معروضا عليه و الآخر فرعا معروضا فتاره تؤخذ النار معروضه على الكافرين بعنايه أن لا مانع من عمل صالح أو شفاعه تمنع من دخولهم فيها كقوله تعالى: «وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا»: الكهف: ١٠٠، و تاره يؤخذ الكفار معروضين للنار بعنايه أن لا مانع يمنع النار أن تعذبهم، كما فى قوله:

«النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا»: المؤمن: ٣٦، و قوله: «يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ» الآية.

و على هذا فالأشبه تحقق عرضين يوم القيامة: عرض جهنم للكافرين حين تبرز لهم ثم عرضهم على جهنم بعد الحساب و القضاء الفصل بدخولهم فيها حين يساقون إليها، قال تعالى: «وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا»: الزمر: ٧١.

و قوله: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا» على تقدير القول أى يقال لهم: «أَذْهَبْتُمْ» إلخ، و الطيبات الأمور التى تلائم النفس و توافق الطبع و يستلذ بها الإنسان، و إذهاب الطيبات إنفادها بالاستيفاء لها، و المراد بالاستمتاع بها استعمالها و الانتفاع بها لنفسها لا للآخره و التهيؤ لها.

و المعنى: يقال لهم حين عرضهم على النار: أنفذتم الطيبات التى تلتذون بها فى حياتكم الدنيا و استمتعتم بتلك الطيبات فلم يبق لكم شىء تلتذون به فى الآخره.

و قوله: «فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ» تفريع على إذهابهم الطيبات، و عذاب الهون العذاب الذى فيه الهوان و الخزى.

و المعنى: فاليوم تجزون العذاب الذى فيه الهوان و الخزى قبال استكباركم فى الدنيا عن الحق و قبال فسقكم و توليكم عن الطاعات، و هما ذنبان أحدهما متعلق بالاعتقاد و هو الاستكبار عن الحق و الثانى متعلق بالعمل و هو الفسق.

فى الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق قتاده عن أبى حرب بن أبى الأسود الدؤلى قال*: رفع إلى عمر امرأه ولدت لسته أشهر- فسأل عنها أصحاب النبى فقال على: لا رجم عليها أ لا ترى أنه يقول: وَ حَمْلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا، و قال: وَ فِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ، و كان الحمل هاهنا سته أشهر فتركها عمر. قال: ثم بلغنا أنها ولدت آخر لسته أشهر.:

أقول: و روى القصة المفيد فى الإرشاد، .

وفيه، أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن بعجه بن عبد الله الجهنى قال*: تزوج رجل منا امرأه من جهينه- فولدت له تماما لسته أشهر- فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فأمر برجمها- فبلغ ذلك عليا فأتاه فقال: ما تصنع؟ قال: ولدت تماما لسته أشهر و هل يكون ذلك؟ قال على: أ ما سمعت الله تعالى يقول: وَ حَمْلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا - و قال:

حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ فكم تجده بقى إلا سته أشهر؟.

فقال عثمان: و الله ما فطنت لهذا. على بالمرأه فوجدوها قد فرغ منها، و كان من قولها لأختها: لا تحزنى- فو الله ما كشف فرجى أحد قط غيره. قال: فشب الغلام بعد فاعترف الرجل به- و كان أشبه الناس به. قال: فرأيت الرجل بعد يتساقط عضوا عضوا على فراشه.

و فى التهذيب، بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبى عبد الله (ع) قال*: سأله أبى و أنا حاضر عن قول الله عز و جل: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ» قال: الاحتلام.

و فى الخصال، عن أبى بصير قال: قال أبو عبد الله (ع): إذا بلغ العبد ثلاثا و ثلاثين سنة فقد بلغ أشده، و إذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه، فإذا طعن فى إحدى و أربعين فهو فى النقصان، و ينبغى لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان فى النزاع.

أقول: لا تخلو الروايه من إشعار بكون بلوغ الأشد مما يختلف بالمراتب فيكون الاحتلام و هو غالبا فى الست عشره أول مرتبه منها و الثلاث و الثلاثين و هى بعد مضى ست عشره أخرى المرتبه الثانيه، و قد تقدم فى نظيره الآيه من سوره يوسف بعض أخبار آخر.

و اعلم أنه قد وردت في الآيه أخبار تطبقها على الحسين بن علي (ع) و ولادته لسته أشهر و هي من الجرى.

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن عبد الله قال " * : إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: إن الله قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأيا حسنا- و إن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر و عمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقليه؟ إن أبا بكر و الله ما جعلها في أحد من ولده- و لا أحد من أهل بيته- و لا جعلها معاويه إلا رحمه و كرامه لولده.

فقال مروان: أ لست الذي قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: أ لست ابن اللعين- الذي لعن أباك رسول الله ص؟.

قال: و سمعتها عائشه فقالت: يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا و كذا؟ كذبت و الله ما فيه نزلت. نزلت في فلان بن فلان.

و فيه، أخرج ابن جرير عن ابن عباس " * : في الذي قال لوالديه أف لكما الآيه، قال:

هذا ابن لأبي بكر:

أقول: و روى ذلك أيضا عن قتاده و السدي، و قصه روايه مروان و تكذيب عائشه له مشهوره. قال في روح المعاني بعد رد روايه مروان: و وافق بعضهم كالسهيلي في الأعلام مروان في زعم نزولها في عبد الرحمن، و على تسليم ذلك لا معنى للتعبير لا سيما من مروان فإن الرجل أسلم و كان من أفاضل الصحابه و أبطالهم، و كان له في الإسلام عناء يوم اليمامة و غيره، و الإسلام يجب ما قبله فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يعير بما كان يقول. انتهى.

و فيه أن الروايات لو صحت لم يكن مناص عن صريح شهاده الآيه عليه بقوله:

« أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ - إلى قوله - إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ » و لم ينفع شيء مما دافع عنه به.

و في تفسير القمي، في قوله تعالى: « وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا - إلى قوله - وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » قال: أكلتم و شربتم و ركبتهم، و هي في بني فلان « فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » قال: العطش.

و في المحاسن، بإسناده عن ابن القداح عن أبي عبد الله (ع) عن آباءه (ع)

قال*: أتى يعنى النبى ص بخبيص (١) فأبى أن يأكله-ف قيل: أ تحرمه؟ فقال: لا- و لكنى أكره أن تتوق إليه نفسى-ثم تلا الآية»
أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا».

و فى المجمع، فى الآية و قد روى فى الحديث أن عمر بن الخطاب قال*: استأذنت على رسول الله ص-فدخلت عليه فى مشربه أم إبراهيم-و إنه لمضطجع على حفصه و إن بعضه على التراب-و تحت رأسه وساده محشوه ليفا-فسلمت عليه ثم جلست فقلت: يا رسول الله-أنت نبى الله و صفوته و خيرته من خلقه-و كسرى و قيصر على سرير الذهب و فرش الحرير و الديباج! فقال رسول الله ص: أولئك قوم عجلت طيباتهم-و هى وشيكه الانقطاع، و إنما أخرت لنا طيباتنا:.

أقول: و رواه فى الدر المنثور، بطرق عنه .

[سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢١ الى ٢٨]

إشارة

وَ اذْكُرْ اٰخَا عَادٍ اِذْ اَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْاَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ اَلَّا تَعْبُدُوْا اِلَّا اللّٰهَ اِنِّىْ اَخَافُ عَلَیْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ (٢١) قَالُوْا اَجِئْتَنَا لِتَاْفِكُنَا عَنْ اِلٰهِنَا فَاْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ (٢٢) قَالَ اِنَّمَا اَلْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ اُبَلِّغُكُمْ مَا اُرْسِلْتُۢ بِهِ وَ لِكِنِّىْ اَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُوْنَ (٢٣) فَلَمَّا رَاُوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ اُوْدِيَّتِهِمْ قَالُوْا هٰذَا عَارِضٌ مُّمَطَّرٌۢ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيْحٌ فِیْهَا عَذَابٌ اَلِيْمٌ (٢٤) تَدْمُرُ كُلَّ شَیْءٍ بِاَمْرِ رَبِّهَا فَاَصْبَحُوْا لَا یُرِىْۤ اِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِیْنَ (٢٥) وَ لَقَدْ مَكَّنَّاھُمْ فِیْمَا اِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِیْهِ وَ جَعَلْنَا لَھُمْ سَمْعًا وَ اَبْصَارًا وَ اَفْئِدَةً فَمَا اَغْنٰی عَنْھُمْ سَمْعُھُمْ وَ لَا اَبْصَارُھُمْ وَ لَا اَفْئِدَتُھُمْ مِنْ شَیْءٍ اِذْ كَانُوْا یَجْحَدُوْنَ بِآیٰتِ اللّٰهِ وَ حَاقَ بِھُمْ مَا كَانُوْا بِھِ سَمِیْتِھِزُوْنَ (٢٦) وَ لَقَدْ اَھْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْیٰ وَ صِرَفْنَا اَلْآیٰتِ لَعَلَّھُمْ یَرْجِعُوْنَ (٢٧) فَلَوْ لَا نَصْرُھُمْ اَلَّذِیْنَ اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ قُرْبٰنًا اَلٰھُمَّ بَلِّ صَلُّوْا عَنْھُمْ وَ ذَلِكِ اِنْكُھُمْ وَ مَا كَانُوْا یَفْتَرُوْنَ (٢٨)

ص: ٢٠٩

لما قسم الناس على قسمين و انتهى الكلام إلى الإنذار عقب ذلك بالإشارة إلى قصتين قصه قوم عاد و هلاكهم و معها الإشارة إلى هلاك القرى التي حول مكة و قصه إيمان قوم من الجن صرفهم الله إلى النسي ص فاستمعوا القرآن فآمنوا و رجعوا إلى قومهم منذرين و إنما أورد القصتين ليعتبر بهما من شاء أن يعتبر منهم، و هذه الآيات المنقولة تتضمن أولى القصتين.

قوله تعالى: «وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ» إلخ، أخو القوم هو المنسوب إليهم من جهة الأب، و المراد بأخي عاد هود النبي (ع)، و الأحقاف مسكن قوم عاد و المتيقن أنه في جنوب جزيره العرب و لا أثر اليوم باقيا منهم، و اختلفوا أين هو؟ فقيل: واد بين عمان و مهرة، و قيل رمال بين عمان إلى حضرموت، و قيل: رمال مشرفه على البحر بالشحر من أرض اليمن و قيل غير ذلك.

تجهلون فلا تميزون ما ينفعكم مما يضركم و خيركم من شركم حين تردون دعوه الله و تكذبون بآياته و تستهزون بما يوعدكم به من العذاب.

قوله تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا» إلخ، صفة نزول العذاب إليهم بادئ ظهوره عليهم.

و العارض هو السحاب يعرض فى الأفق ثم يطبق السماء و هو صفة العذاب الذى يرجع إليه ضمير «رَأَوْهُ» المعلوم من السياق، و قوله: «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ» صفة أخرى له، و الأودية جمع الوادى، و قوله: «قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا» أى استبشروا ظنا منهم أنه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا: هذا الذى نشاهده سحاب عارض ممطر إيانا.

و قوله: «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» رد لقولهم: «هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا» بالإضراب عنه إلى بيان الحقيقة بين أولاً على طريق التهكم أنه العذاب الذى استعجلتم به حين قلتهم: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ» و زاد فى البيان ثانيا بقوله: «رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

و الكلام من كلامه تعالى و قيل: هو كلام لهود النبى (ع).

قوله تعالى: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» التدمير الإهلاك، و تعلقه بكل شىء و إن كان يفيد عموم التدمير لكن السياق يخصه بنحو الإنسان و الدواب و الأموال، فالمعنى: أن تلك الريح ريح تهلك كل ما مرت عليه من إنسان و دواب و أموال.

و قوله: «فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ» بيان لنتيجة نزول العذاب، و قوله:

«كَذٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» إعطاء ضابط كلّى فى مجازاه المجرمين بتشبيه الكلى بالفرد الممثل به و التشبيه فى الشده أى إن سنتنا فى جزاء المجرمين على هذا النحو الذى قصصناه من الشده فهو كقوله تعالى: «وَ كَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» هود: ١٠٢.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ» إلخ، موعظه لكفار مكة مستنتجه من القصة.

و التمكين إقرار الشيء و إثباته في المكان، و هو كناية عن إعطاء القدره و الاستطاعه في التصرف و «ما» في «فيما» موصوله أو موصوفه و «إِنْ» نافية، و المعنى: و لقد جعلنا قوم هود في الذى-أو في شىء- ما مكناكم معشر كفار مكه و من يتلوكم فيه من بسطه الأجسام و قوه الأبدان و البطش الشديد و القدره القوميه.

و قوله: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً» أى جهزناهم بما يدركون به ما ينفعهم و ما يضرهم و هو السمع و الأبصار و ما يميزون به ما ينفعهم مما يضرهم فيحتالون لجلب النفع و لدفع الضر بما قدروا كما أن لكم ذلك.

و قوله: «فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» ما في «فَمَا أَغْنَىٰ» نافية لا استفهاميه، و «إِذْ» ظرف متعلق بالنفى الذى فى قوله: «فَمَا أَغْنَىٰ».

و محصل المعنى: أنهم كانوا من التمكن على ما ليس لكم ذلك و كان لهم من أدوات الإدراك و التمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكاره و الانتقاء من الحوادث المهلكه المبيده لكن لم يغن عنهم و لم ينفعهم هذه المشاعر و الأفئده شيئاً عند ما جحدوا آيات الله فما الذى يؤمنكم من عذاب الله و أنتم جاحدون لآيات الله.

و قيل: معنى الآية: و لقد مكناهم فى الذى أو فى شىء ما مكناكم فيه من القوه و الاستطاعه و جعلنا لهم سمعا و أبصارا و أفئده ليستعملوها فيما خلقت له و يسمعوا كلمه الحق و يشاهدوا آيات التوحيد و يعتبروا بالتفكر فى العبر، و يستدلوا بالتعقل الصحيح على المبدأ و المعاد فما أغنى عنهم سمعهم و لا أبصارهم و لا أفئدتهم من شىء حيث لم يستعملوها فيما يوصل إلى معرفه الله سبحانه، هذا و لعل الذى قدمناه من المعنى أنسب للسياق.

و قد جوزوا فى مفردات الآيه وجوها لم نوردها لعدم جدوى فيها.

و قد تقدم فى نظائر قوله: «سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً» أن أفراد السمع-و المراد منه الجمع-لمكان مصدريته فى الأصل نظير الضيف و القربان و الجنب، قال تعالى:

«ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ» الذاريات: ٢٤ و قال: «إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا»: المائدة: ٢٧، و قال: «وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا»: المائدة: ٦.

وقوله: «وَ لِحَاقِ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ» عطف على قوله: «فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ» إلخ.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ» تذكره إنذارية متفرعة على العظة التي في قوله: «وَلَقَدْ مَكَّنَّا لَهُمْ» إلخ، فهي معطوفة عليه على ما يفيد السياق لا على قوله: «وَأَذْكُرُوا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ».

وقوله: «وَصَيَّرْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أي و صيرنا الآيات المختلفة من معجزه أيدنا بها الأنبياء و وحى أنزلناه عليهم و نعم رزقناهموها ليتذكروا بها و نقم ابتليناهم بها ليتوبوا و ينصرفوا عن ظلمهم لعلهم يرجعون من عباده غير الله سبحانه إلى عبادته.

و الضمير في «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» راجع إلى القرى و المراد بها أهل القرى.

قوله تعالى: «فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً» إلخ، ظاهر السياق أن آلهه مفعول ثان لاتخذوا و مفعوله الأول هو الضمير الراجع إلى الموصول و «قربانا» بمعنى ما يتقرب به، و الكلام مسوق للتهكم، و المعنى: فلو لا نصرهم الذين اتخذوهم آلهه حال كونهم متقربا بهم إلى الله كما كانوا يقولون: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ».

وقوله: «بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ» أي ضل الآلهه عن أهل القرى و انقطعت رابطة الألوهيه و العبوديه التي كانوا يزعمونها و يرجون بذلك أن ينصروهم عند الشدائد و المكاره فالضلال عنهم كناية عن بطلان مزعتهم.

وقوله: «وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمِمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» مبتدأ و خبر و الإشاره إلى ضلال آلهتهم، و المراد بالإفك أثر الإفك أو بتقدير مضاف، و «مَا» مصدرية، و المعنى:

و ذلك الضلال أثر إفكهم و افتراءهم.

و يمكن أن يكون الكلام على صورته من غير تقدير مضاف أو تجوز و الإشاره إلى إهلاكهم بعد تصريف الآيات و ضلال آلهتهم عند ذلك، و محصل المعنى: أن هذا الذي ذكرناه من عاقبه أمرهم هو حقيقه زعمهم أن الآلهه يشفعون لهم و يقربونهم من الله زعمهم الذي أفكوه و افتروه، و الكلام مسوق للتهكم.

إشارة

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَمِنْ لَّا يُجِبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبَّنَا قَالِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

بيان

هذه هي القصة الثانية عقببت بها قصه عاد ليعتبر بها قومه (ص) أن اعتبروا،

و فيه تقرير للقوم حيث كفروا به (ص) و بكتابه النازل على لغتهم و هم يعلمون أنها آيه معجزه و هم مع ذلك يماثلونه فى النوعيه البشريه و قد آمن الجن بالقرآن إذ استمعوا إليه و رجعوا إلى قومهم منذرين.

قوله تعالى: «وَ إِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» إلى آخر الآيه الصرف رد الشىء من حاله إلى حاله أو من مكان إلى مكان، و النفر -على ما ذكره الراغب- عده من الرجال يمكنهم النفر و هو اسم جمع يطلق على ما فوق الثلاثه من الرجال و النساء و الإنسان و على الجن كما فى الآيه و «يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» صفة نفر، و المعنى:

و اذكر إذ وجهنا إليك عده من الجن يستمعون القرآن.

و قوله: «فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَبْ لَنَا» ضمير «حَضَرُوهُ» للقرآن بما يلح إليه من المعنى الحدتى و الإنصات السكوت للاستماع أى فلما حضروا قراءه القرآن و تلاوته قالوا أى بعضهم لبعض: اسكتوا حتى نستمع حق الاستماع.

و قوله: «فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ» ضمير «قُضِيَ» للقرآن باعتبار قراءته و تلاوته، و التولية الانصراف و «مُنْذِرِينَ» حال من ضمير الجمع فى «وَلَوْ» أى فلما أتمت القراءه و فرغ منها انصرفوا إلى قومهم حال كونهم منذرين مخوفين لهم من عذاب الله.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» إلخ، حكاية دعوتهم قومهم و إنذارهم لهم، و المراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن، و فى الكلام إشعار بل دلالة على كونهم مؤمنين بموسى (ع) و كتابه، و المراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراه أو جميع الكتب السماويه السابقه.

و قوله: «يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ» أى يهدى من اتبعه إلى صراط الحق و إلى طريق مستقيم لا- يضل سالكوه عن الحق فى الاعتقاد و العمل.

قوله تعالى: «يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَعَى اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يَجْزِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» المراد بداعى الله هو النبى ص قال تعالى: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ»: يوسف: ١٠٨، و قيل: المراد به ما سمعوه من القرآن و هو بعيد.

و الظاهر أن « مِنْ » في « يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » للتبعيض، والمراد مغفره بعض الذنوب و هي التي اكتسبها قبل الإيمان، قال تعالى: «إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ»: الأنفال: ٣٨.

و قيل: المراد بهذا البعض حقوق الله سبحانه فإنها مغفوره بالتوبه و الإيمان توبه و أما حقوق الناس فإنها غير مغفوره بالتوبه، و رد بأن الإسلام يجب ما قبله.

قوله تعالى: « وَ مَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءُ يُنصرونه و يمدونه في ذلك، و المحصل: أن من لم يجب داعي الله في الأرض برده دعوته و ليس له من دون الله أولياء ينصرونه و يمدونه في ذلك، و المحصل: أن من لم يجب داعي الله في دعوته فإنما ظلم نفسه و ليس له أن يعجز الله بذلك لا مستقلا و لا بنصره من الأولياء فليس له أولياء من دون الله، و لذلك أتم الكلام بقوله: « أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ».

قوله تعالى: « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَعْنَىٰ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ » الخ، الآية و ما بعدها إلى آخر السوره متصله بما تقدم من قوله تعالى: « وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ » الخ، و فيها تتميم القول فيما به الإنذار في هذه السوره و هو المعاد و الرجوع إلى الله تعالى كما أشرنا إليه في البيان المتقدم.

و المراد بالرؤيه العلم عن بصيره، و العى العجز و التعب، و الأول أفصح على ما قيل، و الباء في « بِقَادِرٍ » زائده لوقوعها موقعا فيه شائبه حيز النفي كأنه قيل: أليس الله بقادر.

و المعنى: أ و لم يعلموا أن الله الذي خلق السماوات و الأرض و لم يعجز عن خلقهن أو لم يتعب بخلقهن قادر على إحياء الموتى - و هو تعالى مبدئ وجود كل شىء و حياته - بلى هو قادر لأنه على كل شىء قدير، و قد أوضحنا هذه الحجج فيما تقدم غير مره.

قوله تعالى: « وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ » إلى آخر الآية، تأييد للحجه المذكوره في الآية السابقيه بالإخبار عما سيجرى على منكرى المعاد يوم القيامه، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» إلى آخر الآيه، تفرّيع على حقيقه المعاد على ما دلت عليه الحجة العقلية و أخبر به الله سبحانه و نفى الريب عنه.

و المعنى: فاصبر على جحود هؤلاء الكفار و عدم إيمانهم بذاك اليوم كما صبر أولوا العزم من الرسل و لا تستعجل لهم بالعذاب فإنهم سيلاقون اليوم بما فيه من العذاب و ليس اليوم عنهم ببعيد و إن استبعدوه.

و قوله: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ» تبيين لقرب اليوم منهم و من حياتهم الدنيا بالإخبار عن حالهم حينما يشاهدون ذلك اليوم فإنهم إذا رأوا ما يوعدون من اليوم و ما هيئ لهم فيه من العذاب كان حالهم حال من لم يلبث فى الأرض إلا ساعه من نهار.

و قوله: «بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ» أى هذا القرآن بما فيه من البيان تبليغ من الله من طريق النبوه فهل يهلك بهذا الذى بلغه الله من الإهلاك إلا القوم الفاسقون الخارجون عن زى العبوديه.

و قد أمر الله سبحانه فى هذه الآيه نبيه ص أن يصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل و فيه تلويح إلى أنه (ص) منهم فليصبر كصبرهم، و معنى العزم هاهنا أما الصبر كما قال بعضهم لقوله تعالى: «وَلَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»: الشورى:

٤٣، و إما العزم على الوفاء بالميثاق المأخوذ من الأنبياء كما يلوح إليه قوله: «وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَى وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا»: طه: ١١٥، و إما العزم بمعنى العزيمه و هى الحكم و الشريعه.

و على المعنى الثالث و هو الحق الذى تذكره روايات أئمه أهل البيت (ع) هم خمسه: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد صلى الله عليه و آله و سلم و عليهم و لقوله تعالى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى»: الشورى: ١٣، و قد مر تقريب معنى الآيه.

و عن بعض المفسرين أن جميع الرسل أولوا العزم، و قد أخذ «مِنَ الرُّسُلِ»

بيانا لأولى العزم في قوله: «أولوا العزم من الرُّسُلِ» و عن بعضهم أنهم الرسل الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام (الآية ٨٣-٩٠) لأنه تعالى قال بعد ذكرهم:

«فَبِهْدَاهُمُ اقْتَدِهْ».

و فيه أنه تعالى قال بعد عددهم: «وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ» ثم قال:

«فَبِهْدَاهُمُ اقْتَدِهْ» و لم يقل ذلك بعد عددهم بلا فصل.

و عن بعضهم أنهم تسعة: نوح و إبراهيم و الذبيح و يعقوب و يوسف و أيوب و موسى و داود و عيسى، و عن بعضهم أنهم سبعة: آدم و نوح و إبراهيم و موسى و داود و سليمان و عيسى، و عن بعضهم أنهم ستة و هم الذين أمروا بالقتال: نوح و هود و صالح و موسى و داود و سليمان، و ذكر بعضهم أن الستة هم نوح و إبراهيم و إسحاق و يعقوب و يوسف و أيوب، و عن بعضهم أنهم خمسة و هم: نوح و هود و إبراهيم و شعيب و موسى، و عن بعضهم أنهم أربعة: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى، و ذكر بعضهم أن الأربعة هم نوح و إبراهيم و هود و محمد صلى الله عليه و آله و سلم و عليهم أجمعين.

و هذه الأقوال بين ما لم يستدل عليه بشيء أصلا و بين ما استدل عليه بما لا دلالة فيه، و لذا أغمضنا عن نقلها، و قد تقدم في أبحاث النبوه في الجزء الثاني من الكتاب بعض الكلام في أولى العزم من الرسل فراجع إن شئت.

بحث روائى

في تفسير القمى،: في قوله تعالى: «وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ» الآيات، كان سبب نزول هذه الآيات أن رسول الله ص -خرج من مكة إلى سوق عكاظ، و معه زيد بن حارثة يدعو الناس إلى الإسلام فلم يجبه أحد و لم يجد أحدا يقبله ثم رجع إلى مكة.

فلما بلغ موضعا يقال له: وادى مجنه (١) تهجد بالقرآن في جوف الليل فمر به

ص: ٢١٩

نفر من الجن-فلما سمعوا قراءه رسول الله ص استمعوا له-فلما سمعوا قرآنه قال بعضهم لبعض: «أَنْصِتُوا» يعنى اسكتوا «فَلَمَّا قُضِيَ
«أى فرغ رسول الله ص من القرآن- « وَلَوْ إِلاَّ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا » إلى آخر الآيات.

فجاءوا إلى رسول الله ص و أسلموا و آمنوا-و علمهم رسول الله ص شرائع الإسلام-فأنزل الله عز و جل على نبيه ص «قُلْ أُوْحَى
إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ» السوره كلها،فحكى الله قولهم-و ولى عليهم رسول الله ص منهم،و كانوا يعودون إلى رسول الله
ص فى كل وقت-فأمر رسول الله ص أمير المؤمنين(ع) أن يعلمهم و يفقههم-فمنهم مؤمنون و كافرون و ناصبون-و يهود و
نصارى و مجوس، و هم ولد الجنان.

أقول:و الروايات فى قصه هؤلاء نفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن كثيره مختلفه اختلافا شديدا،و لا سبيل إلى تصحيح
متونها بالكتاب أو بقرائن موثوق بها و لذا اكتفينا منها على ما تقدم من خبر القمى و سيأتى نبذ منها فى تفسير سوره الجن إن
شاء الله تعالى.

و فيه: سئل العالم(ع)عن مؤمنى الجن أ يدخلون الجنة؟قال:لا،و لكن لله حظائر بين الجنة و النار-يكون فيها مؤمنوا الجن و
فساق الشيعة.

أقول:و روى مثله فى بعض الروايات الموقوفه من طرق أهل السنه،و روايه القمى مرسله كالمضمرة فإن قبلت فلتحمل على أدنى
مراتب الجنة و عمومات الكتاب تدل على عموم الثواب للمطيعين من الإنس و الجن.

و فى الكافى،ياسناده عن ابن أبى يعفور قال:سمعت أبا عبد الله(ع)يقول:

ساده النبيين و المرسلين خمسه:و هم أولوا العزم من الرسل و عليهم دارت الرحى:نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد صلى
الله عليه و آله و سلم و على جميع الأنبياء.

و فيه،ياسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن أبى جعفر(ع)قال:قال رسول الله ص: إن أول وصى كان على وجه الأرض هبه الله
بن آدم،و ما من نبي مضى إلا و له وصى.

و كان جميع الأنبياء مائه ألف و عشرين ألف نبي: منهم خمسة أولوا العزم:

نوح و إبراهيم و موسى - و عيسى و محمد صلى الله عليه و آله و سلم و عليهم الحديث.

أقول: كون أولى العزم خمسة مما استفاضت عليه الروايات عن أئمة أهل البيت (ع) فهو مروى عن النبي ص و عن الباقر و الصادق و الرضا (ع) بطرق كثيرة.

و عن روضه الواعظين للمفيد: قيل للنبي ص: كم بين الدنيا و الآخرة؟ قال:

غمضه عين قال الله عز و جل: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ» الآية.

ص: ٢٢١

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٢) ذَلِكُمْ بِمَا نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ آيَاتِنَا وَأَصْلَحَ بِهَا قُلُوبَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِإِذَا مِنْكُمْ مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِئَةٌ مِّنْكُمْ فَوَضَعِ السُّيُوفَ فِي خُصْبِهِمْ أَوْزَارَهُمْ كَمَا لَوْ وَضَعَهُمْ آثَارَهُمْ وَوَضَعِ السُّيُوفَ فِي خُصْبِهِمْ أَوْزَارَهُمْ كَمَا لَوْ وَضَعَهُمْ آثَارَهُمْ وَوَضَعِ السُّيُوفَ فِي خُصْبِهِمْ أَوْزَارَهُمْ كَمَا لَوْ وَضَعَهُمْ آثَارَهُمْ (٤) وَيُدْخِلُهُمْ الْجَهَنَّمَ عَرَفَةً لَّهُمْ (٥) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٦)

بيان

تصف السوره الذين كفروا بما يخصهم من الأوصاف الخبيثه و الأعمال السيئه و تصف الذين آمنوا بصفاتهم الطيبه و أعمالهم الحسنه ثم تذكر ما يعقب صفات هؤلاء

من النعمه و الكرامه و صفات أولئك من النقمه و الهوان و على الجملة فيها المقايسه بين الفريقين فى صفاتهم و أعمالهم فى الدنيا و ما يترتب عليها فى الأخرى، و فيها بعض ما يتعلق بالقتال من الأحكام.

و هى سوره مدنيه على ما يشهد به سياق آياتها.

قوله تعالى: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَاءَهُمْ» فسر الصد بالإعراض عن سبيل الله و هو الإسلام كما عن بعضهم، و فسر بالمنع و هو منعهم الناس أن يؤمنوا بما كان النبى ص يدعوهم إليه من دين التوحيد كما عن بعض آخر.

و ثانى التفسيرين أوفق لسياق الآيات التالیه و خاصه ما يأمر المؤمنین بقتلهم و أسرهم و غيرهم.

فالمراد بالذین كفروا كفار مكه و من تبعهم فى كفرهم و قد كانوا يمنعون الناس عن الإیمان بالنبى ص و يفتنونهم، و صدوهم أيضا عن المسجد الحرام.

و قوله: «أَضَلَّ أَعْمَاءَهُمْ» أى جعل أعمالهم ضاله لا تهتدى إلى مقاصدها التى قصدت بها و هى بالجملة إبطال الحق و إحياء الباطل فالجملة فى معنى ما تكرر منه تعالى من قوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» البقره: ٢٦٤، و قد وعد سبحانه بإحياء الحق و إبطال الباطل كما فى قوله: «لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ»: الأنفال: ٨.

فالمراد من ضلال أعمالهم بطلانها و فسادها دون الوصول إلى الغايه، و عد ذلك ضلالا من الاستعاره بالكنايه.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ» إلخ، ظاهر إطلاق صدر الآيه أن المراد بالذین آمنوا إلخ، مطلق من آمن و عمل صالحا فيكون قوله: «و آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ» تقييدا احترازيا لا تأكيدا و ذكرا لما تعلق به العناية فى الإیمان.

و قوله: «وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» جملة معترضه و الضمير راجع إلى ما نزل.

و قوله: «كَفَرَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ» قال فى المجمع: البال الحال و الشأن و البال القلب أيضا يقال: خطر ببالي كذا، و البال لا يجمع لأنه أبهم أخواته من الحال و الشأن انتهى.

وقد قوبل إضلال الأعمال فى الآيه السابقه بتكفير السيئات و إصلاح البال فى هذه الآيه فمعنى ذلك هدايه إيمانهم و عملهم الصالح إلى غايه السعاده، و إنما يتم ذلك بتكفير السيئات المانع من الوصول إلى السعاده، و لذلك ضم تكفير السيئات إلى إصلاح البال.

و المعنى: ضرب الله الستر على سيئاتهم بالعفو و المغفره، و أصلح حالهم فى الدنيا و الآخره أما الدنيا فلأن الدين الحق هو الدين الذى يوافق ما تقتضيه الفطره الإنسانيه التى فطر الله الناس عليها، و الفطره لا تقتضى إلا ما فيه سعادتها و كمالها فى الإيمان بما أنزل الله من دين الفطره و العمل به صلاح حال المؤمنين فى مجتمعهم الدنيوى، و أما فى الآخره فلأنها عاقبه الحياه الدنيا و إذ كانت فاتحتها سعيده كانت خاتمتها كذلك قال تعالى: «وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى» طه: ١٣٢.

قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ» الخ، تعليل لما فى الآيتين السابقتين من إضلال أعمال الكفار و إصلاح حال المؤمنين مع تكفير سيئاتهم.

و فى تقييد الحق بقوله: «مِنْ رَبِّهِمْ» إشاره إلى أن المنتسب إليه تعالى هو الحق و لا- نسبه للباطل إليه و لذلك تولى سبحانه إصلاح بال المؤمنين لما ينتسب إليه طريق الحق الذى اتبعوه، و أما الكفار بأعمالهم فلا شأن له تعالى فيهم و أما انتساب ضلالهم إليه فى قوله: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» فمعنى إضلال أعمالهم عدم هدايته لها إلى غايات صالحه سعيده.

و فى الآيه إشاره إلى أن الملاك كل الملاك فى سعاده الإنسان و شقائه اتباع الحق و اتباع الباطل و السبب فى ذلك انتساب الحق إليه تعالى دون الباطل.

و قوله: «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ» أى يبين لهم أوصافهم على ما هى عليه، و فى الإتيان باسم الإشاره الموضوعه للبعيد تفخيم لأمر ما ضربه من المثل.

قوله تعالى: «فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ» إلى آخر الآيه، تفريع على ما تقدم فى الآيات الثلاث من وصف الفريقين كأنه قيل: إذا كان المؤمنون أهل الحق و الله ينعم عليهم بما ينعم و الكفار أهل الباطل و الله يضل أعمالهم فعلى المؤمنين إذا لقوا

الكفار أن يقتلوههم و يأسروهم ليحيا الحق الذى عليه المؤمنون و تطهر الأرض من الباطل الذى عليه الكفار.

فقوله: « فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ » المراد باللقاء اللقاء فى القتال و ضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فيه، و التقدير: فاضربوا الرقاب - أى رقابهم - ضربا و ضرب الرقبه كناية عن القتل بالسيف، لأن أيسر القتل و أسرع ضرب الرقبه به.

و قوله: « حَتَّى إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ » فى المجمع: الإثخان إكثار القتل و غلبه العدو و قهرهم و منه أثخنه المرض اشتد عليه و أثخنه الجراح. انتهى. و فى المفردات: وثقت به أثق ثقه سكنت إليه و اعتمدت عليه، و أوثقته شددته، و الوثاق - بفتح الواو - و الوثاق - بكسر الواو - اسمان لما يوثق به الشىء. انتهى. و « حَتَّى » غايه لضرب الرقاب، و المعنى: فاقتلوههم حتى إذا أكثرتم القتل فيهم فأسروهم بشد الوثاق و إحكامه فالمراد بشد الوثاق الأسر فالآيه فى ترتب الأسر فيها على الإثخان فى معنى قوله تعالى: « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ »: الأنفال: ٦٧.

و قوله: « فَإِمَّا مَنًّا بَعِيدٌ وَإِمَّا فِدَاءً » أى فأسروهم و يتفرع عليه أنكم إما تمنون عليهم منا بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقونهم و إما تفدونهم فداء بالمال أو بمن لكم عندهم من الأسارى.

و قوله: « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أوزار الحرب أثقالها و هى الأسلحة التى يحملها المحاربون و المراد به وضع المقاتلين و أهل الحرب أسلحتهم كناية عن انقضاء القتال.

و قد تبين بما تقدم من المعنى ما فى قول بعضهم إن هذه الآيه ناسخه لقوله تعالى:

« مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ »: الأنفال: ٦٧، لأن هذه السوره متأخره نزولا عن سوره الأنفال فتكون ناسخه لها.

و ذلك لعدم التدافع بين الآيتين فأيه الأنفال تنهى عن الأسر قبل الإثخان و الآيه المبحوث عنها تأمر بالأسر بعد الإثخان.

و كذا ما قيل: إن قوله: « فَشُدُّوا الْوُثَاقَ » إلخ، منسوخ بآيه السيف « فَأَقْتُلُوا

المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» :التوبة: ٥، وكأنه مبنى على كون العام الوارد بعد الخاص ناسخاً له لا مخصصاً به و الحق خلافه و تمام البحث فى الأصول، و فى الآيه أيضاً مباحث فقهيته محلها علم الفقه.

و قوله: «ذَلِكَ» أى الأمر ذلك أى إن حكم الله هو ما ذكر فى الآيه.

و قوله: «وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْتَصِرَ مِنْهُمْ» الضمير للكفار أى و لو شاء الله الانتقام منهم لانتقم منهم بإهلاكهم و تعذيبهم من غير أن يأمرهم بقتالهم.

و قوله: «وَلَكِنْ لِيُنْزِلُوا بَعْضَ كُفْرِكُمْ بَبَعْضٍ» استدراك من مشيه الانتصار أى و لكن لم ينتصر منهم بل أمرهم بقتالهم ليمتحن بعضكم ببعض فيمتحن المؤمنون بالكفار يأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعون من العاصين و يمتحن الكفار بالمؤمنين فيتميز أهل الشقاء منهم ممن يوفق للتوبة من الباطل و الرجوع إلى الحق.

و قد ظهر بذلك أن قوله: «لِيُنْزِلُوا بَعْضَ كُفْرِكُمْ بَبَعْضٍ» تعليل للحكم المذكور فى الآيه و الخطاب فى «بَعْضَ كُفْرِكُمْ» لمجموع المؤمنين و الكفار و وجه الخطاب إلى المؤمنين.

و قوله: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ» الكلام مسوق سوق الشرط و الحكم عام أى و من قتل فى سبيل الله و هو الجهاد و القتال مع أعداء الدين فلن يبطل أعمالهم الصالحة التى أتوا بها فى سبيل الله.

و قيل: المراد بقوله: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» شهداء يوم أحد، و فيه أنه تخصيص من غير مخصص و السياق سياق العموم.

قوله تعالى: «سَيَهْدِيهِمْ وَيُضِلُّ لِحَالِهِمْ بِالْهَمِّ» الضمير للذين قتلوا فى سبيل الله فالآيه و ما يتلوها لبيان حالهم بعد الشهادة أى سيهدى بهم الله إلى منازل السعادة و الكرامة و يصلح حالهم بالمغفرة و العفو عن سيئاتهم فيصلحون لدخول الجنة.

و إذا انضمت هذه الآيه إلى قوله تعالى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» :آل عمران: ١٦٩، ظهر أن المراد بإصلاح بهم إحيائهم حياهم يصلحون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء.

و قال فى المجمع، و الوجه فى تكرير قوله: «بِالْهَمِّ» أن المراد بالأول أنه أصلح بهم فى الدين و الدنيا، و بالثانى أنه يصلح حالهم فى نعيم العقبي فالأول سبب النعيم و الثانى نفس النعيم. انتهى. و الفرق بين ما ذكره من المعنى و ما قدمناه أن قوله

تعالى: « وَ يُصَلِّحْ بِاللَّهُمْ » على ما ذكرنا كالعطف التفسيري لقوله: « سَيَهْدِيهِمْ » دون ما ذكره، وقوله الآتي: « وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ » على ما ذكره كالعطف التفسيري لقوله:

« وَ يُصَلِّحْ بِاللَّهُمْ » دون ما ذكرناه.

قوله تعالى: « وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ » غاية هدايته لهم، وقوله: « عَرَفَهَا لَهُمْ » حال من إدخاله إياهم الجنة أى سيدخلهم الجنة و الحال أنه عرفها لهم إما بالبيان الدنيوى من طريق الوحي و النبوه و إما بالبشرى عند القبض أو فى القبر أو فى القيامة أو فى جميع هذه المواقف هذا ما يفيد السياق من المعنى.

بحث روائى

فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن على قال*: سورة محمد آيه فينا و آيه فى بنى أميه.

أقول: و روى القمى فى تفسيره، عن أبيه عن بعض أصحابنا عن أبى عبد الله (ع): مثله .

و فى المجمع: فى قوله: « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ » إلخ،

المروى عن أئمة الهدى (ع): أن الأسارى ضربان: ضرب يؤخذون قبل انقضاء القتال - و الحرب قائمه فهؤلاء يكون الإمام مخيرا بين أن يقتلهم - أو يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف و يتركهم حتى ينزفوا، و لا يجوز المن و لا الفداء.

و الضرب الآخر الذين يؤخذون - بعد أن وضعت الحرب أوزارها و انقضى القتال - فالإمام مخير فيهم بين المن و الفداء - إما بالمال أو بالنفس و بين الاسترقاق و ضرب الرقاب - فإذا أسلموا فى الحالين سقط جميع ذلك - و كان حكمهم حكم المسلمين.

أقول: و روى ما فى معناه فى الكافى عن أبى عبد الله (ع).

و فى الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن ابن جريح*: « فى قوله تعالى: « وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ » قال: نزل فىمن قتل من أصحاب النبى ص يوم أحد.

أقول: قد عرفت أن الآيه عامه، و سياق الاستقبال فى قوله: سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصَلِّحْ بِاللَّهُمْ » إلخ، إنما يلائم العموم و كون الكلام مسوقا لضرب القاعده.

و قد روى أن قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا أَثَخَّتْهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ» ناسخ لقوله:

«مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسِيرٌ» الآية، و أيضا أن قوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» ناسخ لقوله: «فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِذَا مَنَّا بَعْدُ وَإِذَا فِدَاءٌ» و قد عرفت فيما تقدم عدم استقامه النسخ.

[سوره محمد (٤٧): الآيات ٧ الى ١٥]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصِرُوا اللَّهَ فَيُنصِرْكُمْ وَيُخْلِفَ الَّذِينَ آمَنُوا بِكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَالْضَالُّونَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهُمْ (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَلَمْ يَكُنْ كَانَ عَلِيٌّ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَيَّفٍ وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)

ص: ٢٢٨

الآيات جاريه على السياق السابق.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ تحضيض لهم على الجهاد و وعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى فالمراد بنصرهم الله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييدا لدينه و إعلاء لكلمه الحق لا ليستعلوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمه أو ليظهروا نجده و شجاعه.

و المراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضيه لظهورهم و غلبتهم على عدوهم كإلقاء الرعب في قلوب الكفار و إداره الدوائر للمؤمنين عليهم و ربط جاش المؤمنين و تشجيعهم، و على هذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام و تخصيص تثبيت الأقدام، و هو كناية عن التشجيع و تقويه القلوب، لكونه من أظهر أفراد النصر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين لله لقياس حالهم من حالهم.

و التعس هو سقوط الإنسان على وجهه و بقاؤه عليه و يقابله الانتعاش و هو القيام عن السقوط على الوجه فقوله: ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ أى تعسوا تعسا و هو ما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾: التوبه: ٣٠، ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ﴾: عبس:

١٧، و يمكن أن يكون إخبارا عن تعسهم و بطلان أثر مساعيهم على نحو الكنايه فإن الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطا على وجهه.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ المراد بما أنزل الله هو القرآن و الشرائع و الأحكام التى أنزلها الله تعالى على نبيه ص و أمر بإطاعتها و الانقياد لها فكرهوها و استكبروا عن اتباعها.

و الآيه تعليل مضمون الآيه السابقه و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: « أَفَلَمْ يَسْتَبِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا » التدمير الإهلاكي، يقال: دمره الله أى أهلكه، و يقال: دمر الله عليه أى أهلك ما يخصه من نفس و أهل و دار و عقار فدمر عليه أبلغ من دمره كما قيل، و ضمير « أَمْثَالُهَا » للعاقبه أو للعقوبه المدلول عليها بسابق الكلام.

و المراد بالكافرين الكافرون بالنبي ص، و المعنى: و للكافرين بك يا محمد أمثال تلك العاقبه أو العقوبه و إنما أوعدوا بأمثال العاقبه أو العقوبه و لا- يحل بهم إلا- مثل واحد لأنهم فى معرض عقوبات كثيره دنويه و أخرويه و إن كان لا- يحل بهم إلا بعضها، و يمكن أن يراد بالكافرين مطلق الكافرين، و الجملة من باب ضرب القاعده.

قوله تعالى: « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » الإشاره بذلك إلى ما تقدم من نصر المؤمنين و مقت الكافرين و سوء عاقبتهم، و لا يصغى إلى ما قيل: إنه إشاره إلى ثبوت عاقبه أو عقوبه الأمم السالفه لهؤلاء، و كذا ما قيل:

إنه إشاره إلى نصر المؤمنين، و ذلك لأن الآيه متعرضه لحال الطائفتين: المؤمنين و الكفار جميعا.

و المولى كأنه مصدر ميمى أريد به المعنى الوصفى فهو بمعنى الولى و لذلك يطلق على سيد العبد و مالكه لأن له ولايه التصرف فى أمور عبده، و يطلق على الناصر لأنه يلى التصرف فى أمر منصوره بالتقويه و التأييد و الله سبحانه مولى لأنه المالك الذى يلى أمور خلقه فى صراط التكوين و يدبرها كيف يشاء، قال تعالى: « مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ »: الم السجده: ٤، و قال: « وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ » يونس: ٣٠، و هو تعالى مولى لأنه يلى تدبير أمور عباده فى صراط السعاده فيهدىهم إلى سعادتهم و الجنه و يوفقهم للصالحات و ينصرهم على أعدائهم، و المولويه بهذا المعنى الثانيه تختص بالمؤمنين، لأنهم هم الداخلون فى حظيره العبوديه المتبعون لما يريد منهم ربهم دون الكفار.

و للمؤمنين مولى و ولى هو الله سبحانه كما قال: « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا »، و قال: « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا »: البقره: ٢٥٧، و أما الكفار فقد اتخذوا الأصنام أو

أرباب الأصنام أولياء فهم أولياؤهم على ما زعموا كما قال بالبناء على مزعمتهم بنوع من التهكم: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُهُمُ الطَّاغُوتُ» البقره: ٢٥٧، ونفى ولايتهم بالبناء على حقيقه الأمر فقال: «وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ» ثم نفى ولايتهم مطلقا تكويننا و تشريعا مطلقا فقال: «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ» الشورى: ٩، وقال: «إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ» النجم: ٢٣.

فمعنى الآية: أن نصره تعالى للمؤمنين و تثبيته أقدامهم و خذلانه الكفار و إضلاله أعمالهم و عقوبته لهم إنما ذلك بسبب أنه تعالى مولى المؤمنين و وليهم، و أن الكفار لا مولى لهم فينصرهم و يهدى أعمالهم و ينجيهم من عقوبته.

و قد تبين بما تقدم ضعف ما قيل: إن المولى في الآية بمعنى الناصر دون المالك و إلا كان منافيا لقوله تعالى: «وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ» يونس: ٣٠، و وجه الضعف ظاهر.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ» مقايسه بين الفريقين و بيان أثر ولاية الله للمؤمنين و عدم ولايته للكفار من حيث العاقبه و الآخره و هي أن المؤمنين يدخلون الجنة و الكفار يقيمون في النار.

و قد أشير في الكلام إلى منشأ ما ذكر من الأثر حيث وصف كلا من الفريقين بما يناسب مآل حاله فأشار إلى صفة المؤمنين بقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» و إلى صفة الكفار بقوله: «يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ» فأفاد الوصفان بما بينهما من المقابلة أن المؤمنين راشدون في حياتهم الدنيا مصيبون للحق حيث آمنوا بالله و عملوا الأعمال الصالحه فسلكوا سبيل الرشد و قاموا بوظيفه الإنسانيه، و أما الكفار فلا عناية لهم بإصابه الحق و لا تعلق لقلوبهم بوظائف الإنسانيه، و إنما همهم بطنهم و فرجهم يتمتعون في حياتهم الدنيا القصيره و يأكلون كما تأكل الأنعام لا منيه لهم إلا ذلك و لا غايه لهم وراءه.

فهؤلاء أى المؤمنون تحت ولايه الله حيث يسلكون مسلكا يريده منهم ربهم و يهديهم إليه و لذلك يدخلهم في الآخره جنات تجرى من تحتها الأنهار، و أولئك أى الكفار ما لهم من ولى و إنما وكلوا إلى أنفسهم و لذلك كان مشواهم و مقامهم النار.

و إنما نسب دخول المؤمنين الجنات إلى الله نفسه دون إقامه الكفار فى النار قضاء لحق الولاية المذكوره فله تعالى عنايه خاصه بأوليائه، و أما المنسلخون من ولايته فلا يبالى فى أى واد هلكوا.

قوله تعالى: « وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ » المراد بالقريه أهل القريه بدليل قوله بعد: « أَهْلَكَنَاهُمْ » إلخ، و القريه التى أخرجته (ص) هى مكه.

و فى الآيه تقويه لقلب النبى ص و تهديد لأهل مكه و تحقير لأمرهم إن الله أهلك قرى كثيره كل منها أشد قوه من قريتهم و لا ناصر لهم ينصرهم.

قوله تعالى: « أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » السياق الجارى على قياس حال المؤمنين بحال الكفار يدل على أن المراد بمن كان على بينه من ربه هم المؤمنون فالمراد بكونهم على بينه من ربهم كونهم على دلاله بينه من ربهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه و هى الحججه البرهانيه فهم إنما يتبعون الحججه القاطعه على ما هو الحرى بالإنسان الذى من شأنه أن يستعمل العقل و يتبع الحق.

و أما الذين كفروا فقد شغفهم أعمالهم السيئه التى زينها لهم الشيطان و تعلقت بها أهواؤهم و عملوا السيئات، فكم بين الفريقين من فرق.

قوله تعالى: « مَثَلُ الِّجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » إلى آخر الآيه يفرق بين الفريقين ببيان مآل أمرهما و هو فى الحقيقة توضيح ما مر فى قوله: « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا » إلخ من الفرق بينهما فهذه الآيه فى الحقيقة تفصيل تلك الآيه.

فقوله: « مَثَلُ الِّجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » المثل بمعنى الصفه- كما قيل- أى صفه الجنه التى وعد الله المتقين أن يدخلهم فيها، و ربما حمل المثل على معناه المعروف و استفيد منه أن الجنه أرفع و أعلى من أن يحيط بها الوصف و يحدها اللفظ و إنما تقرب إلى الأذهان نوع تقرب بأمثال مضروبه كما يلوح إليه قوله تعالى: « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ »: السجده: ١٧.

و قد بدل قوله فى الآيه السابقه: « الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فى هذه الآيه من قوله: « الْمُتَّقُونَ » تبديل اللزوم فإن تقوى الله يستلزم الإيمان به و عمل

وقوله: «فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ» أى غير متغير بطول المقام، وقوله: «وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ» كما فى ألبان الدنيا، وقوله: «وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» أى لذينه للشاربين، واللذة إما صفة مشبهة مؤنثة وصف للخمر، وإما مصدر وصفت به الخمر مبالغه، وإما بتقدير مضاف أى ذات لذه، وقوله: «وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى» أى خالص من الشمع والرغوه والقذى وسائر ما فى عسل الدنيا من الأذى والعيوب، وقوله: «وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» جمع للتعميم.

وقوله: «وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ» ينمحي بها عنهم كل ذنب وسيئه فلا تتكدر عيشتهم بمكدر ولا ينتغص بمنغص، وفى التعبير عنه تعالى بربهم إشاره إلى غشيان الرحمه وشمول الحنان والرأفة الإلهيه.

وقوله: «كَمْ مِنْ هُوَ خَالِدٌ فِي الدَّارِ» قياس محذوف أحد طرفيه أى أ من يدخل الجنة التى هذا مثلها كمن هو خالد فى النار و شرابهم الماء الشديد الحرارة الذى يقطع أمعاءهم و ما فى جوفهم من الأحشاء إذا سقوه، وإنما يسقونه و هم مكرهون كما فى قوله: «وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ» وقيل: قوله: «كَمْ مِنْ هُوَ خَالِدٌ» إلخ، بيان لقوله فى الآيه السابقه: «كَمْ زَيْنٌ» إلخ، وهو كما ترى.

بحث روائى

فى المجمع: فى قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» قال أبو جعفر (ع):

كرهوا ما أنزل الله فى حق على (ع).

وفيه: فى قوله تعالى: «كَمْ زَيْنٌ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ» قيل: هم المنافقون: وهو المروى عن أبى جعفر (ع).

أقول: ويحتمل أن تكون الروايتان من الجرى.

وفى تفسير القمى: فى قوله تعالى: «كَمْ مِنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ» قال: ليس من هو فى هذه الجنة الموصوفه - كمن هو فى هذه النار كما أن ليس عدو الله كويله.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ
 اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا
 فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاغْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَأِذَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
 يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَأِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ
 (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ
 (٢٣) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ
 لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا
 تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ
 حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَنَّكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ
 سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنَ يَصْرِوْا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢)

الآيات جاريه على السياق السابق، وفيها تعرض لحال الذين فى قلوبهم مرض و المنافقين و من ارتد بعد إيمانه.

قوله تعالى: « وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا » الخ، آنفا اسم فاعل منصوب على الظرفيه أو لكونه مفعولا- فيه، و معناه الساعه التى قبيل ساعتك، و قيل: معناه هذه الساعه و هو على أى حال مأخوذ من الأنف بمعنى الجارحه.

و قوله: « وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » الضمير للذين كفروا، و المراد باستماعهم إلى النبی ص إصغائهم إلى ما يتلوه من القرآن و ما يبين لهم من أصول المعارف و شرائع الدين.

و قوله: « حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ » الضمير للموصول و جمع الضمير باعتبار المعنى كما أن إفراده فى « يَسْتَمِعُ » باعتبار اللفظ.

و قوله: «قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا» المراد بالذين أوتوا العلم العلماء بالله من الصحابه، و الضمير في «مَاذَا قَالَ» للنبي ص.

و الاستفهام في قولهم: «مَاذَا قَالَ آنفًا» قيل: للاستعلام حقيقه لأن استغراقهم في الكبر و الغرور و اتباع الأهواء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحق كما قال تعالى:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾: النساء: ٧٨، و قيل: للاستهزاء، و قيل:

للتحقير كأن القول لكونه مشحونا بالأباطيل لا يرجع إلى معنى محصل، و لكل من المعاني الثلاثة وجه.

و قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» تعريف لهم، و قوله: «وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» تعريف بعد تعريف فهو كعطف التفسير، و يتحصل منه أن اتباع الأهواء أماره الطبع على القلب فالقلب غير المطبوع عليه الباقي على طهاره الفطره الأصلية لا يتوقف في فهم المعارف الدينيه و الحقائق الإلهيه.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ اتَّاهَمُ تَقْوَاهُمْ» المقابله الظاهره بين الآيه و بين الآيه السابقه يعطى أن المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب و هو التسليم لما تهدي إليه الفطره السليمه و اتباع الحق، و زياده هداهم من الله سبحانه رفعه تعالى درجه إيمانهم، و قد تقدم أن الهدى و الإيمان ذو مراتب مختلفه، و المراد بالتقوى ما يقابل اتباع الأهواء و هو الورع عن محارم الله و التجنب عن ارتكاب المعاصي.

و بذلك يظهر أن زياده الهدى راجع إلى تكميلهم في ناحيه العلم و إيتاء التقوى إلى تكميلهم في ناحيه العمل، و يظهر أيضا بالمقابله أن الطبع على القلوب راجع إلى فقدانهم كمال العلم و اتباع الأهواء راجع إلى فقدانهم العمل الصالح و حرمانهم منه و هذا لا ينافى ما قدمنا أن اتباع الأهواء كعطف التفسير بالنسبه إلى الطبع على القلوب.

قوله تعالى: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا» إلخ، النظر هو الانتظار، و الأشرط جمع شرط بمعنى العلامه، و الأصل في معناه الشرط بمعنى ما يتوقف عليه وجود الشيء لأن تحققه علامه تحقق الشيء فأشرط الساعه علاماتها الداله عليها.

و سياق الآيه سياق التهكم كأنهم واقفون موقفا عليهم إما أن يتبعوا الحق فتسعد بذلك عاقبتهم، وإما أن ينتظروا الساعه حتى إذا أيقنوا بوقوعها و أشرفوا عليها تذكروا و آمنوا و اتبعوا الحق أما اتباع الحق اليوم فلم يخضعوا له بحجه أو بموعظه أو عبره، و أما انتظارهم مجيء الساعه ليتذكروا عنده فلا ينفعم شيئا فإنها تجيء بغته و لا تمهلهم شيئا حتى يستعدوا لها بالذكرى و إذا وقعت لم ينفعم الذكرى لأن اليوم يوم جزاء لا- يوم عمل قال تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي» الفجر: ٢٤.

مضافا إلى أن أشراتها و علاماتها قد جاءت و تحققت، و لعل المراد بأشراتها خلق الإنسان و انقسام نوعه إلى صلحاء و مفسدين و متقين و فجار المستدعى للحكم الفصل بينهم و نزول الموت عليهم فإن ذلك كله من شرائط و قوع الواقعة و إتيان الساعه، و قيل: المراد بأشرط الساعه ظهور النبى ص و هو خاتم الأنبياء و انشقاق القمر و نزول القرآن و هو آخر الكتب السماويه.

هذا ما يعطيه التدبر فى الآيه من المعنى و هى- كما ترى- حجه برهانيه فى عين أنها مسوقه سوق التهكم.

و عليه فقوله: «بَغْتَهُ» حال من الإتيان جىء به لبيان الواقع و ليتفرع عليه قوله الآتى: «فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ» و ليس قيذا للانتظار حتى يفيد أنهم إنما ينتظرون إتيانها بغته، و لدفع هذا التوهم قيل: «إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَهُ» و لم يقل: إلا أن تأتيم الساعه بغته.

و قوله: «فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ» أنى خبر مقدم و «ذِكْرَاهُمْ» مبتدأ مؤخر و «إِذَا جَاءَتْهُمْ» معترضه بينهما، و المعنى: فكيف يكون لهم أن يتذكروا إذا جاءتهم؟ أى كيف ينتفعون بالذكرى فى يوم لا ينفع العمل الذى يعمل فيه و إنما هو يوم الجزاء.

و للقوم فى معنى جمل الآيه و معناها بالجملة أقوال مختلفه تركنا إيرادها من أرادها فليراجع كتبهم المفصله.

قوله تعالى: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ» إلخ، قيل: هو متفرع على جميع ما تقدم فى السوره من سعادته المؤمنين و شقاوه الكفار

كأنه قيل: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادته هؤلاء و شقاوته أولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله سبحانه فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم.

ويمكن أن يكون تفريعا على ما بينه في الآيتين السابقتين أعنى قوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ -إلى قوله- وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» من أنه تعالى يطبع على قلوب المشركين و يتركهم و ذنوبهم و يعكس الأمر في الذين اهتدوا إلى توحيده و الإيمان به فكأنه قيل:

إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحدانية الإله و اطلب مغفره ذنبك و مغفره أمتك من المؤمنين بك و المؤمنات حتى لا تكون ممن يطبع الله على قلبه و يحرمه التقوى بتركه و ذنوبه، و يؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمُنْوَاكُمْ».

فقوله: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» معناه على ما يؤيده السياق فاستمسك بعلمك أنه لا إله إلا الله، و قوله: «وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ» تقدم الكلام في معنى الذنب المنسوب إليه (ص) و سيأتي أيضا في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى.

و قوله: «وَاللِّمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» أمر بطلب المغفرة للأمة من المؤمنين و المؤمنات و حاشا أن يأمر تعالى بالاستغفار و لا يواجهه بالمغفرة أو بالدعاء و لا يقابله بالاستجابة.

و قوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمُنْوَاكُمْ» تعليل لما في صدر الآية: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ» إلخ، و الظاهر أن المتقلب مصدر ميمي بمعنى الانتقال من حال إلى حال، و كذلك المثوى بمعنى الاستقرار و السكون، و المراد أنه تعالى يعلم كل أحوالكم من متغير و ثابت و حركه و سكون فاثبتوا على توحيده و اطلبوا مغفرته، و احذروا أن يطبع على قلوبكم و يترككم و أهواءكم.

و قيل: المراد بالمتقلب و المثوى التصرف في الحياه الدنيا و الاستقرار في الآخرة و قيل: المتقلب هو التقلب من الأصلاب إلى الأرحام و المثوى السكون في الأرض.

و قيل: المتقلب التصرف في اليقظه و المثوى المنام، و قيل: المتقلب التصرف في المعاش و المكاسب و المثوى الاستقرار في المنازل، و ما قدمناه أظهر و أعم.

قوله تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا - نَزَّلَتْ سُورَةٌ» إلى آخر الآية، لولا - تحضيضيه أي هلا أنزلت سورة يظهر بها الرغبة في نزول سورة جديدة تأتيهم

بتكاليف جديده يمثلونها، والمراد بالسوره المحكمه المبينه التي لا تشابه فيها، والمراد بذكر القتال الأمر به.

و المراد بالذين فى قلوبهم مرض، الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فإن الآيه صريحه فى أن الذين أظهروا الرغبه فى نزولها هم الذين آمنوا، ولا يعم الذين آمنوا للمنافقين إلا على طريق المساهله غير اللاتقه بكلام الله تعالى فالآيه كقوله تعالى فى فريق من المؤمنين: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً» النساء: ٧٧.

و المغشى عليه من الموت هو المحتضر، يقال: غشيه غشاوه إذا ستره و غطاه و غشى على فلان-بالبناء-للمفعول-إذا نابه ما غشى فهمه، و نظر المغشى عليه من الموت إشخاصه ببصره إليك من غير أن يظرف.

و قوله: «فَأُولَىٰ لَّهُمْ» لعله خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: أولى لهم ذلك أى حرى بهم أن ينظروا كذلك أى أن يحتضروا فيموتوا، و عن الأصمعى أن قولهم:

«أُولَىٰ لَكَ» كلمه تهديد معناه وليك و قارنك ما تكره، و الآيه نظيره قوله تعالى:

«أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ»: القيامة: ٣٥.

و معنى الآيه: و يقول الذين آمنوا هلا- أنزلت سوره فإذا أنزلت سوره محكمه لا- تشابه فيها و أمروا فيها بالقتال و الجهاد رأيت الضعفاء الإيمان منهم ينظرون إليك من شده الخشيه نظر المحتضر فأولى لهم ذلك.

قوله تعالى: «طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» عزم الأمر أى جد و تنجز.

و قوله: «طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ» كأنه خبر لمبتدأ محذوف و التقدير أمرنا- أو أمرهم و شأنهم- أى إيمانهم بنا طاعه و ائقونا عليها و قول معروف غير منكر قالوا لنا و هو إظهار السمع و الطاعه كما يحكيه تعالى عنهم بقوله: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ -إلى أن قال X- وَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا»: البقره: ٢٨٥.

و على هذا يتصل قوله بعده: «فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» بما قبله اتصالا بينا، و المعنى: أن الأمر هو ما و ائقوا الله عليه من قولهم: سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا

فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا و أطاعوه فيما يأمر به و منه أمر القتال لكان خيرا لهم.

و يحتمل أن يكون قوله: «طَاعَهُ» إلخ، خبرا للضمير عائد إلى القتال المذكور و التقدير القتال المذكور في السورة طاعه منهم و قول معروف فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله في إيمانهم و أطاعوه به لكان خيرا لهم. أما كونه طاعه منهم فظاهر، و أما كونه قولاً معروفاً فلأن إيجاب القتال و الأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لإبطال كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل و العقلاء.

و قيل: إن قوله: «طَاعَهُ» إلخ، مبتدأ الخبر و التقدير طاعه و قول معروف خير لهم و أمثل، و قيل: مبتدأ خبره «فَأُولَئِكَ لَهُمْ» في الآية السابقة فالآية من تمام الآية السابقة، و هو قول ردى، و أردأ منه ما قيل: إن «طَاعَهُ» إلخ، صفة لسوره في قوله: «فَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً» و قيل غير ذلك.

قوله تعالى: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ» الخطاب للذين في قلوبهم مرض المتأقلين في أمر الجهاد في سبيل الله، و قد التفت إليهم بالخطاب لزياده التوبيخ و التقريع، و الاستفهام للتقرير، و التولى الإعراض و المراد به الإعراض عن كتاب الله و العمل بما فيه و العود إلى الشرك و رفض الدين.

و المعنى: فهل يتوقع منكم أن أعرضتم عن كتاب الله و العمل بما فيه و منه الجهاد في سبيل الله أن تفسدوا في الأرض و تقطعوا أرحامكم بسفك الدماء و نهب الأموال و هتك الأعراض تكالبا على جيفه الدنيا أى إن توليتم كان المتوقع منكم ذلك.

و قد ظهر بذلك أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة: «لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» و لذا صدر بالفاء.

و قيل: المراد بالتولى التصدى للحكم و الولايه، و المعنى: هل يتوقع منكم إن جعلتم و لاه أن تفسدوا في الأرض و تقطعوا أرحامكم بسفك الدماء الحرام و أخذ الرشاء و الجور في الحكم هذا، و هو معنى بعيد عن السياق.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ» الإشاره إلى المفسدين في الأرض المقطعين للأرحام و قد وصفهم الله بأنه لعنهم فأصمهم و أذهب

بسمعهم فلا- يسمعون القول الحق و أعمى أبصارهم فلا- يرون الرأى الحق فإنها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

قوله تعالى: « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » الاستفهام للتوبيخ و ضمير الجمع راجع إلى المذكورين فى الآية السابقة، و تنكير « قُلُوبٍ » كما قيل للدلالة على أن المراد قلوب هؤلاء و أمثالهم.

قال فى مجمع البيان، و فى هذا دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شىء من ظاهر القرآن إلا بخبر و سمع. انتهى.

قوله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ » الارتداد على الأدبار الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال و هو استعاره أريد بها الترك بعد الأخذ، و التسويل تزيين ما تحرض النفس عليه و تصوير القبيح لها فى صورة الحسن، و المراد بالإملاء الأمداد أو تطويل الآمال.

قوله تعالى: « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ » الإشارة بذلك إلى تسويل الشيطان و إملائه و بالجملة تسلطه عليهم، و المراد بـ « لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ » هم الذين كفروا كما تقدم فى قوله: « وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ »: الآية: ٩ من السوره.

و قوله: « سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ » مقول قولهم و وعد منهم للكفار بالطاعة و هو كما يلوح من تقييد الطاعة ببعض الأمر على نحو الإجمال كلام من لا يقدر على التظاهر بطاعه من يريد طاعته فى جميع الأمور لكونه على خطر من التظاهر بالطاعة المطلقة فيسر إلى من يعده أنه سيطيعه فى بعض الأمر و فيما تيسر له ذلك ثم يكتم ذلك و يقعد متربصا للدوائر.

و يستفاد من ذلك أن هؤلاء كانوا قوما من المنافقين أسروا إلى الكفار ما حكاه تعالى عنهم و وعدهم الطاعة لهم مهما تيسر لهم ذلك، و يؤيد ذلك قوله تعالى بعد:

« وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ».

و اختلفوا فى هؤلاء من هم؟ فقيل: هم اليهود قالوا للمنافقين: إن أعلنتم الكفر

نصرناكم، وقيل: هم اليهود أو اليهود والمنافقون قالوا ذلك للمشركين. ويرد على الوجهين جميعاً أن موضوع الكلام في الآية المرتدون بعد إيمانهم و اليهود لم يؤمنوا حتى يرتدوا.

وقيل: هم المنافقون وعدوا اليهود النصر كما قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ»: الحشر: ١١.

وفيه أن الآية تقبل الانطباق على ذلك كما تقبل الانطباق على اليهود في وعدهم النصر للمشركين على تكلف في صدق الارتداد على كفرهم برسول الله ص بعد تبين رسالته لهم لكن لا دليل من طريق لفظ الآية على ذلك فلعلهم قوم من المنافقين غيرهم.

قوله تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ» متفرع على ما قبله، والمعنى: هذا حالهم اليوم يرتدون بعد تبين الهدى لهم فيفعلون ما يشاءون فكيف حالهم إذا توفتهم الملائكة وهم يضربون وجوههم وأدبارهم.

قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ» الظاهر أن المراد بما أسخط الله أهواء النفس و تسويلات الشيطان المستتبعه للمعاصي و الذنوب الموبقه كما قال تعالى: «وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ»، و قال: «الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ».

و السخط و الرضا من صفاته تعالى الفعلية و المراد بهما العقاب و الثواب.

و الإشارة في قوله: «ذَلِكَ» إلى ما ذكر في الآية السابقه من عذاب الملائكة لهم عند توفيتهم أى سبب عقابهم أن أعمالهم حابطه لاتباعهم ما أسخط الله و كراحتهم رضوانه، و إذ لا عمل لهم صالحا يشقون بالعذاب.

قوله تعالى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ» قال الراغب: الضغن - بكسر الصاد - و الضغن - بضمها - الحقد الشديد و جمعه أضغان انتهى. و المراد بالذين في قلوبهم مرض الضعفاء الإيمان و لعلمهم الذين آمنوا أولاً على ضعف في إيمانهم ثم مالوا إلى النفاق و ارتدوا بعد الإيمان، فالتدبر الدقيق في تاريخ صدر الإسلام يوضح أن قوما ممن آمن بالنبي ص كانوا على هذه الصفة كما أن قوما منهم آخرين كانوا

منافقين من أول يوم آمنوا إلى آخر عمرهم، و على هذا فعدهم من المؤمنين فيما تقدم بملاحظه بادئ أمرهم.

و المعنى: بل ظن هؤلاء المنافقون الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله و لن يظهر أحقادهم للدين و أهله.

قوله تعالى: « وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَيِّمَاتِهِمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ » السيماء العلامة، و المعنى: و لو نشاء لأريناك أولئك المرضى القلوب فلعرفتهم بعلامتهم التى أعلمناهم بها.

و قوله: « وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » قال الراغب: اللحن صرف الكلام عن سننه الجارى عليه: إما بإزاله الإعراب أو التصحيف و هو المذموم، و ذلك أكثر استعمالاً، و أما بإزالته عن التصريح و صرفه إلى تعريض و فحوى، و هو محمود عند أكثر الأدباء من حيث البلاغه. انتهى.

فالمعنى: و لتعرفنهم من جنس قولهم بما يشتمل عليه من الكنايه و التعريض، و فى جعل لحن القول ظرفاً للمعرفه نوع من العناية المجازيه.

و قوله: « وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ » أى يعلم حقائقها و أنها من أى القصود و النيات صدرت فيجازى المؤمنين بصالح أعمالهم و غيرهم بغيرها، ففيه وعد للمؤمنين و وعيد لغيرهم.

قوله تعالى: « وَ لَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَنَّكُمْ أَلْجَبَارُكُمْ » البلاء و الابتلاء الامتحان و الاختبار، و الآيه بيان عله كتابه القتال على المؤمنين، و هو الاختبار الإلهى ليمتاز به المجاهدون فى سبيل الله الصابرون على مشاق التكليف الإلهيه.

و قوله: « وَ نَبْلُوَنَّكُمْ أَلْجَبَارُكُمْ » كان المراد بالأخبار الأعمال من حيث إنها تصدر عن العاملين فيكون إخباراً لهم يخبر بها عنهم، و اختبار الأعمال يمتاز به صالحها من طالحها كما أن اختبار النفوس يمتاز به النفوس الصالحه الخيره و قد تقدم فيما تقدم أن المراد بالعلم الحاصل له تعالى من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلك، و بنظر أدق هو علم فعلى له تعالى خارج عن الذات.

قوله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ

مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيُحِبُّ أَعْمَالَهُمْ

«المراد بهؤلاء رؤساء الضلال من كفار مكة و من يلحق بهم لأنهم الذين صدوا عن سبيل الله و شاقوا الرسول و عادوه أشد المعاداة بعد ما تبين لهم الهدى.

و قوله: «لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا» لأن كيد الإنسان و مكره لا يرجع إلا إلى نفسه و لا يضر إلا إياه و قوله: «و سَيُحِبُّ أَعْمَالَهُمْ» أى مساعيهم لهدم أساس الدين و ما عملوه لإطفاء نور الله، و قيل: المراد إحباط أعمالهم و إبطالها فلا يثابون فى الآخرة على شىء من أعمالهم، و المعنى الأول أنسب للسياق لأن فيه تحريض المؤمنين و تشجيعهم على قتال المشركين و تطيب نفوسهم أنهم هم الغالبون كما تفيد الآيات التالية.

بحث روائى

فى المجمع، فى قوله تعالى: «و مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ» الخ، عن الأصمغ بن نباته عن على (ع) قال: إنا كنا عند رسول الله ص فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا و من يعيه فإذا خرجنا قالوا: ما ذا قال آنفا.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد و البخارى و مسلم و الترمذى عن أنس قال: *قال رسول الله ص: بعثت أنا و الساعة كهاتين، و أشار بالسبابة و الوسطى:.

أقول: و روى هذا اللفظ عنه (ص) بطرق أخرى عن أبى هريره و سهل بن مسعود .

و فيه، أخرج ابن أبى شيبه و البخارى و مسلم و ابن ماجه و ابن مردويه عن أبى هريره قال: *كان رسول الله ص يوماً بارزاً للناس - فأتاه رجل فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل - و لكن سأحدثك عن أشراطها.

إذا ولدت الأُمه ربّتها فذاك من أشراطها، و إذا كانت الحفاه العراه رعاء الشاء رءوس الناس - فذاك من أشراطها، و إذا تناول رعاء الغنم فى البنيان - فذاك من أشراطها.

و فى العلل، بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبى ص فى حديث طويل *يقول فيه لعبد الله بن سلام و قد سأله عن مسائل: أما أشراط الساعة - فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب.

أقول: ولعل المراد به غير ظاهره، والأخبار في أشرطة الساعه من طرق الشيعة و أهل السنه فوق حد الإحصاء، وقد مرت في آخر الجزء الخامس من الكتاب روايه سلمان عن النبي ص و روايه حمران عن الصادق (ع) و هما روايتان جامعتان في الباب.

و في المجمع، قد صح الحديث بالإسناد عن حذيفه بن اليمان قال: كنت رجلاً ذرب اللسان على أهلي - فقلت: يا رسول الله إني لأخشى - أن يدخلني لسانى النار - فقال رسول الله ص: فأين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم مائه مره.

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و ابن أبي شيبه و مسلم و أبو داود و النسائي و ابن حبان و ابن مردويه عن الأغر المزني قال: قال رسول الله ص: إنه ليغان على قلبي، و إني لأستغفر الله كل يوم مائه مره.

و فيه: في قوله تعالى: «فَهَيْلُ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ» الآية: أخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ص: إن الرحم معلقة بالعرش لها لسان ذلق تقول:

اللهم صل من وصلني، و اقطع من قطعني.

أقول: و الروايات فيها و في صلتها و قطعها كثيره، و قد مر شرط منها في تفسير أول سوره النساء.

و في المجمع: في قوله تعالى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ» الآية - أ فلا يتدبرون القرآن فيقضوا ما عليهم من الحق: عن أبي عبد الله و أبي الحسن (ع).

و في التوحيد، بإسناده إلى محمد بن عماره قال: سألت الصادق جعفر بن محمد (ع) فقلت له: يا ابن رسول الله أخبرني عن الله عز و جل - هل له رضى و سخط؟ قال: نعم - و ليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين - و لكن غضب الله عقابه و رضاه ثوابه.

و في المجمع: في قوله تعالى: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» الآية: "، عن أبي سعيد الخدرى قال: "لحن القول بغضهم على بن أبى طالب. قال: كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ص - ببغضهم على بن أبى طالب."

قال في المجمع: و روى مثل ذلك عن جابر بن عبد الله الأنصارى.

و قال: و عن عباده بن الصامت قال: "كنا نبور أولادنا بحب على بن أبى طالب - فإذا رأينا أحدهم لا يحبه علمنا أنه لغير رشده.

و فى الدر المثور، أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: "ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ص- إلا بيغض على بن أبى طالب.

و فى أمالى الطوسى، بإسناده إلى على (ع) أنه قال: قلت أربعا أنزل الله تعالى تصديقى بها فى كتابه، قلت: المرء محبوبه تحت لسانه فإذا تكلم ظهر، فأنزل الله:

« وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ».

[سوره محمد (٤٧): الآيات ٣٣ الى ٣٨]

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَبْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْئَلْكُمْ فَيُخْفِكُمْ تَخَفُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَٰ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعُونَ لِنُفُوقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخُلُ وَ مَنْ يَخُلُ فَإِنَّمَا يَخِلُ عَن نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ (٣٨)

بيان

لما وصف حال الكفار و أضاف إليه وصف حال الذين فى قلوبهم مرض و تناقلهم فى أمر القتال و حال من ارتد منهم بعد، رجوع يحذر المؤمنين أن يكونوا أمثالهم

ص: ٢٤٦

فيفاوضوا المشركين و يميلوا إليهم فيتبعوا ما أسخط الله و يكرهوا رضوانه فيبطل أعمالهم بالحبط، و في الآيات موعظه لهم بالترغيب و الترهيب و التطميع و التخويف، و بذلك تختتم السوره.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» الآية و إن كانت في نفسها مستقلة في مدلولها مطلقه في معناها حتى استدل الفقهاء بقوله فيها: «وَ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» على حرمه إبطال الصلاه بعد الشروع فيها لكنها من حيث وقوعها في سياق الآيات السابقه المتعرضه لأمر القتال، و كذا الآيات اللاحقه الجاربه على السياق و خاصه ما في ظاهر قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» إلخ، من التعليل و ما في قوله: «فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ» إلخ، من التفریع، و بالجمله الآية بالنظر إلى سياقها تدل على إيجاب طاعه الله سبحانه فيما أنزل من الكتاب و شرع من الحكم و إيجاب طاعه الرسول فيما بلغ عن الله سبحانه، و فيما يصدر من الأمر من حيث ولايته على المؤمنين في المجتمع الديني، و على تحذير المؤمنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم كما ابتلى به أولئك الضعفاء الإيمان المائلون إلى النفاق الذين انجر أمر بعضهم أن ارتدوا بعد ما تبين لهم الهدى.

فالمراد بحسب المورد من طاعه الله طاعته فيما شرع و أنزل من حكم القتال، و من طاعه الرسول طاعته فيما بلغ منه و فيما أمر به منه و من مقدماته بما له من الولايه فيه و بإبطال الأعمال التخلف عن حكم القتال كما تخلف المنافقون و أهل الرده.

و قيل: المراد بإبطال الأعمال إحباطها بمنهم على الله و رسوله بإيمانهم كما في قوله تعالى: «يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا»، و قيل: بإبطالها بالرياء و السمعه، و قيل:

بالعجب، و قيل: بالكفر و النفاق، و قيل: المراد بإبطال الصدقات بالمن و الأذى كما قال: «لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذَى» البقره: ٢٦٤، و قيل: بإبطالها بالمعاصي، و قيل: بخصوص الكبائر.

و يرد على هذه الأقوال جميعا أن كل واحد منها على تقدير صحته و تسليمه مصداق من مصاديق الآية مع الغض من وقوعها في السياق الذي تقدمت الإشارة إليه، و أما من حيث وقوعها في السياق فلا تشمل إلا القتال كما مر.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَا تَوَّابُوا وَ هُمْ كَفَّارٌ فَلَنْ

«ظاهر السياق أنه تعليل لمضمون الآيه السابقه فيفيد أنكم لو لم تطيعوا الله ورسوله و أبطلتم أعمالكم باتباع ما أسخط الله و كراهه رضوانه أداكم ذلك إلى اللّٰه بأهل الكفر و الصد و لا مغفره لهم بعد موتهم كذلك أبدا.

و المراد بالصد عن سبيل الله الإعراض عن الإيمان أو منع الناس أن يؤمنوا.

قوله تعالى: «فَلَا تَهْنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَبْرُدَ أَعْمَالُكُمْ» تفرّيع على ما تقدم، و قوله: «فَلَا تَهْنُوا» من الوهن بمعنى الضعف و الفتور، و قوله: «وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ» معطوف على «تَهْنُوا» واقع في حيز النهي أى و لا- تدعوا إلى السلم، و السلم -بفتح السين-الصلح، و قوله: «وَ أَنْتُمْ الْأَعْلُونَ» جملة حاله أى لا تفعلوا ذلك و الحال أنكم الغالبون، و المراد بالعلو الغلبه و هى استعاره مشهوره.

و قوله: «وَ اللَّهُ مَعَكُمْ» معطوف على «وَ أَنْتُمْ الْأَعْلُونَ» يبين سبب علوهم و يعلله فالمراد بمعيتة تعالى لهم معيه النصر دون المعيه القيوميه التى يشير إليها قوله تعالى:

«وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ» :الحديد: ٤.

و قوله: «وَ لَنْ يَبْرُدَ أَعْمَالُكُمْ» قال فى المجمع: يقال: وتره يتره و ترا إذا نقصه و منه الحديث (١) فكأنه وتر أهله و ماله، و أصله القطع و منه التره القطع بالقتل و منه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره. انتهى.

فالمعنى: لن ينقصكم أعمالكم أى يوفى أجرها تاما كاملا، و قيل: المعنى: لن يضيع أعمالكم، و قيل: لن يظلمكم، و المعانى متقاربه.

و معنى الآيه: إذا كانت سبيل عدم طاعه الله و رسوله و إبطال أعمالكم هذه السبيل و كان مؤديا إلى الحرمان من مغفره الله أبدا فلا تضعفوا و لا تفتروا فى أمر القتال و لا تدعوا المشركين إلى الصلح و ترك القتال و الحال أنكم أنتم الغالبون و الله ناصركم عليهم و لن ينقصكم شيئا من أجوركم بل يوفىكموها تامه كامله.

ص: ٢٤٨

(١- ١) و هو ما عن النبى صلى الله عليه و آله: «من فاتته صلاه العصر فكأنما وتر أهله و ماله» عن الجوامع.

و فى الآيه وعد المؤمنین بالغلبه و الظفر إن أطاعوا الله و رسوله فهى كقوله: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْمَأْعْلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» آل عمران: ١٣٩.

قوله تعالى: «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ» ترغيب لهم فى الآخره و تزهد لهم عن الدنيا ببيان حقيقتها و هى أنها لعب و لهو- و قد مر معنى كونها لعبا و لهوا-.

و قوله: «وَ إِنْ تُؤْمِنُوا» إلخ، أى أن تؤمنوا و تتقوا بطاعته و طاعه رسوله يؤتكم أجوركم و لا يسألكم أموالكم بإزاء ما أعطاكم و ظاهر السياق أن المراد بالأموال جميع أموالهم و يؤيده أيضا الآيه التاليه.

قوله تعالى: «إِنْ يَسْئَلْكُمْ مَالَهُمْ فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ» الإحفاء الإجهاد و تحميل المشقه، و المراد بالبخل- كما قيل- الكف عن الإعطاء، و الأضغان الأحقاد.

و المعنى: أن يسألكم جميع أموالكم فيجهدكم بطلب كلها كفتمت عن الإعطاء لحبكم لها و يخرج أحقاد قلوبكم فضللتم.

قوله تعالى: «هَٰ أَ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعُونَ لِنُفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ» إلى آخر الآيه بمنزله الاستشهاد فى بيان الآيه السابقه كأنه قيل: إنه إن يسأل الجميع فيحفكم تبخلوا و يشهد بذلك أنكم أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله- و هو بعض أموالكم- فبعضكم يبخل فيظهر به أنه لو سأل الجميع جميعكم بخلتم.

و قوله: «وَ مَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ» أى يمنع الخير عن نفسه فإن الله لا يسأل ما لهم لينتفع هو به بل لينتفع به المنفقون فيما فيه خير دنياهم و آخرتهم فامتناعهم عن إنفاقه امتناع منهم عن خير أنفسهم، و إليه يشير قوله بعده: «وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ» و القصران للقلب أى الله هو الغنى دونكم و أنتم الفقراء دون الله.

و قوله: «وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» قيل: عطف على قوله: «وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا» و المعنى: إن تؤمنوا و تتقوا يؤتكم أجوركم و إن تتلوا و تعرضوا يستبدل قوما غيركم بأن يوفقهم للإيمان دونكم ثم لا يكونوا أمثالكم بل يؤمنون و يتقون و ينفقون فى سبيل الله.

فى ثواب الأعمال، عن أبى جعفر (ع) قال: قال رسول الله ص: من قال:

سبحان الله غرس الله له بها شجره فى الجنة، و من قال: الحمد لله غرس الله له بها شجره فى الجنة، و من قال: لا إله إلا الله غرس الله له بها شجره فى الجنة، و من قال: الله أكبر غرس الله له بها شجره فى الجنة.

فقال رجل من قريش: يا رسول الله- إن شجرنا فى الجنة لكثير. قال: نعم و لكن إياكم أن ترسلوا عليها نارا فتحرقوها، و ذلك أن الله عز و جل يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ- وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ».

و فى تفسير القمى،: «وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا» قال: هى منسوخه بقوله: «فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ- وَ أَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ».

و فى الدر المثور، أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى فى الأوسط و البيهقى فى الدلائل عن أبى هريره قال*: تلا- رسول الله هذه الآية: «وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ- ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» فقالوا: يا رسول الله- من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا؟ فضرب رسول الله ص على منكب سلمان- ثم قال: هذا و قومه، و الذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا- لتناوله رجال من فارس.

أقول: و روى بطرق أخر عن أبى هريره: مثله. و كذا عن ابن مردويه عن جابر: مثله .

و فى المجمع، و روى أبو بصير عن أبى جعفر (ع) قال: «إِنْ تَوَلَّوْا» يا معشر العرب «يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» يعنى الموالى.

و فيه، عن أبى عبد الله (ع) قال: قد و الله أبدال خيرا منهم الموالى.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَ
يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزْذَبُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ
وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ
كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَ يُعَذِّبُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ
السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا
(٧)

بيان

مضامين آيات السوره بفصولها المختلفه ظاهره الانطباق على قصه صلح الحديبيه الواقعه في السنه السادسه من الهجره و ما وقع
حولها من الوقائع كقصه تخلف الأعراب

و صد المشركين، و بيعه الشجره على ما تفصله الآثار و سيجيء شطر منها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

فغرض السوره بيان ما امتن الله تعالى على رسوله ص بما رزقه من الفتح المبين فى هذه السفره، و على المؤمنين ممن معه، و مدحهم البالغ، و الوعد الجميل للذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات، و السوره مدنيه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ كلام واقع موقع الامتنان، و تأكيد الجملة بان و نسبه الفتح إلى نون العظمه و توصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذى يمتن به.

و المراد بهذا الفتح على ما تؤيده قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيه ص من الفتح فى صلح الحديبيه.

و ذلك أن ما سيأتى فى آيات السوره من الامتنان على النبى ص و المؤمنين، و مدحهم و الرضا عن بيعتهم و وعدهم الجميل فى الدنيا بمغانم عاجله و آجله و فى الآخره بالجنه و ذم المخلفين من الأعراب إذ استنفرهم رسول الله ص فلم يخرجوا معه، و ذم المشركين فى صدحهم النبى ص و من معه، و ذم المنافقين، و تصديقه تعالى رؤيا نبيه ص، و قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ -و كاد يكون صريحا- كل ذلك معان مرتبطه بخروجه (ص) إلى مكه للحج و انتهاء ذلك إلى صلح الحديبيه.

و أما كون هذا الصلح فتحا مبينا رزقه الله نبيه ص فظاهر بالتدبر فى لحن آيات السوره فى هذه القصة فقد كان خروج النبى و المؤمنين إلى هذه البغيه خروجا على خطر عظيم لا يرجى معه رجوعهم إلى المدينه عاده كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَيْنَا أَهْلِيهِمْ أَيَّدًا﴾ و المشركون من صناديد قريش و من يتبعهم على ما لهم من الشوكه و القوه و العداوه مع النبى ص و المؤمنين لم يتوسط بينهم منذ سنين إلا السيف و لم يجمعهم جامع غير معركة القتال كغزوه بدر و أحد و الأحزاب، و لم يخرج مع النبى ص إلا شرذمه قليلون -ألف و أربعمائه- لا قدر لهم عند جموع المشركين و هم فى عقر دارهم.

لكن الله سبحانه قلب الأمر للنبى ص و المؤمنين على المشركين فرضوا بما لم

يكن مطموعا فيه متوقعا منهم فسألوا النبي ص أن يصلحهم على ترك القتال عشر سنين، و على تأمين كل من القبيلين أتباع الآخر و من لحق به، و على أن يرجع النبي ص إلى المدينة عامه هذا ثم يقدم إلى مكة العام القابل فيخلوا له المسجد و الكعبه ثلاثه أيام.

و هذا من أوضح الفتح رزقه الله نبيه ص و كان من أمس الأسباب بفتح مكة سنه ثمان من الهجره فقد آمن جمع كثير من المشركين فى السنين بين الصلح و فتح مكة، و فتح فى أوائل سنه سبع خبير و ما والاه و قوى به المسلمون و اتسع الإسلام اتساعا بينا و كثر جمعهم و انتشر صيتهم و أشغلوا بلادا كثيره، و خرج النبي ص لفتح مكة فى عشره آلاف أو فى اثنى عشر ألفا، و قد كان خرج إلى حديبيه فى ألف و أربعمائنه على ما تفصله الآثار.

و قيل: المراد بالفتح فتح مكة فالمراد بقوله: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ» إنا قضينا لك فتح مكة، و فيه أن القرائن لا تساعده.

و قيل: المراد به فتح خبير، و معناه-على تقدير نزول السوره عند مرجع النبي ص من الحديبيه إلى المدينة-أنا قضينا لك فتح خبير، و حال هذا القول أيضا كسابقه.

و قيل: المراد به الفتح المعنوى و هو الظفر على الأعداء بالحجج البينه و المعجزات الباهره التى غلب بها كلمه الحق على الباطل و ظهر الإسلام على الدين كله، و هذا الوجه و إن كان فى نفسه لا بأس به لكن سياق الآيات لا يلائمه.

قوله تعالى: «لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُنِّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا» اللام فى قوله: «لِيُغْفِرَ» للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ فظاهره أن الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفره ما تقدم من ذنبك و ما تأخر، و من المعلوم أن لا رابطه بين الفتح و بين مغفره الذنب و لا معنى معقولا لتعليله بالمغفره.

و قول بعضهم فرارا عن الإشكال: أن اللام المكسوره فى «لِيُغْفِرَ» لام القسم و الأصل ليغفرن حذف نون التوكيد و بقى ما قبلها مفتوحا للدلاله على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال.

و كذا قول بعض آخر فرارا عن الإشكال: «أن العله هو مجموع المغفره و ما عطف عليه من إتمام النعمه و الهدايه و النصر العزيز من حيث المجموع فلا- ينافى عدم كون البعض أى مغفره الذنب فى نفسه عله للفتح» كلام سخيـف لا- يغنى طائلا- فإن مغفره الذنب لا- هى عله أو جزء عله للفتح و لا- مرتبطه نوع ارتباط بما عطف عليها حتى يوجه دخولها فى ضمن عله فلا مصحح لذكرها وحدها و لا مع العلل و فى ضمنها.

و بالجمله هذا الإشكال نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب فى الآيه هو الذنب المعروف و هو مخالفه التكليف المولوى، و لا المراد بالمغفره معناها المعروف و هو ترك العقاب على المخالفه المذكوره فالذنب فى اللغه على ما يستفاد من موارد استعماله هو العمل الذى له تبعه سيئه كيفما كان، و المغفره هى الستر على الشىء، و أما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظى الذنب و المغفره إلى أذهاننا اليوم أعنى مخالفه الأمر المولوى المستتبع للعقاب و ترك العقاب عليها فإنما لزمهما بحسب عرف المتشرعين.

و قيام النبى ص بالدعوه و نهضته على الكفر و الوثنيه فيما تقدم على الهجره و إدامته ذلك و ما وقع له من الحروب و المغازى مع الكفار و المشركين فيما تأخر عن الهجره كان عملا منه (ص) ذا تبعه سيئه عند الكفار و المشركين و ما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة و مقدره، و ما كانوا ليسوا زهوق ملتهم و انهدام سنتهم و طريقتهم، و لا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه و إمحاء اسمه و إعفاء رسمه غير أن الله سبحانه رزقه (ص) هذا الفتح و هو فتح مكه أو فتح الحديبيه المنتهى إلى فتح مكه فذهب بشوكتهم و أحمد نارهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه (ص) من الذنب و آمنه منهم.

فالمراد بالذنب- و الله أعلم- التبعه السيئه التى لدعوته (ص) عند الكفار و المشركين و هو ذنب لهم عليه كما فى قول موسى لربه: «و لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ»: الشعراء: ١٤، و ما تقدم من ذنبه هو ما كان منه (ص) بمكه قبل الهجره، و ما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجره، و مغفرته تعالى لذنبه هى ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم و هدم بنيتهم، و يؤيد ذلك ما يتلوه من قوله: «وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ - إلى أن قال - وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا».

و للمفسرين فى الآيه مذاهب مختلفه آخر:

فمن ذلك: أن المراد بذنبه (ص) ما صدر عنه من المعصية، والمراد بما تقدم منه.

و ما تأخر ما صدر عنه قبل النبوه و بعدها، وقيل: ما صدر قبل الفتح و ما صدر بعده.

و فيه أنه مبنى على جواز صدور المعصية عن الأنبياء (ع) و هو خلاف ما يقطع به الكتاب و السنه و العقل من عصمتهم (ع) و قد تقدم البحث عنه فى الجزء الثانى من الكتاب و غيره.

على أن إشكال عدم الارتباط بين الفتح و المغفره على حاله.

و من ذلك: أن المراد بمغفره ما تقدم من ذنبه و ما تأخر مغفره ما وقع من معصيته و ما لم يقع بمعنى الوعد بمغفره ما سيقع منه إذا وقع لثلا يرد الإشكال بأن مغفره ما لم يتحقق من المعصيه لا معنى له.

و فيه مضافا إلى ورود ما ورد على سابقه عليه أن مغفره ما سيقع من المعصيه قبل وقوعه تلازم ارتفاع التكليف عنه (ص) عامه، و يدفعه نص كلامه تعالى فى آيات كثيره كقوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ» الزمر: ٢، و قوله: «وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ» الزمر: ١٢، إلى غير ذلك من الآيات التى تأبى بسياقها التخصيص.

على أن من الذنوب و المعاصى مثل الشرك بالله و افتراء الكذب على الله و الاستهزاء بآيات الله و الإفساد فى الأرض و هتك المحارم، و إطلاق مغفره الذنوب يشملها و لا معنى لأن يبعث الله عبدا من عباده فى أمره أن يقيم دينه على ساق و يصلح به الأرض فإذا فتح له و نصره و أظهره على ما يريد يجيز له مخالفه ما أمره و هدم ما بناه و إفساد ما أصلحه بمغفره كل مخالفه و معصيه منه و العفو عن كل ما تقوله و افتراءه على الله، و فعله تبليغ كقوله، و قد قال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» الحاقه: ٤٦.

و من ذلك: قول بعضهم: إن المراد بمغفره ما تقدم من ذنبه مغفره ما تقدم من ذنب أبويه آدم و حواء (ع) ببركته (ص) و المراد بمغفره ما تأخر منه مغفره ذنوب أمته بدعائه.

و فيه ورود ما ورد على ما تقدم عليه.

و من ذلك: أن الكلام فى معنى التقدير و إن كان فى سياق التحقيق و المعنى:

ليغفر لك الله قديم ذنبك و حديثه لو كان لك ذنب.

و فيه أنه أخذ بخلاف الظاهر من غير دليل.

و من ذلك: أن القول خارج مخرج التعظيم و حسن الخطاب و المعنى: غفر الله لك كما فى قوله تعالى: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ» :التوبه: ٤٣.

و فيه أن العاده جرت فى هذا النوع من الخطاب أن يورد بلفظ الدعاء.

كما قيل.

و من ذلك: أن المراد بالذنب فى حقه (ص) ترك الأولى و هو مخالفه الأوامر الإرشادية دون التمرد عن امتثال التكاليف المولويه، و الأنبياء على ما هم عليه من درجات القرب يؤاخذون على ترك ما هو أولى كما يؤاخذ غيرهم على المعاصى المعروفه كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

و من ذلك: ما ارتضاه جمع من أصحابنا من أن المراد بمغفره ما تقدم من ذنبه و ما تأخر مغفره ما تقدم من ذنوب أمته و ما تأخر منها بشفاعته (ص)، و لا ضير فى إضافه ذنوب أمته (ص) إليه للاتصال و السبب بينه و بين أمته.

و هذا الوجه و الوجه السابق عليه سليمان عن عامه الإشكالات لكن إشكال عدم الارتباط بين الفتح و المغفره على حاله.

و من ذلك: ما عن علم الهدى رحمه الله إن الذنب مصدر، و المصدر يجوز إضافته إلى الفاعل و المفعول معا فيكون هنا مضافا إلى المفعول، و المراد ما تقدم من ذنبهم إليك فى منعهم إياك من مكه و صدهم لك عن المسجد الحرام، و يكون معنى المغفره على هذا الإزالة و النسخ لأحكام أعدائه من المشركين أى يزيل الله تعالى ذلك عنك و يستر عليك تلك الوصمه بما يفتح لك من مكه فتدخلها فيما بعد.

و هذا الوجه قريب المأخذ مما قدمنا من الوجه، و لا بأس به لو لم يكن فيه بعض المخالفه لظاهر الآيه.

و فى قوله: «لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ» إلخ، بعد قوله: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ» التفات من التكلم إلى الغيبه و لعل الوجه فيه أن محصل السوره امتنانه تعالى على النبى ص

و المؤمنين بما رزق من الفتح و إنزال السكينه و النصر و سائر ما وعدهم فيها فناسب أن يكون السياق الجارى فى السوره سياق الغيبه و يذكر تعالى فيها باسمه و ينسب إليه النصر بما يعبده نبيه و المؤمنون وحده قبال ما لا يعبده المشركون و إنما يعبدون آلهه من دونه طمعا فى نصرهم و لا ينصرونهم.

□
و أما سياق التكلم مع الغير المشعر بالعظمه فى الآيه الأولى فلمناسبتة ذكر الفتح فيها و يجرى الكلام فى قوله تعالى الآتى: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا» الآيه.

و قوله: «و يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» قيل: أى يتمها عليك فى الدنيا بإظهارك على عدوك و إعلاء أمرك و تمكين دينك، و فى الآخره برفع درجتك، و قيل: أى يتمها عليك بفتح خبير و مكه و الطائف.

و قوله: «و يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» قيل: أى و يثبتك على صراط يؤدى بسالكه إلى الجنه، و قيل: أى و يهديك إلى مستقيم الصراط فى تبليغ الأحكام و إجراء الحدود.

□
و قوله: «و يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا» قيل: النصر العزيز هو ما يمتنع به من كل جبار عنيد و عات مرید، و قد فعل بنبيه (ص) ذلك إذ جعل دينه أعز الأديان و سلطانه أعظم السلطان، و قيل: المراد بالنصر العزيز ما هو نادر الوجود قليل النظر أو عديمه و نصره تعالى لنبیه (ص) كذلك كما يظهر بقياس حاله فى أول بعثته إلى حاله فى آخر أيام دعوته.

□ □ □ □ □
و التدبر فى سياق الآيتين بالبناء على ما تقدم من معنى قوله: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ» يعطى أن يكون المراد بقوله: «و يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» هو تمهيدته تعالى له (ص) لتمام الكلمه و تصفيته الجو لنصره نصرًا عزيزًا بعد رفع الموانع بمغفره ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

□
و بقوله: «و يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» هدايته (ص) بعد تصفيه الجو له إلى الطريق الموصل إلى الغايه الذى سلكه بعد الرجوع من الحديبيه من فتح خبير و بسط سلطه الدين فى أقطار الجزيره حتى انتهى إلى فتح مكه و الطائف.

□
و بقوله: «و يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا» نصره له (ص) ذاك النصر الظاهر الباهر

الذى قلما يوجد-أو لا يوجد-له نظير إذ فتح له مكة و الطائف و انبسط الإسلام فى أرض الجزيرة و انقلع الشرك و ذل اليهود و خضع له نصارى الجزيرة و المجوس القاطنون بها،و أكمل تعالى للناس دينهم و أتم عليهم نعمته و رضى لهم الإسلام ديناً.

قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» الخ،الظاهر أن المراد بالسكينة سكون النفس و ثباتها و اطمئنانها إلى ما آمنت به،و لذا علل إنزالها فيها بقوله: «لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» و قد تقدم البحث عن السكينة فى ذيل قوله تعالى: «أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ» البقره: ٢٤٨ فى الجزء الثانى من الكتاب و ذكرنا هناك أنها تنطبق على روح الإيمان المذكور فى قوله تعالى: «وَ أَيْدِيَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ» المجادله: ٢٢.

و قيل: السكينة هى الرحمه،و قيل:العقل،و قيل:الوقار و العصمه لله و لرسوله،و قيل:الميل إلى ما جاء به الرسول ص،و قيل:ملك يسكن قلب المؤمن،و قيل:شئء له رأس كرأس الهره،و هذه الأقاويل لا دليل على شئء منها.

و المراد بإنزال السكينة فى قلوبهم إيجادها فيها بعد عدمها فكثيراً ما يعبر فى القرآن عن الخلق و الإيجاد بالإنزال كقوله: «وَ أَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» الزمر: ٦،و قوله: «وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» الحديد: ٢٥،و قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» الحجر: ٢١.و إنما عبر عن الخلق و الإيجاد بالإنزال للإشارة إلى علو مبدئه.

و قيل:المراد بالإنزال الإسكان و الإقرار من قولهم:نزل فى مكان كذا أى حط رحله فيه و أنزلته فيه أى حطت رحله فيه هذا.

و هو معنى غير معهود فى كلامه تعالى مع كثره وروده فيه،و لعل الباعث لهم على اختيار هذا المعنى تعديته فى الآيه بلفظه «فى» إذ قال: «أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» لكنه عنايه كلاميه لوحظ فيها تعلق السكينة بالقلوب تعلق الاستقرار فيها كما لوحظ تعلقها تعلق الوقوع عليها من علو فى قوله الآتى: «فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ» الآيه و قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» الآيه.

و المراد بزياده الإيمان اشتداده فإن الإيمان بشئء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتب عليه آثاره العمليه،و من المعلوم أن كلا من العلم و الالتزام المذكورين مما يشتد

و يضعف فالإيمان الذى هو العلم المتلبس بالالتزام يشهد و يضعف.

فمعنى الآية: الله الذى أوجد الثبات و الاطمئنان الذى هو لازم مرتبه من مراتب الروح فى قلوب المؤمنين ليشتد به الإيمان الذى كان لهم قبل نزول السكينه فيصير أكمل مما كان قبله.

كلام فى الإيمان و ازدياده

الإيمان بالشىء ليس مجرد العلم الحاصل به كما يستفاد من أمثال قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ»: سورة محمد: ٢٥، وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ»: سورة محمد: ٣٢، وقوله: «وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ»: النمل: ١٤، وقوله: «وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ»: الجاثية: ٢٣، فالآيات - كما ترى - تثبت الارتداد و الكفر و الجحود و الضلال مع العلم.

فمجرد العلم بالشىء و الجزم بكونه حقا لا يكفى فى حصول الإيمان و اتصاف من حصل له به، بل لا بد من الالتزام بمقتضاه و عقد القلب على مؤداه بحيث يترتب عليه آثاره العمليه و لو فى الجملة، فالذى حصل له العلم بأن الله تعالى إله لا إله غيره فالتزم بمقتضاه و هو عبوديته و عبادته وحده كان مؤمنا و لو علم به و لم يلتزم فلم يأت بشىء من الأعمال المظهره للعبوديه كان عالما و ليس بمؤمن.

و من هنا يظهر بطلان ما قيل: إن الإيمان هو مجرد العلم و التصديق و ذلك لما مر أن العلم ربما يجامع الكفر.

و من هنا يظهر أيضا بطلان ما قيل: إن الإيمان هو العمل، و ذلك لأن العمل يجامع النفاق فالمنافق له عمل و ربما كان ممن ظهر له الحق ظهورا علميا و لا إيمان له على أى حال.

و إذ كان الإيمان هو العلم بالشىء مع الالتزام به بحيث يترتب عليه آثاره العمليه، و كل من العلم و الالتزام مما يزداد و ينقص و يشتد و يضعف كان الإيمان المؤلف منهما قابلا للزيادة و النقيصه و الشده و الضعف فاختلف المراتب و تفاوتت الدرجات من الضروريات التى لا يشك فيها قط.

هذا ما ذهب إليه الأكثر وهو الحق ويدل عليه من النقل قوله تعالى: «لِيُزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» وغيره من الآيات، وما ورد من أحاديث أئمة أهل البيت (ع) الداله على أن الإيمان ذو مراتب.

و ذهب جمع منهم أبو حنيفة و إمام الحرمين و غيرهما إلى أن الإيمان لا- يزيد و لا- ينقص، و احتجوا عليه بأن الإيمان اسم للتصديق البالغ حد الجزم و القطع و هو مما لا يتصور فيه الزيادة و النقصان فالمصدق إذا ضم إلى تصديقه الطاعات أو ضم إليه المعاصي فتصديقه بحاله لم يتغير أصلا.

و أولوا ما دل من الآيات على قبوله الزيادة و النقصان بأن الإيمان عرض لا يبقى بشخصه بل بتجدد الأمثال فهو بحسب انطباقه على الزمان بأمثاله المتجدده يزيد و ينقص كوقوعه للنسبى ص مثلا- على التوالى من غير فتره متخلله و فى غيره بفترات قليلة أو كثيره فالمراد بزيادة الإيمان توالى أجزاء الإيمان من غير فتره أصلا أو بفترات قليلة.

و أيضا للإيمان كثره بكثره ما يؤمن به، و شرائع الدين لما كانت تنزل تدريجا و المؤمنون يؤمنون بما ينزل منها و كان يزيد عدد الأحكام حيناً بعد حين كان إيمانهم أيضا يزيد تدريجا، و بالجمله المراد بزيادة الإيمان كثرته عددا.

و هو بين الضعف، أما الحجج ففيها أولا- أن قولهم: الإيمان اسم للتصديق الجازم ممنوع بل هو اسم للتصديق الجازم الذى معه الالتزام كما تقدم بيانه اللهم إلا أن يكون مرادهم بالتصديق العلم مع الالتزام.

و ثانيا: أن قولهم: إن هذا التصديق لا- يختلف بالزيادة و النقصان دعوى بلا- دليل بل مصادره على المطلوب و بناؤه على كون الإيمان عرضا و بقاء الأعراض على نحو تجدد الأمثال لا ينفعهم شيئا فإن من الإيمان ما لا تحركه العواصف و منه ما يزول بأدنى سبب يعترض و أو هن شبهه تطراً، و هذا مما لا يعلل بتجدد الأمثال و قله الفترات و كثرتها بل لا بد من استناده إلى قوه الإيمان و ضعفه سواء قلنا بتجدد الأمثال أم لا.

مضافا إلى بطلان تجدد الأمثال على ما بين فى محله.

و قولهم: إن المصدق إذا ضم إليه الطاعات أو ضم إليه المعاصى لم يتغير حاله أصلا ممنوع فقوه الإيمان بمزاولة الطاعات و ضعفها بارتكاب المعاصى مما لا ينبغى

الارتياح فيه، وقوه الأثر و ضعفه كاشفه عن قوه مبدأ الأثر و ضعفه، قال تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»
فاطر: ١٠، وقال: «تَمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَشَاءُوا السُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ» :الروم: ١٠.

و أما ما ذكروه من التأويل فأول التأويلين يوجب كون من لم يستكمل الإيمان و هو الذى فى قلبه فترات خاليه من أجزاء الإيمان على ما ذكروه مؤمنا و كافرا حقيقه و هذا مما لا يساعده و لا يشعر به شىء من كلامه تعالى.

و أما قوله تعالى: «وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» :يوسف: ١٠٦، فهو إلى الدلاله على كون الإيمان مما يزيد و ينقص أقرب منه إلى الدلاله على نفيه فإن مدلوله أنهم مؤمنون فى حال أنهم مشركون فإيمانهم إيمان بالنسبه إلى الشرك المحض و شرك بالنسبه إلى الإيمان المحض، و هذا معنى قبول الإيمان للزيادة و النقصان.

و ثانى التأويلين يفيد أن الزيادة فى الإيمان و كثرته إنما هى بكثره ما تعلق به و هو الأحكام و الشرائع المنزله من عند الله فهى صفة للإيمان بحال متعلقه و السبب فى اتصافه بها هو متعلقه، و لو كان هذه الزيادة هى المراده من قوله: «لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» كان الأنسب أن تجعل زياده الإيمان فى الآيه غايه لتشريع الأحكام الكثيره و إنزالها لا لإنزال السكينه فى قلوب المؤمنين هذا.

و حمل بعضهم زياده الإيمان فى الآيه على زياده أثره و هو النور المشرق منه على القلب.

و فيه أن زياده الأثر و قوته فرع زياده المؤثر و قوته فلا معنى لاختصاص أحد الأمرين المتساويين من جميع الجهات بأثر يزيد على أثر الآخر.

و ذكر بعضهم أن الإيمان الذى هو مدخول مع فى قوله: «لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» الإيمان الفطرى و الإيمان المذكور قبله هو الإيمان الاستدلالي، و المعنى:

ليزدادوا إيمانا استدلاليا على إيمانهم الفطرى.

و فيه أنه دعوى من غير دليل يدل عليه. على أن الإيمان الفطرى أيضا استدلالى فمتعلق العلم و الإيمان على أى حال أمر نظرى لا بديهى.

و قال بعضهم كالإمام الرازى: إن النزاع فى قبول الإيمان للزيادة و النقص و عدم قبوله نزاع لفظى فمراد النافين عدم قبول أصل الإيمان و هو التصديق ذلك و هو كذلك

لعدم قبوله الزيادة و النقصان، و مراد المثبتين قبول ما به كمال الإيمان و هو الأعمال للزيادة و النقصان و هو كذلك بلا شك.

و فيه أولاً: أن فيه خلطاً بين التصديق و الإيمان فالإيمان تصديق مع الالتزام و ليس مجرد التصديق فقط كما تقدم بيانه.

و ثانياً: أن نسبه نفى الزيادة فى أصل الإيمان إلى المثبتين غير صحيحه فهم إنما يشتون الزيادة فى أصل الإيمان، و يرون أن كلا من العلم و الالتزام المؤلف منهما الإيمان يقبل القوه و الضعف.

و ثالثاً: أن إدخال الأعمال فى محل النزاع غير صحيح لأن النزاع فى شىء غير النزاع فى أثره الذى به كماله و لا نزاع لأحد فى أن الأعمال و الطاعات تقبل العد و تقل و تكثر بحسب تكرر الواحد.

[بيان]

و قوله: «وَلِلَّهِ جُنُودٌ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» الجند هو الجمع الغليظ من الناس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله و لذا أطلق على العسكر المجتمعين على إجراء ما يأمر به أميرهم، و السياق يشهد أن المراد بجنود السماوات و الأرض الأسباب الموجوده فى العالم مما يرى و لا يرى من الخلق فهى وسائط متخلله بينه تعالى و بين ما يريد من شىء تطيعه و لا تعصاه.

و إيراد الجملة أعنى قوله: «وَلِلَّهِ جُنُودٌ» إلخ، بعد قوله: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ» إلخ، للدلاله على أن له جميع الأسباب و العلل التى فى الوجود فله أن يبلغ إلى ما يشاء بما يشاء و لا يغلبه شىء فى ذلك، و قد نسبت إلى زياده إيمان المؤمنين بإنزال السكينه فى قلوبهم.

و قوله: «وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيمًا» أى منيعاً جانبه لا يغلبه شىء متقناً فى فعله لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته و الجملة بيان تعليلى لقوله: «وَلِلَّهِ جُنُودٌ» إلخ، كما أنه بيان تعليلى لقوله: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ» إلخ، كأنه قيل: أنزل السكينه لكذا و له ذلك لأن له جميع الجنود و الأسباب لأنه العزيز على الإطلاق و الحكيم على الإطلاق.

قوله تعالى: «لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» إلى

آخر الآيه، تعليل آخر لقوله: «أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» على المعنى كما أن قوله: «لِيَزِدُوا إِيمَانًا» تعليل له بحسب اللفظ كأنه قيل: خص المؤمنين بإنزال السكينة و حرم على غيرهم ذلك ليزداد إيمان هؤلاء مع إيمانهم و حقيقه ذلك أن يدخل هؤلاء الجنة و يعذب أولئك فيكون قوله: «ليدخل» بدلاً أو عطف بيان من قوله.

«لِيَزِدُوا» إلخ.

و في متعلق لام «لِيُدْخَلَ» إلخ، أقوال آخر كالقول بتعلقها بقوله: «فَتَحْنَا» أو قوله: «لِيَزِدُوا» أو بجميع ما تقدم إلى غير ذلك مما لا جدوى لإيراده.

و ضم المؤمنات إلى المؤمنين في الآيه لدفع توهم اختصاص الجنة و تكفير السيئات بالذكر لوقوع الآيه في سياق الكلام في الجهاد، و الجهاد واقعان على أيديهم فصرح باسم المؤمنات لدفع التوهم كما قيل.

و ضمير «خَالِدِينَ» و «يُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» للمؤمنين و المؤمنات جميعاً على التغليب.

و قوله: «وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً» بيان لكون ذلك سعادته حقيقه لا ريب فيها لكونه عند الله كذلك و هو يقول الحق.

قوله تعالى: «وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ» إلى آخر الآيه معطوف على قوله: «لِيُدْخَلَ» بالمعنى الذى تقدم، و تقديم المنافقين و المنافقات على المشركين و المشركات فى الآيه لكونهم أضر على المسلمين من أهل الشرك و لأن عذاب أهل النفاق أشد قال تعالى: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

و قوله: «الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ» السوء بالفتح فالسكون مصدر بمعنى القبح و السوء بالضم اسم مصدر، و ظن السوء هو ظنهم أن الله لا ينصر رسوله و قيل: المراد بظن السوء ما يعم ذلك و سائر ظنونهم السيئه من الشرك و الكفر.

و قوله: «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ» دعاء عليهم أو قضاء عليهم أى ليستضرروا بدائره السوء التى تدور لتصيب من تصيب من الهلاك و العذاب.

و قوله: «وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ» معطوف على قوله:

«عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ» إلخ، و قوله: «وَ سَاءَتْ مَصِيرًا» بيان مساءه مصيرهم، كما أن قوله:

«وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً» بيان لحسن مصير أهل الإيمان.

قوله تعالى: «وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» تقدم معناه، و الظاهر أنه بيان

تعليلى للآيتين أعنى قوله: «لِيُدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ» - إلى قوله- «وَ أَعِدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ» على حدو ما كان مثله فيما تقدم بيانا
تعليليا لقوله: «أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» إلخ.

و قيل: إن مضمونه متعلق بالآيه الأخيره فهو تهديد لهم أنهم فى قبضه قدرته فينتقم منهم، و الوجه الأول أظهر.

بحث روائى

فى تفسير القمى، فى قوله تعالى: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا»: حدثنى أبى عن ابن عمير عن ابن سنان عن أبى عبد الله (ع) قال:
كان سبب نزول هذه الآيه و هذا الفتح العظيم- أن الله جل و عز أمر رسوله ص فى النوم- أن يدخل المسجد الحرام و يطوف و
يحلق مع المحلقين- فأخبر أصحابه و أمرهم بالخروج فخرجوا.

فلما نزل ذا الحليفه أحرموا بالعمره و ساقوا البدن- و ساق رسول الله ص سته و ستين بدنه- و أحرموا من ذى الحليفه ملبين
بالعمره- و قد ساق من ساق منهم الهدى معرات مجلات.

فلما بلغ قريشا بعثوا خالد بن الوليد- فى مائتى فارس كمينا يستقبل رسول الله ص- فكان يعارضه على الجبال- فلما كان فى بعض
الطريق حضرت صلاه الظهر- فأذن بلال فصلى رسول الله ص بالناس- فقال خالد بن الوليد: لو كنا حملنا عليهم و هم فى الصلاه-
لأصبناهم لأنهم لا يقطعون صلاتهم- و لكن تجيء الآن لهم صلاه أخرى- أحب إليهم من ضياء أبصارهم- فإذا دخلوا فى الصلاه
أغرنا عليهم، فنزل جبرئيل على رسول الله ص بصلاه الخوف فى قوله عز و جل: «وَ إِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ» الآيه.

قال: فلما كان فى اليوم الثانى- نزل رسول الله ص الحديدية، و كان رسول الله ص يستنفر الأعراب فى طريقه- فلم يتبعه أحد و
يقولون: أيطمع محمد و أصحابه أن يدخلوا الحرم- و قد غزتهم قريش فى عقر ديارهم فقتلوهم، أنه لا يرجع محمد و أصحابه
إلى المدينة أبدا. الحديث.

و فى المجمع، قال ابن عباس: إن رسول الله ص خرج يريد مكة-فلما بلغ الحديبيه وقفت ناقته-فزجرها فلم تنزجر و بركت الناقه- فقال أصحابه:خلأت الناقه، فقال:ما هذا لها عاده و لكن حبسها حابس الفيل.

و دعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة-ليأذنوا له بأن يدخل مكة و يحل من عمرته و ينحر هديه-فقال:يا رسول الله ما لى بها حميم-و إنى أخاف قريشا لشده عداوتى إياها-و لكن أدلك على رجل هو أعز بها منى عثمان بن عفان-فقال:صدقت.

فدعا رسول الله ص عثمان-فأرسله إلى أبى سفيان و أشراف قريش-يخبرهم أنه لم يأت لحرب-و إنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمة،فاحتبسته قريش عندها- فبلغ رسول الله ص و المسلمین أن عثمان قد قتل.فقال(ص):لا نبرح حتى نناجز القوم،و دعا الناس إلى البيعه-فقام رسول الله ص إلى الشجره و استند إليها-و بايع الناس على أن يقاتلوا المشركين و لا يفروا.قال عبد الله بن مغفل:كنت قائما على رأس رسول الله ص-ذلك اليوم و بيدى غصن من السمره أذب عنه-و هو يبايع الناس فلم يبايعهم على الموت-و إنما يبايعهم على أن لا يفروا.

و روى الزهرى و عروه بن الزبير و المسور بن مخرمه قالوا: خرج رسول الله ص من المدينه-فى بضع عشره مائه من أصحابه- حتى إذا كانوا بذى الحليفه-قلد رسول الله ص الهدى و أشعره و أحرم بالعمره-و بعث بين يديه عينا له من خزاعه يخبره عن قريش.

و سار رسول الله ص-حتى إذا كان بغدير الأشطاط قريبا من عسفان-أتاه عينه الخزاعى فقال:إنى تركت كعب بن لؤى و عامر بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش و جمعوا جموعا-و هم قاتلوك أو مقاتلوك و صادوك عن البيت-فقال(ص):روحوا فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق-قال النبى ص:إن خالد بن الوليد بالغميم-فى خيل لقريش طليعه فخذوا ذات اليمين.

فسار حتى إذا كان بالثنيه بركت راحلته-فقال(ص):ما خلأت القصواء و لكن حبسها حابس الفيل.ثم قال:و الله لا يسألونى خطه يعظمون فيها حرمة الله-إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت به.

قال:فعدل حتى نزل بأقصى الحديبيه على ثمذ قليل الماء-إنما يتبرضه الناس تبرضا

فشكوا إليه العطش-فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فى الماء-فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعى-فى نفر من خزاعه-و كانوا عيبه نصح رسول الله ص من أهل تهامه- فقال:إنى تركت كعب بن لؤى و عامر بن لؤى- و معهم العوذ المطافيل-و هم مقاتلوك و صادوك عن البيت-فقال رسول الله ص:إننا لم نجئ لقتال أحد-و إنا جئنا معتمرين،و إن قريشا قد نهكتهم الحرب و أضرت بهم-فإن شاءوا ماددتهم مده و يخلو بينى و بين الناس،و إن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا-و إلا فقد جموا-و إن أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا-حتى تنفرد سالفتى أو لينفذ الله تعالى أمره،فقال بديل:سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشا فقال:إننا قد جئناكم من عند هذا الرجل و أنه يقول:

كذا و كذا-فقام عروه بن مسعود الثقفى فقال:إنه قد عرض عليكم خطه رشد فاقبلوها و دعونى آته-فقالوا:أنته فأتاه فجعل يكلم النبى ص-فقال له رسول الله ص نحوا من قوله لبديل.

فقال عروه عند ذلك:أى محمد-أ رأيت إن استأصلت قومك-هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟و إن تكن الأخرى فوالله إنى لأرى وجوها-و أرى أشابا من الناس خلقاء أن يفروا و يدعوك-فقال له أبو بكر:امصص بظر اللات أ نحن نفر عنه و ندعه؟فقال:من ذا؟قال:أبو بكر.قال:أما و الذى نفسى بيده-لو لا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك.

قال:و جعل يكلم النبى ص-و كلما كلمه أخذ بلحيته-و المغيرة بن شعبه قائم على رأس النبى ص-و معه السيف و عليه المغفر- فكلما أهوى عروه بيده إلى لحيه رسول الله ص-ضرب يده بنعل السيف و قال:أخر يدك عن لحيه رسول الله ص قبل أن لا ترجع إليك،فقال:من هذا؟قال المغيرة بن شعبه.قال:أى غدر أ و لست أسعى فى غدرتك.

قال:و كان المغيرة صحب قوما فى الجاهليه-فقتلهم و أخذ أموالهم.ثم جاء فأسلم-فقال النبى ص:أما الإسلام فقد قبلنا،و أما المال فإنه مال غدر لا حاجه لنا فيه.

ثم إن عروه جعل يرمق أصحاب النبي ص- إذا أمرهم رسول الله ص ابتدروا أمره، و إذا توضحاً شاروا يقتتلون على وضوئه، و إذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، و ما يحدون إليه النظر تعظيماً له.

قال: فرجع عروه إلى أصحابه و قال: أي قوم و الله لقد وفدت على الملوكة- و وفدت على قيصر و كسرى و النجاشي- و الله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد- إذا أمرهم ابتدروا أمره، و إذا توضحاً كادوا يقتتلون على وضوئه، و إذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، و ما يحدون إليه النظر تعظيماً له، و أنه قد عرض عليكم خطه رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتة فقالوا: آتته- فلما أشرف عليهم قال رسول الله ص: هذا فلان و هو من قوم يعظمون البدن- فابعثوها فبعثت له و استقبله القوم يلبون- فلما رأى ذلك قال: سبحان الله- ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت.

فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني آتة- فقالوا: آتته فلما أشرف عليهم قال النبي ص: هذا مكرز و هو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ص- فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو- فقال (ص): قد سهل عليكم أمركم- فقال: اكتب بيننا و بينك كتاباً.

فدعا رسول الله ص علي بن أبي طالب- فقال له رسول الله ص: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم- فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ و لكن اكتب باسمك اللهم فقال المسلمون: و الله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم- فقال النبي ص:

اكتب باسمك اللهم- هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله- فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله- ما صددناك عن البيت و لا قاتلناك- و لكن اكتب محمد بن عبد الله- فقال رسول الله ص: إنى لرسول الله و إن كذبتوني- ثم قال لعلي امح رسول الله فقال: يا رسول الله- إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة- فأخذه رسول الله ص فمحاها.

ثم قال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله- و سهيل بن عمرو- و اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين- يأمن فيهن الناس و يكف بعضهم عن بعض- و على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً- أو معتمراً أو يتبعني من فضل الله- فهو آمن على دمه و ماله- و من قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام- فهو آمن

على دمه و ماله، و إن بيننا (١) عيبه مكفوفه، و أنه لا إسلال و لا إغلال، و أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد و عهده دخل فيه، و من أحب أن يدخل في عقد قريش و عهده دخل فيه.

فتواثبت خزاعه فقالوا: نحن في عقد محمد و عهده، و تواثبت بنو بكر فقالوا:

نحن في عقد قريش و عهدهم.

فقال رسول الله ص: على أن تخلو بيننا- و بين البيت فنطوف- فقال سهيل:

و الله ما تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطه- و لكن ذلك من العام المقبل. فكتب فقال سهيل: على أنه لا يأتيك منا رجل- و إن كان على دينك إلا- رددته إلينا- و من جاءنا ممن معك لم نرده عليك- فقال المسلمون سبحان الله- كيف يرد إلى المشركين و قد جاء مسلما؟ فقال رسول الله ص: من جاءهم منا فأبعده الله، و من جاءنا منهم رددناه إليهم- فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجا.

فقال سهيل: و على أنك ترجع عنا عامك هذا- فلا تدخل علينا مكة- فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك- فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا- و لا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القراب (٢) و سلاح الراكب، و على أن هذا الهدى حيث ما حبسناه محله لا تقدمه علينا- فقال: نحن نسوق و أنتم تردون.

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو- يرسف (٣) في قيوده و قد خرج من أسفل مكة- حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين- فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده- فقال النبي ص: إنا لم نقض بالكتاب بعد. قال: و الله إذا لا أصالحك على شيء أبدا- فقال النبي ص: فأجره لي- فقال: ما أنا بمجير له لك قال: بلى فافعل، قال ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجرناه، قال أبو جندل بن سهيل: معاشر المسلمين أرد إلى المشركين- و قد جئت مسلما أ لا ترون ما قد لقيت؟- و كان قد عذب عذابا شديدا-.

ص: ٢٦٨

١- ١) أي يكون بيننا صدر نقي من الغل و الخداع.

٢- ٢) القراب: جمع قربه بمعنى الغمد.

٣- ٣) رسف رسفا: إذا مشى مشى المقيد.

فقال عمر بن الخطاب: و الله ما شككت مذ أسلمت إلا يومئذ-فأتيت النبي ص فقلت: أ لست نبي الله؟ فقال: بلى. قلت: أ لسنا على الحق و عدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدينه فى ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله و لست أعصيه و هو ناصرى-قلت: أ و لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت و نطوف حقا؟ قال: بلى أ فأخبرتكم أن نأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه و تطوف به-فنحر رسول الله ص بدنه فدعا بحالقه-فحلق شعره ثم جاءه نسوه مؤمنات-فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا- إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ الآية.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: و حدثنى بريده بن سفيان عن محمد بن كعب: أن كاتب رسول الله ص فى هذا الصلح-كان على بن أبى طالب-فقال له رسول الله ص:

اكتب «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو» فجعل على يتلكأ و يأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله-فقال رسول الله: فإن لك مثلها-تعطيها و أنت مضطهد، فكتب ما قالوا.

ثم رجع رسول الله ص إلى المدينة-فجاءه أبو بصير رجل من قريش و هو مسلم- فأرسلوا فى طلبه رجلين فقالوا: العهد الذى جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين-فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفه-فتزلا يأكلان من تمر لهم-قال أبو بصير لأحد الرجلين: و إني لأرى سيفك جيدا جدا فاستله-فقال: أجل إنه لجيد و جربت به ثم جربت-فقال أبو بصير:

أرني أنظر إليه فأمكنه منه-فضربه به حتى برد و فر الآخر حتى بلغ المدينة-فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ص حين رآه: لقد رأى هذا ذعرا، فلما انتهى إلى النبي ص قال: قتل و الله صاحبى و إني لمقتول.

قال: فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله-قد أوفى الله ذمتك و رددتنى إليهم-ثم أنجانى الله منهم فقال النبي ص: ويل أمه-مسعر حرب لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم-فخرج حتى أتى سيف البحر.

و انفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبى بصير-فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير-حتى اجتمعت عليه عصابه. قال: فوالله لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت إلى الشام-إلا اعترضوا لها فقتلوهم و أخذوا أموالهم-فأرسلت قريش إلى النبي

ص تناشده الله و الرحم-لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن-فأرسل (ص) إليهم فأتوه.

و فى تفسير القمى، فى حديث طويل أوردنا صدره فى أول البحث قال: وقال رسول الله ص لأصحابه -بعد ما كتب الكتاب- انحروا بدنكم و احلقوا رءوسكم-فامتنعوا و قالوا: كيف ننحر و نحلق-و لم نطف بالبيت و لم نسع بين الصفا و المروه- فاعتم رسول الله ص و شكنا ذلك إلى أم سلمه-فقالت: يا رسول الله انحر أنت و احلق- فنحر رسول الله و حلق-فنحر القوم على حيث يقين و شك و ارتياب:.

أقول: و هو مروى فى روايات آخر من طرق الشيعة و أهل السنه. و هذا الذى رواه الطبرسى مأخوذ مع تلخيص ما عما رواه البخارى و أبو داود و النسائى عن مروان و المسور: .

و فى الدر المنثور، أخرج البيهقى عن عروه قال: أقبل رسول الله ص من الحديبيه راجعا-فقال رجل من أصحاب رسول الله ص: و الله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت و صد هدينا-و عكف رسول الله بالحديبيه-و رد رجلين من المسلمين خرجا.

فبلغ رسول الله ص قول رجال من أصحابه: إن هذا ليس بفتح-فقال رسول الله ص: بنس الكلام. هذا أعظم الفتح-لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم-و يسألوكم القضييه و يرغبون إليكم فى الإياب-و قد كرهوا منكم ما كرهوا، و قد أظفركم الله عليهم-و ردكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح.

أ نسيتم يوم أحد إذ تصعدون و لا تلوون على أحد-و أنا أدعوكم فى أخراكم؟ أ نسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم و من أسفل منكم-و إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر-و تظنون بالله الظنونا؟.

قال المسلمون: صدق الله و رسوله هو أعظم الفتح-و الله يا نبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه-و لانت أعلم بالله و بالأمر منا فأنزل الله سوره الفتح.

أقول: و الأحاديث فى قصه الحديبيه كثيره و ما أوردناه طرف منها.

و فى تفسير القمى، بإسناده إلى عمر بن يزيد بياع السابرى قال: قلت لأبى عبد الله (ع) قول الله فى كتابه: «لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ» قال: ما كان له ذنب و لا هم بذنب-و لكن الله حملة ذنوب شيعته ثم غفر لها.

و في العيون، في مجلس الرضا مع المأمون بإسناده إلى ابن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا(ع)-فقال المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك- إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى،-إلى أن قال-قال: فأخبرني عن قول الله عز و جل: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ».

قال الرضا(ع): لم يكن أحد عند مشركي مكة-أعظم ذنبا من رسول الله ص- لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة و ستين صنما-فلما جاءهم بالدعوه إلى كلمه الإخلاص-كبر ذلك عليهم و عظم، و قالوا أ جعل الآلهه إلها واحدا-إن هذا لشيء عجاب، و انطلق الملائه منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم-إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في المله الآخره-إن هذا إلا اختلاق-فلما فتح الله على نبيه ص مكة قال: يا محمد- إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله-ما تقدم من ذنبك و ما تأخر عند مشركي مكة- بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم و ما تأخر-لأن مشركي مكة أسلم بعضهم، و خرج بعضهم عن مكة، و من بقى منهم لم يقدر على إنكار التوحيد-إذا دعا الناس إليه-فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفورا بظهوره عليهم.فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن.

و في تفسير العياشي، عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله(ع)قال*: ما ترك رسول الله ص «إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام.

أقول: و هذا المعنى مروى من طرق أهل السنه أيضا، و الحديث لا يخلو من شيء لأنه مبنى على كون المراد بالذنب في الآيه هو المعصيه المنافيه للعصمه.

و في الكافي، بإسناده إلى جميل قال: سألت أبا عبد الله(ع) عن قول الله عز و جل: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» قال: الإيمان قال عز من قائل:

«لِيَزِدُّوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ».

أقول: ظاهر الروايه أنه(ع)أخذ قوله تعالى في الآيه: «لِيَزِدُّوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» تفسيرا للسكينه، و في معنى الروايه روايات أخر.

و فيه، بإسناده عن أبي عمرو الزبيرى عن أبي عبد الله(ع)قال*: قلت له: أيها العالم أخبرني أى الأعمال أفضل عند الله؟ قال: ما لا يقبل الله شيئا إلا به. قلت: و ما

إشارة

إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)

بيان

فصل ثان من آيات السوره يعرف سبحانه فيه نبيه ص تعريف إكبار و إعظام بأنه أرسله شاهدا و مبشرا و نذيرا طاعته طاعه الله و بيعته بيعه الله، و قد كان الفصل الأول امتنانا منه تعالى على نبيه بالفتح و المغفره و إتمام النعمه و الهدايه و النصر و على المؤمنين بإزالة السكينه في قلوبهم و إدخال الجنه و وعيد المشركين و المنافقين بالغضب و اللعن و النار.

قوله تعالى: «إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» المراد بشهادته (ص) شهادته على الأعمال من إيمان و كفر و عمل صالح أو طالح، و قد تكرر في كلامه تعالى ذكر شهادته (ص)، و تقدم استيفاء الكلام في معنى هذه الشهاده، و هي شهاده حمل في الدنيا، و أداء في الآخرة.

و كونه مبشرا تبشيره لمن آمن و اتقى بالقرب من الله و جزيل ثوابه، و كونه نذيرا إنذاره و تخويله لمن كفر و تولى بأليم عذابه.

قوله تعالى: «لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» القراءه المشهوره بتاء الخطاب في الأفعال الأربعة، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بياء الغيبه في الجميع و قراءتهما أرجح بالنظر إلى السياق.

و كيف كان فاللام في «لِتُؤْمِنُوا» للتعليل أى أرسلناك كذا و كذا لتؤمنوا بالله و رسوله.

و التعزير -على ما قيل- النصر و التوقير التعظيم كما قال تعالى: «مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا» نوح: ١٣، و الظاهر أن الضمائر في «تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ» جميعا لله تعالى و المعنى: إنا أرسلناك كذا و كذا ليؤمنوا بالله و رسوله و ينصروه تعالى بأيديهم و ألسنتهم و يعظموه و يسبحوه -و هو الصلاة- بكره و أصيلا أى غداه و عشا.

و قيل: الضميران في «تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ» للرسول (ص)، و ضمير «تُسَبِّحُوهُ» لله تعالى و يوهنه لزوم اختلاف الضمائر المتسقة.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» إلى آخر الآية. البيعه نوع من الميثاق ببذل الطاعة قال في المفردات: و بايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضخ له انتهى، و الكلمه مأخوذه من البيع بمعناه المعروف فقد كان من دأبهم أنهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البائع يده للمشتري فكأنهم كانوا يمثلون بذلك نقل الملك بنقل التصرفات التى يتحقق معظمها باليد إلى المشتري بالتصفيق، و بذلك سمي التصفيق عند بذل الطاعة بيعه و مبايعه، و حقيقه معناه إعطاء المبايع يده للسلطان مثلا ليعمل به ما يشاء.

فقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» تنزيل بيعته (ص) منزله بيعته تعالى بدعوى أنها هي فيما يواجهونه (ص) به من بذل الطاعة لا يواجهون به إلا الله سبحانه لأن طاعته طاعه الله ثم قرره زياده تقرير و تأكيد بقوله: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» حيث جعل يده (ص) يد الله كما جعل رميه (ص) رمى نفسه فى قوله: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» الأنفال: ١٧.

و فى نسبه ما له (ص) من الشأن إلى نفسه تعالى آيات كثيره كقوله تعالى: «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» النساء: ٨٠، و قوله: «فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» الأنعام: ٣٣، و قوله: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» آل عمران: ١٢٨.

و قوله: «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ» النكث نقض العهد و السبعه، و الجملة تفریع على قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» و المعنى: فإذا كان

بيعتك بيعه الله فالناكث الناقض لها ناقض لبيعه الله و لا يتضرر بذلك إلا نفسه كما لا ينتفع بالإيفاء إلا نفسه لأن الله غنى عن العالمين.

و قوله: «وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا» وعد جميل على حفظ العهد و الإيفاء به.

و الآيه لا تخلو من إيماء إلى أن النبي ص كان عند البيعه يضع يده على أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس.

و للمفسرين فى قوله: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» أقوال آخر.

ف قيل: إنه من الاستعارة التخيلية و الاستعارة بالكناية جىء به لتأكيد ما تقدمه و تقرير أن مبايعه الرسول ص كمبايعه الله من غير تفاوت فخيّل أنه سبحانه كأحد المبايعين من الناس فأثبتت له يد تقع فوق أيدي المبايعين للرسول (ص) مكان يد الرسول و فيه أنه غير مناسب لساحه قدسه تعالى أن يخيل على وجه هو منزه عنه.

و قيل: المراد باليد القوه و النصره أى قوه الله و نصرته فوق قوتهم و نصرتهم أى ثق بنصره الله لا بنصرتهم.

و فيه أن المقام مقام إعظام بيعه النبي ص و أن مبايعتهم له مبايعه لله، و الوثوق بالله و نصرته و إن كان حسنا فى كل حال لكنه أجنبي عن المقام.

و قيل: المراد باليد العطيه و النعمه أى نعمه الله عليهم بالثواب أو بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم عليك بالمبايعه، و قيل: نعمته عليهم بالهدايه أعظم من نعمتهم عليك بالطاعه إلى غير ذلك من الوجوه التى أوردوها و لا طائل تحتها.

بحث روائى

فى الدر المنثور، أخرج ابن عدى و ابن مردويه و الخطيب و ابن عساکر فى تاريخه عن جابر بن عبد الله قال*: لما نزلت على رسول الله ص هذه الآيه «وَتُعَزَّرُوهُ» قال النبي ص لأصحابه: ما ذاك؟ قالوا: الله و رسوله أعلم. قال: لتنصروه.

و فى العيون، بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروى قال*: قلت لعلى بن موسى الرضا (ع): يا ابن رسول الله- ما تقول فى الحديث الذى يرويه أهل الحديث: أن

فصل ثالث من الآيات متعرض لحال الأعراب الذين قعدوا عن رسول الله ص في سفره الحديبيه و لم ينفروا إذا استنفرهم و هم على ما قيل أعراب حول المدينه من قبائل جهينه و مزينه و غفار و أشجع و أسلم و دئل فتخلفوا عن النبي ص و لم يصاحبوه قائلين: إن محمدا و من معه يذهبون إلى قوم غزوهم بالأمس في عقر دارهم فقتلوهم قتلا ذريعا، و إنهم لن يرجعوا من هذه السفره و لن ينقلبوا إلى ديارهم و أهليهم أبدا.

فأخبر الله سبحانه لنبيه(ص) في هذه الآيات أنهم سيلقونك و يعتلون في قعودهم باشتغالهم بالأموال و الأهلين و يسألونك أن تستغفر الله لهم، و كذبهم الله فيما قالوا و ذكر أن السبب في قعودهم غير ذلك و هو ظنهم السوء، و أخبر أنهم سيسألونك

للحقوق و ليس لهم ذلك غير أنهم سيدعون إلى قتال قوم آخرين فإن أطاعوا كان لهم الأجر الجزيل و إن تولوا فأليم العذاب.

قوله تعالى: «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرُوا لَنَا» إلى آخر الآية، قال فى المجمع: المخلف هو المتروك فى المكان خلف الخارجين من البلد، و هو مشتق من الخلف و ضده المقدم. انتهى. و الأعراب - و على ما قالوا - الجماعة من عرب البادية و لا يطلق على عرب الحاضرة، و هو اسم جمع لا مفرد له من لفظه.

و قوله: «سَيَقُولُ لِمَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ» إخبار عما سيأتى من قولهم للنبي ص، و فى اللفظ دلالة ما على نزول الآيات فى رجوعه (ص) من الحديبيه إلى المدينة و لما يردّها.

و قوله: «شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرُوا لَنَا» أى كان الشاغل المانع لنا عن صحابتك و الخروج معك هو أموالنا و أهلونا حيث لم يكن هنا من يقوم بأمرنا فحفظنا ضيعتها فلزمنها فاستغفر لنا الله تعالى يغفر لنا تخلفنا عنك، و فى سؤال الاستغفار دليل على أنهم كانوا يرون التخلف ذنباً فتعلقهم بأنه شغلهم الأموال و الأهلون ليس اعتذاراً للتبرى عن الذنب بل ذكراً للسبب الموقع فى الذنب.

و قوله: «يَقُولُونَ بِاللَّسَّانِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» تكذيب لهم فى جميع ما أخبروا به و سألوه فلا أن الشاغل لهم هو شغل الأموال و الأهلين، و لا أنهم يهتمون باستغفاره (ص)، و إنما سألوه ليكون ذلك جنه يصرفون بها العتاب و التوبيخ عن أنفسهم.

و قوله: «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً» جواب حلى عما اعتذروا به من شغل الأموال و الأهلين محصله أن الله سبحانه له الخلق و الأمر و هو المالك المدبر لكل شىء لا رب سواه فلا ضرر و لا نفع إلا بإرادته و مشيئته فلا يملك أحد منه تعالى شيئاً حتى يقهره على ترك الضرر أو فعل الخير إن أراد الضرر أو على ترك الخير إن أراد ما لا يريده هذا القاهر من الخير، و إذا كان كذلك فانصرفكم عن الخروج مع النبي ص نصره للدين و اشتغالكم بما اعتلتم به من حفظ الأموال

و الأهلين لا يغنى من الله شيئاً لا يدفع الضر إن أراد الله بكم ضراً ولا يعين على جلب الخير ولا يعجله إن أراد بكم خيراً.

فقوله: «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ» إلخ، جواب عن تعللهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه، ملخصه أن تعلقكم في دفع الضر و جلب الخير بظاهر الأسباب و منها تدبيركم و القعود بذلك عن مشروع ديني لا يغنيكم شيئاً في ضرر أو نفع بل الأمر تابع لما أراد الله سبحانه فالآية في معنى قوله تعالى: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا».

و التمسك بالأسباب و عدم إلغائها و إن كان مشروعاً مأموراً به لكنه فيما لا يعارض ما هو أهم منها كاللذات عن الحق و إن كان فيه بعض المكاره المحتملة اللهم إلا إذا تعقب خطراً قطعياً لا أثر معه للدفاع و السعى.

و قوله: «بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» تعريض لهم فيه إشارة إلى كذبهم في قولهم: «شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا».

قوله تعالى: «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زُيِّنَ ذَلِكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ» إلخ، بيان لما يشير إليه قوله: «بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» من كذبهم في اعتذارهم، و المعنى: ما تخلفتكم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال و الأهلين بل ظننتم أن الرسول و المؤمنين لن يرجعوا إلى أهلهم أبداً و أن الخارجين سيقتلون بأيدي قريش بما لهم من الجموع و البأس الشديد و الشوكه و القدره و لذلك تخلفتكم.

و قوله: «وَ زُيِّنَ ذَلِكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ» أي زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فأخذتم بما يقتضيه ذلك الظن المزين و هو أن تتخلفوا و لا تخرجوا حذراً من أن تهلكوا و تبيدوا.

و قوله: «وَ ظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْئًا وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا» البور - على ما قيل - مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك أريد به معنى الفاعل أي كنتم قوماً فاسدين أو هالكين.

قيل: المراد بظن السوء ظنهم أن لن ينقلب الرسول و المؤمنون إلى أهلهم أبداً و لا يبعد أن يكون المراد به ظنهم أن الله لا ينصر رسوله و لا يظهر دينه كما مر في قوله في الآية السادسة من السورة: «الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنًّا سَوْئًا» بل هو أظهر.

قوله تعالى: «وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا» الجمع في هذه

الآيات بين الإيمان بالله ورسوله للدلالة على أن الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر بالله، وفي الآية لحن تهديد.

وقوله: «فَأِنَّا أَتَيْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا» كان مقتضى الظاهر أن يقال: أعتدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى عله الحكم بتعليقه على المشتق، والمعنى:

أعتدنا و هيأنا لهم لكفرهم سعيرا أى نارا مسعره مشتعله، و تنكير سعيرا للتحويل.

قوله تعالى: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعْزِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» معنى الآية ظاهر و فيها تأييد لما تقدم، و فى تذييل الملك المطلق بالاسمين: الغفور الرحيم إشارة إلى سبق الرحمة الغضب و حث على الاستغفار و الاسترحام.

قوله تعالى: «سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ» إلى آخر الآية إخبار عن أن المؤمنين سيغزون غزوه فيرزقون الفتح و يصيبون مغانم و يسألهم المخلفون أن يتركوهم يتبعونهم طمعا فى الغنيمه، و تلك غزوه خبير اجتاز النبى ص و المؤمنون إليه ففتحوه و أخذوا الغنائم و خصها الله تعالى بمن كان مع النبى ص فى سفره الحديبيه لم يشرك معهم غيرهم.

و المعنى: أنكم ستنتقلون إلى غزوه فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلفون:

اتركونا نتبعكم.

وقوله: «يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ» قيل: المراد به وعده تعالى أهل الحديبيه أن يخصصهم بغنائم خبير بعد فتحه كما سيجىء من قوله: «وَعَدَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ الْآيَةَ، و يشير إليه فى هذه الآية بقوله: «إِذَا انطَلَقْتُمْ إِِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا».

وقوله: «قُلْ لَنُ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ» أمر منه تعالى للنبى ص أن يمنعهم عن اتباعهم استنادا إلى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتباع.

وقوله: «فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا» أى سيقول المخلفون بعد ما منعوا عما سألوه من الاتباع: «بَلْ تَحْسُدُونَنَا» وقوله: «بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا» جواب عن قولهم: «بَلْ تَحْسُدُونَنَا» لم يوجه الخطاب إليهم أنفسهم لأن المدعى أنهم لا يفقهون

الحديث و لذلك وجه الخطاب بالجواب إلى النبي ص و قال: «بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

و ذلك أن قولهم: «بَلْ تَحْسُدُونَنَا» إضراب عن قول النبي ص لهم بأمر الله: «لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ» فمعنى قولهم: إن منعنا من الاتباع ليس عن أمر من قبل الله بل إنما تمنعنا أنت و من معك من المؤمنين أهل الحديبيه أن نشارككم فى الغنائم و تريدون أن تختص بكم.

و هذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل و تمييز رسول الله ص المعصوم الذى لا يرد و لا يصدر فى شأن إلا بأمر من الله اللهم إلا أن يكون من بساطه العقل و بلاده الفهم فهذا القول الذى واجهوا به النبي ص و هم مدعون للإيمان و الإسلام أدل دليل على ضعف تعقلهم و قله ففهمهم.

و من هنا يظهر أن المراد بعدم فقههم إلا- قليلا- بساطه عقلهم و ضعف فقههم للقول لا- أنهم يفقهون بعض القول و لا يفقهون بعضه و هو الكثير و لا أن بعضهم يفقه القول و جلهم لا يفقهونه كما فسره به بعضهم.

قوله تعالى: «قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرُ دَعْوَانِ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأُسِّ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُشِلْمُونَ» إلخ، اختلفوا فى هذا القوم من هم؟ فقيل: المراد به هوازن، و قيل: ثقيف، و قيل: هوازن و ثقيف، و قيل: هم الروم فى غزاه مؤته و تبوك، و قيل: هم أهل الردة قاتلهم أبو بكر بعد الرحله، و قيل: هم الفارس، و قيل:

أعراب الفارس و أكرادهم.

و ظاهر قوله: «سِتْرُ دَعْوَانِ» أنهم بعض الأقسام الذين قاتلهم النبي ص بعد فتح خيبر من هوازن و ثقيف و الروم فى مؤته، و قوله تعالى سابقا: «قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا» ناظر إلى نفي اتباعهم فى غزوه خيبر على ما يفيدته السياق.

و قوله: «تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُشِلْمُونَ» استئناف يدل على التنوع أى إما تقاتلون أو يسلمون أى إنهم مشركون لا تقبل منهم جزية كما تقبل من أهل الكتاب بل إما أن يقاتلوا أو يسلموا.

و لا يصح أخذ «تَقَاتِلُونَهُمْ» صفة لقوم لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا إلى قتال

قوم يقاثلونهم، وكذا لا- يصح أخذ حالا- من نائب فاعل «سَيُتَدَعُونَ» لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا أنهم يدعون إليهم حال قتالهم، كذا قيل.

ثم تم سبحانه الكلام بالوعد والوعيد على الطاعة والمعصية فقال: «فَإِنْ تُطِيعُوا» أى بالخروج إليهم «يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسِينًا وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا» أى بالمعصية وعدم الخروج «كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ» ولم تخرجوا فى سفره الحديبيه «يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» أى فى الدنيا كما هو ظاهر المقام أو فى الدنيا والآخرة معا.

قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَى الْمُأْمَنِي حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمُأْمَنِي حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ» رفع للحكم بوجوب الجهاد عن ذوى العاهه الذين يشق عليهم الجهاد برفع لازمه و هو الحرج.

ثم تم الآيه أيضا بإعاده نظير ذيل الآيه السابقه فقال: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا».

[سوره الفتح (٢٨): الآيات ١٨ الى ٢٨]

اشاره

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَآخَرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سَنَّهُ اللَّهُ النَّبِيَّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَيْدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَ لَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصَةً بَيْنَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَاتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلِهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسِهِمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)

فصل رابع من الآيات يذكر تعالى فيه المؤمنين ممن كان مع النبي ص في خروجه إلى الحديبيه فيذكر رضاه عنهم إذ بايعوا النبي ص تحت الشجره ثم يمتن عليهم بإنزال السكينه و إثابه فتح قريب و مغانم كثيره يأخذونها.

ص: ٢٨٣

و يخبرهم -و هو بشرى- أن المشركين لو قاتلوهم لانهمزموا و ولوا الأدبار و أن الرؤيا التي رآها النبي ص رؤيا صادقه سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم لا يخافون فإنه تعالى أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون.

□ قوله تعالى: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» الرضا هيئه تطراً على النفس من تلقى ما يلائمها و تقبله من غير دفع، و يقابله السخط، و إذا نسب إلى الله سبحانه كان المراد الإثابه و الجزاء الحسن دون الهياه الطارئه و الصفه العارضه الحادثه لاستحاله ذلك عليه تعالى: فرضاه سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات.

و الرضا- كما قيل- يستعمل متعديا إلى المفعول بنفسه و متعديا بعن و متعديا بالباء فإذا عدى بنفسه جاز دخوله على الذات نحو: رضيت زيدا، و على المعنى نحو:

□ رضيت إماره زيد، قال تعالى: «و رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا»: المائده: ٣، و إذا عدى بعن دخل على الذات كقوله: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ»: البينه: ٨، و إذا عدى بالباء دخل على المعنى كقوله تعالى: «أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ».

و لما كان الرضا المنسوب إليه تعالى صفه فعل له بمعنى الإثابه و الجزاء، و الجزاء إنما يكون بإزاء العمل دون الذات ففيما نسب من رضاه تعالى إلى الذات و عدى بعن كما فى الآية «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ» نوع عنايه استدعى عد الرضا و هو متعلق بالعمل متعلقا بالذات و هو أخذ بيعتهم التى هى متعلقه الرضا ظرفا للرضى فلم يسع إلا أن يكون الرضا متعلقا بهم أنفسهم.

□ فقوله: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» إخبار عن إثابته تعالى لهم بإزاء بيعتهم له (ص) تحت الشجره.

و قد كانت البيعه يوم الحديبيه تحت شجره سمره بها بايعه (ص) من معه من المؤمنين و قد ظهر به أن الظرف فى قوله: «إِذْ يُبَايِعُونَكَ» متعلق بقوله: «لَقَدْ رَضِيَ» و اللام للقسم.

□ قوله تعالى: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْابَهُمْ فَتَحَّاهُمْ قَرِيبًا»

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

□
«تفريع على قوله: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ» إلخ، والمراد بما في قلوبهم حسن النية وصدقها في مبايعتهم فإن العمل إنما يكون مرضيا عند الله لا بصورته و هيئته بل بصدق النية وإخلاصها.

فالمعنى: فعلم ما في قلوبهم من صدق النية وإخلاصها في مبايعتهم لك.

وقيل: المراد بما في قلوبهم الإيمان وصحته وحب الدين والحرص عليه، وقيل:

الهم والأنفة من لين الجانب للمشركين وصلاحهم. والسياق لا يساعد على شيء من هذين الوجهين كما لا يخفى.

فإن قلت: المراد بما في قلوبهم ليس مطلق ما فيها بل نيتهم الصادقة المخلصه في المبايعه كما ذكر، وعلمه تعالى بنيتهم الموصوفه بالصدق والإخلاص سبب يتفرع عليه رضاه تعالى عنهم لا مسبب متفرع على الرضا، ولازم ذلك تفريع الرضا على العلم بأن يقال: لقد علم ما في قلوبهم فرضى عنهم لا تفريع العلم على الرضا كما في الآيه.

قلت: كما أن للمسبب تفرعا على السبب من حيث التحقق والوجود كذلك للسبب -سواء كان تاما أو ناقصا- تفرع على المسبب من حيث الانكشاف والظهور، والرضا كما تقدم صفه فعل له تعالى منتزع عن مجموع علمه تعالى بالعمل الصالح وما يثيب به و يجزى صاحب العمل، والذى انتزع عنه الرضا فى المقام هو مجموع علمه تعالى بما فى قلوبهم وإنزاله السكينة عليهم وإثابتهم فتحا قريبا و مغانم كثيره يأخذونها.

□
فقوله: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ» إلخ، تفريع على قوله: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ» للدلاله على حقيقه هذا الرضا و الكشف عن مجموع الأمور التى بتحققها يتحقق معنى الرضا.

□
ثم قوله: «فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ» متفرع على قوله: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» وكذا ما عطف عليه من قوله: «وَ أَتَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا» إلخ.

و المراد بالفتح القريب فتح خبير على ما يفيدته السياق و كذا المراد بمغانم كثيره يأخذونها، غنائم خبير، وقيل: المراد بالفتح القريب فتح مكه، و السياق لا يساعد عليه.

□ □
وقوله: «وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» أى غالبا فيما أراد متقنا لفعله غير مجازف فيه.

قوله تعالى: «وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ» إلخ، المراد بهذه المغانم الكثيره المغانم التي سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحديبيه أعم من مغانم خيبر وغيرها فتكون الإشارة بقوله: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ» إلى المغانم المذكوره فى الآيه السابقه و هى مغانم خيبر نزلت منزله الحاضره لاقتراب وقوعها.

هذا على تقدير نزول الآيه مع الآيات السابقه، و أما على ما قيل: إن الآيه نزلت بعد فتح خيبر فأمر الإشارة فى قوله: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ» ظاهر لكن المعروف نزول السوره بتمامها فى مرجع النبى ص من الحديبيه بينها و بين المدينة.

و قيل: الإشارة بهذه إلى البيعه التى بايعوها تحت الشجره و هو كما ترى.

و قوله: «وَ كَفَّ أَيْدَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْيُنُكُمْ وَالْأَيْدَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْيُنُكُمْ وَالْأَيْدَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْيُنُكُمْ» قيل: المراد بالناس قبيلتنا أسد و غطفان هموا بعد مسير النبى ص إلى خيبر أن يغيروا على أموال المسلمين و عيالهم بالمدينه فقذف الله فى قلوبهم الرعب و كف أيديهم.

و قيل: المراد مالك بن عوف و عينه بن حصين مع بنى أسد و غطفان جاءوا لنصره يهود خيبر فقذف الله فى قلوبهم الرعب فرجعوا، و قيل: المراد بالناس أهل مكه و من والاها حيث لم يقاتلوه (ص) و رضوا بالصلح.

و قوله: «وَ لَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ» عطف على مقدر أى وعدهم الله بهذه الإثابه إثنابه الفتح و الغنائم الكثيره المعجله و المؤجله لمصالح كذا و كذا و لتكون آيه للمؤمنين أى علامه و أماره تدلهم على أنهم على الحق و أن ربهم صادق فى وعده و نبينهم (ص) صادق فى إنبائه.

و قد اشتملت السوره على عدّه من أنباء الغيب فيها هدى للمتقين كقوله: «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا إِيَّاهُ» إلخ، و قوله: «سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ فَرَاغْتُهَا فَاعْتَدُوا لِلْحُرُوبِ» إلخ، و قوله: «قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ مِّنْ دُونِ الْغَنَائِمِ» إلخ، و ما فى هذه الآيات من وعد الفتح و المغانم، و قوله بعد: «وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا» إلخ، و قوله بعد: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّسُلَ» إلخ.

و قوله: «وَ يَهْدِيكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيمًا» عطف على «لَتَكُونَ» أى و ليهدىكم صراطا مستقيما و هو الطريق الموصل إلى إعلاء كلمه الحق و بسط الدين، و قيل: هو الثقة بالله

و التوكل عليه فى كل ما تأتون و تدرتون، و ما ذكرناه أوفق للسياق.

قوله تعالى: « وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » أى و غنائم أخرى لم تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها إحاطه قدره و كان الله على كل شىء قديرا.

فقوله: « أُخْرَى » مبتدأ و « لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا » صفته و قوله: « قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » خبره الثانى و خبره الأول محذوف، و تقدير الكلام: و ثمه غنائم أخرى قد أحاط الله بها.

و قيل: قوله: « أُخْرَى » فى موضع نصب بالعطف على قوله: « هَذِهِ » و التقدير:

و عجل لكم غنائم أخرى، و قيل: فى موضع نصب بفعل محذوف، و التقدير:

و قضى غنائم أخرى، و قيل: فى موضع جر بتقدير رب و التقدير: و رب غنائم أخرى و هذه وجوه لا يخلو شىء منها من وهن.

و المراد بالأخرى فى الآيه-على ما قيل-غنائم هوازن، و قيل: المراد غنائم فارس و الروم، و قيل: المراد فتح مکه و الموصوف محذوف، و التقدير: و قريه أخرى لم تقدرُوا عليها أى على فتحها، و أول الوجوه أقربها.

قوله تعالى: « وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا » خبر آخر ينبئهم الله سبحانه ضعف الكفار عن قتال المؤمنين بأنفسهم و أن ليس لهم ولى يتولى أمرهم و لا نصير ينصرهم، و يتخلص فى أنهم لا يقوون فى أنفسهم على قتالكم و لا نصير لهم من الأعراب ينصرهم، و هذا فى نفسه بشرى للمؤمنين.

قوله تعالى: « سَيِّئَةٌ لِلَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسِنَّهِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » « سَيِّئَةٌ لِلَّهِ » مفعول مطلق لفعل مقدر أى سن سنة الله أى هذه سنة قديمه له سبحانه أن يظهر أنبياءه و المؤمنين بهم إذا صدقوا فى إيمانهم و أخلصوا نياتهم على أعدائهم من الذين كفروا وَ لَنْ تَجِدَ لِسِنَّهِ اللَّهِ تَبْدِيلًا كما قال تعالى: « كَتَبَ اللَّهُ لِمَآ غَلِبْتَ أَنَا وَ رُسُلِي » المجادله: ٢١. و لم يصب المسلمون فى شىء من غزواتهم إلا بما خالفوا الله و رسوله بعض المخالفه.

قوله تعالى: « وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ

بَعْدَ أَنْ أَظْفَرَ كُمْ عَلَيْهِمْ

«إلخ، الظاهر أن المراد بكف أيدي كل من الطائفتين عن الأخرى ما وقع من الصلح بين الفتنتين بالحديبيه و هي بطن مكة لقربها منها و اتصالها بها حتى قيل إن بعض أراضيها من الحرم و ذلك أن كلا من الفتنتين كانت أعدى عدو للأخرى و قد اهتمت قريش بجمع المجموع من أنفسهم و من الأحابيش، و بايع المؤمنون النبي ص على أن يقاتلوا، و عزم النبي ص على أن يناجز القوم، و قد أظفر الله النبي و الذين آمنوا على الكفار حيث دخلوا أرضهم و ركزوا أقدامهم في عقر دارهم فلم يكن ليتوهم بينهم إلا القتال لكن الله سبحانه كف أيدي الكفار عن المؤمنين و أيدي المؤمنين عن الكفار بعد إظفار المؤمنين عليهم و كان الله بما يعملون بصيرا.

قوله تعالى: «هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ» العكوف على أمر هو الإقامة عليه، و المعكوف - كما في المجمع - الممنوع من الذهاب إلى جهة بالإقامة في مكانه، و منه الاعتكاف و هو الإقامة في المسجد للعبادة.

و المعنى: المشركون مشركو مكة هم الذين كفروا و منعوكم عن المسجد الحرام و منعوا الهدى - الذي سقتموه - حال كونه محبوسا من أن يبلغ محله أي الموضع الذي ينحر أو يذبح فيه و هو مكة التي ينحر أو يذبح فيها هدى العمره كما أن هدى الحج ينحر أو يذبح في منى، و قد كان النبي ص و من معه من المؤمنين محرمين للعمره ساقوا هديا لذلك.

قوله تعالى: «وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمُ فَتَصَيَّبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ» الوطاء الدوس، و المعره المكروه، و قوله: «أَنْ تَطَّوُّهُمُ» بدل اشتغال من مدخول لو لا، و جواب لو لا محذوف، و التقدير: ما كف أيديكم عنهم.

و المعنى: لو لا - أن تدوسوا رجالا - مؤمنين و نساء مؤمنات بمكة و أنتم جاهلون بهم لا تعلمون فتصيبكم من قتلهم و إهلاكهم مكروه لما كف الله أيديكم عنهم.

و قوله: «لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ» اللام متعلق بمحذوف، و التقدير:

و لكن كف أيديكم عنهم ليدخل في رحمته أولئك المؤمنين و المؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل و إياكم بحفظكم من أصابه المعره.

وقيل: المعنى: ليدخل في رحمته من أسلم من الكفار بعد الصلح.

وقوله: «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً» التزيل التفرق و ضمير «تَزَيَّلُوا» لجميع من تقدم ذكره من المؤمنين و الكفار من أهل مكة أى لو تفرقوا بأن يمتاز المؤمنون من الكفار لعذبنا الذين كفروا من أهل مكة عذاباً أليماً لكن لم نعذبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين.

قوله تعالى: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ» إلى آخر الآية قال الراغب: و عبر عن القوه الغضبيه إذا ثارت و كثرت بالحميه فيقال: حميت على فلان أى غضبت عليه قال تعالى: «حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ» و عن ذلك أستعير قولهم:

حميت المكان حمى انتهى.

و الظرف فى قوله: «إِذْ جَعَلَ» متعلق بقوله سابقاً: «وَصَدُّوكُمْ» و قيل: متعلق بقوله: «لَعَذَّبْنَا» و قيل: متعلق باذكر المقدر، و جعل بمعنى الإلقاء و «الَّذِينَ كَفَرُوا» فاعله و الحميه مفعوله و «حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ» بيان للحميه و الجاهليه وصف موضوع فى موضع الموصوف و التقدير المله الجاهليه.

و لو كان «جَعَلَ» بمعنى صير كان مفعوله الثانى مقدرًا و التقدير إذ جعل الذين كفروا الحميه راسخه فى قلوبهم و وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله: «جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» للدلاله على سبب الحكم.

و معنى الآية: هم الذين كفروا و صدوكم إذ ألقوا فى قلوبهم الحميه حميه المله الجاهليه.

وقوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» تفریع على قوله: «جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» و يفيد نوعاً من المقابله كأنه قيل: جعلوا فى قلوبهم الحميه فقابله الله سبحانه بإنزال السكينه على رسوله و على المؤمنين فطمأنت قلوبهم و لم يستخفهم الطيش و أظهروا السكينه و الوقار من غير أن يستفزهم الجهاله.

وقوله: «وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى» أى جعلها معهم لا- تنفك عنهم، و هى على ما اختاره جمهور المفسرين كلمه التوحيد و قيل: المراد الثبات على العهد و الوفاء به و قيل:

المراد بها السكينه و قيل: قولهم: بلى فى عالم الذر، و هو أسخف الأقوال.

و لا- يبعد أن يراد بها روح الإيمان التى تأمر بالتقوى كما قال تعالى: «أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ»
المجادله: ٢٢، و قد أطلق الله الكلمه على الروح فى قوله: «وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ»: النساء: ١٧١.

و قوله: «وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا» أما كونهم أحق بها فتمام استعدادهم لتلقى هذه العطيه الإلهيه بما عملوا من الصالحات فهم أحق بها من غيرهم، و أما كونهم أهلها فلأنهم مختصون بها لا توجد فى غيرهم و أهل الشىء خاصته.

و قيل: المراد و كانوا أحق بالسكينه و أهلها، و قيل: إن فى الكلام تقديم و تأخيرا و الأصل و كانوا أهلها و أحق بها و هو كما ترى.

و قوله: «وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» تذييل لقوله: «وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا» أو لجميع ما تقدم، و المعنى على الوجهين ظاهر.

قوله تعالى: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ»
إلخ، قيل: إن صدق و كذب مخفيين يتعديان إلى مفعولين يقال: صدقت زيدا الحديث و كذبت الحديث، و إلى المفعول الثانى
بفى يقال: صدقته فى الحديث و كذبت فيه، و مثقلين يتعديان إلى مفعول واحد يقال: صدقته فى حديثه و كذبت فى حديثه.

و اللام فى «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ» للقسم، و قوله: «لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» جواب القسم.

و قوله: «بِالْحَقِّ» حال من الرؤيا و الباء فيه للملابسه، و التعليق بالمشيه فى قوله:

«إِنْ شَاءَ اللَّهُ» لتعليم العباد و المعنى: أقسم لقد صدق الله رسوله فى الرؤيا التى أراه لتدخلن أيها المؤمنون المسجد الحرام إن شاء
الله حال كونكم آمنين من شر المشركين محلقين رءوسكم و مقصرين لا تخافون المشركين.

و قوله: «فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» «ذَلِكَ» إشاره إلى ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنين، و
المراد بقوله: «مِنْ دُونِ ذَلِكَ» أقرب من ذلك و المعنى: فعلم تعالى من المصلحه فى دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه
و لم تعلموه، و لذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحا قريبا ليتيسر لكم الدخول كذلك.

و من هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب في هذه الآية فتح الحديدية فهو الذى سوى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين و يسر لهم ذلك و لو لا- ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا- بالقتال و سفك الدماء و لا عمره مع ذلك لكن صلح الحديدية و ما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين فى العام القابل.

و من هنا تعرف أن قول بعضهم: إن المراد بالفتح القريب فى الآية فتح خيبر بعيد من السياق، و أما القول بأنه فتح مكة فأبعد.

و سياق الآية يعطى أن المراد بها إزالة الريب عن بعض من كان مع النبى ص فإن المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبى ص من دخولهم المسجد آمنين محلقيين رءوسهم و مقصرين، أنهم سيدخلونه كذلك فى عامهم ذلك فلما خرجوا قاصدين مكة معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبية و صدوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم فى الرؤيا فأزال الله ريبهم بما فى الآية.

و محصله: أن الرؤيا حقه أراها الله نبيه ص و قد صدق تعالى فى ذلك، و ستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقيين رءوسكم و مقصرين لا تخافون، لكنه تعالى أخره و قدم عليه هذا الفتح و هو صلح الحديدية ليتيسر لكم دخوله لعلمه تعالى بأنه لا يمكن لكم دخوله آمنين محلقيين رءوسكم و مقصرين لا تخافون إلا بهذا الطريق.

قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» إلخ، تقدم تفسيره فى سورة التوبة الآية ٣٣، و قوله: «وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا» أى شاهدا على صدق نبوته و الوعد إن دينه سيظهر على الدين كله أو على أن رؤياه صادقه، فالجمله تذييل ناظر إلى نفس الآية أو الآية السابقه.

بحث روائى

فى الدر المنثور، فى قوله تعالى: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ» الآية: أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن سلمه بن الأكوع قال: بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ص: أيها الناس البيعه البيعه نزل روح القدس، فثرنا إلى رسول

الله ص و هو تحت شجره سمره-فبايعناه فذلك قول الله تعالى: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى فقال الناس- هنيئا لابن عفان يطوف بالبيت ونحن هاهنا. فقال رسول الله ص: لو مكث كذا وكذا سنة- ما طاف حتى أطوف.

وفيه، أخرج عبد بن حميد و مسلم و ابن مردويه عن مغفل بن يسار قال " : لقد رأيتني يوم الشجره و النبي ص يبايع الناس- و أنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه- و نحن أربع عشره مائه و لم نبايعه على الموت- و لكن بايعناه على أن لا نفر.

أقول: كون المؤمنين يومئذ أربع عشره مائه مروى فى روايات أخرى، و فى بعض الروايات ألف و ثلاثمائه و فى بعضها إلى ألف و ثمان مائه، و كذا كون البيعه على أن لا يفروا و فى بعضها على الموت.

وفيه، أخرج أحمد عن جابر و مسلم عن أم بشر عنه عن النبي ص قال: * لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجره.

وفيه، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس " فى قوله تعالى: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ» قال: إنما أنزلت السكينه على من علم منه الوفاء.

أقول: و الروايه تخصص ما تقدم عليها و يدل عليه قوله تعالى فيما تقدم: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا» فاشتراط فى الأجر- و يلزمه الاشتراط فى الرضا- الوفاء و عدم النكث، و قد أورد القمى هذا المعنى فى تفسيره و كأنه روايه.

و فى الدر المثور، أيضا: فى قوله تعالى: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الآية: أخرج ابن أبي شيبه و أحمد و البخارى و مسلم و النسائى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن سهل بن حنيف * أنه قال يوم صفين: اتهموا أنفسكم- فلقد رأيتنا يوم الحديبيه نرجى الصلح- الذى كان بين النبي ص و بين المشركين- و لو نرى قتالا لقاتلنا.

فجاء عمر إلى رسول الله ص فقال: يا رسول الله- ألسنا على الحق و هم على الباطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا فى الجنة و قتلهم فى النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطى

الدنيه فى ديننا؟ و نرجع و لما يحكم الله بيننا و بينهم؟ قال: يا ابن الخطاب إني رسول الله و لن يضيعني الله أبدا.

فرجع متغيظا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر- فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق و هم على الباطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا فى الجنة و قتلهم فى النار؟ قال: بلى- قال: فلم نعطى الدنيه فى ديننا؟ قال: يا ابن الخطاب- إنه رسول الله و لن يضيعه الله أبدا فنزلت سوره الفتح- فأرسل رسول الله ص إلى عمر فأقرأه إياها- فقال: يا رسول الله أ و فتح هو؟ قال: نعم.

و فى كمال الدين، بإسناده عن منصور بن حازم عن أبى عبد الله (ع) * فى قول الله عز و جل: «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً» قال: لو أخرج الله ما فى أصلاب المؤمنين من الكافرين- و ما فى أصلاب الكافرين من المؤمنين- لعذبنا الذين كفروا.

أقول: و هذا المعنى مروى فى روايات أخر.

و بإسناده عن جميل قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قوله تعالى: «وَأَلْزَمَهُم كَلِمَةَ التَّقْوَى» قال: هو الإيمان.

و فى الدر المنثور، أخرج الترمذى و عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند و ابن جرير و الدارقطنى فى الإفراد و ابن مردويه و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى بن كعب عن النبى ص: «وَأَلْزَمَهُم كَلِمَةَ التَّقْوَى» قال: لا إله إلا الله.

أقول: و روى هذا المعنى أيضا بطرق أخرى عن على و سلمه بن الأكوع و أبى هريره،

و روى أيضا من طرق الشيعة كما فى العلل، بإسناده عن الحسن بن عبد الله عن آباءه عن جده الحسن بن على (ع) عن النبى ص: فى حديث يفسر فيه «سبحان الله و الحمد لله- و لا إله إلا الله و الله أكبر» قال (ص): و قوله: لا إله إلا الله يعنى وحدانيته- لا يقبل الله الأعمال إلا بها، و هى كلمه التقوى- يتقل الله بها الموازين يوم القيامة.

و فى المجمع، فى قصه فتح خيبر قال: و لما قدم رسول الله ص المدينه من الحديبيه- مكث بها عشرين ليله ثم خرج منها غاديا إلى خيبر.

ذكر ابن إسحاق بإسناده إلى أبى مروان الأسلمى عن أبيه عن جده قال*:

خرجنا مع رسول الله ص إلى خيبر- حتى إذا كنا قريبا منها و أشرفنا عليها- قال رسول

الله ص:قفوا فوقف الناس-فقال اللهم رب السماوات السبع و ما أظللن-و رب الأرضين السبع و ما أقللن-و رب الشياطين و ما أضللن-إنا نسألك خير هذه القرية و خير أهلها و خير ما فيها-و نعوذ بك من شر هذه القرية و شر أهلها و شر ما فيها.أقدموا بسم الله.

و عن سلمه بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ص إلى خيبر فسرنا ليلا- فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع:أ لا تسمعنا من هنيهاتك و كان عامر رجلا شاعرا فجعل يقول:

لا هم لو لا أنت ما حجينا-

و لا تصدقنا و لا صلينا-

فاغفر فداء لك ما اقتنينا-

و ثبت الأقدام إن لاقينا-

و أنزلن سكينه علينا-

إنا إذا صبح بنا أتينا-

و بالصياح عولوا علينا-

فقال رسول الله ص:من هذا السائق؟قالوا:عامر.قال:يرحمه الله.قال عمر و هو على جمل له وجيب (1):يا رسول الله لو لا أمتعتنا به،و ذلك أن رسول الله ص ما استغفر لرجل قط يخصه إلا استشهد.

قالوا:فلما جد الحرب و تصاف القوم خرج يهودى و هو يقول:

قد علمت خيبر أنى مرحب-

شاكى السلاح بطل مجرب-

إذا الحروب أقبلت تلهب-

فبرز إليه عامر و هو يقول:

قد علمت خيبر أنى عامر-

شاكى السلاح بطل مغامر-

فاختلفا ضربتین فوق سیف الیهودی فی ترس عامر-و کان سیف عامر فیہ قصر- فتناول بہ ساق الیهودی لیضربه فرجع ذباب سیفه- فأصاب عین ركبہ عامر فمات منه.

قال سلمه: فإذا نفر من أصحاب رسول الله ص يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه. قال: فأتيت النبي ص و أنا أبكي- فقلت: قالوا: إن عامرا بطل عمله،

ص: ٢٩٤

١-١) وجب البعير أعيى، ووجب برك و ضرب بنفسه الأرض.

فقال: من قال ذلك؟ قلت: نفر من أصحابك، فقال: كذب أولئك بل أوتى من الأجر مرتين.

قال: فحاصرناهم حتى أصابنا مخمصه شديد- ثم إن الله فتحها علينا، وذلك أن النبي ص أعطى اللواء عمر بن الخطاب- و نهض من نهض معه من الناس- فلقوا أهل خيبر فانكشف عمر و أصحابه- فرجعوا إلى رسول الله يجنبه أصحابه و يجنبهم، و كان رسول الله ص أخذته الشقيقه فلم يخرج إلى الناس- فقال حين أفاق من وجعه: ما فعل الناس بخيبر؟ فأخبر- فقال: لأعطين الرايه غدا رجلا يحب الله و رسوله- و يحبه الله و رسوله كرارا غير فرار- لا يرجع حتى يفتح الله على يديه.

و روى البخارى و مسلم عن قتبيه بن سعيد قال*: حدثنا يعقوب عن عبد الرحمن الإسكندراني عن أبي حازم قال: أخبرني سعد بن سهل: أن رسول الله ص قال يوم خيبر:

لأعطين هذه الرايه غدا رجلا يفتح الله على يديه- يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله.

قال: فبات الناس يدوكون بجملتهم أنهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ص- كلهم يرجون أن يعطاها.

فقال: أين على بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول الله هو يشتكى عينيه. قال:

فأرسلوا إليه فأتى به- فبصق رسول الله ص فى عينيه- فبرأ كأن لم يكن به وجع فأعطاه الرايه، فقال على: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. قال: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم- ثم أدهم إلى الإسلام- و أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله- فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا- خير لك من أن يكون لك حمر النعم.

قال سلمه: فبرز مرحب و هو يقول: قد علمت خير أنى مرحب... الأبيات، فبرز له على و هو يقول:

أنا الذى سمتنى أُمى حيدر-

كليث غابات كرىه المنظر-

أوفيهم بالصاع كيل السندره-

فضرب مرحبا ففلق رأسه فقتله و كان الفتح على يده.:

أورده مسلم فى صحيحه.

و روى أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي رافع مولى رسول الله ص قال:

خرجنا مع على حين بعثه رسول الله ص، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم-

فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده-فتناول على باب الحصن فتترس به عن نفسه-فلم يزل فى يده و هو يقاتل حتى فتح الله عليه-ثم ألقاه من يده،فلقد رأيتنى فى نفر مع سبعة أنا ثامنهم-نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه.

و بإسناده عن ليث بن أبي سليم عن أبي جعفر محمد بن على قال*:حدثنى جابر بن عبد الله: أن عليا حمل الباب يوم خيبر-حتى صعد المسلمون عليه فافتحموها،و أنه حرك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلا:.

قال:و روى من وجه آخر عن جابر:ثم اجتمع عليه سبعون رجلا فكان جهدهم أن أعادوا الباب.

و بإسناده عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: كان على يلبس فى الحر و الشتاء القباء-المحشو الثخين و ما يبالى الحر-فأتانى أصحابى فقالوا:إننا رأينا من أمير المؤمنين شيئا فهل رأيت؟فقلت:و ما هو؟قالوا:رأيناه يخرج علينا فى الحر الشديد-فى القباء المحشو الثخين و ما يبالى الحر،و يخرج علينا فى البرد الشديد فى الثوبين الخفيفين-و ما يبالى البرد فهل سمعت فى ذاك شيئا؟فقلت:لا فقالوا:فسل لنا أباك عن ذلك-فإنه يسمر معه فسألته-فقال:ما سمعت فى ذلك شيئا.

فدخل على على فسمر معه ثم سأله عن ذلك-فقال:أ و ما شهدت خيبر؟قلت:

بلى.قال:أ فما رأيت رسول الله حين دعا أبا بكر-فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقى القوم-ثم جاء بالناس و قد هزم ثم بعث إلى عمر-فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقى القوم-فقاتلهم ثم رجع و قد هزم.

فقال رسول الله ص:لأعطين الرايه اليوم-رجلا يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله-يفتح الله على يديه كرا را غير فرار-فدعانى و أعطانى الرايه ثم قال:اللهم اكفه الحر و البرد-فما وجدت بعد ذلك حرا و لا بردا و هذا كله منقول من كتاب دلائل النبوه للإمام أبى بكر البيهقى.

قال الطبرسى":ثم لم يزل رسول الله ص-يفتح الحصون حصنا حصنا و يحوز الأموال-حتى انتهوا إلى حصن الوطيح و السلازم-و كان آخر حصون خيبر افتتح، و حاصرهم رسول الله ص بضع عشره ليله.

قال ابن إسحاق: و لما افتتح القموص حصن أبى الحقيق-أتى رسول الله ص بصفيه بنت حيبى بن أخطب-و بأخرى معها فمر بهما بلال-و هو الذى جاء بهما-على قتلى من قتلى يهود-فلما رأتهم التى معها صفيه صاحت و صكت وجهها -و حث التراب على رأسها-فلما رآها رسول الله ص قال:أعزبوا عنى هذه الشيطانه،و أمر بصفيه فحيزت خلفه و ألقى عليها رداءه-فعرف المسلمون أنه قد اصطفاه لنفسه،و قال لبلال لما رأى من تلك اليهوديه ما رأى:أنزعت منك الرحمه يا بلال-حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟ و كانت صفيه قد رأت فى المنام-و هى عروس بكنانه بن الربيع بن أبى الحقيق- أن قمرا وقع فى حجرها فعرضت رؤياها على زوجها-فقال:ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمدا-و لطم وجهها لطمه اخضرت عينها منها-فأتى بها رسول الله ص و بها أثر منها-فسألها رسول الله ص ما هو؟ فأخبرته.

و أرسل ابن أبى الحقيق إلى رسول الله ص أنزل فأكلمك؟قال:نعم.فتزل و صالح رسول الله ص-على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتله-و ترك الذريه لهم، و يخرجون من خيبر و أرضها بذراريتهم-و يخلون بين رسول الله ص و بين ما كان لهم- من مال و أرض على الصفراء و البيضاء و الكراع (1)و الخلقه و على البز إلا- ثوبا على ظهر إنسان،و قال رسول الله ص فبرئت منكم ذمه الله و ذمه رسوله-إن كتمتمونى شيئا فصالحوه على ذلك.

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا-بعثوا إلى رسول الله ص يسألونه أن يسيرهم-و يحقن دماءهم و يخلون بينه و بين الأموال-ففعل و كان ممن مشى بين رسول الله ص-و بينهم فى ذلك محيصه بن مسعود أحد بنى حارثه.

فلما نزل أهل خيبر على ذلك-سألوا رسول الله ص أن يعاملهم الأموال على النصف،و قالوا:نحن أعلم بها منكم و أعمر لها- فصالحهم رسول الله ص على النصف- على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم،و صالحه أهل فدك على مثل ذلك-فكانت

ص: ٢٩٧

١- ١) الكراع:بضم الكاف مطلق الماشيه و الخلفه بالكسر فالسكون الأثاث و البز الثوب.

أموال خبير فيثا بين المسلمين-و كانت فدك خالصه لرسول الله ص-لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب.

و لما اطمأن رسول الله ص-أهدت له زينب بنت الحارث-امراه سلام بن مشكم و هى ابنه أختى مرحب شاه مصليه،و قد سألت أى عضو أحب إلى رسول الله ص- فقيل لها:الذراع فأكثرت فيها السم-و سمت سائر الشاه ثم جاءت بها-فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع-فأخذها و لأك منها مضغه و انتهش منها-و معه بشر بن البراء بن معرور فتناول عظاما فانتهش منه-فقال رسول الله ص:ارفعوا أيديكم-فإن كتف هذه الشاه يخبرنى أنها مسمومه-ثم دعاها فاعترفت فقال:ما حملك على ذلك؟فقال:

بلغت من قومي ما لم يخف عليك-فقلت:إن كان نبيا فسيخبر-و إن كان ملكا استرحت منه-فتجاوز عنها رسول الله ص-و مات بشر بن البراء من أكلته التى أكل.

قال:و دخلت أم بشر بن البراء على رسول الله ص-يعوده فى مرضه الذى توفى فيه-فقال(ص):يا أم بشر ما زالت أكله خبير-التي أكلت بخبير مع ابنك تعاودنى- فهذا أوان قطعت أبهرى،و كان المسلمون يرون أن رسول الله ص مات شهيدا-مع ما أكرمه الله به من النبوه.

[سوره الفتح (٤٨): آيه ٢٩]

أشاره

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سِجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَّمَاهُمْ فِي
وَجْوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ
يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

ص: ٢٩٨

الآية خاتمه السوره تصف النبي ص و تصف الذين معه بما وصفهم به فى التوراه و الإنجيل و تعد الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات و عدا جميلا، و للآيه اتصال بما قبلها حيث أخبر فيه أنه أرسل رسوله بالهدى و دين الحق.

قوله تعالى: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» إلى آخر الآيه، الظاهر أنه مبتدأ و خبر فهو كلام تام، و قيل: «مُحَمَّدٌ» خبر مبتدأ محذوف و هو ضمير عائد إلى الرسول فى الآيه السابقه و التقدير: هو محمد، و «رَسُولُ اللَّهِ» عطف بيان أو صفه أو بدل، و قيل:

«مُحَمَّدٌ» مبتدأ و «رَسُولُ اللَّهِ» عطف بيان أو صفه أو بدل و «الَّذِينَ مَعَهُ» معطوف على المبتدأ و «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» إلخ، خبر المبتدأ.

و قوله: «وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» مبتدأ و خبر، فالكلام مسوق لتوصيف الذين معه و الشده و الرحمه المذكورتان من نعوتهم.

و تعقيب قوله: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» بقوله: «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» لدفع ما يمكن أن يتوهم أن كونهم أشداء على الكفار يستوجب بعض الشده فيما بينهم فدفع ذلك بقوله:

«رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» و أفادت الجملتان أن سيرتهم مع الكفار الشده و مع المؤمنين فيما بينهم الرحمه.

و قوله: «تَرَاهُمْ رُكْعًا سِجْدًا» الركع و السجد جمعا راعع و ساجد، و المراد بكونهم ركعا سجدا إقامتهم للصلاه، و «تَرَاهُمْ» يفيد الاستمرار، و المحصل: أنهم مستمررون على الصلاه، و الجمله خبر بعد خبر للذين معه.

و قوله: «يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا» الابتغاء الطلب، و الفضل العطييه و هو الثواب، و الرضوان أبلغ من الرضا.

و الجمله إن كانت مسوقه لبيان غايتهم من الركوع و السجود كان الأنسب أن تكون حالا من ضمير المفعول فى «تَرَاهُمْ» و إن كانت مسوقه لبيان غايتهم من الحياه مطلقا كما هو الظاهر كانت خبرا بعد خبر للذين معه.

و قوله: «سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» السيماء العلامه و «سَيِّمَاهُمْ فِي

«مبتدأ و خبر و» «مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» حال من الضمير المستكن في الخبر أو بيان للشيء أى إن سجودهم لله تذللا و تخشعا أثر في وجوههم أثرا و هو سيما الخشوع لله يعرفهم به من رأيهم، و يقرب من هذا المعنى ما عن الصادق (ع) أنه السهر في الصلاة (1).

و قيل: المراد أثر التراب في جباههم لأنهم كانوا إنما يسجدون على التراب لا على الأثواب.

و قيل: المراد سيماهم يوم القيامة فيكون موضع سجودهم يومئذ مشرقا مستنيرا.

و قوله: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» المثل هو الصفه أى الذى وصفناهم به من أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم إلخ، و صفهم الذى وصفناهم به فى الكتابين التوراه و الإنجيل.

فقوله: «وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» معطوف على قوله: «مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ» و قيل:

إن قوله: «وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» إلخ، استئناف منقطع عما قبله، و هو مبتدأ خبره قوله: «كَرَزَعٌ أَخْرَجَ شَطَأَهُ» إلخ، فيكون وصفهم فى التوراه هو أنهم أشداء على الكفار- إلى قوله: «مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ»، و وصفهم فى الإنجيل هو أنهم كزرع أخرج شطأه إلخ.

و قوله: «كَرَزَعٌ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَأَزَرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ» شطاء النبات أفراخه التى تتولد منه و تنبت حوله، و الإيزار الإعانه، و الاستغلاظ الأخذ فى الغلظه، و السوق جمع ساق، و الزراع جمع زارع.

و المعنى: هم كزرع أخرج أفراخه فأعانها فقويت و غلظت و قام على سوقه يعجب الزراعين بجوده رشده.

و فيه إشاره إلى أخذ المؤمنين فى زياده و العده و القوه يوما فيوما و لذلك عقبه بقوله: «لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ».

وقوله: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» ضمير «مِنْهُمْ» للذين معه، و«مِنْ» للتبويض على ما هو الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم و يفيد الكلام اشتراط المغفرة و الأجر العظيم بالإيمان حدودا و بقاء و عمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلا كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير إليه قوله تعالى:

«وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» :التوبة: ١٠١، أو آمن أولا ثم أشرك و كفر كما فى قوله: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ -X إلى أن قال X- وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَاهُمْ» :سوره محمد: ٣٠.

أو آمن و لم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك (١) و آيه التبين فى نأ الفاسق و أمثال ذلك لم يشمله وعد المغفرة و الأجر العظيم.

و نظير هذا الاشتراط ما تقدم فى قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَ يُوْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا» و يؤيده أيضا ما فهمه ابن عباس من قوله تعالى: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ» حيث فسره بقوله: إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء، و قد تقدمت الروايه.

و نظير الآيه أيضا فى الاشتراط قوله تعالى: «وَعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسُدَّ خَلْفَهُمْ فِي الْأَرْضِ -X إلى أن قال X- وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» :النور: ٥٥.

و قيل: إن «مِنْ» فى الآيه بيانيه لا تبويضيه فتفيد شمول الوعد لجميع الذين معه.

و هو مدفوع- كما قيل- بأن «مِنْ» البيانيه لا تدخل على الضمير مطلقا فى

ص: ٣٠١

١- ١) فمن أهل الإفك من هو صحابى بدرى و قد قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» :النور: ٢٣، و من نزل فيه: إن جاءكم فاسق بنيا فتبينوا» :الحجرات: ٦، و هو الوليد بن عقبه صحابى و قد سماه الله فاسقا و قد قال تعالى: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» :التوبة: ٩٦.

كلامهم، والاستشهاد لذلك بقوله تعالى: «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَيْدْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ» مبنى على إرجاع ضمير «تَزَيَّلُوا» إلى المؤمنين و ضمير «مِنْهُمْ» للذين كفروا، وقد تقدم في تفسير الآيه أن الضميرين جميعا راجعان إلى مجموع المؤمنين و الكافرين من أهل مكة فتكون «مَنْ» تبعيضية لا بيانية.

و بعد ذلك كله لو كانت العده بالمغفرة أو نفس المغفرة شملتهم شمولاً مطلقاً من غير اشتراط بالإيمان و العمل الصالح و كانوا مغفورين- آمنوا أو أشركوا أو أصلحوا أو فسقوا- لزمته لزوماً بينا لغويه جميع التكليف الدينيه فى حقهم و ارتفاعها عنهم و هذا مما يدفعه الكتاب و السنه فهذا الاشتراط ثابت فى نفسه و إن لم يتعرض له فى اللفظ، و قد قال تعالى فى أنبيائه: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»: الأنعام: ٨٨، فأثبتته فى أنبيائه و هم معصومون فكيف فيمن هو دونهم.

فإن قيل: اشتراط الوعد بالمغفرة و الأجر العظيم بالإيمان و العمل الصالح اشتراط عقلى كما ذكر و لا سبيل إلى إنكاره لكن سياق قوله: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ» يشهد باتصافهم بالإيمان و عمل الصالحات و أنهم واجدون للشرط.

و خاصه بالنظر إلى تأخير «مِنْهُمْ» عن قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» حيث يدل على أن عمل الصالحات لا ينفك عنهم بخلاف قوله فى آيه النور: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ»: النور: ٥٥، كما ذكره بعضهم، و يؤيده أيضاً قوله فى مدحهم «رَأَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَتَنَبَّغُونَ فَضُلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا» حيث يدل على الاستمرار.

قلنا: أما تأخير «مِنْهُمْ» فى الآيه فليس للدلاله على كون العمل الصالح لا ينفك عنهم بل لأن موضوع الحكم هو مجموع «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» و لا- يترتب على مجرد الإيمان من دون العمل الصالح أثر المغفرة و الأجر ثم قوله: «مِنْهُمْ» متعلق بمجموع الموضوع فمن حقه أن يذكر بعد تمام الموضوع و هو «الذين آمنوا و عملوا الصالحات»، و أما تقدم الضمير فى قوله: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ» فلا نه مسوق سوق البشرى للمؤمنين و الأنسب لها التسريع فى خطاب من بشر بها لينشط بذلك و ينبسط لتلقى البشرى.

و أما دلالة قوله: «لَرَأَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا» إلخ، على الاستمرار فإنما يدل عليه في ما مضى إلى أن ينتهي إلى الحال، و أما في المستقبل فلا و مصب إشكال لغويه الأحكام إنما هو المستقبل دون الماضي إذ مغفره الذنوب الماضيه لا تراحم تعلق التكليف بل تؤكد به بخلاف تعلق المغفره المطلقه بما سيأتي فإنه لا يجمع بقاء التكليف المولوى على اعتباره فيرتفع بذلك التكليف و هو مقطوع البطلان. على أن ارتفاع التكاليف يستلزم ارتفاع المعصيه و يرتفع بارتفاعها موضوع المغفره فوجود المغفره كذلك يستلزم عدمها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَزْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصَادُوا بِحُجَّتِهِمْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّامًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصِلَا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحِدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

تتضمن السوره مسائل من شرائع الدين بها تتم الحياه السعيده للفرد و يستقر النظام الصالح الطيب فى المجتمع منها ما هو أدب جميل للعبد مع الله سبحانه و مع رسوله كما فى الآيات الخمس فى مفتح السوره، و منها ما يتعلق بالإنسان مع أمثاله من حيث وقوعهم فى المجتمع الحيوى، و منها ما يتعلق بتفاضل الأفراد و هو من أهم ما ينتظم به الاجتماع المدنى و يهدى الإنسان إلى الحياه السعيده و العيش الطيب الهنىء و يتميز به دين الحق من غيره من السنن الاجتماعيه القانونيه و غيرها و تختتم السوره بالإشاره إلى حقيقه الإيمان و الإسلام و امتنانه تعالى بما يفيضه من نور الإيمان.

و السوره مدنيه بشهاده مضامين آياتها سوى ما قيل فى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى» الآية و سيجىء.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» بين يدى الشىء أمامه و هو استعمال شائع مجازى أو استعارى و إضافته إلى الله و رسوله معالاً- إلى الرسول دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى و بين رسوله و هو مقام الحكم الذى يختص بالله سبحانه و برسوله بإذنه كما قال تعالى: «إِنَّ

الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» : يوسف: ٤٠، وقال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ» النساء: ٦٤.

و من الشاهد على ذلك تصدير النهى بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» و تذييله بقوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» الظاهر في أن المراد بما بين يدي الله و رسوله هو المقام الذي يربط المؤمنين المتقين بالله و رسوله و هو مقام الحكم الذي يأخذون منه أحكامهم الاعتقادية و العمليه.

و بذلك يظهر أن المراد بقوله: «لَا تُقَدِّمُوا» تقديم شيء ما من الحكم قبال حكم الله و رسوله إما بالاستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله و رسوله أو إلى فعل قبل أن يتلقوا الأمر به من الله و رسوله لكن تذييله تعالى النهى بقوله: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» يناسب تقديم القول دون تقديم الفعل و دون الأعم الشامل للقول و الفعل و الإلحاق: إن الله سميع بصير ليحاذي بالسميع القول و بالبصير الفعل كما يأتي تعالى في كثير من موارد الفعل بمثل قوله: «وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»: الحديد: ٤، فمحصل المعنى: أن لا تحكموا فيما لله و لرسوله فيه حكم إلا بعد حكم الله و رسوله أى لا تحكموا إلا بحكم الله و رسوله و لتكن عليكم سمه الاتباع و الاقتفاء.

لكن بالنظر إلى أن كل فعل و ترك من الإنسان لا يخلو من حكم له فيه و كذلك العزم و الإرادة إلى فعل أو ترك يدخل الأفعال و التروك و كذا إرادتها و العزم عليها في حكم الاتباع، و يفيد النهى عن التقديم بين يدي الله و رسوله النهى عن المبادره و الإقدام إلى قول لم يسمع من الله و رسوله، و إلى فعل أو ترك أو عزم و إرادته بالنسبه إلى شيء منهما قبل تلقي الحكم من الله و رسوله فتكون الآيه قريبه المعنى من قوله تعالى في صفه الملائكه: «بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» الأنبياء: ٢٧.

و هذا الاتباع المنسوب إليه بقوله: «لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» هو الدخول في ولايه الله و الوقوف في موقف العبوديه و السير في مسيرها بجعل العبد مشيته تابعه لمشيئه الله في مرحله التشريع كما أنها تابعه لها في مرحله التكوين قال تعالى: «وَ مَا تَشَاوَنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» : الإنسان: ٣٠، وقال: «وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» : آل عمران:

٦٨، وقال: «وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» : الجاثيه: ١٩.

و للقوم في قوله تعالى: «لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» وجوه

منها: أن التقديم بمعنى التقدم فهو لازم ومعنى «لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» لا تعجلوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ولا تقطعوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله، وربما قيل: إن التقديم فى الآية بمعناه المعروف لكنه مستعمل بالإعراض عن متعلقاته كقوله: «يُحْيِي وَيُمِيتُ»: الحديد: ٢، فيؤول المعنى إلى مجرد كون شىء قدام شىء فيرجع إلى معنى التقدم.

واللفظ مطلق يشمل التقدم فى قول أو فعل حتى التقدم على النبى ص فى المشيه و الجلسه، و التقدم بالطاعات الموقته قبل وقتها و غير ذلك.

و منها: أن المراد النهى عن التكلم قبل رسول الله ص أى إذا كنتم فى مجلسه و سئل عن شىء فلا تسبقوه بالجواب حتى يجيب هو أولا.

و منها: أن المعنى: لا تسبقوه بقول أو فعل حتى يأمركم به.

و منها: أن المعنى: لا تقدموا أقوالكم و أفعالكم على قول النبى ص و فعله و لا تمكنوا أحدا يمشى أمامه.

و الظاهر أن تفسير «لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» بالنهى عن التقديم بين يدى رسول الله ص فقط فى هذه الوجوه الثلاثه الأخره مبنى على حملهم ذكر الله تعالى مع رسوله فى الآية على نوع من التشريف كقوله: أعجبنى زيد و كرمه فيكون ذكره تعالى للإشاره إلى أن السبقه على النبى ص على أى حال فى معنى السبقه على الله سبحانه.

و لعل التأمل فيما قدمناه من الوجه يكفيك فى المنع عن المصير إلى شىء من هذه الوجوه.

و قوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» أمر بالتقوى فى موقف الاتباع و العبوديه و لا ظرف للإنسان إلا ظرف العبوديه و لذلك أطلق التقوى.

و فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» تعليل للنهى و التقوى فيه أى اتقوه بالانتهاء عن هذا النهى فلا- تقدموا قولا- بلسانكم و لا- فى سركم لأن الله سميع يسمع أقوالكم عليم يعلم ظاهركم و باطنكم و علانيتكم و سركم.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ» إلخ، و ذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته و تكليمه (ص) أرفع من صوته و أجهر لأن فى

ذلك كما قيل أحد شيئين: إما نوع استخفاف به و هو الكفر، وإما إساءة الأدب بالنسبه إلى مقامه و هو خلاف التعظيم و التوقير المأمور به.

وقوله: «وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ» فإن من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم فخطاب العظماء بالجهر فيه كخطاب عامه الناس لا يخلو من إساءة الأدب و الوقاحه.

وقوله: «أَنْ تَحْيِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» أى لثلا- تحبط أو كراهه أن تحبط أعمالكم، و هو متعلق بالنهيين جميعا أى إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته و الجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض لثلا تبطل أعمالكم بذلك من حيث لا تشعرون فإن فيهما الحبط، و قد تقدم القول فى الحبط فى الجزء الثانى من الكتاب.

و جوز بعضهم كون «أَنْ تَحْيِطَ» إلخ، تعليلا- للمنهى عنه و هو الرفع و الجهر، و المعنى: فعلكم ذلك لأجل الحبوط منهى عنه، و الفرق بين تعليله للنهى و تعليله للمنهى عنه أن الفعل المنهى عنه معلل على الأول و الفعل المعلل منهى عنه على الثانى، و فيه تكلف ظاهر.

و ظاهر الآيه أن رفع الصوت فوق صوت النبى ص و الجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط فيكون من المعاصى غير الكفر ما يوجب الحبط.

و قد توجه الآيه بأن المراد بالحبط فقدان نفس العمل للثواب لا إبطال العمل ثواب سائر الأعمال كما فى الكفر، قال فى مجمع البيان، و قال أصحابنا: أن المعنى فى قوله:

«أَنْ تَحْيِطَ أَعْمَالُكُمْ» إنه ينحبط ثواب ذلك العمل لأنهم لو أوقعوه على وجه تعظيم النبى ص و توقيره لاستحقوا الثواب فلما أوقعوه على خلاف ذلك الوجه استحقوا العقاب و فاتهم ذلك الثواب فانحبط عملهم فلا تعلق لأهل الوعيد بهذه الآيه.

و لأنه تعالى علق الإحباط فى هذه الآيه بنفس العمل و هم يعلقونه بالمستحق على العمل و ذلك خلاف الظاهر. انتهى.

و فيه أن الحبط المتعلق بالكفر الذى لا- ريب فى تعلقه بثواب الأعمال أيضا متعلق فى كلامه بنفس الأعمال كما فى هذه الآيه فلتحمل هذه على ما حملت عليه ذلك من غير فرق، و كونه خلاف الظاهر ممنوع فإن بطلان العمل بطلان أثره المترتب عليه.

وقد توجه الآيه أيضا بالبناء على اختصاص الحبط بالكفر بأن رفع الصوت فوق صوت النبي ص و الجهر له بالقول ليسا بمحيطين من حيث أنفسهما بل من حيث أدائهما أحيانا إلى إيذائه(ص)و إيذاؤه كفر و الكفر محبط للعمل.

قال بعضهم:المراد فى الآيه النهى عن رفع الصوت مطلقا و معلوم أن ملاكه التحذر مما يتوقع فيه من إيذاء النبي ص الذى هو كفر محبط للعمل بالاتفاق.فورد النهى عما هو مظنه أذاه-سواء وجد هذا المعنى أو لا-حمايه للحومه و حسما للماده.

ثم لما كان هذا المنهى عنه منقسما إلى ما يبلغ حد الكفر و هو المؤذى له عليه الصلاه و السلام و إلى ما لا يبلغ ذلك المبلغ،و لا دليل يميز أحد القسمين من الآخر و لو فرض وجوده لم يلتفت إليه فى كثير من الأحيان،لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقا مخافه أن يقع فيما هو محبط للعمل و هو البالغ حد الأذى.

و إلى التباس أحد القسمين بالآخر الإشاره بقوله تعالى: «أَنْ تَحْطِطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» و إلا فلو كان رفع الصوت و الجهر بالقول منهيها عنهما مطلقا سواء بلغا حد الأذى أو لم يبلغا لم يكن موقع لقوله تعالى: «وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» إذ الأمر منحصر بين أن يكون رفع الصوت أو الجهر بالقول بالغما حد الأذى فيكون كفرا محبطا قطعيا أو غير بالغ فيكون أيضا ذنبا محبطا قطعيا فالإحباط محقق على أى تقدير فلا موقع لإدعام الكلام بعدم الشعور مع أن الشعور ثابت مطلقا للعلم به بعد النهى.انتهى ملخصا.

و فيه أن ظهور قوله: «لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ» فى النهى النفسى دون النهى المقدمى أخذا بالاحتياط مما لا ريب فيه لكن كلا من الفعلين مما يدرك كونه عملا سيئا عقلا قبل ورود النهى الشرعى عنه كالافتراء و الإفك،و كان الذين يأتون بهما المؤمنين كما صدر النهى بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» و هم و إن أمكن أن يسامحوا فى بعض السيئات بحسبانه هينا لكنهم لا يرضون ببطلان إيمانهم و أعمالهم الصالحه من أصله.

ففيه سبحانه بقوله: «أَنْ تَحْطِطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» على أنكم لا- تشعرون بما لذلك من الأثر الهائل العظيم فإنما هو إحباط الأعمال فلا تقربوا شيئا منهما أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشعرون.

ف قوله: « وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » ناظر إلى حالهم قبل النهى حيث كانوا يشعرون بكون الفعل سيئه لكنهم ما كانوا يعلمون بعظمه مساءته لهذا الحد، و أما بعد صدور البيان الإلهي فهم شاعرون بالإحباط.

ف الآيه من وجه نظيره قوله تعالى فى آيات الإفك: « وَ تَحْسَبُ بُؤْنَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ »: النور: ١٥، و قوله فى آيات القيامة: « وَ بَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ »: الزمر: ٤٧.

قوله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ يُغْضُونَ أَعْيُنَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى » إلخ، غرض الصوت خلاف رفعه، و معنى الامتحان الابتلاء و الاختبار و إنما يكون لتحصيل العلم بحال الشىء المجهول قبل ذلك، و إذ يستحيل ذلك فى حقه تعالى فالمراد به هنا التمرين و التعويد- كما قيل- أو حمل المحنه و المشقه على القلب ليعتاد بالتقوى.

و الآيه مسوقه للوعد الجميل على غض الصوت عند رسول الله ص بعد توصيفهم بأن قلوبهم ممتحنه للتقوى و الذى امتحنهم لذلك هو الله سبحانه، و فيه تأكيد و تقويه لمضمون الآيه السابقه و تشويق للانتهاج بما فيها من النهى.

و فى التعبير عنه (ص) فى هذه الآيه برسول الله بعد التعبير عنه فى الآيه السابقه بالنبى إشاره إلى ملاك الحكم فإن الرسول بما هو رسول ليس له من الأمر شىء فما له فلمرسله، و تعظيمه و توقيره تعظيم لمرسله و توقير له فغض الصوت عند رسول الله تعظيم و تكبير لله سبحانه، و المداومه و الاستمرار على ذلك- كما يستفاد من قوله: « يُغْضُونَ » المفيد للاستمرار- كاشف عن تخلفهم بالتقوى و امتحانه تعالى قلوبهم للتقوى.

و قوله: « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ » وعد جميل لهم بإزاء ما فى قلوبهم من تقوى الله، و العاقبه للتقوى.

قوله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » سياق الآيه يودى أنه واقع و أنهم كانوا قوما من الجفاه ينادونه (ص) من وراء حجرات بيته من غير رعايه لمقتضى الأدب و واجب التعظيم و التوقير فذمهم الله سبحانه حيث وصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون كالبهائم من الحيوان.

قوله تعالى: « وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى و لو أنهم صبروا عن ندائك فلم ينادوك حتى تخرج إليهم لكان خيرا لما فيه من حسن الأدب و رعايه التعظيم و التوقير لمقام رساله، و كان ذلك مقربا لهم إلى مغفره الله و رحمته لأنه غفور رحيم.

فقوله: « وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » كالناظر إلى ما ذكر من الصبر و يمكن أن يكون ناظرا إلى كون أكثرهم لا- يعقلون و المعنى: أن ما صدر عنهم من الجهالة و سوء الأدب معفو عنه لأنه لم يكن عن تعقل و فهم منهم بل عن قصور فى ذلك و الله غفور رحيم.

قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » إلخ، الفاسق - كما قيل - الخارج عن الطاعة إلى المعصية، و النبأ الخبر العظيم الشأن، و التبين و الاستبانة و الإبانة - على ما فى الصحاح - بمعنى واحد و هى تتعدى و لا تتعدى فإذا تعدت كانت بمعنى الإيضاح و الإظهار يقال: تبينت الأمر و استتبته و أبنته أى أوضحتها و أظهرته، و إذا لزمتم كانت بمعنى الاتضاح و الظهور يقال: أبان الأمر و استبان و تبين أى اتضح و ظهر.

و معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر ذى شأن فتبينوا خبره بالبحث و الفحص للوقوف على حقيقته حذر أن تصيبوا قوما بجهاله فتصيروا نادمين على ما فعلتم بهم.

و قد أمضى الله سبحانه فى هذه الآية أصل العمل بالخبر و هو من الأصول العقلانية التى يبنى عليه أساس الحياه الاجتماعيه الإنسانية، و أمر بالتبين فى خبر الفاسق و هو فى معنى النهى عن العمل بخبره، و حقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجته و هذا أيضا كالإمضاء لما بنى عليه العقلاء من عدم حجيه الخبر الذى لا يوثق بمن يخبر به و عدم ترتيب الأثر على خبره.

بيان ذلك: أن حياه الإنسان حياه علميه يبنى فيها سلوكه طريق الحياه على ما يشاهده من الخير و الشر و النافع و الضار و الرأى الذى يأخذ به فيه، و لا يتيسر له ذلك إلا فيما هو بمراى منه و مشهد، و ما غاب عنه مما تتعلق به حياته و معاشه أكثر مما يحضره و أكثر فاضطر إلى تتميم ما عنده من العلم بما هو عند غيره من العلم الحاصل بالمشاهده و النظر، و لا طريق إليه إلا السمع و هو الخبر.

فالركون إلى الخبر بمعنى ترتيب الأثر عليه عملاً و معاملته مضمونه معاملته العلم الحاصل للإنسان من طريق المشاهدة و النظر في الجملة مما يتوقف عليه حياة الإنسان الاجتماعية توقفاً ابتدائياً، و عليه بناء العقلاء و مدار العمل.

فالخبر إن كان متواتراً أو محفوفاً بقرائن قطعية توجب قطعيه مضمونه كان حجه معتبره من غير توقف فيها فإن لم يكن متواتراً و لا محفوفاً بما يفيد قطعيه مضمونه و هو المسمى بخبر الواحد اصطلاحاً كان المعتبر منه عندهم ما هو الموثوق به بحسب نوعه و إن لم يفده بحسب شخصه، و كل ذلك لأنهم لا يعملون إلا بما يرونه علماً و هو العلم الحقيقي أو الوثوق و الظن الاطمئنانى المعدود علماً عاداً.

إذا تمهد هذا فقوله تعالى في تعليل الأمر بالتبين في خبر الفاسق: «أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ» إلخ، يفيد أن المأمور به هو رفع الجهالة و حصول العلم بمضمون الخبر عند ما يراد العمل به و ترتيب الأثر عليه ففي الآيه إثبات ما أثبتته العقلاء و نفى ما نفوه في هذا الباب، و هو إمضاء لا تأسيس.

قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» إلخ، العنت الإثم و الهلاك، و الطوع و الطاعة الانقياد لكن أكثر ما يقال الطاعة في الائتمار لما أمر و الارتسام لما رسم على ما ذكره الراغب لكن ربما يعكس الأمر فيسمى جرى المتبوع على ما يريده التابع و يهواه طاعه من المتبوع للتابع و منه قوله تعالى في الآيه: «لَوْ يُطِيعُكُمْ» حيث سمي عمل الرسول على ما يراه و يهواه المؤمنون طاعه منه لهم.

و الآيه على ما يفيدته السياق من تتمه الكلام في الآيه السابقه تعمم ما فيها من الحكم و تؤكد ما فيها من التعليل فمضمون الآيه السابقه الحكم بوجود التبين في خبر الفاسق و تعليله بوجود التحرز عن بناء العمل على الجهالة، و مضمون هذه الآيه تنبيه المؤمنين على أن الله سبحانه أوردتهم شرع الرشد و لذلك حجب إليهم الإيمان و زينه في قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان فعليهم أن لا يغفلوا عن أن فيهم رسول الله و هو مؤيد من عند الله و على بينه من ربه لا يسلك إلا سبيل الرشد دون الغي فعليهم أن يطيعوا الرسول ص فيما يأمرهم به و يريدوا ما أراه و يختاروا ما اختاره، و لا يصروا على أن يطيعهم في آرائهم و أهوائهم فإنه لو يطيعهم في كثير من الأمر جهدوا و هلكوا.

فقله: « وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ » عطف على قوله في الآية السابقة:

« فَتَبَيَّنُوا » و تقديم الخبر للدلالة على الحصر، و الإشارة إلى ما هو لازمه فإن اختصاصهم بكون رسول الله ص فيهم لازمه أن يتعلقوا بالرشد و يتجنبوا الغى و يرجعوا الأمور إليه و يطيعوه و يتبعوا أثره و لا يتعلقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم.

فالمعنى: و لا- تنسوا أن فيكم رسول الله، و هو كناية عن أنه يجب عليهم أن يرجعوا الأمور و يسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يراه و يأمر به من غير أن يتبعوا أهواء أنفسهم.

و قوله: « لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ » أى جهدتم و هلكتم، و الجملة كالجواب لسؤال مقدر كان سائلا يسأل فيقول: لما ذا نرجع إليه و لا يرجع إلينا و لا يوافقنا؟ فأجيب بأنه « لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ».

و قوله: « وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ » استدراك عما يدل عليه الجملة السابقة: « لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ » من أنهم مشرفون بالطبع على الهلاك و الغى فاستدرك أن الله سبحانه أصلح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب الإيمان و تكريه الكفر و الفسوق و العصيان.

و المراد بتحبيب الإيمان إليهم جعله محبوبا عندهم و بتزيينه فى قلوبهم تحليته بجمال يجذب قلوبهم إلى نفسه فيتعلقون به و يعرضون عما يلهيهم عنه.

و قوله: « وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ » عطف على « حَبَّبَ » و تكريه الكفر و ما يتبعه إليهم جعلها مكروهه عندهم تتنفر عنها نفوسهم، و الفرق بين الفسوق و العصيان- على ما قيل- إن الفسوق هو الخروج عن الطاعة إلى المعصية، و العصيان نفس المعصية و إن شئت فقل: جميع المعاصى، و قيل: المراد بالفسوق الكذب بقريته الآية السابقة و العصيان سائر المعاصى.

و قوله: « أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ » بيان أن حب الإيمان و الانجذاب إليه و كراهه الكفر و الفسوق و العصيان هو سبب الرشد الذى يطلبه الإنسان بفطرته و يتنفر عن الغى الذى يقابله فعلى المؤمنين أن يلزموا الإيمان و يتجنبوا الكفر و الفسوق و العصيان حتى يرشدوا و يتبعوا الرسول و لا يتبعوا أهواءهم.

و لما كان حب الإيمان و الانجذاب إليه و كراهه الكفر و نحوه صفه بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرح به الآيه السابقه، و قد وصف بذلك جماعتهم تحفظا على وحدتهم و تشويقا لمن لم يتصف بذلك منهم غير السياق و التفت عن خطابهم إلى خطاب النبي ص فقال: «أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ» و الإشاره إلى من اتصف بحب الإيمان و كراهه الكفر و الفسوق و العصيان، ليكون مدحا للمتصفين بذلك و تشويقا لغيرهم.

و اعلم أن في قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» إشعارا بأن قوما من المؤمنين كانوا مصرين على قبول نبأ الفاسق الذي تشير إليه الآيه السابقه، و هو الوليد بن عقبه أرسله النبي ص إلى بنى المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء إليهم فلما رآهم هابهم و رجع إلى المدينة و أخبر النبي ص أنهم ارتدوا فعزم النبي ص على قتالهم فنزلت الآيه فانصرف و في القوم بعض من يصر على أن يغزوههم.

و سيجيء القصه في البحث الروائي التالي.

قوله تعالى: «فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» تعليل لما تقدم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الإيمان و تزيينه و تكريه الكفر و الفسوق و العصيان أى إن ذلك منه تعالى مجرد عطيه و نعمه لا إلى بدل يصل إليه منهم لكن ليس فعلا جزافيا فإنه تعالى عليهم بمورد عطيته و نعمته حكيم لا يفعل ما يفعل جزافا كما قال: «وَ أَلْزَمَهُمُ الْكَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا»: الفتح: ٢٦.

قوله تعالى: «وَ إِنَّ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا» إلى آخر الآيه الاقتتال و التقاتل بمعنى واحد كالاقتتال و التسابق، و رجوع ضمير الجمع في «اقْتَتَلُوا» إلى الطائفتين باعتبار المعنى فإن كلا من الطائفتين جماعه و مجموعهما جماعه كما أن رجوع ضمير التثنيه إليهما باعتبار المعنى.

و نقل عن بعضهم في وجه التفرقه بين الضميرين: أنهم أولا في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولا ضميرهم، و في حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثنى الضمير.

و قوله: «فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» البغى الظلم و التعدى بغير حق، و الفيء الرجوع، و المراد بأمر الله ما أمر به

الله، والمعنى: فإن تعدت إحدى الطائفتين على الأخرى بغير حق فقاتلوا الطائفة المتعدية حتى ترجع إلى ما أمر به الله و تنقاد لحكمه.

وقوله: «فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ» أى فإن رجعت الطائفة المتعدية إلى أمر الله فأصلحوا بينهما لكن لا إصلاحا بوضع السلاح و ترك القتال فحسب بل إصلاحا متلبسا بالعدل بإجراء أحكام الله فيما تعدت به المتعدية من دم أو عرض أو مال أو أى حق آخر ضيعته.

وقوله: «وَ أَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» الإقساط إعطاء كل ما يستحقه من القسط و السهم و هو العدل فعطف قوله: «وَ أَقْسَطُوا» على قوله: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ» من عطف المطلق على المقيد للتأكيد، وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» تعليل يفيد تأكيدا على تأكيد كأنه قيل: أصلحوا بينهما بالعدل و أعدلوا دائما و فى جميع الأمور لأن الله يحب العادلين لعدالتهم.

قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ» استئناف مؤكد لما تقدم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين، و قصر النسبه بين المؤمنين فى نسبه الإخوه مقدمه ممهده لتعليل ما فى قوله: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ» من حكم الصلح يفيد أن الطائفتين المتقاتلتين لوجود الإخوه بينهما يجب أن يستقر بينهما الصلح، و المصلحون لكونهم إخوه للمتقاتلتين يجب أن يسعوا فى إصلاح ما بينهما.

وقوله: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ» و لم يقل: فأصلحوا بين الأخوين من أوجز الكلام و أطفه حيث يفيد أن المتقاتلتين بينهما أخوه فمن الواجب أن يستقر بينهما الصلح و سائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين فيجب عليهم أن يسعوا فى الإصلاح بينهما.

وقوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» موعظه للمتقاتلتين و المصلحين جميعا.

كلام فى معنى الإخوه

و اعلم أن قوله: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» جعل تشريعى لنسبه الإخوه بين المؤمنين لها آثار شرعيه و حقوق مجعوله، و قد تقدم فى بعض المباحث المتقدمه أن من الأبوه و البنوه و الأخوه و سائر أنواع القرابه ما هو اعتبارى مجعول يعتبره الشرائع و القوانين

لترتيب آثار خاصه عليه كالوراثه و الإنفاق و حرمه الازدواج و غير ذلك، و منها ما هو طبيعى بالانتهاء إلى صلب واحد أو رحم واحده أو هما.

و الاعتبارى من القرابه غير الطبيعى منها فربما يجتمعان كالأخوين المتولدين بين الرجل و المرأه عن نكاح مشروع، و ربما يختلفان كالولد الطبيعى المتولد من زنا فإنه ليس ولدا فى الإسلام و لا يلحق بمولده و إن كان ولدا طبيعيا، و كالداعى الذى هو ولد فى بعض القوانين و ليس بولد طبيعى.

و اعتبار المعنى الاعتبارى و إن كان لغرض ترتيب آثار حقيقته عليه كما يؤخذ أحد القوم رأسا لهم ليكون نسبته إليهم نسبه الرأس إلى البدن فيدبر أمر المجتمع و يحكم بينهم و فيهم كما يحكم الرأس على البدن.

لكن لما كان الاعتبار لمصلحه مقتضيه كان تابعا للمصلحه فإن اقتضت ترتيب جميع آثار الحقيقه ترتبت عليه جميعا و إن اقتضت بعضها كان المترتب على الموضوع الاعتبارى ذلك البعض كما أن القراءه مثلا جزء من الصلاه و الجزء الحقيقى ينتفى بانتفائه الكلى مطلقا لكن القراءه لا ينتفى بانتفائها الصلاه إذا كان ذلك سهوا و إنما تبطل الصلاه إذا تركت عمدا.

و لذلك أيضا ربما اختلفت آثار معنى اعتبارى بحسب الموارد المختلفه كجزئيه الركوع حيث تبطل الصلاه بزيادته و نقيصته عمدا و سهوا بخلاف جزئيه القراءه كما تقدم فمن الجائز أن يختلف الآثار المترتبة على معنى اعتبارى بحسب الموارد المختلفه لكن لا تترتب الآثار الاعتباريه إلا على موضوع اعتبارى كالإنسان يتصرف فى ماله لكن لا بما أنه إنسان بل بما أنه مالك و الأخ يرث أخاه فى الإسلام لا لأنه أخ طبيعى يشارك الميت فى الوالد أو الوالده أو فيهما فولد الزنا كذلك و لا يرث أخاه الطبيعى - بل يرثه لأنه أخ فى الشريعه الإسلاميه.

و الإخوه من هذا القبيل فمنها أخوه طبيعى لا أثر لها فى الشرائع و القوانين و هى اشتراك إنسانين فى أب أو أم أو فيهما، و منها أخوه اعتباريه لها آثار اعتباريه و هى فى الإسلام أخوه نسيه لها آثار فى النكاح و الإرث، و أخوه رضاعيه لها آثار فى النكاح دون الإرث، و أخوه دينيه لها آثار اجتماعيه و لا أثر لها فى النكاح و الإرث،

و سيجيء قول الصادق(ع):المؤمن أخو المؤمن،عينه و دليله،لا يخونه،و لا يظلمه و لا يغشه، و لا يعده عده فيخلفه.

و قد خفى هذا المعنى على بعض المفسرين فأخذ إطلاق الإخوة في كلامه تعالى على المؤمنين إطلاقاً مجازياً من باب الاستعارة بتشبيه الاشتراك في الإيمان بالمشاركة في أصل التوالد لأن كلا منهما أصل للبقاء إذ التوالد منشأ الحياة،و الإيمان منشأ البقاء الأبدى في الجنان،وقيل:هو من باب التشبيه البليغ من حيث انتسابهم إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للبقاء الأبدى.

بحث روائى

فى المجمع،فى قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾:روى زراره عن أبى جعفر(ع) أنه قال: ما سلت السيوف،و لا أقيمت الصفوف فى صلاه و لا زحوف،و لا جهر بأذان،و لا أنزل الله:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾حتى أسلم أبناء قبيله الأوس و الخزرج.

أقول:و عن ابن عباس أيضا:"ما نزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾إلا بالمدينه،و لا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾إلا بمكه الخبر.و توقف بعضهم فى عموم ذيله،و اعلم أن هناك روايات فى الدر المنثور،و تفسير القمى،فى سبب نزول قوله:﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية لا تنطبق على الآية ذاك الانطباق تركناها من أراد الوقوف عليها فليراجعهما.

و فى الدر المنثور،أخرج أحمد و البخارى و مسلم و أبو يعلى و البغوى فى معجم الصحابه،و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل،عن أنس قال*:﴿لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾-إلى قوله- وَ أَنْتُمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾و كان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت-فقال:أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ص-حبط عملى أنا من أهل النار،و جلس فى بيته حزينا.

ففقده رسول الله ص فانطلق بعض القوم إليه-فقالوا له:فقدك رسول الله ص ما لك؟قال:أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ص-و أجهر له بالقول حبط عملى و أنا من أهل النار،فأتوا النبى ص فأخبروه بذلك-فقال:لا بل هو من أهل الجنة.فلما كان يوم اليمامة قتل.

أقول: قوله: «فلما كان يوم اليمامة قتل» من كلام الراوى يريد أنه استشهد يوم اليمامة فكان ذلك تصديق قول النبى ص، و الروايه مرويه بطرق مختلفه أخرى باختلاف يسير.

و فيه، أخرج البخارى فى الأدب، و ابن أبى الدنيا و البيهقى عن داود بن قيس قال *:

رأيت الحجرات من جريد النخل -مغشى من خارج بمسوح الشعر- و أظن عرض الباب من باب الحجره- إلى باب البيت نحو من ستة أو سبعة أذرع- و أخرج (1) البيت الداخلى عشره أذرع، و أظن سمكه بين الثمان و السبع":

أقول: و روى مثل صدره عن ابن سعد عن عطاء الخراسانى قال: "أدرت حجر أزواج رسول الله ص- من جريد النخل على أبوابها المسوح- من شعر أسود. الحديث.

و فيه، أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن منده و ابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعى قال*: قدمت على رسول الله ص فدعانى إلى الإسلام- فدخلت فيه و أقرت به، و دعانى إلى الزكاه فأقرت بها. قلت: يا رسول الله أرجع إلى قومى- فأدعوهم إلى الإسلام و أداء الزكاه- فمن استجاب لى و ترسل إلى يا رسول الله رسولا- إبان كذا و كذا لتأتىك ما جمعت من الزكاه.

فلما جمع الحارث الزكاه ممن استجاب له- و بلغ الإبان الذى أراد رسول الله ص- أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت- فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله و رسوله- فدعا بسروات قوميه فقال لهم: إن رسول الله ص كان وقت لى وقتا يرسل إلى رسوله- ليقبض ما كان عندى من الزكاه- و ليس من رسول الله ص الخلف- و لا أرى حبس رسوله إلا من سخطه- فانطلقوا فنأتى رسول الله ص.

و بعث رسول الله ص الوليد بن عقبه- إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاه- فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق- فرجع فأتى رسول الله ص فقال: إن الحارث منعنى الزكاه و أراد قتلى- فضرب رسول الله ص البعث إلى الحارث.

فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث- و فصل عن المدينه لقيهم الحارث

ص: ٣١٨

(١- ١) كذا فى الأصل و لعله جمع خريير بالخاء المعجمه و هو المكان المظمن.

فقالوا: هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ص بعث إليك الوليد بن عقبه - فزعم أنك منعت الزكاه و أردت قتله. قال: لا و الذى بعث محمدا بالحق ما رأيتة و لا أتانى.

فلما دخل الحارث على رسول الله ص قال: منعت الزكاه و أردت قتل رسولى؟ قال: لا و الذى بعثك بالحق ما رأيتة و لا رآنى - و ما أقبلت إلا - حين احتبس على رسول الله ص - خشيت أن يكون كانت سخطه من الله و رسوله - فنزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا - فَتَبَيَّنُوا - إِلَى قَوْلِهِ - حَكِيمٌ﴾.

أقول: نزول الآية فى قصه الوليد بن عقبه مستفيض من طرق أهل السنه و الشيعة و قال ابن عبد البر فى الاستيعاب: و لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز و جل: ﴿إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا﴾ نزلت فى الوليد بن عقبه.

و فى المحاسن، بإسناده عن زياد الحذاء عن أبى جعفر (ع) فى حديث له قال*:

يا زياد ويحك و هل الدين إلا الحب؟ ألا ترى إلى قول الله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي - يُحِبُّكُمُ اللَّهُ وَ يُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؟ أ و لا ترون إلى قول الله لمحمد ص: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ قال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ و قال: الحب هو الدين و الدين هو الحب:

أقول: و روى فى الكافى، بإسناده عن فضيل بن يسار عن الصادق (ع) ما فى معناه و لفظه: و هل الإيمان إلا الحب و البغض؟ ثم تلا هذه الآية: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ إلى آخر الآية:

و فى المجمع، و قيل: الفسوق هو الكذب - عن ابن عباس و ابن زيد و هو المروى عن أبى جعفر (ع): .

أقول: و فى هذا المعنى بعض روايات آخر.

و فى الكافى، بإسناده عن على بن عقبة عن أبى عبد الله (ع) قال*: المؤمن أخو المؤمن عينه و دليله لا يخونه و لا يظلمه - و لا يغشه و لا يعده عده فيخلفه.

أقول: و فى معناه روايات آخر

عنه (ع) و فى بعضها: المسلم أخو المسلم لا يظلمه و لا يخذله و لا يغتابه.

و في المحاسن، بإسناده عن أبي حمزه الثمالي عن أبي جعفر (ع) قال*: المؤمن أخو المؤمن لأبيه و أمه -و ذلك أن الله تبارك و تعالى خلق المؤمن -من طينه جنان السماوات، و أجرى فيهم من ريح روحه فلذلك هو أخوه لأبيه و أمه.

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و البخارى و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى في سننه عن أنس قال*: قيل للنبي ص: لو أتيت عبد الله بن أبي فانطلق و ركب حمارا -و انطلق المسلمون يمشون و هى أرض سبخه، فلما انطلق إليهم قال: إليك عنى -فوالله لقد آذانى ريح حمارك.

فقال رجل من الأنصار: و الله لحمار رسول الله ص أطيب ريحا منك، فغضب لعبد الله رجال من قومه -فغضب لكل منهما أصحابه -فكان بينهم ضرب بالجريد و الأيدى و النعال -فأنزل فيهم «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا».

أقول: و في بعض الروايات كما فى المجمع، أن الذى قال ذلك لعبد الله بن أبى بن سلول هو عبد الله بن رواحه و أن التضارب وقع بين رهطه من الأوس و رهط عبد الله بن أبى من الخزرج، و فى انطباق الآيه بموضوعها و حكمها على هذه الروايات خفاء.

[سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١١ الى ١٨]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان و من لم يتب فأولئك هم الظالمون (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْمَاعِرَاتُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزُوا جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِعِدَّتِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾^١ الخ، السخرية الاستهزاء و هو ذكر ما يستحقر و يستهان به الإنسان بقول أو إشاره أو فعل تقليدا بحيث يضحك منه بالطبع، و القوم الجماعه و هو فى الأصل الرجال دون النساء لقيامهم بالأمر المهمه دونهن، و هذا المعنى هو المراد بالقوم فى الآيه بما قوبل بالنساء.

و قوله: «عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ» و «عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ» حكمه النهى.

و المستفاد من السياق أن الملاك رجاء كون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر سواء كان الساخر رجلا أو امرأه و كذا المسخور منه فتخصيص النهى فى اللفظ بسخرية القوم من القوم و سخرية النساء من النساء لمكان الغلبه عادة.

و قوله: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» اللمز -على ما قيل- التنبيه على المعاييب، و تعليق اللمز بقوله: «أَنْفُسِكُمْ» للإشارة إلى أنهم مجتمع واحد بعضهم من بعض فلمز الواحد منهم غيره فى الحقيقة لمز نفسه فليجتنب من أن يلمز غيره كما يكره أن يلزمه غيره، ففى قوله:

«أَنْفُسَكُمْ» إشاره إلى حكمه النهى.

و قوله: «وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ» النبز بالتحريك هو اللقب، و يختص -على ما قيل- بما يدل على ذم فالتنابز بالألقاب ذكر بعضهم بعضا بلقب السوء مما يكرهه كالفاسق و السفیه و نحو ذلك.

و المراد بالاسم فى «بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ» الذكر كما يقال: شاع اسم فلان بالسخاء و الجود، و على هذا فالمعنى: بئس الذكر ذكر الناس -بعد إيمانهم- بالفسوق فإن الحرى بالمؤمن بما هو مؤمن أن يذكر بالخير و لا يطعن فيه بما يسوؤه نحو يا من أبوه كان كذا و يا من أمه كانت كذا.

و يمكن أن يكون المراد بالاسم السمه و العلامه و المعنى: بئست السمه أن يوسم الإنسان بعد الإيمان بالفسوق بأن يذكر بسمه السوء كان يقال لمن اقترف معصيه ثم تاب: يا صاحب المعصيه الفلانيه، أو المعنى: بئس الاسم أن يسم الإنسان نفسه بالفسوق بذكر الناس بما يسوءهم من الألقاب، و على أى معنى كان ففى الجملة إشاره إلى حكمه النهى.

و قوله: «وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» أى و من لم يتب عن هذه المعاصى التى يقترفها بعد ورود النهى فلم يندم عليها و لم يرجع إلى الله سبحانه بتركها فأولئك ظالمون حقا فإنهم لا يرون بها بأسا و قد عدها الله معاصى و نهى عنها.

و فى الجملة أعنى قوله: «وَمَنْ لَمْ يَتُبْ» إلخ، إشعار بأن هناك من كان يقترف هذه المعاصى من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إلى آخر الآية المراد بالظن المأمور بالاجتناب عنه ظن السوء فإن ظن الخير مندوب إليه كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿لَوْ لَا إِذِ سَجَعْتُمْوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[□] النور: ١٢.

و المراد بالاجتناب عن الظن الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كان يظن بأخيه المؤمن سوء فيرميه به و يذكره لغيره و يرتب عليه سائر آثاره، و أما نفس الظن بما هو نوع من الإدراك النفساني فهو أمر يفاجئ النفس لا عن اختيار فلا يتعلق به النهي اللهم إلا إذا كان بعض مقدماته اختياريا.

و على هذا فكون بعض الظن إثما من حيث كون ما يترتب عليه من الأثر إثما كإهانه المظنون به و قذفه و غير ذلك من الآثار السيئة المحرمة، و المراد بكثير من الظن - و قد جرى به نكراه ليدل على كثرتة في نفسه لا بالقياس إلى سائر أفراد الظن - هو بعض الظن الذي هو إثم فهو كثير في نفسه و بعض من مطلق الظن، و لو أريد بكثير من الظن أعم من ذلك كأن يراد ما يعلم أن فيه إثما و ما لا يعلم منه ذلك كان الأمر بالاجتناب عنه أمرا احتياطيا توقيا من الوقوع في الإثم.

و قوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ التجسس بالجيم تتبع ما استتر من أمور الناس للاطلاع عليها، و مثله التحسس بالحاء المهملة إلا- أن التجسس بالجيم يستعمل في الشر و التحسس بالحاء يستعمل في الخير، و لذا قيل: معنى الآية لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوا الأمور التي سترها أهلها.

و قوله: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ الغيبة على ما في مجمع البيان ذكر العيب بظهر الغيب على وجه يمنع الحكمه منه، و قد فسرت بتفاسير مختلفه حسب الاختلاف في مصاديقها سعه و ضيقا في الفقه، و يثول إلى أن يذكر من الإنسان في ظهر الغيب ما يسوءه لو ذكر به و لذا لم يعدوا من الغيبة ذكر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به.

و الغيبة تفسد أجزاء المجتمع واحدا بعد واحد فتسقطها عن صلاحية التأثير الصالح المرجو من الاجتماع و هو أن يخالط كل صاحبه و يمازجه في أمن و سلامه بأن

يعرفه إنسانا عدلا سويا يأنس به ولا يكرهه ولا يستقذره، و أما إذا عرفه بما يكرهه و يعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك و ضعفت رابطة الاجتماع فهي كالأكله التي تأكل جثمان من ابتلى بها عضوا بعد عضو حتى تنتهى إلى بطلان الحياه.

و الإنسان إنما يعقد المجتمع ليعيش فيه بهويه اجتماعيه أعنى بمنزله اجتماعيه صالحه لأن يخالطه و يمازج فيفيد و يستفاد منه، و غيبته بذكر عيبه لغيره تسقطه عن هذه المنزله و تبطل منه هذه الهويه، و فيه تنقيص واحد من عدد المجتمع الصالح و لا يزال ينتقص بشيوع الغيبه حتى يأتي على آخره فيتبدل الصلاح فسادا و يذهب الأنس و الأمن و الاعتماد و ينقلب الدواء داء.

فهي في الحقيقه إبطال هويه اجتماعيه على حين غفله من صاحبها و من حيث لا- يشعر به، و لو علم بذلك على ما فيه من المخاطره لتحرز منه و توقى انتهاك ستره و هو الستر ألقاه الله سبحانه على عيوب الإنسان و نواقصه ليتم به ما أراد من طريق الفطره من تألف أفراد الإنسان و تجمعهم و تعاونهم و تعاضدهم، و أين الإنسان و النزاهه من كل عيب.

و إلى هذه الحقيقه أشار تعالى فيما ذكره من التمثيل بقوله: «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» و قد أتى بالاستفهام الإنكارى و نسب الحب المنفى إلى أحدهم و لم يقل: بعضكم و نحو ذلك ليكون النفى أوضح استيعابا و شمولاً و لذا أكده بقوله بعد: «فَكَرِهْتُمُوهُ» فنسب الكراهه إلى الجميع و لم يقل: فكرهه.

و بالجمله محصله أن اغتيااب المؤمن بمنزله أن يأكل الإنسان لحم أخيه حال كونه ميتا، و إنما كان لحم أخيه لأنه من أفراد المجتمع الإسلامى المؤلف من المؤمنين و إنما المؤمنون إخوه، و إنما كان ميتا لأنه لغيبته غافل لا يشعر بما يقال فيه.

و فى قوله: «فَكَرِهْتُمُوهُ» و لم يقل: فتكرهونه إشعار بأن الكراهه أمر ثابت محقق منكم فى أن تأكلوا إنسانا هو أخوكم و هو ميت فكما أن هذا مكروه لكم فليكن مكروها لكم اغتيااب أخيكم المؤمن بظهر الغيب فإنه فى معنى أكل أحدكم أخاه ميتا.

و اعلم أن ما فى قوله: «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ» إلخ، من التعليل جار فى

التجسس أيضا كالغيبه، وإنما الفرق أن الغيبه هو إظهار عيب الغير للغير أو التوصل إلى الظهور عليه من طريق نقل الغير، والتجسس هو التوصل إلى العلم بعيب الغير من طريق تتبع آثاره و لذلك لم يبعد أن يكون الجملة أعنى قوله: «أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا» إلخ، تعليلا لكل من الجملتين أعنى «وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا».

و اعلم أن في الكلام إشعارا أو دلالة على اقتصار الحرمه في غيبه المسلمين، و من القرينه عليه قوله في التعليل: «لَحْمَ أَخِيهِ» فالأخوه إنما هي بين المؤمنين.

و قوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» ظاهره أنه عطف على قوله: «اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ» إن كان المراد بالتقوى هو التجنب عن هذه الذنوب التي كانوا يقترفونها بالتوبه إلى الله سبحانه فالمراد بقوله: «إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» أن الله كثير القبول للتوبه رحيم بعباده التائبين إليه اللائذين به.

و إن كان هو التجنب عنها و التورع فيها و إن لم يكونوا يقترفونها فالمراد بقوله:

«إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» أن الله كثير الرجوع إلى عباده المتقين بالهدايه و التوفيق و الحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوقه رحيم بهم.

و ذلك أن التوبه من الله توبتان: توبه قبل توبه العبد بالرجوع إليه بالتوفيق للتوبه كما قال تعالى: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» التوبه: ١٨، و توبه بعد توبه العبد بالرجوع إليه بالمغفره و قبول التوبه كما في قوله: «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ اصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ» المائده: ٣٩.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا خَلَقْتُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ» إلخ، الشعوب جمع شعب بالكسر فالسكون و هو على ما في المجمع الحى العظيم من الناس كربيعة و مضر، و القبائل جمع قبيله و هي دون الشعب كتميم من مضر.

و قيل: الشعوب دون القبائل و سميت بها لتشعبها، قال الراغب: الشعب القبيله المنشعبه من حى واحد، و جمعه شعوب، قال تعالى: «شُعُوبًا وَقَبَائِلَ» و الشعب من الوادى ما اجتمع منه طرف و تفرق طرف فإذا نظرت إليه من الجانب الذى تفرق

أخذت في وهمك واحدا يتفرق، و إذا نظرت من جانب الاجتماع أخذت في وهمك اثنين اجتماعا فلذلك قيل: شعبت إذا جمعت، و شعبت إذا فرقت. انتهى.

و قيل: الشعوب العجم و القبائل العرب، و الظاهر أن مآله إلى أحد القولين السابقين، و سيجيء تمام الكلام فيه (1).

ذكر المفسرون أن الآيه مسوقه لنفى التفاخر بالأنساب، و عليه فالمراد بقوله:

« مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » آدم و حواء، و المعنى: أنا خلقناكم من أب و أم تشتركون جميعا فيهما من غير فرق بين الأبيض و الأسود و العربى و العجمى و جعلناكم شعوبا و قبائل مختلفه لا- لكرامه لبعضكم على بعض بل لأن تتعارفوا فيعرف بعضكم بعضا و يتم بذلك أمرا اجتماعكم فيستقيم مواصلاتكم و معاملاتكم فلو فرض ارتفاع المعرفه من بين أفراد المجتمع انفصم عقد الاجتماع و بادت الإنسانيه فهذا هو الغرض من جعل الشعوب و القبائل لا أن تتفاخروا بالأنساب و تتباهوا بالآباء و الأمهات.

و قيل: المراد بالذكر و الأنثى مطلق الرجل و المرأه، و الآيه مسوقه لإلغاء مطلق التفاضل بالطبقات كالأبيض و الأسود و العرب و العجم و الغنى و الفقير و المولى و العبد و الرجل و المرأه، و المعنى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من رجل و امرأه فكل واحد منكم إنسان مولود من إنسانين لا- تفترقون من هذه الجبهه، و الاختلاف الحاصل بالشعوب و القبائل- و هو اختلاف راجع إلى الجعل الإلهى- ليس لكرامه و فضيله و إنما هو لأن تتعارفوا فيتم بذلك اجتماعكم.

و اعترض عليه بأن الآيه مسوقه لنفى التفاخر بالأنساب و ذمه كما يدل عليه قوله: « وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » و ترتب هذا الغرض على هذا الوجه غير ظاهر، و يمكن أن يناقش فيه أن الاختلاف فى الأنساب من مصاديق الاختلاف الطبقاتى و بناء هذا الوجه على كون الآيه مسوقه لنفى مطلق الاختلاف الطبقاتى و كما يمكن نفي التفاخر بالأنساب و ذمه استنادا إلى أن الأنساب تنتهى إلى آدم و حواء و الناس جميعا مشتركون فيهما، كذلك يمكن نفيه و ذمه استنادا إلى أن كل إنسان مولود من إنسانين و الناس جميعا مشتركون فى ذلك.

ص: ٣٢٦

(١- ١) فى البحث الروائى الآتى.

و الحق أن قوله: « وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ » إن كان ظاهرا في ذم التفاخر بالأنساب فأول الوجهين أوجه، وإلا فالثاني لكونه أعم و أشمل.

و قوله: « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ » استئناف مبين لما فيه الكرامة عند الله سبحانه، و ذلك أنه نبههم في صدر الآية على أن الناس بما هم ناس يساوى بعضهم بعضا لا اختلاف بينهم و لا فضل لأحدهم على غيره، و أن الاختلاف المترئى في الخلقه من حيث الشعوب و القبائل إنما هو للتوصل به إلى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتم ائتلاف و لا تعاون و تعاضد من غير تعرف فهذا هو غرض الخلقه من الاختلاف المجعول لا أن تتفاخروا بالأنساب و تتفاضلوا بأمثال البياض و السواد فيستعبد بذلك بعضهم بعضا و يستخدم إنسان إنسانا و يستعلى قوم على قوم فينجر إلى ظهور الفساد في البر و البحر و هلاك الحرث و النسل فينقلب الدواء داء.

ثم نبه سبحانه في ذيل الآية بهذه الجملة أعنى قوله: « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ » على ما فيه الكرامة عنده، و هى حقيقه الكرامة. و ذلك أن الإنسان مجبول على طلب ما يتميز به من غيره و يختص به من بين أقرانه من شرف و كرامه، و عامه الناس لتعلقهم بالحياه الدنيا يرون الشرف و الكرامه فى مزايا الحياه الماديه من مال و جمال و نسب و حسب و غير ذلك فيبدلون جل جهدهم فى طلبها و اقتنائها ليتفاخروا بها و يستعلوا على غيرهم.

و هذه مزايا وهميه لا تجلب لهم شيئا من الشرف و الكرامه دون أن توقعهم فى مهابط الهلكه و الشقوه، و الشرف الحقيقى هو الذى يؤدى الإنسان إلى سعادته الحقيقيه و هو الحياه الطيبه الأبدية فى جوار رب العزه و هذا الشرف و الكرامه هو بتقوى الله سبحانه و هى الوسيله الوحيديه إلى سعادته الدار الآخره، و تتبعها سعادته الدنيا قال تعالى: « تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » الأنفال: ٦٧، و قال: « وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » البقره: ١٩٧، و إذا كانت الكرامه بالتقوى فأكرم الناس عند الله أتقاهم كما قال تعالى.

و هذه البغيه و الغايه التى اختارها الله بعلمه غايه للناس لا- تراحم فيها و لا- تدافع بين المتلبسين بها على خلاف الغايات و الكرامات التى يتخذها الناس بحسب أوهامهم

غايات يتوجهون إليها و يتباهون بها كالغنى و الرئاسه و الجمال و انتشار الصيت و كذا الأنساب و غيرها.

□
و قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» فيه تأكيد لمضمون الآيه و تلويح إلى أن الذى اختاره الله كرامه للناس كرامه حقيقه اختارها الله بعلمه و خبرته بخلاف ما اختاره الناس كرامه و شرفا لأنفسهم فإنها وهميه باطله فإنها جميعا من زينه الحياه الدنيا قال تعالى: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»: العنكبوت: ٦٤.

و فى الآيه دلالة على أن من الواجب على الناس أن يتبعوا فى غايات الحياه أمر ربهم و يختاروا ما يختاره و يهدى إليه و قد اختار لهم التقوى كما أن من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياه ما يختاره لهم من الدين.

□
قوله تعالى: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ» إلخ الآيه و ما يليها إلى آخر السوره متعرضه لحال الأعراب فى دعواهم الإيمان و منهم على النبی ص بإيمانهم، و سياق نقل قولهم و أمر النبی ص أن يجيبهم بقوله: «لَمْ تُؤْمِنُوا» يدل على أن المراد بالأعراب بعض الأعراب البادين دون جميعهم، و يؤيده قوله: «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ»: التوبه: ٩٩.

□
و قوله: «قَالَتِ الْمَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا» أى قالوا لك آمننا و ادعوا الإيمان قل لم تؤمنوا و كذبهم فى دعواهم، و قوله: «وَ لَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا» استدراك مما يدل عليه سابق الكلام، و التقدير: فلا تقولوا آمننا و لكن قولوا: أسلمنا.

□
و قوله: «وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ» لئفى دخول الإيمان فى قلوبهم مع انتظار دخوله، و لذلك لم يكن تكرارا لئفى الإيمان المدلول عليه بقوله: «لَمْ تُؤْمِنُوا».

و قد نفى فى الآيه الإيمان عنهم و أوضحه بأنه لم يدخل فى قلوبهم بعد و أثبت لهم الإسلام، و يظهر به الفرق بين الإيمان و الإسلام بأن الإيمان معنى قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد، و الإسلام أمر قائم باللسان و الجوارح فإنه الاستسلام و الخضوع لسانا بالشهاده على التوحيد و النبوه و عملا بالمتابعه العمليه ظاهرا سواء قارن الاعتقاد بحقيه

ما شهد عليه و عمل به أو لم يقارن، و بظاهر الشهادتين تحقن الدماء و عليه تجرى المناكح و المواريث.

و قوله: «وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً» الليت النقص يقال: لا-ته يليته ليتا إذا نقصه، و المراد بالإطاعه الإخلاص فيها بموافقه الباطن للظاهر من غير نفاق، و طاعه الله استجابه ما دعا إليه من اعتقاد و عمل، و طاعه رسوله تصديقه و اتباعه فيما يأمر به فيما له الولاية عليه من أمور الأمة، و المراد بالأعمال جزاؤها المراد بنقص الأعمال نقص جزائها.

و المعنى: و إن تطيعوا الله فيما يأمركم به من اتباع دينه اعتقاداً، و تطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا- ينقص من أجور أعمالكم شيئاً، و قوله: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» تعليل لعدم نقصه تعالى أعمالهم إن أطاعوه و رسوله.

قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزِدْوا فِي إِيمَانِهِمْ وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» تعريف تفصيلي للمؤمنين بعد ما عرفوا إجمالاً بأنهم الذين دخل الإيمان في قلوبهم كما هو لازم قوله: «لَمْ تَزِدْوا فِي إِيمَانِهِمْ» و «لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ».

فقوله: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» فيه قصر المؤمنين في الذين آمنوا بالله و رسوله إلخ، فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفًا جامعًا مانعًا فمن اتصف بها مؤمن حقًا كما أن من فقد شيئًا منها ليس بمؤمن حقًا.

و الإيمان بالله و رسوله عقد القلب على توحيدده تعالى و حقيه ما أرسل به رسوله و على صحه الرساله و اتباع الرسول فيما يأمر به.

و قوله: «ثُمَّ لَمْ يَزِدْوا فِي إِيمَانِهِمْ» أي لم يشكوا في حقيه ما آمنوا به و كان إيمانهم ثابتًا مستقرًا لا يزلزله شك، و التعبير بشم دون الواو- كما قيل- للدلاله على انتفاء عروض الريب حينًا بعد حين كأنه طرى جديد دائمًا فيفيد ثبوت الإيمان على استحكامه الأولى و لو قيل: و لم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أولاً مقارنة لعدم الارتياب مع السكوت عما بعد.

و قوله: «وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» المجاهده بذل الجهد و الطاقه

و سبيل الله دينه،و المراد بالمجاهده بالأموال و الأنفس العمل بما تسعه الاستطاعه و تبلغه الطاقه فى التكاليف المالىه كالزكاه و غير ذلك من الإنفاقات الواجبه،و التكاليف البدنيه كالصلاه و الصوم و الحج و غير ذلك.

و المعنى:و يجدون بإتيان التكاليف المالىه و البدنيه حال كونهم أو حال كون عملهم فى دين الله و سبيله.

و قوله:«[□]أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ[□]» تصديق فى إيمانهم إذا كانوا على الصفات المذكوره.

قوله تعالى:«[□]قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ[□] وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ[□] وَ مَا فِي الْأَرْضِ[□] وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[□]» توبيخ للأعراب حيث قالوا:آمنا و لازمه دعوى الصدق فى قولهم و الإصرار على ذلك،و قيل:لما نزلت الآيه السابقه حلفت الأعراب أنهم مؤمنون صادقون فى قولهم:آمنا،فتزل:«[□]قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ[□]»الآيه،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى:«[□]يَمُنُونَ عَلَيْكَ[□] أَنْ أَسْلَمُوا[□] قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ[□] إِسْلَامَكُمْ[□] بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ[□] أَنْ هَدَاكُمْ[□] لِلإِيمَانِ[□] إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[□]»أى يمتنون عليك بأن أسلموا و قد أخطئوا فى منهم هذا من وجهين أحدهما أن حقيقه النعمه التى فيها المن هو الإيمان الذى هو مفتاح سعاده الدنيا و الآخره دون الإسلام الذى له فوائد صوريه من حقن الدماء و جواز المناكح و المواريث،و ثانيهما أن ليس للنبي ص من أمر الدين إلا أنه رسول مأمور بالتبليغ فلا من عليه لأحد ممن أسلم.

فلو كان هناك من لكان لهم على الله سبحانه لأن الدين دينه لكن لا من لأحد على الله لأن المنتفع بالدين فى الدنيا و الآخره هم المؤمنون دون الله الغنى على الإطلاق فالمن لله عليهم أن هداهم له.

و قد بدل ثانيا الإسلام من الإيمان للإشاره إلى أن المن إنما هو بالإيمان دون الإسلام الذى إنما ينفعهم فى الظاهر فقط.

فقد تضمن قوله:«[□]قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ[□] إِسْلَامَكُمْ[□] بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ[□]»إلخ،الإشاره إلى خطئهم من الجهتين جميعا:

إحداهما:خطئهم من جهه توجيه المن إلى النبي ص و هو رسول ليس له من الأمر شىء،و إليه الإشاره بقوله:«[□]لَا تَمُنُوا عَلَيَّ[□] إِسْلَامَكُمْ[□]».

و ثانيهما: أن المن- لو كان هناك من- إنما هو بالإيمان دون الإسلام، وإليه الإشارة بتبديل الإسلام من الإيمان.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» ختم للسورة و تأكيد يعلل و يؤكد به جميع ما تقدم في السورة من النواهي و الأوامر و ما بين فيها من الحقائق و ما أخبر فيها عن إيمان قوم و عدم إيمان آخرين فالآية تعلق بمضمونها جميع ذلك.

و المراد بغيب السماوات و الأرض ما فيها من الغيب أو الأعم مما فيهما و من الخارج منهما.

بحث روائي

في الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل * في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا- لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» قال: نزلت في قوم من بني تميم استهزءوا من بلال و سلمان- و عمار و خباب و صهيب و ابن فهيره و سالم مولى أبي حذيفة.

و في المجمع، " نزل قوله: «لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» في ثابت بن قيس بن شماس و كان في أذنه و قر- و كان إذا دخل المسجد تفسحوا له- حتى يقعد عند النبي ص فيسمع ما يقول.- فدخل المسجد يوما و الناس قد فرغوا من الصلاة- و أخذوا مكانهم فجعل يتخطى رقاب الناس و يقول: تفسحوا تفسحوا حتى انتهى إلى رجل- فقال له: أصبت مجلسا فاجلس فجلس خلفه مغضبا- فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان فقال ثابت: ابن فلانه ذكر أما له كان يعير بها في الجاهلية- فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآية. " عن ابن عباس.

و فيه، " و قوله: «وَلَا نَسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ» نزل في نساء النبي ص- سخرن من أم سلمه. " عن أنس. " و ذلك أنها ربطت حقوقها بسببه- و هي ثوب أبيض و سدلت طرفيها خلفها فكانت تجره- فقالت عائشه لحفصه: انظري ما ذا تجر خلفها- كأنه لسان كلب

فهذه كانت سخريتهما، وقيل: إنها غيرتها بالقصر، وأشارت بيدها أنها قصيره.":

عن الحسن.

وفي الدر المنثور، أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخارى فى الأدب، و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجه و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و البغوى فى معجمه، و ابن حبان و الشيرازى فى الألقاب، و الطبرانى و ابن السنى فى عمل اليوم و الليله، و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان، عن أبى جبيره بن الضحاك قال: "فينا نزلت فى بنى سلمه" و لا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ «قدم رسول الله ص المدينة- و ليس فينا رجل إلا و له اسمان أو ثلاثه- فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء- قالوا: يا رسول الله إنه يكره هذا الاسم- فأنزل الله» و لا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ «.

و فيه، أخرج ابن أبى حاتم عن السدى: " أن سلمان الفارسى كان مع رجلين فى سفر- يخدمهما و ينال من طعامهما- و أن سلمان نام نوما فطلبه صاحبه فلم يجده- فضربا الخباء و قال ما يريد سلمان شيئا غير هذا- أن يجىء إلى طعام معدود و خباء مضروب- فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ص- يطلب لهما إداما فانطلق فأتاه- فقال: يا رسول الله بعثنى أصحابى لتؤدبهم إن كان عندك. قال: ما يصنع أصحابك بالأدم؟ قد اتئدما.

فرجع سلمان فخيرهما فانطلقا فأتيا رسول الله ص- فقالا: و الذى بعثك بالحق ما أصبنا طعاما منذ نزلنا. قال: إنكما قد اتئدتما سلمان بقولكما. فنزلت « أ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ».

و فيه، أخرج الضياء المقدسى عن أنس قال: كانت العرب يخدم بعضها بعضا فى الأسفار- و كان مع أبى بكر و عمر رجل يخدمهما- فناما و استيقظا و لم يهئ لهما طعاما- فقالا: إن هذا لثوم فأيقظاه فقالا: ائت رسول الله ص فقل له: إن أبى بكر و عمر يقرئانك السلام و يستأدما نك، فقال: إنهما اتئدما، فجاءه- فقالا يا رسول الله بأى شىء اتئدما؟ قال: بلحم أخيكما، و الذى نفسى بيده إنى لأرى لحمه بين ثناياكما، فقالا: استغفر لنا يا رسول الله. قال: مره فليستغفر لكما.

أقول: الظاهر أن القصه المورده فى الروايتين واحده و الرجلان المذكوران فى الروايه الأولى أبو بكر و عمر و الرجل المذكور فى الثانيه هو سلمان، و يؤيد هذا ما

عن

ص: ٣٣٢

جوامع الجامع، قال: وروى: أن أبا بكر و عمر بعثا سلمان إلى رسول الله ص -ليأتي لهما بطعام فبعثه إلى أسامه بن زيد- و كان خازن رسول الله ص على رحله- فقال: ما عندي شيء فعاد إليهما فقالا: بخل أسامه -و لو بعثنا سلمان إلى بثر سميحه لغار ماؤها.

ثم انطلقا إلى رسول الله ص فقال لهما: ما لي أرى خضره اللحم في أفواهكما- قالوا: يا رسول الله ما تناولنا اليوم لحما. قال: ظلمتم تأكلون لحم سلمان و أسامه فنزلت.

و في العيون، بإسناده عن محمد بن يحيى بن أبي عباد عن عمه قال: سمعت الرضا (ع) يوما ينشد و قليلا ما كان ينشد شعرا:

كلنا نأمل مدا في الأجل -

و المنايا هن آفات الأمل -

لا يغرنك أباطيل المنى -

و الزم القصد و دع عنك العلل -

إنما الدنيا كظل زائل -

حل فيه راكب ثم رحل -

فقلت: لمن هذا أعز الله الأمير؟ فقال: لعراقي لكم -قلت: أنشدني أبو العتاهيه (1) لنفسه- فقال: هات اسمه و دع هذا، إن الله سبحانه يقول: «وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ» و لعل الرجل يكره هذا.

و في الكافي، بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبد الله (ع) قال: *قال أمير المؤمنين (ع) في كلام له: ضع أمر أخيك على أحسنه- حتى يأتيك ما يقربك منه، و لا تظن بكلمه خرجت من أخيك سوء- و أنت تجد لها في الخير محملا.

و في نهج البلاغه، و قال (ع): إذا استولى الصلاح على الزمان و أهله، ثم أساء رجل الظن برجل لم يظهر منه حوبه فقد ظلم، و إذا استولى الفساد على الزمان و أهله- ثم أحسن رجل الظن برجل فقد غرر.

أقول: و الروايتان غير متعارضتين فالثانيه ناظره إلى نفس الظن و الأولى إلى ترتيب الأثر عليه عملا.

و في الخصال، عن أسباط بن محمد بإسناده إلى النبي ص أنه قال: *الغيبه أشد من الزنا، فقيل: يا رسول الله و لم ذلك؟ قال: صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه- و صاحب الغيبه يتوب فلا يتوب الله عليه- حتى يكون صاحبه الذي يحله:.

ص: ٣٣٣

أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن مردويه و البيهقي عن أبي سعيد و جابر عنه (ص)، و لفظه قال رسول الله ص*: الغيبة أشد من الزنا. قالوا: يا رسول الله و كيف الغيبة أشد من الزنا؟ قال: إن الرجل يزني فيتوب فيتوب الله عليه- و إن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه.

و في الكافي، بإسناده إلى السكوني عن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله ص: الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكله في جوفه.

و فيه، بإسناده عن حفص بن عمر عن أبي عبد الله (ع) قال: سئل النبي ص ما كفاره الاغتياب قال: تستغفر الله لمن اغتبتته كما ذكرته.

و في تفسير القمي، في قوله تعالى: « وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ » قال:

الشعوب العجم و القبائل العرب:.

أقول: و نسبه في مجمع البيان، إلى الصادق (ع).

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه و البيهقي عن جابر بن عبد الله قال*: خطبنا رسول الله ص في وسط أيام التشريق خطبه الوداع- فقال: يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، و لا لعجمي على عربي، و لا لأسود على أحمر و لا- لأحمر على أسود إلا بالتقوى- إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال فليبلغ الشاهد الغائب.

و في الكافي، بإسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله (ع) قال*: إن رسول الله ص زوج مقداد بن الأسود- ضباعه بنت الزبير بن عبد المطلب. إنما زوجه لتضع المناكح، و ليتأسوا برسول الله ص، و ليعلموا أن أكرمهم عند الله أتقاهم.

و في روضه الكافي، بإسناده عن جميل بن دراج قال*: قلت لأبي عبد الله (ع):

فما الكرم؟ قال: التقوى.

و في الكافي، بإسناده عن يونس بن يعقوب عن أبي عبد الله (ع) في حديث قال*:

إن الإسلام قبل الإيمان و عليه يتوارثون- و عليه يتناكحون و الإيمان عليه يثابون.

و في الخصال، عن الأعمش عن جعفر بن محمد (ع) في حديث*: و الإسلام غير الإيمان، و كل مؤمن مسلم و ليس كل مسلم مؤمناً.

و فى الدر المنثور، "فى قوله تعالى: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا» :أخرج ابن جرير عن قتاده " : فى قوله: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا» قال: نزلت فى بنى أسد.":

أقول: و هو مروى أيضا عن مجاهد و غيره.

و فيه، أخرج ابن ماجه و ابن مردويه و الطبرانى و السيهى فى شعب الإيمان، عن على بن أبى طالب قال*: قال رسول الله ص: الإيمان معرفه بالقلب و إقرار باللسان و عمل بالأركان.

و فيه، أخرج النسائى و البزاز و ابن مردويه عن ابن عباس قال*: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ص فقالوا: يا رسول الله أسلمنا و قاتلك العرب و لم نقاتلك- فنزلت هذه الآية «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا».

أقول: و فى هذا المعنى روايات أخر.

ص: ٣٣٥

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِآلِهَا لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَمْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيَّنَّاهَا وَ مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبَصَّرْتَهُ وَ ذَكَرَى لِكُلِّ عَيْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَ النَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحَابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ (١٢) وَ عَادُ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ بُيُوتٍ وَ قَوْمُ ثَعْلَبٍ وَ قَوْمُ آلِ يُسُفَ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ قَوْمُ نُوحٍ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحَابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ (١٤)

السورة تذكر الدعوه و تشير إلى ما فيها من الإنذار بالمعاد و جحد المشركين به و استعجابهم ذلك بأن الموت يستعقب بطلان الشخصيه الإنسانيه بصيرورته ترابا لا يبقى معه أثر مما كان عليه فكيف يرجع ثانيا إلى ما كان عليه قبل الموت فتدفع ما أظهره من الاستعجاب و الاستبعاد بأن العلم الإلهي محيط بهم و عنده الكتاب الحفيظ الذي لا يعزب عنه شيء مما دق و جل من أحوال خلقه ثم توعدهم بإصابه مثل ما أصاب الأمم الماضيه الهالكه.

و تنبه ثانيا على علمه و قدرته تعالى بالإشاره إلى ما جرى من تدبيره تعالى في خلق السماوات و ما زينها به من الكواكب و النجوم و غير ذلك، و في خلق الأرض من حيث مداها و إلقاء الرواسي عليها و إنبات الأزواج النباتيه فيها ثم بإنزال الماء و تهيئه أرزاق العباد و إحياء الأرض به.

ثم بيان حال الإنسان من أول ما خلق و أنه تحت المراقبه الشديده المدقيقه حتى ما يلفظ به من لفظ و حتى ما يخطر بباله و توسوس به نفسه ما دام حيا ثم إذا أدركه الموت ثم إذا بعث لفصل القضاء ثم إذا فرغ من حسابه فأدخل النار إن كان من المكذبين أو الجنة المزيفه إن كان من المتقين.

و بالجمله مصب الكلام في السوره هو المعاد، و من غرر الآيات فيها قوله: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»، و قوله: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» و قوله: «لَهُمْ مَا يَشَاؤْنَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ».

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها إلا- ما قيل في قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ» الآية أو الآيتين، و لا شاهد عليه من اللفظ.

و ما أوردناه من الآيات فيه إجمال الإشاره إلى المعاد و استبعادهم له، و إجمال الجواب و التهديد أولا ثم الإشاره إلى تفصيل الجواب و التهديد ثانيا.

قوله تعالى: «ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ»، قال في المجمع: المجد في كلامهم الشرف

الواسع يقال: مجد الرجل و مجد-بضم العين و فتحها-مجدا إذا عظم و كرم، و أصله من قولهم:مجدت الإبل مجودا إذا عظمت بطونها من كثرة أكلها من كلاء الربيع.انتهى.

و قوله:« وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ »قسم و جوابه محذوف يدل عليه الجمل التاليه و التقدير و القرآن المجيد أن البعث حق أو إنك لمن المنذرين أو الإنذار حق، و قيل:جواب القسم مذکور و هو قوله:« بَلْ عَجِبُوا »إلخ، و قيل:هو قوله:« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ » إلخ، و قيل:قوله:« مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ »إلخ، و قيل:قوله:« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةً لِّكَرَى » إلخ، و قيل:قوله:« مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لِمَدَى »إلخ، و هذه أقوال سخيفه لا يصار إليها.

قوله تعالى:« بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ »إضراب عن مضمون جواب القسم المحذوف فكأنه قيل:إنا أرسلناك نذيرا فلم يؤمنوا بك بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، أو قيل إن البعث الذى أنذرتهم به حق و لم يؤمنوا به بل عجبوا منه و استبعدوه.

و ضمير « مِنْهُمْ »فى قوله:« بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ »راجع إليهم بما هم بشر أى من جنسهم و ذلك أن الوثنيين ينكرون نبوه البشر كما تقدمت الإشارة إليه مرارا أو راجع إليهم بما هم عرب و المعنى:بل عجبوا أن جاءهم منذر من قومهم و بلسانهم يبين لهم الحق أوفى بيان فيكون أبلغ فى تفريعهم.

و قوله:« فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ »وصفهم بالكفر و لم يقل:وقال المشركون و نحو ذلك للدلالة على سترهم للحق لما جاءهم، و الإشارة فى قولهم:« هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ »،إلى البعث و الرجوع إلى الله كما يفسره قوله بعد:« أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا »إلخ.

قوله تعالى:« أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »الرجع و الرجوع بمعنى و المراد بالبعد البعد عن العقل.

و جواب إذا فى قولهم:« أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا »محذوف يدل عليه قولهم:« ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »و التقدير أءذا متنا و كنا ترابا نبعث و نرجع؟و الاستفهام للتعجب، و إنما حذف للإشارة إلى أنه عجيب بحيث لا ينبغى أن يذكر، إذ لا يقبله عقل ذى عقل

و الآيه فى مساق قوله: «وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ»: الم السجده: ١٠.

و المعنى: أنهم يتعجبون و يقولون: أءذا متنا و كنا ترابا-و بطلت ذواتنا بطلانا لا أثر معه منها-نبعث و نرجع؟ ثم كان قائلا يقول لهم: مم تتعجبون؟ فقالوا: ذلك رجع بعيد يستبعده العقل و لا يسلمه.

قوله تعالى: «قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ» رد منه تعالى لاستبعادهم البعث و الرجوع مستنديين فى ذلك إلى أنهم ستتلاشى أبدانهم بالموت فتصير ترابا متشابه الأجزاء لا تمايز لجزء منها من جزء و الجواب أنا نعلم بما تأكله الأرض من أبدانهم و تنقصه منها فلا يفوت علمنا جزء من أجزائهم حتى يتعسر علينا إرجاعه أو يتعذر بالجهل.

أو أنا نعلم من يموت منهم فيدفن فى الأرض فتنقصه الأرض من جمعهم، و«من» على أول الوجهين تبعيضية و على الثانى تبينيه.

و قوله: «وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ» أى حافظ لكل شىء و لآثاره و أحواله، أو كتاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغيير و التحريف، و هو اللوح المحفوظ الذى فيه كل ما كان و ما يكون و ما هو كائن إلى يوم القيامة.

و قول بعضهم إن المراد به كتاب الأعمال غير سديد أولا من جهة أن الله ذكره حفيظا لما تنقص الأرض منهم و هو غير الأعمال التى يحفظه كتاب الأعمال.

و ثانيا: أنه سبحانه إنما وصف فى كلامه بالحفظ اللوح المحفوظ دون كتب الأعمال فحمل الكتاب الحفيظ على كتاب الأعمال من غير شاهد.

و محصل جواب الآيه أنهم زعموا أن موتهم و صيرورتهم ترابا متلاشى الذرات غير متمايز الأجزاء يصيرهم مجهولى الأجزاء عندنا فيمتنع علينا جمعها و إرجاعها لكنه زعم باطل فإننا نعلم بمن مات منهم و ما يتبدل إلى الأرض من أجزاء أبدانهم و كيف يتبدل و إلى أين يصير؟ و عندنا كتاب حفيظ فيه كل شىء و هو اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ» المرجح الاختلاط و الالتباس، و فى الآيه إضراب عما تلوح إليه الآيه السابقه فإن اللائح منها أنهم إنما

تعجبوا من أمر البعث و الرجوع و استبعده لجهلهم بأن الله سبحانه عليم لا يعزب عنه شيء من أحوال خلقه و آثارهم و أن جميع ذلك مستطر في اللوح المحفوظ عند الله بحيث لا يشذ عنه شاذ.

فأضرب في هذه الآيه أن ذلك ليس من جهلهم و إن تجاهلوا بل كذبوا بالحق لما جاءهم فاستبان لهم أنه حق فهم جاحدون للحق معاندون له و ليسوا بجاهلين به قاصرين عن إدراكه فهم في أمر مريج مختلط غير منتظم يدركون الحق و يكذبون به مع أن لازم العلم بشيء تصديقه و الإيمان به.

وقيل: المراد بكونهم في أمر مريج أنهم متحيرون بعد إنكار الحق لا يدرون ما يقولون فتاره يقولون: افتراء على الله، و تاره: سحر، و تاره: شعر، و تاره: كهانه و تاره: زجر.

و لذلك عقب الكلام بذكر آيات علمه و قدرته توبيخا لهم ثم بالإشارة إلى تكذيب الأمم الماضيه الهالكه الذى ساقهم إلى عذاب الاستئصال، تهديدا لهم.

قوله تعالى: « أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيَّنَّاهَا وَ مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » الفروج جمع فرجه: الشقوق و الفتوق، و تقييد السماء بكونها فوقهم للدلالة على أنها بمراى منهم لا تغيب عن أنظارهم، و المراد بتزيينها خلق النجوم اللامعه فيها بما لها من الجمال البديع، فبناء هذا الخلق البديع بما لها من الجمال الرائع من غير شقوق و فتوق أصدق شاهد على قدرته القاهره و علمه المحيط بما خلق.

قوله تعالى: « وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أُنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » مد الأرض بسطها لتلائم عيشه الإنسان، و الرواسى جمع الراسيه بمعنى الثابته صفه محذوفه الموصوف و هو الجبال، و المراد جعل الجبال الثابته على ظهرها، و البهيج من البهجه، قال فى المجمع: البهجه الحسن الذى له روعه عند الرؤيه كالزهره و الأشجار النضره و الرياض الخضره. انتهى. و قيل: المراد بالبهيح الذى من رآه بهج و سر به فهو بمعنى المبهوج به.

و المراد بإنبات كل زوج بهيج إنبات كل صنف حسن المنظر من النبات.

فخلق الأرض و ما جرى فيها من التدبير الإلهي العجيب أحسن دليل يدل العقل على كمال قدره و العلم.

قوله تعالى: « تَبَصَّرَهُ وَ ذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » مفعول له أى فعلنا ما فعلنا من بناء السماء و مد الأرض و عجائب التدبير التى أجريناها فيهما ليكون تبصره يتبصر بها و ذكرى يتذكر بها كل عبد راجع إلى الله سبحانه.

قوله تعالى: « وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ » السماء جهه العلو و الماء المبارك المطر، و وصف بالمباركة لكثرة خيراته العائده إلى الأرض و أهلها، و حب الحصيد المحصود من الحب و هو من إضافه الموصوف إلى الصفه، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: « وَ النَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » الباسقات جمع باسقه و هى الطويله العاليه، و الطلع أول ما يطلع من ثمر النخيل، و النضيد بمعنى المنضود بعضه على بعض و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: « رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَ أَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ » الرزق ما يمد به البقاء، و « رِزْقًا لِلْعِبَادِ » مفعول له أى أنبتنا هذه الجنات و حب الحصيد و النخل باسقات بما لها من الطلع النضيد ليكون رزقا للعباد فمن خلق هذه النباتات ليرزق به العباد بما فى ذلك من التدبير الواسع الذى يدهش اللب و يحير العقل هو ذو علم لا يتناهى و قدره لا يعيى لا يشق عليه إحياء الإنسان بعد موته و إن تلاشت ذرات جسمه و ضلت فى الأرض أجزاء بدنه.

و قوله: « وَ أَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ » برهان آخر على البعث غير ما تقدم استنتج من طى الكلام فإن البيان السابق فى رد استبعادهم للبعث مستندين إلى صيرورتهم ترابا غير متمايز الأجزاء كان برهانا من مسلك إثبات علمه بكل شىء و قدرته على كل شىء و هذا البرهان الذى يتضمنه قوله: « وَ أَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ » من مسلك إثبات إمكان الشىء بوقوع مثله فليس الخروج من القبور بالإحياء بعد الموت إلا- مثل خروج النبات الميت من الأرض بعد موتها و وقوف قواه عن النماء و النشوء.

و قد قررنا هذا البرهان فى ذيل الآيات المستدله بإحياء الأرض بعد موتها على

البعث غير مره فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

قوله تعالى: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ -إلى قوله- كُلُّ كَذَّابٍ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ»، تهديد و إنذار لهم بما كذبوا بالحق لما جاءهم و تبين لهم عنادا كما أشرنا إليه قبل.

و قد تقدم ذكر أصحاب الرس فى تفسير سوره الفرقان، و ذكر أصحاب الأيكة و هم قوم شعيب فى سور الحجر و الشعراء و-ص، و ذكر قوم تبع فى سوره الدخان.

و فى قوله: «كُلُّ كَذَّابٍ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ» إشاره إلى أن هناك وعيدا بالهلاك ينجز عند تكذيب الرسل قال تعالى: «فَسَيُرَوَّاهِى الْأَرْضِ فَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ»: النحل: ٣٦.

بحث روائى

فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال " *:خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها- ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له: ق- السماء الدنيا مترفره عليه، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا- مثل تلك الأرض سبع مرات- ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له ق- السماء الثانية مترفره عليه حتى عد سبع أرضين- و سبعة أبحر و سبعة أجبل و سبع سماوات. قال: و ذلك قوله:

« وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَهُ أَبْحُرٍ ».

و فيه، أخرج ابن المنذر و ابن مردويه و أبو الشيخ و الحاكم عن عبد الله بن بريده " *:فى قوله تعالى: « ق » قال: جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء.

و فيه، أخرج ابن أبى الدنيا فى العقوبات، و أبو الشيخ فى العظمه، عن ابن عباس قال " *:

خلق الله جبلا- يقال له ق محيط بالعالم- و عروقه إلى الصخره التى عليها الأرض- فإذا أراد الله أن يزلزل قريه أمر ذلك الجبل- فحرك العرق الذى يلى تلك القريه فيزلزلها و يحركها- فمن ثم تحرك القريه دون القريه:

أقول: و روى القمى بإسناده عن يحيى بن ميسره الخثعمى عن الباقر(ع):

مثل ما مر عن عبد الله بن بريده، وروى ما فى معناه مرسلا و مضمرا و لفظه: قال:

جبل محيط بالدنيا وراء يأجوج و مأجوج.

و كيفما كان لا تعويل على هذه الروايات، و بطلان ما فيها يكاد يلحق اليوم بالبديهيات أو هو منها.

و فى تفسير القمى، فى قوله تعالى: «فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ» قال:

نزلت فى أبى بن خلف قال لأبى جهل: تعال إلى أعجبك من محمد ثم أخذ عظما ففته - ثم قال: يا محمد تزعم أن هذا يحيا؟ فقال الله: بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ.

[سوره ق (٥٠): الآيات ١٥ الى ٣٨]

اشاره

أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَائِلِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَ نَفَخَ فِي الصُّورِ ذَلِكُمْ يَوْمَ الْوَعِيدِ (٢٠) وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَ قَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعْتَهُ وَ لَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَى وَ قَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَى وَ مَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَ أُنزِلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكُمْ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)

الآيه الأولى متممه لما أورده فى الآيات السابقه من الحججه على علمه و قدرته بما خلق السماء و الأرض و ما فيهما من خلق و دبر ذلك أكمل التدبير و أتمه و ذلك كله هو الخلق الأول و النشأه الأولى. فتمم ذلك بقوله: « أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ » و استنتج منه أن القادر على الخلق الأول العالم به قادر على خلق جديد و نشأه ثانيه و عالم به لأنهما مثلان إذا جاز له خلق أحدهما جاز خلق الآخر و إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن.

ثم أضرب عنه أنهم فى التباس من خلق جديد مع مماثله الخلقين ثم أشار إلى نشأه الإنسان أول مره و هو يعلم منه حتى خطرات قلبه و عليه رقباؤه يراقبونه أدق المراقبه ثم يجيئه سكره الموت بالحق ثم البعث ثم دخول الجنه أو النار ثم أشار ثانيا إلى ما حل بالقرون الماضيه المكذبه من السخط الإلهى و عذاب الاستئصال و هم أشد بطشا من هؤلاء فمن جازاهم بالهلاك قادر على أن يجازى هؤلاء.

قوله تعالى: « أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » العى عجز يلحق من تولى الأمر و الكلام كذا، قال الراغب: يقال: أعيانى كذا و عييت بكذا أى عجزت عنه و الخلق الأول خلق هذه النشأه الطبيعیه بنظامها الجارى و منها الإنسان فى حياته الدنيا فلا وجه لقصر الخلق الأول فى خلق السماء و الأرض فقط كما مال إليه الرازى فى التفسير الكبير و لا لقصره فى خلق الإنسان كما مال إليه بعضهم و ذلك لأن الخلق الجديد يشمل السماء و الأرض و الإنسان جميعا كما قال تعالى: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» : إبراهيم: ٤٨. و الخلق الجديد خلق النشأه الثانيه و هى النشأه الآخره، و الاستفهام للإنكار.

و المعنى: أ عجزنا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الخلق الجديد؟ أى لم نعجز عن الخلق الأول و هو إبدائه فلا نعجز عن الخلق الجديد و هو إعادته.

و لو أخذ العى بمعنى التعب كما مال إليه بعضهم كان المعنى: هل تعبنا بسبب الخلق الأول حتى يتعذر أو يتعسر علينا الخلق الجديد؟ و ذلك كما أن الإنسان و سائر الحيوان إذا أتى بشىء من الفعل و أكثر منه انتهى به إلى التعب البدنى فيكفه ذلك عن الفعل بعد، فما لم يأت به من الفعل لكونه تعبان مثل ما أتى لكنه لا يؤتى به لأن الفاعل لا يستطيعه لتعبه و إن كان الفعل جائزا متشابه الأمثال.

و هذا معنى لا بأس به لكن قيل: إن استعمال العى بمعنى العجز أفصح.

على أن سوق الحججه من طريق العجز يفيد استحاله الإتيان و نفيها هو المطلوب بخلاف سوقها من طريق التعب فإنه يفيد تعسره دون استحاله الإتيان و مراد النافين للمعاد استحالته دون تعسره هذا.

و قوله: « بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » اللبس هو الالتباس، و المراد بالخلق

الجديد تبديل نشأتهم الدنيا من نشأه أخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعي الحاكم فى الدنيا فإن فى النشأه الأخرى وهى الخلق الجديد بقاء من غير فناء و حياه من غير موت ثم إن كان الإنسان من أهل السعاده فله نعمه من غير نقمه و إن كان من أهل الشقاء ففى نقمه لا نعمه معها، و النشأه الأولى وهى الخلق الأول و النظام الحاكم فيها على خلاف ذلك.

و المعنى: إذا كنا خلقنا العالم بسمائه و أرضه و ما فيهما و دبرناه أحسن تدبير لأول مره بقدرتنا و علمنا و لم نعجز عن ذلك علما و قدره فنحن غير عاجزين عن تجديد خلقه و هو تبديله خلقا جديدا فلا ريب فى قدرتنا و لا التباس بل هم فى التباس لا سبيل لهم مع ذلك إلى الإيمان بخلق جديد.

قوله تعالى: « وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعَلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » قال الراغب: الوسوسه الخطره الرديئه و أصله من الوسواس و هو صوت الحلى و الهمس الخفى. انتهى.

و المراد بخلق الإنسان وجوده المتدرج المتحول خلقا بعد خلق لا أول تكوينه إنسانا و إن عبر عنه بالماضى إذ قال: « وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ » إذ الإنسان - و كذا كل مخلوق له حظ من البقاء - كما يحتاج إلى عطيه ربه فى أول وجوده كذلك يحتاج إليه فى بقائه.

و لما ذكر من النكته عطف قوله: « وَ نَعَلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ » و هو فعل مضارع مسوق للدلاله على الاستمرار على قوله: « وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ » و هو فعل ماضى لكنه مستمر المعنى، و كذا قوله: « وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » مفيد للثبوت و الدوام و الاستمرار باستمرار وجود الإنسان.

و للآيه اتصال بما تقدم من الاحتجاج على علمه و قدرته تعالى فى الخلق الأول بقوله:

« أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ » و اتصال أيضا بقوله تعالى فى الآيه السابقه: « بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » فهى فى سياق يذكر قدرته على الإنسان بخلقه، و علمه به بلا واسطه و بواسطه الملائكه الحفظه الكتبه.

فقوله: « وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ » - و اللام للقسم - دال على القدره عليه بإثبات الخلق.

وقوله: « وَ نَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ » في ذكر أخفى أصناف العلم و هو العلم بالخطور النفساني الخفى إشاره إلى استيعاب العلم له كأنه قيل: و نعلم ظاهره و باطنه حتى ما توسوس به نفسه و مما توسوس به الشبهه في أمر المعاد: كيف يبعث الإنسان و قد صار بعد الموت ترابا متلاشي الأجزاء غير متميز بعضها من بعض.

و قد بان أن « ما » في « مَا تُوسْوِسُ بِهِ » موصوله و ضمير « بِهِ » عائد إليه و الباء للآله أو للسببيه، و نسب الوسوسه إلى النفس دون الشيطان و إن كانت منسوبه إليه أيضا لأن الكلام في إحاطه العلم بالإنسان حتى بما في زوايا نفسه من هاجس و وسوسه.

و قوله: « وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » الوريد عرق متفرق في البدن فيه مجارى الدم، و قيل: هو العرق الذى فى الحلق، و كيف كان فتسميته حبلًا لتشبيهه به، و إضافه حبل الوريد بيانه.

و المعنى: نحن أقرب إلى الإنسان من حبل وريده المخالط لأعضائه المستقر فى داخل بدنه فكيف لا نعلم به و بما فى نفسه.

و هذا تقريب للمقصود بجمله ساذجه يسهل تلقيها لعامة الأفهام و إلا فأمر قربه تعالى إليه أعظم من ذلك و أعظم فهو سبحانه الذى جعلها نفسا و رتب عليها آثارها فهو الواسطه بينها و بين نفسها و بينها و بين آثارها و أفعالها فهو أقرب إلى الإنسان من كل أمر مفروض حتى فى نفسه، و لكون هذا المعنى دقيقا يثبت تصورهم على أكثر الأفهام عدل سبحانه إلى بيانه بنحو قوله: « وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » و قريب منه بوجه قوله: « أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ».

و لهم فى معنى الآيه وجوه كثيره أخر لا جدوى فى نقلها و البحث عنها من أرادها فليراجع كتبهم.

قوله تعالى: « إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ » التلقى الأخذ و التلقن، و المراد بالمتلقيان على ما يفيد السياق الملكان الموكلان على الإنسان اللذان يتلقيان عمله فيحفظانه بالكتابه.

و قوله: « عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ » تقديره عن اليمين قعيد و عن الشمال قعيد، و المراد باليمين و الشمال يمين الإنسان و شماله، و القعيد القاعد.

و الظرف فى قوله: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ» الظاهر أنه متعلق بمحذوف و التقدير اذكر إذ يتلقى المتلقيان، و المراد به الإشاره إلى علمه تعالى بأعمال الإنسان من طريق كتاب الأعمال من الملائكه وراء علمه تعالى بذاته من غير توسط الوسائط.

و قيل: الظرف متعلق بقوله فى الآيه السابقه: «أَقْرَبُ» و المعنى: نحن أقرب إليه من جبل الوريد فى حين يتلقى الملكان الموكلان عليه أعماله ليكتباها.

و لعل الوجه السابق أوفق للسياق فإن بناء هذا الوجه على كون العمده فى الغرض بيان أقربيته تعالى إليه و علمه به و الباقي مقصود لأجله، و ظاهر السياق و خاصه بالنظر إلى الآيه التاليه كون كل من العلم من طريق القرب و من طريق تلقى الملكين مقصودا بالاستقلال.

و قيل: «إِذْ» تعليليه تعلل علمه تعالى المدلول عليه بقوله: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ» إلخ، بمفاد مدخولها.

و فيه أن من البعيد من مذاق القرآن أن يستدل على علمه تعالى بعلم الملائكه أو بحفظهم و كتابتهم.

و قوله: «عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ» تمثيل لموقعهما من الإنسان، و اليمين و الشمال جانبا الخير و الشر ينتسب إليهما الحسنه و السيئه.

قوله تعالى: «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» اللفظ الرمى سمي به التكلم بنوع من التشبيه، و الرقيب المحافظ، و العتيد المعد المهياً للزوم الأمر.

و الآيه تذكر مراقبه الكتبه للإنسان فيما يتكلم به من كلام، و هى بعد قوله:

«إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ» إلخ، من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية به.

قوله تعالى: «وَ جَاءَتْ سَيَّكْرَهُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ» الحيد العدول و الميل على سبيل الهرب، و المراد بسكره الموت ما يعرض الإنسان حال النزاع إذ يشتغل بنفسه و ينقطع عن الناس كالسكران الذى لا يدرى ما يقول و لا ما يقال له.

و فى تقييد مجيء سكره الموت بالحق إشاره إلى أن الموت داخل فى القضاء الإلهى مراد فى نفسه فى نظام الكون كما يستفاد من قوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبَلُّوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِنَّا نُرْجِعُونَ»: الأنبياء: ٣٥، و قد مر تفسيره فالموت-و هو

الانتقال من هذه الدار إلى دار بعدها-حق كما أن البعث حق و الجنة حق و النار حق، و فى معنى كون الموت بالحق أقوال آخر لا جدوى فى نقلها و التعرض لها.

و فى قوله: «ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ» إشاره إلى أن الإنسان يكره الموت بالطبع و ذلك أن الله سبحانه زين الحياه الدنيا و التعلق بزخارفها للإنسان ابتلاء و امتحانا، قال تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا»: الكهف: ٨.

قوله تعالى: « وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذِٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ » هذه نقله ثانيه إلى عالم الخلود بنفخ الصور بعد النقلة الأولى، و المراد بنفخ الصور النفخه الثانيه المقيمه للساعه أو مجموع النفختين بإرادته مطلق النفخ.

و المراد بيوم الوعيد يوم القيامة الذى ينجز الله تعالى فيه وعيده على المجرمين من عباده.

قوله تعالى: « وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ » السياقه حث الماشيه على المسير من خلفها بعكس القيادة فهى جلبها من أمامها.

فقوله: « وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ » أى جاءت إلى الله و حضرت عنده لفصل القضاء، و الدليل عليه قوله تعالى: «إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسَاقُ»: القيامة: ٣٠.

و المعنى: و حضرت عنده تعالى كل نفس معها سائق يسوقها و شاهد يشهد بأعمالها و لم يصرح تعالى بكونهما من الملائكه أو بكونهما هما الكاتبين أو من غير الملائكه، غير أن السابق إلى الذهن من سياق الآيات أنهما من الملائكه، و سيجىء الروايات فى ذلك.

و كذا لا تصریح بكون الشهاده منحصره فى هذا الشاهد المذكور فى الآيه بل الآيات الوارده فى شهداء يوم القيامة تقضى بعدم الانحصار، و كذا الآيات التاليه الذاكره لاختصاص الإنسان و قرينه داله على أن مع الإنسان يومئذ غير السائق و الشهيد.

قوله تعالى: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ غِطَاءًا كَمَا فَصَّيْرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» وقوع الآيه فى سياق آيات القيامة و احتفافها بها يقضى بكونها من خطابات يوم القيامة، و المخاطب بها هو الله سبحانه، و الذى خوطب بها هو الإنسان المذكور

فى قوله: «وَ جَاءَتْ كَمَلٍ نَفْسٍ» و عليه فالخطاب عام متوجه إلى كل إنسان إلا أن التوبيخ و التقرير اللائح من سياق الآيه ربما استدعى اختصاص الخطاب بمنكرى المعاد، أضف إلى ذلك، كون الآيات مسوقه لرد منكرى المعاد فى قولهم: «أ إِذَا مِنَّا وَ كُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ».

و الإشاره بقوله: «هذا» إلى ما يشاهده يومئذ و يعاينه من تقطع الأسباب و بوار الأشياء و رجوع الكل إلى الله الواحد القهار، و قد كان تعلق الإنسان فى الدنيا بالأسباب الظاهريه و ركونه إليها أغفله عن ذلك حتى إذا كشف الله عنه حجاب الغفله فبدت له حقيقه الأمر فشاهد ذلك مشاهده عيان لا علما فكريا.

و لذا خوطب بقوله: «لَقَدْ كُنْتَ فى الدنيا فى غَفَلَةٍ» أحاطت بك «من هذا» الذى تشاهده و تعاينه و إن كان فى الدنيا نصب عينيك لا يغيب لكن تعلقك بذيل الأسباب أذهلك و أغفلك عنه «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ» اليوم «فَبَصَّرُوكَ» و هو البصيره و عين القلب «الْيَوْمَ» و هو يوم القيامه «حَدِيدٌ» أى نافذ يبصر ما لم يكن يبصره فى الدنيا.

و يتبين بالآيه أولا: أن معرف يوم القيامه أنه يوم ينكشف فيه غطاء الغفله عن الإنسان فيشاهد حقيقه الأمر، و فى هذا المعنى و ما يقرب منه آيات كثيره كقوله تعالى: «وَ السَّامِرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» الانفطار: ١٩، و قوله: «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» المؤمن: ١٦، إلى غير ذلك من الآيات.

و ثانيا: أن ما يشاهده الإنسان يوم القيامه موجود مهياً له و هو فى الدنيا غير أنه فى غفله منه، و خاصه يوم القيامه أنه يوم انكشاف الغطاء و معاينه ما وراءه، و ذلك لأن الغفله إنما يتصور فيما يكون هناك أمر موجود مغفول عنه، و الغطاء يستلزم أمرا وراءه و هو يغطيه و يستره، و عدم حده البصر إنما ينفذ فيما إذا كان هناك مبصر دقيق لا ينفذ فيه البصر.

و من أسخف القول ما قيل: إن الآيه خطاب منه تعالى لنبيه (ص)، و المعنى:

لقد كنت قبل الرساله فى غفله من هذا الذى نوحى إليك فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد يدرك الوحى أو يبصر ملك الوحى فيتلقى الوحى، و ذلك لأن السياق لا يساعده و لا لفظ الآيه ينطبق عليه.

قوله تعالى: «وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ» لا يخلو السياق من ظهور في أن المراد بهذا القرين الملك الموكل به فإن كان هو السائق كان معنى قوله: «هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ» هذا الإنسان الذي هو عندي حاضر، وإن كان هو الشهيد كان المعنى هذا - وهو يشير إلى أعماله التي حمل الشهادة عليها - ما عندي من أعماله حاضر مهياً.

وقيل: المراد بالقرين الشيطان الذي يصاحبه و يغويه، ومعنى كلامه على هذا هذا الإنسان هو الذي توليت أمره و ملكته حاضر مهياً لدخول جهنم.

قوله تعالى: «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ» الكفار اسم مبالغه من الكفر، والعنيد المعاند للحق المستمر على عناده، والمعتدى المتجاوز عن الحد المتخطئ للحق، والمريب الشاك أو المشكك في أمر البعث.

و بين هذه الصفات المعدوده شبه الاستلزام فإن كثرة الكفر برد الإنسان كل حق يواجهه تنتج العناد مع الحق و الإصرار عليه، و الإصرار على العناد يوجب المنع عن أكثر الخيرات إذ لا خير إلا في الحق و من ناحيته، و هو يستلزم الخروج عن حد الحق إلى الباطل و تجاوز الإنسان عن حد العبوديه إلى الاستكبار و الطغيان و يستلزم تشكيك الناس في ما يرومونه من دين الحق.

و الخطاب في الآيه منه تعالى، و ظاهر سياق الآيات أن المخاطب به هما الملكان الموكلان السائق و الشهيد، و احتمال بعضهم أن يكون الخطاب إلى ملكين من ملائكة النار و خزنتها.

قوله تعالى: «الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ» العدول في ذكر صفة الشرك عن الإيجاز إلى الإطناب حيث لم يقل: مشرك و قال: «الَّذِي جَعَلَ» إلخ، للإشارة إلى أن هذه الصفة أعظم المعاصي و أم الجرائم التي أتى بها و الصفات الرذيله التي عدت له من الكفر و العناد و منع الخير و الاعتداء و الإراابه.

و قوله: «فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ» تأكيد لما تقدم من الأمر بقوله: «أَلْقِيَاهُ» إلخ، و يلوح إلى تشديد الأمر من جهة الشرك، و لذا عقبه بقوله: «فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ».

قوله تعالى: «قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» المراد بهذا القرين قرينه من الشياطين بلا شك، و قد تكرر في كلامه تعالى ذكر القرين من الشيطان

و هو الذى يلزم الإنسان و يوحى إليه ما يوحى من الغوايه و الضلال، قال تعالى: «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصِيدُونَ مِنْهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ» الزخرف: ٣٨.

فقوله: «قَالَ قَرِينُهُ» أى شيطانه الذى يصاحبه و يغويه «رَبَّنَا» أضاف الرب إلى نفسه و الإنسان الذى هو قرينه لأنهما فى مقام الاختصام «مَا أَطَعْتَهُ» أى ما أجبرته على الطغيان «وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» أى متهيناً مستعداً لقبول ما ألقىته إليه تلقاه باختياره فما أنا بمسئولين عن ذنبه فى طغيانه.

و قد تقدم فى سورة الصافات تفصيل اختصام الظالمين و أزواجهم فى قوله:

«احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ»: الصافات: ٢٢، إلى آخر الآيات.

قوله تعالى: «قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ» القائل هو الله سبحانه يخاطبهم و كأنه خطاب واحد لعامة المشركين الطاغين و قرنائهم ينحل إلى خطابات جزئية لكل إنسان و قرينه بمثل قولنا: لا تختصما لى، إلخ.

و قوله: «وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ» حال من فاعل «لَا تَخْتَصِمُوا» و «بِالْوَعِيدِ» مفعول «قَدَّمْتُ» و الباء للوصلة.

و المعنى: لا تختصموا لى فلا نفع لكم فيه بعد ما أبلغتكم وعيدى لمن أشرك و ظلم، و الوعيد الذى قدمه إليهم مثل قوله تعالى لإبليس: «اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا»: إسرء: ٦٣، و قوله: «فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لِلْمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ»: ص: ٨٥. أو قوله: «لِلْمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ»: السجده: ١٣.

قوله تعالى: «مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَ مَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ» الذى يعطيه السياق أن تكون الآية استثناءً بمنزله الجواب عن سؤال مقدر كان قائلاً يقول: هب أنك قد قدمت فهلاً غيرته و عفوت؟ فأجيب بقوله: «مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ» و المراد بالقول مطلق القضاء المحتوم الذى قضى به الله، و قد قضى لمن مات على الكفر بدخول جهنم و ينطبق بحسب المورد على الوعيد الذى أوعده الله لإبليس و من تبعه.

فقد بان أن الجملة مستأنفة، والمراد بتبديل القول تغيير القضاء المحتوم، و«لَدَيَّ» متعلق بالتبديل، هذا ما يعطيه السياق، وقد ذكر بعضهم في هذه الجملة وإعراب مفرداتها ومعنى تبديل القول وجوها واحتمالات كثيرة بعيدة عن الفهم لا تزيد في الكلام إلا تعقيدا فأغمضنا عن إيرادها.

وقوله: «وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ» متمم لمعنى الجملة السابقة أى لا- يبدل قولى فأنتم معذبون لا محاله و لست أظلم عبيدى فى عذابهم على طبق ما قدمت إليهم بالوعيد لأنهم مستحقون لذلك بعد إتمام الحجة.

و من وجه آخر: لا- ظلم فى مجازاتهم بالعذاب فإنهم إنما يجوزون بأعمالهم التى قدموها فى أعمالهم ردت إليهم كما هو ظاهر قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»: التحريم: ٧.

و ما فى قوله: «وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ» من نفى الظلم الكثير لا يستوجب جواز الظلم اليسير فإنه تعالى لو ظلم فى شىء من الجزاء كان ظلما كثيرا لكثرة أمثاله فإن الخطاب لكل إنسان مشرك ظالم مع قرينه، وهم كثيرون فهو سبحانه لو ظلم فى شىء من الجزاء لكان ظلما.

قوله تعالى: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَئِلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» خطاب منه تعالى لجهنم و جواب منها، وقد اختلف فى حقيقته هذا التكليم و التكلم ف قيل: الخطاب و الجواب بلسان الحال و يرد أنه لو كان بلسان الحال لم يختص به تعالى بل كان لكل من يشاهدها على تلك الحال أن يسألها عن امتلائها فتجيبه بقولها: هل من مزيد؟ فليس لتخصيص الخطاب به تعالى نكته ظاهره.

و قيل: حقيقته الخطاب لخزنه جهنم و الجواب منهم و إن كانا نسبا إلى جهنم و فيه أنه خلاف الظاهر لا يصار إليه إلا بدليل.

و قيل: الخطاب و الجواب على ظاهره، و لا- دليل يدل على عدم الجواز، وقد أخبر الله سبحانه عن تكليم الأيدي و الأرجل و الجلود و غيرها، و هو الوجه و قد تقدم فى تفسير سورة فصلت أن العلم و الشعور سار فى جميع الموجودات.

وقوله: «هَلِ امْتَلَأَتْ» استفهام تقريرى، وكذا قوله حكاية عنها: «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» ولعل إيراد هذا السؤال والجواب للإشارة إلى أن قهره وعذابه لا يقصر عن الإحاطه بالمجرمين وإيفاء ما يستحقونه من الجزاء قال تعالى: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» التوبة: ٤٩.

و استشكل بأنه مناف لصريح قوله تعالى: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» الآية و أجيب بأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو شىء من طبقاتها من السكنه كما يقال: البلد ممتلى بأهله.

على أنه يمكن أن يكون هذا القول منها قبل دخول جميع أهل النار فيها.

وقيل: الاستفهام فى قوله: «هَلِ امْتَلَأَتْ» للإِنكار والمعنى: لا مزيد أى لا مكان فى يزيد على من ألقى فى من المجرمين فقد امتلأت فيكون إشاره إلى ما قضى به فى قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» السجده: ١٣، وقوله: «هَلِ امْتَلَأَتْ» فى معنى أن يقال: «حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ»، وقوله: «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» تقرير و تصديق له.

و ربما أيد هذا الوجه قوله تعالى قبل: «مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ» على تقدير أن يراد بالقول قوله تعالى: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

قوله تعالى: «وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ» شروع فى وصف حال المتقين يوم القيامة، والإزلاف التقريب، و«غَيْرَ بَعِيدٍ» على ما قيل صفة لظرف محذوف و التقدير فى مكان غير بعيد.

و المعنى: و قربت الجنة يومئذ للمتقين حال كونها فى مكان غير بعيد أى هى بين أيديهم لا تكلف لهم فى دخولها.

قوله تعالى: «هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ» الإِشارة إلى ما تقدم من الثواب الموعود، والأواب من الأوب بمعنى الرجوع، والمراد كثره الرجوع إلى الله بالتوبه والطاعه، والحفيظ هو الذى يدوم على حفظ ما عهد الله إليه من أن يترك فيضيع، وقوله: «لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ» خبر بعد خبر لهذا أو حال.

قوله تعالى: «مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ» بيان لكل أواب و الخشيته بالغيب الخوف من عذاب الله حال كونه غائبا غير مرئى له، والإِنابه هو

الرجوع، و المجرى إلى ربه بقلب منيب أن يتم عمره بالإنايه فيأتى ربه بقلب متلبس بالإنايه.

قوله تعالى: «أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ» خطاب للمتقين أى يقال لهم:

ادخلوا بسلام أى بسلامه و أمن من كل مكروه و سوء، أو بسلام من الله و ملائكته عليكم، و قوله: «ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ» بشرى يبشرون بها.

قوله تعالى: «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ» يمكن أن يكون «فِيهَا» متعلقا بيشاءون أو بمحذوف هو حال من الموصول، و التقدير: حال كون ما يشاءون فيها أو من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول، و التقدير: ما يشاءونه حال كونه فيها، و الأول أوفق لسعه كرامتهم عند الله سبحانه.

و المحصل: أن أهل الجنة و هم فى الجنة يملكون كل ما تعلقت به مشيتهم و إرادتهم كائنا ما كان من غير تقييد و استثناء فلهم كلما أمكن أن يتعلق به الإراده و المشيه لو تعلقت.

و قوله: «وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ» أى و لهم عندنا ما يزيد على ذلك-على ما يفيد السيق-و إذ كان لهم كل ما أمكن أن تتعلق به مشيتهم مما يتعلق به علمهم من المطالب و المقاصد فالمزيد على ذلك أمر أعظم مما تتعلق به مشيتهم لكونه فوق ما يتعلق به علمهم من الكمال.

و قيل: المراد بالمزيد الزيادة على ما يشاءون من جنس ما يشتهون فإذا شاءوا رزقا أعطوا منه أكثر مما شاءوا و أفضل و أعجب كما ورد عن بعضهم أنه تمر بهم السحابه فتقول: ما ذا تريدون فأمره عليكم فلا يريدون شيئا إلا أمطرته عليهم.

و فيه أنه تقييد لإطلاق الكلام من غير مقيد فإن ظاهر قوله: «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا» إنهم يملكون كل ما يمكنهم أن يشاءوا لا تملكهم ما شاءوه بالفعل فالمزيد وراء ما يمكن أن تتعلق به مشيتهم.

و قيل: المراد أنه يضاعف لهم الحسنه بعشر أمثالها و فيه ما فى سابقه.

قوله تعالى: «وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ» التنقيب السير، المحيص المحيد و المنجا.

و فى الآيه تذييل الاحتجاج بخلق الإنسان و العلم به و بيان سيره إلى الله بالتخويف و الإنذار نظير ما جرى عليه الكلام فى صدر السوره من الاحتجاج على المعاد و تذييله بالتخويف و الإنذار فى قوله: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ» إلخ.

و المعنى: و كثيرا ما أهلكتنا قبل هؤلاء المشركين من قرن هم أى أهل ذلك القرن أشد بطشا منهم أى من هؤلاء المشركين فساروا ببطشهم فى البلاد ففتحوها و تحكموا عليها هل من محيد و منجا من إهلاك الله و عذابه؟.

قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ» القلب ما يعقل به الإنسان فيميز الحق من الباطل و الخير من الشر و النافع من الضار، فإذا لم يعقل و لم يميز فوجوده بمنزله عدمه إذ ما لا أثر له فوجوده و عدمه سواء، و إلقاء السمع هو الاستماع كأن السمع شىء يلقى إلى المسموع فينال و يدركه و الشهيد الحاضر المشاهد.

و المعنى: أن فيما أخبرنا به من الحقائق و أشرنا إليه من قصص الأمم الهالكه لذكرى يتذكر بها من كان يتعقل فيدرك الحق و يختار ما فيه خيره و نفعه أو استمع إلى حق القول و لم يشتغل عنه بغيره و الحال أنه شاهد حاضر يعى ما يسمعه.

و التردد بين من كان له قلب و من استمع شهيدا لمكان أن المؤمن بالحق أحد رجلين إما رجل ذو عقل يمكنه أن يتناول الحق فيتفكر فيه و يرى ما هو الحق فيذعن به، و إما رجل لا يقوى على التفكير حتى يميز الحق و الخير و النافع فعليه أن يستمع القول فيتبعه، و أما من لا قلب له يعقل به و لا يسمع شهيدا على ما يقال له و يلقى إليه من الرساله و الإنذار فجاهل متعنت لا قلب له و لا سمع، قال تعالى: «وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ»: الملك: ١٠.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ» اللغوب التعب و النصب، و المعنى ظاهر.

بحث روائى

فى التوحيد، بإسناده إلى عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد قال*: سألت أبا جعفر

(ع) عن قول الله عز و جل: « أَفَعَبِيدًا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » قال: يا جابر تأويل ذلك أن الله عز و جل -إذا أفنى هذا الخلق و هذا العالم- و سكن أهل الجنة النار- جدد الله عالما غير هذا العالم- و جدد خلقا من غير فحوله و لا إناث يعبدونه و يوحدونه- و خلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم، و سماء غير هذه السماء تظلمهم.

لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد- أو ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم- بلى و الله لقد خلق ألف ألف عالم و ألف ألف آدم- أنت في آخر تلك العوالم و أولئك الآدميين.:

أقول: و روى في الخصال، الشطر الأول من الحديث بإسناده عن محمد بن مسلم عنه (ع)

، و لعل المراد بكون ما ذكر تأويل الآيه أنه مما ينطبق عليه.

و عن جوامع الجامع، عن النبي ص*: كاتب الحسنات على يمين الرجل -و كاتب السيئات على شماله، و صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال: فإذا عمل حسنه كتبها صاحب اليمين عشرا- و إذا عمل سيئه قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر.

أقول: و في معناها روايات أخرى، و روى ست ساعات بدل سبع ساعات.

و في نهج البلاغه: « وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ » سائق يسوقها إلى محشرها و شاهد يشهد عليها بعملها.

و في المجمع، و روى أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن الأعمش قال*: حدثنا أبو المتوكل التاجر عن أبي السعيد الخدرى قال: قال رسول الله ص: إذا كان يوم القيامة يقول الله لى و لعلى: ألقيا فى النار من أبغضكما، و أدخلنا فى الجنة من أحبكما و ذلك قوله: « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ».

أقول: و رواه شيخ الطائفة فى أماليه، بإسناده عن أبى سعيد الخدرى عنه (ص).

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت و ابن أبى حاتم و أبو نعيم فى الحليه، عن جابر بن عبد الله قال*: سمعت رسول الله ص يقول: إن ابن آدم لفى غفله عما خلق له- إن الله إذا أراد خلقه قال للملك: اكتب رزقه. اكتب أثره. اكتب

أجله شقيا أم سعيدا- ثم يرتفع ذلك الملك و يبعث الله ملكا- فيحفظه حتى يدرك ثم يرتفع ذلك الملك.

ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته و سيئاته- فإذا حضره الموت ارتفع ذلك الملكان- و جاء ملك الموت ليقبض روحه- فإذا أدخل قبره رد الروح فى جسده- و جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان.

فإذا قامت الساعه انحط عليه ملك الحسنات- و ملك السيئات- فبسطا كتابا معقودا فى عنقه- ثم حضرا معه واحد سائق و آخر شهيد. ثم قال رسول الله ص:

إن قدامكم لأمرًا عظيمًا- لا تقدرونه فاستعينوا بالله العظيم.

و فى تفسير القمى، "فى قوله تعالى: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» قال: هو استفهام لأن الله وعد النار أن يملأها- فتمتلئ النار ثم يقول لها: هَلِ امْتَلَأَتْ؟ و تقول: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ على حد الاستفهام أى ليس فى مزيد.

أقول: بناؤه على كون الاستفهام إنكاريا.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد و البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن جرير و ابن مردويه و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أنس قال: *قال رسول الله ص: لا تزال جهنم يلقى فيها و تقول: هل من مزيد؟ حتى تضع رب العزه فيها قدمه- فينزوى بعضها إلى بعض و تقول: قط قط و عزتك و كرمك.

و لا يزال فى الجنة فضل- حتى ينشئ الله لها خلقا آخر- فيسكنهم فى قصور الجنة.

أقول: وضع القدم على النار و قولها: قط قط مروى فى روايات كثيره من طرق أهل السنه.

و فى تفسير القمى، "فى قوله تعالى: «لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ» قال:

النظر إلى رحمه الله.

و فى الدر المنثور، أخرج البزاز و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و اللالكائى فى السنه و البيهقى فى البعث و النشور عن أنس "فى قوله تعالى: «وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ» قال:

يتجلى لهم الرب عز و جل.

و فى الكافى، بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال: *قال لى أبو الحسن موسى بن جعفر (ع): يا هشام إن الله يقول فى كتابه: «إِنَّ فِي ذَلِكْ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» يعنى عقل.

و فى الدر المنثور، أخرج الخطيب فى تاريخه، عن العوام بن حوشب قال: *سألت أبا مجلز عن الرجل يجلس فيضع إحدى رجليه على الأخرى-فقال: لا بأس به إنما كره ذلك اليهود-زعموا أن الله خلق السماوات والأرض فى ستة أيام-ثم استراح يوم السبت فجلس تلك الجلسة-فأنزل الله «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ».

أقول: و روى هذا المعنى عن الضحاك و قتاده، و روى هذا المعنى المفيد فى روضه الواعظين، فى روايه ضعيفه، و أصل تقسيم خلق الأشياء إلى ستة من أيام الأسبوع واقع فى التوراه، و القرآن و إن كرر ذكر خلق الأشياء فى ستة أيام لكنه لم يذكر كون هذه الأيام هى أيام الأسبوع و لا لوح إليه.

و على هذه الروايات اعتمد من قال: إن الآيه مدنيه، و لا دلالة فى ردها قول اليهود أن تكون نازله بالمدينه، و فى الآيات المكيه ما تعرض سبحانه فيه لشأن اليهود كما فى سوره الأعراف و غيرها.

[سوره ق (٥٠): الآيات ٣٩ الى ٤٥]

اشاره

فَصَابِرٌ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ (٤٢) إِذَا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

خاتمه السوره يأمر النبي ص فيها أن يصبر على ما يقولون مما يرمونه بنحو السحر و الجنون و الشعر، و ما يتعنتون به باستهزاء المعاد و الرجوع إلى الله تعالى فيأمره (ص) بالصبر و أن يعبد ربه بتسبيحه و أن يتوقع البعث بانتظار الصيحه، و أن يذكر بالقرآن من يخاف الله بالغيب.

قوله تعالى: «فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ» تفریع على جميع ما تقدم من إنكار المشركين للبعث، و من تفصيل القول فی البعث و الحججه عليه، و من وعيد المنكرين له المكذبين للنبي ص و تهديدهم بمثل ما جرى على المكذبين من الأمم الماضيه.

و قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» إلخ، أمر بتزيهه تعالى عما يقولون مصاحبا للحمد و محصله إثبات جميل الفعل له و نفى كل نقص و شين عنه تعالى، و التسبيح قبل طلوع الشمس يقبل الانطباق على صلاه الصبح، و التسبيح قبل الغروب يقبل الانطباق على صلاه العصر أو عليها و على صلاه الظهر.

قوله تعالى: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبَارَ السُّجُودِ» أى و من الليل فسبحه فيه، و يقبل الانطباق على صلاتي المغرب و العشاء.

و قوله: «وَأَدْبَارَ السُّجُودِ» الأدبار جمع دبر و هو ما ينتهى إليه الشىء و بعده، و كان المراد بأدبار السجود بعد الصلوات فإن السجود آخر الركعه من الصلاه فينطبق على التعقيب بعد الصلوات، و قيل: المراد به النوافل بعد الفرائض، و قيل: المراد به الركعتان أو الركعات بعد المغرب و قيل: ركعه الوتر فى آخر الليل.

قوله تعالى: «وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ» فسروا الاستماع بمعان مختلفه و الأقرب أن يكون مضمنا معنى الانتظار و «يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ» مفعوله و المعنى:

و انتظر يوما ينادى فيه المنادى ملقيا سمعك لاستماع ندائه، والمراد بنداء المنادى نفخ صاحب الصور فى الصور على ما تفيدته الآيه التاليه.

و كون النداء من مكان قريب لإحاطته بهم فيقع فى سمعهم على نسبه سواء لا تختلف بالقرب و البعد فإنما هو نداء البعث و كلمه الحياه.

قوله تعالى: «يَوْمَ يَشْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» بيان ليوم ينادى المنادى، و كون الصيحه بالحق لأنها مقضيه قضاء محتوما كما مر فى قوله: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ» الآيه.

و قوله: «ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» أى يوم الخروج من القبور كما قال تعالى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا» المعارج: ٤٣.

قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ» المراد بالإحياء إفاضه الحياه على الأجساد الميتة فى الدنيا، و بالإماتة الإماتة فى الدنيا و هى النقل إلى عالم القبر، و بقوله: «وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ» الإحياء بالبعث فى الآخرة على ما يفيدته السياق.

قوله تعالى: «يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَا سَيِّرُ» أصل «تَشَقَّقُ» تشقق أى تتصدع عنهم فيخرجون منها مسارعين إلى الداعى.

و قوله: «ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَا سَيِّرُ» أى ما ذكرنا من خروجهم من القبور المنشقه عنهم سراعا جمع لهم علينا يسير.

قوله تعالى: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» فى مقام التعليل لقوله: «فَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ» الآيه، و الجبار المتسلط الذى يجبر الناس على ما يريد.

و المعنى: فاصبر على ما يقولون و سبح بحمد ربك و انتظر البعث فنحن أعلم بما يقولون سنجزئهم بما عملوا و لست أنت بمتسلط جبار عليهم حتى تجبرهم على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله و اليوم الآخر و إذا كانت حالهم هذه الحال فذكر بالقرآن من يخاف وعيدى.

فى الدر المنثور، أخرج الطبرانى فى الأوسط، وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبى ص: فى قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ» قبل طلوع الشمس صلاه الصبح، وقبل الغروب صلاه العصر.

وفى المجمع، روى عن أبى عبد الله (ع) *أنه سئل عن قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ - قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ» فقال: تقول حين تصبح وحين تمسى عشر مرات:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له - له الملك و له الحمد و هو على كل شىء قدير.

أقول: هو مأخوذ من إطلاق التسيب فى الآية و إن كان خصوص مورده صلاتى الصبح و العصر فلا منافاه.

وفى الكافى، بإسناده عن حريز عن زراره عن أبى جعفر (ع) قال: *قلت:

«وَأَذْبَارَ السُّجُودِ» قال: ركعات بعد المغرب:.

أقول: و رواه القمى فى تفسيره، بإسناده عن ابن أبى نصر عن الرضا (ع) و لفظه قال: أربع ركعات بعد المغرب .

وفى الدر المنثور، أخرج مسدد فى مسنده، و ابن المنذر و ابن مردويه عن على بن أبى طالب قال: *سألت رسول الله ص عن أدبار النجوم و السجود - فقال: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، و أدبار النجوم الركعتان قبل الغداه:.

أقول: و روى مثله عن ابن عباس و عمر عنه (ص)، و أسنده فى مجمع البيان، إلى الحسن بن على (ع) أيضا عن النبى ص .

وفى تفسير القمى، " فى قوله تعالى: «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» قال:

ذكر يا محمد ما وعدناه من العذاب.

(٥١) سورة الذاريات مكيه و هي ستون آيه (٦٠)

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ١ الى ١٩]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُتَسَّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (٥) وَ إِنَّ الذَّيْنَ لَوَاقِعَ (٦) وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُوْفِكَ (٩) قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرِهِ سَاهُونَ (١١) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الذَّيْنِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى الذَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَ بِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (١٩)

بيان

كانت الدعوه النبويه تدعو الوثنيه إلى توحيد الربوبيه و إن الله تعالى هو ربهم و رب كل شىء، و كانت الدعوه من طريق الإنذار و التبشير و خاصه بالإنذار و كان

الإنداز بعذاب الله فى الدنيا للمكذبين عذاب الاستئصال، و فى الآخرة بالعذاب الخالد يوم القيامة و هو العمده فى نجاح الدعوه إذ لو لا الحساب و الجزاء يوم القيامة كان الإيمان بالوحدانيه و النبوه لغى لا أثر له.

و المشركون باتخاذهم آلهه دون الله سبحانه شددوا الإنكار لأصول التوحيد و النبوه و المعاد، و كانوا يتعتون بإنكار المعاد و الإصرار على نفيه و الاستهزاء به من أى طريق ممكن لما يرون أن فى بطلانه بطلان الأصلين الآخرين.

و السوره تذكر المعاد و إنكارهم له فتبدأ به و تختتم عليه لكن لا من حيث نفسه كما جرى عليه الكلام فى مواضع من كلامه بل من حيث إنه يوم الجزاء و إن الله الذى وعدهم به هو ربهم و هو الذى وعدهم به و وعده صدق لا ريب فيه.

و لذلك لما انساق الكلام إلى الاحتجاج عليه احتجت بأدله التوحيد من آيات الأرض و السماء و الأنفس و ما عاقب الله به الأمم الماضين إثر دعوتهم إلى التوحيد و تكذيبهم لرسله، و ليس إلا ليثبت بها التوحيد فيثبت به يوم الجزاء الذى وعده الله و الله لا يخلف الميعاد و أخبرت به الدعوه النبويه فيندفع بذلك إنكارهم للجزاء و قد توسلوا بذلك إلى إبطال دين التوحيد و رساله الرسول لصيروره الإيمان به لغوا لا أثر له كما تقدمت الإشارة إليه.

□
و السوره مكيه لشهاده سياق آياتها عليه و لم يختلف فى ذلك أحد، و من غرر آياتها قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ».

و الفصل الذى أوردناه من الآيات مفتتح الكلام يذكر فيه أن الجزاء الذى وعدوه صدق و إنكارهم له و تعنتهم بذلك تخرص ثم يصف يوم الجزاء و حال المتقين و المنكرين فيه.

□
قوله تعالى: «وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسِيرًا فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا» الذاريات جمع الذاريه من قولهم: ذرت الريح التراب تذرؤه ذروا إذا أطارته و الوقر بالكسر فالسكون ثقل الحمل فى الظهر أو فى البطن.

□
و فى الآيات إقسام بعد إقسام يفيد التأكيد بعد التأكيد للمقسم عليه و هو الجزاء على الأعمال فقوله: «وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا» إقسام بالرياح المشيره للتراب، و قوله:

«بالفاء المفيدة للتأخير و الترتيب معطوف على الذاريات و إقسام بالسحب الحامله لثقل الماء، و قوله: «فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا» عطف عليه و إقسام بالسفن الجاريه فى البحر يسر و سهوله.

و قوله: «فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا» عطف على ما سبقه و إقسام بالملائكه الذين يعملون بأمره فيقسمونه باختلاف مقاماتهم فإن أمر ذى العرش بالخلق و التدبير واحد فإذا حملة طائفه من الملائكه على اختلاف أعمالهم انشعب الأمر و تقسم بتقسمهم ثم إذا حملة طائفه هى دون الطائفه الأولى تقسم ثانيا بتقسمهم و هكذا حتى ينتهى إلى الملائكه المباشرين للحوادث الكونيه الجزئيه فينقسم بانقسامها و يتكثر بتكثرها.

و الآيات الأربع - كما ترى - تشير إلى عامه التدبير حيث ذكرت أنموذجا مما يدبر به الأمر فى البر و هو الذاريات ذروا، و أنموذجا مما يدبر به الأمر فى البحر و هو الجاريات يسرا و أنموذجا مما يدبر به الأمر فى الجو و هو الحاملات و قرا، و تمم الجميع بالملائكه الذين هم و سائد التدبير و هم المقسمات أمرا.

فآيات فى معنى أن يقال: أقسم بعامه الأسباب التى يتمم بها أمر التدبير فى العالم أن كذا كذا، و قد ورد من طرق الخاصه و العامه عن على عليه أفضل السلام تفسير الآيات الأربع بما تقدم.

و عن الفخر الرازى فى التفسير الكبير، أن الأقرب حمل الآيات الأربع جميعا على الرياح فإنها كما تذرو التراب ذروا تحمل السحب الثقال و تجرى فى الجو يسر و تقسم السحب على الأقطار من الأرض.

و الحق أن ما استقر به بعيد، و ما تقدم من المعنى أبلغ مما ذكره.

قوله تعالى: «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ» «ما» موصوله، و الضمير العائد إليها محذوف أى الذين توعده، أو مصدرية، و «تُوعَدُونَ» من الوعد كما يؤيده قوله: «وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ» الشامل لمطلق الجزاء، و قيل: من الإيعاد كما يؤيده قوله: «فَدَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» ق- ٤٥.

وعد الوعد صادقا من المجاز فى النسبه كما فى قوله: «فِي عَيْشِهِ رَاضِيَةٌ» الحاقه:

٢١ أو الصادق بمعنى ذو صدق كما قيل بمثله فى قوله: «فِي عَيْشِهِ رَاضِيَةٌ» و الدين الجزاء.

و كيف كان فقوله: «إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لِّلصَّادِقِ» جواب القسم، وقوله: «وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ» معطوف عليه بمنزله التفسير، والمعنى أقسم بكذا وكذا أن الذى توعدونه-وهو الذى يعدهم القرآن أو النبى ص بما أنزل إليه-من يوم البعث و أن الله سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيرا فخيروا و إن شرا فشرالصادق،و إن الجزاء لواقع.

قوله تعالى: «وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ» الحبك بمعنى الحسن و الزينه،و بمعنى الخلق المستوى،و يأتى جمعا لحبيكه أو حباك بمعنى الطريقه كالطرائق التى تظهر على الماء إذا تثنى و تكسر من مرور الرياح عليه.

و المعنى على الأول: أقسم بالسماء ذات الحسن و الزينه نظير قوله تعالى: «إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّيَا بِزِينِهِ الْكَوَاكِبِ»: الصافات: ٦،و على الثانى: أقسم بالسماء ذات الخلق المستوى نظير قوله: «وَ السَّمَاءِ بَنِينَاهَا بِأَيْدٍ»: الآيه ٤٧ من السوره و على الثالث أقسم بالسماء ذات الطرائق نظير قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ» المؤمنون: ١٧.

ولعل المعنى الثالث أظهر لمناسبته لجواب القسم الذى هو اختلاف الناس و التشتت طرائقهم كما أن الأقسام السابقه: «وَ الدَّارِيَاتِ ذُرُوءًا» إلخ كانت مشتركه فى معنى الجرى و السير مناسبه لجوابها: «إِنَّمَا تُوْعَدُونَ» إلخ المتضمن لمعنى الرجوع إلى الله و السير إليه.

قوله تعالى: «إِنَّكُمْ لَفَى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أْفِكَ» القول المختلف ما يتناقض و يدفع بعضه بعضا و حيث إن الكلام فى إثبات صدق القرآن أو الدعوه أو النبى ص فيما وعدهم من أمر البعث و الجزاء فالمراد بالقول المختلف-على الأقرب- قولهم المختلف فى أمر القرآن لغرض إنكار ما يثبتته فتاره يقولون: إنه سحر و الجائى به ساحر،و تاره يقولون: زجر و الجائى به مجنون،و تاره يقولون: إلقاء شياطين الجن و الجائى به كاهن،و تاره يقولون: شعر و الجائى به شاعر،و تاره أنه افتراء، و تاره يقولون إنما يعلمه بشر،و تاره يقولون: أساطير الأولين اكتتبها.

و قوله: «يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أْفِكَ» الإفك الصرف،و ضمير «عَنْهُ» إلى الكتاب

من حيث اشتماله على وعد البعث و الجزاء، و المعنى: يصرف عن القرآن من صرف، و قيل: الضمير للنبي ص و المعنى: يصرف عن الإيمان به من صرف، و قد عرفت أن المعنى السابق أوفق للسياق و إن كان مآل المعنيين واحدا.

و حكى عن بعضهم أن ضمير «عنه» لما توعدون أو للدين أقسم تعالى أولا بالذاريات و غيرها على أن البعث و الجزاء حق ثم أقسم بالسماء على أنهم فى قول مختلف فى وقوعه فمنهم شاك و منهم جاحد ثم قال تعالى: يؤفك عن الإقرار بأمر البعث و الجزاء من هو مأفوك. و هذا الوجه قريب من الوجه السابق.

و عن بعضهم: أن الضمير لقول مختلف و «عن» للتعليل كما فى قوله تعالى: «وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ»: هو: ٥٣ فيكون الجملة صفة لقول و المعنى: أنكم لفى قول مختلف يؤفك بسببه من أفك، و هو وجه حسن.

و قيل: الضمير فى «إنكم» للمسلم و الكافر جميعا فيكون المراد بالقول المختلف قول المسلمين بوقوع البعث و الجزاء و قول الكفار بعدم الوقوع. و لعل السياق لا يلائمه و قيل: بعض وجوه أخر رديئه لا جدوى فى التعرض له.

قوله تعالى: «قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرِهِ سَاهُونَ سَاهُونَ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ» أصل الخرص القول بالظن و التخمين من غير علم، و لكون القول بغير علم فى خطر من الكذب يسمى الكذاب خراصا، و الأشبه أن يكون المراد بالخراسين فى الآيه القوالين من غير علم و دليل و هم الخائضون فى أمر البعث و الجزاء المنكرون له بغير علم.

و فى قوله: «قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ» دعاء عليهم بالقتل و هو كناية عن نوع من الطرد و الحرمان من الفلاح و إليه يثول قول من فسره باللعن.

و قوله: «الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرِهِ سَاهُونَ» الغمره - كما ذكر الراغب - معظم الماء الساتر لمقرها، و جعل مثلا - للجهاله التى تغمر صاحبها، و المراد بالسهو - كما قيل - مطلق الغفله.

و معنى الآيه و هى تصف الخراصين: الذين هم فى جهاله أحاطت بهم غافلون عن حقيقه ما أخبروا به.

و قوله: «يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ» ضمير الجمع للخراسين قول قالوه على طريق الاستعجال استهزاء كقولهم: «متى هذا الوعد إن كُنتُمْ صادقين»: يس - ٤٨.

و السؤال بآيان-الموضوعه للسؤال عن زمان مدخولها-عن يوم الدين و هو ظاهر فى الزمان إنما هو بعنايه أن يوم الدين لكونه موعودا ملحق بالزمانيات فيسأل عنه كما يسأل عن الزمانيات بآيان و متى كما يقال:متى يوم العيد لكونه ذا شأن ملحقا لذلك بالزمانيات كذا قيل.

و يمكن أن يكون من التوسع فى معنى الظرفيه بأن يعد أوصاف الظرف الخاصه به ظرفا توسعا فيكون السؤال عن زمان الزمان سؤالا عن أنه بعد أى زمان أو قبل أى زمان؟ كما يقال:متى يوم العيد؟فيجاب بأنه بعد عشره أيام مثلا أو قبل يوم كذا،و هو توسع جار فى العرف غير مختص بكلام العرب،و فى القرآن منه شىء كثير.

قوله تعالى:«يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ» ضمير الجمع للخراصين،و الفتن فى الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل فى مطلق الإحراق و التعذيب،و الظرف متعلق بفعل محذوف أو مبتدأ،و الآيه جواب عن سؤالهم عدل فيه عن بيان وقت يوم الدين إلى بيان صفتة و الإشاره إلى حالهم فيه لما أن وقته من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله قال تعالى:«لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ».

و تقدير الآيه و معناها:يقع يوم الدين أو هو واقع يوم هم أى الخراصون فى النار يعذبون أو يحرقون.

قوله تعالى:«ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» حكاية خطاب منه تعالى أو من الملائكه بأمره للخراصين و هم يفتنون على النار يومئذ.

و المعنى:يقال لهم ذوقوا العذاب الذى يخصكم.هذا العذاب هو الذى كنتم تستعجلون به إذ تقولون استعجالا و استهزاء:أيان يوم الدين.

قوله تعالى:«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» بيان لحال المتقين يوم الدين بعد وصف حال أولئك الخراصين.

و تنكير جنات و عيون للإشاره إلى عظم قدرها كأنها بحيث لا يقدر الواصفون على وصفها،و قد ألحقت العيون بالجنات فى ظرفيتها توسعا.

قوله تعالى:«أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ» أى قابلين ما

أعطاهم ربهم الرءوف بهم راضين عنه و بما أعطاهم كما يفيدُه خصوص التعبير بالأخذ و الإيتاء و نسبة الإيتاء إلى ربهم.

و قوله: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَبِيلَ ذِيكَ مُحْسِنِينَ» تعليل لما تقدمه أى إن حالهم تلك الحال لأنهم كانوا قبل ذلك أى فى الدنيا ذوى إحسان فى أعمالهم أى ذوى أعمال حسنة.

قوله تعالى: «كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ» الآيات تفسير لإحسانهم، و الهجوع النوم فى الليل و قيل: النوم القليل.

و يمكن أن تكون: ما زائده و «يَهْجَعُونَ» خبر كانوا، و «قَلِيلًا» ظرفا متعلقا به أى فى زمان قليل أو صفه لمفعول مطلق محذوف أى هجوعا قليلا و «مِنَ اللَّيْلِ» متعلقا بقليل و المعنى: كانوا ينامون فى زمان قليل من الليل أو ينامون الليل نوما قليلا.

و أن تكون موصوله و الضمير العائد إليها محذوفا و «قَلِيلًا» خبر كانوا و الموصول فاعله و المعنى: كانوا قليلا من الليل الذى يهجعون فيه.

و أن تكون مصدرية و المصدر المسبوك منها و من مدخولها فاعلا لقوله: «قَلِيلًا» و هو خير «كَانُوا».

و على أى حال فالقليل من الليل إما مأخوذ بالقياس إلى مجموع زمان كل ليله فيفيد أنهم يهجعون كل ليله زمانا قليلا منها و يصلون أكثرها، و إما مأخوذ بالقياس إلى مجموع الليالى فيفيد أنهم يهجعون فى قليل من الليالى و يقومون للصلاه فى أكثرها أى لا يفوتهم صلاه الليل إلا فى قليل من الليالى.

قوله تعالى: «و بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» أى يسألون الله المغفره لذنوبهم، و قيل: المراد بالاستغفار الصلاه و هو كما ترى.

قوله تعالى: «و فى أموالهم حقٌ للسائلِ و المحرومِ» الآيتان السابقتان تبيان خاصه سيرتهم فى جنب الله سبحانه و هى قيام الليل و الاستغفار بالأسحار و هذه الآيه تبين خاصه سيرتهم فى جنب الناس و هى إيتاء السائل و المحروم.

و تخصيص حق السائل و المحروم بأنه فى أموالهم-مع أنه لو ثبت فإنما يثبت فى كل مال-دليل على أن المراد أنهم يرون بصفاء فطرتهم أن فى أموالهم حقا لهما فيعملون بما يعملون نشرا للرحمه و إثارا للحسنه.

و السائل هو الذى يسأل العطيه بإظهار الفاقه و المحروم هو الذى حرم الرزق فلم ينجح سعيه فى طلبه و لا يسأل تعففا.

بحث روائى

فى تفسير القمى، حدثنى أبى عن ابنه أبى عمير عن جميل عن أبى عبد الله (ع) * فى قوله تعالى: « وَ الدَّارِيَاتِ ذُرْوًا » فقال: إن ابن الكوا سأل أمير المؤمنين (ع) - عن « الدَّارِيَاتِ ذُرْوًا » قال: الريح، و عن « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » فقال: هى السحاب، و عن « فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا » فقال: هى السفن، و عن « فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا » فقال: الملائكه.

أقول: و الحديث مروى من طرق أهل السنه أيضا كما فى روح المعانى.

و فى الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و الفاريابى و سعيد بن منصور و الحارث بن أبى أسامه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى فى المصاحف، و الحاكم و صححه و البيهقى فى شعب الإيمان، من طرق عن على بن أبى طالب * فى قوله: « وَ الدَّارِيَاتِ ذُرْوًا » قال: الرياح « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » قال: السحاب « فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا » قال:

السفن « فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا » قال: الملائكه.

و فى المجمع، قال أبو جعفر و أبو عبد الله (ع): لا يجوز لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى، و الله يقسم بما شاء من خلقه.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن منيع عن على بن أبى طالب * أنه سئل عن قوله:

« وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ » قال: ذات الخلق الحسن:.

أقول: و روى مثله فى المجمع، و لفظه: و قيل: ذات الحسن و الزينه: عن على (ع) و فى جوامع الجامع، و لفظه: و عن على (ع): حسنها و زينتها.

و فى بعض الأخبار: فى قوله تعالى: « إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ - يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » تطبيقه على الولاية.

و فى المجمع: فى قوله تعالى: « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » و قيل معناه: كانوا أقل ليله تمر بهم إلا صلوا فيها: و هو المروى عن أبى عبد الله (ع).

و فيه، فى قوله تعالى: «و بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» وقال أبو عبد الله (ع):

كانوا يستغفرون الله فى الوتر سبعين مره فى السحر.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن أنس قال: *قال رسول الله ص: إن آخر الليل فى التهجد أحب إلى من أوله-لأن الله يقول: «و بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ».

و فيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبى ص *فى قوله: «و بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» قال: يصلون.

أقول: لعل تفسير الاستغفار بالصلاه من جهة اشتمال الوتر عليه كإرادته الصلاه من القرآن فى قوله: «و قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا»: إسرائ: ٧٨.

و فى تفسير القمى، "فى قوله تعالى: «و فى أموالهم حق للسائل والمحروم» قال:

السائل الذى يسأل، والمحروم الذى قد منع كده.

و فى التهذيب، بإسناده عن صفوان الجمال عن أبى عبد الله (ع) *فى الآيه قال:

المحروم المحارف-الذى قد حرم كد يده فى الشراء و البيع.

قال: و فى روايه أخرى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع) قال: المحروم الرجل ليس بعقله بأس-ولا- يبسط له فى الرزق و هو محارف.

[سوره الذاريات (٥١): الآيات ٢٠ الى ٥١]

اشاره

وَ فى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَ فى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَ فى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوَعِّدُونَ (٢٢) فَو رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فى صِرِّهِ فَصَكَتْ وَ جَهَّهَا وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالُوا فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا لِّمَنِ ظَنِينَا (٣٣) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فىهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فىهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَ تَرَكْنَا فىهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) وَ فى مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَا وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فى الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَ فى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ (٤٢) وَ فى نُودٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَبَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَ مَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَ قَوْمِ نُوحٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَ السَّمَاءِ بَيْنِنَا

بِأَيْدِيهِمْ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١)

ص: ٣٧١

تشير الآيات إلى عده من آيات الله الداله على وحدانيته فى الربوبية و رجوع أمر التدبير فى الأرض و السماء و الناس و أرزاقهم إليه، و لازمه إمكان نزول الدين الإلهى من طريق رساله بل و جوبه، و لازمه صدق الدعوه النبويه فيما تضمنته من وعد البعث و الجزاء و إن ما يوعدون لصادق و إن الدين لواقع، و قد مرت إشاره إلى خصوصيه سلوكك السوره فى احتجاجها فى البيان السابق.

قوله تعالى: ﴿ وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ الاستنتاج الآتى فى آخر هذه الآيات فى قوله: ﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَ لَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ الآيه، يشهد على أن سوق هذه الآيات و الدلائل لإثبات وحدانيته تعالى فى الربوبية لا لإثبات أصل وجوده أو انتهاء الخلق إليه و نحو ذلك.

و فى الآيه إشاره إلى ما تتضمنه الأرض من عجائب الآيات الداله على وحده التدبير القائم بوحدانيه مدبره من بر و بحر و جبال و تلال و عيون و أنهار و معادن و منافعها المتصله بعضها ببعض الملاءمه بعضها لبعض ينتفع بها ما عليها من النبات و الحيوان فى نظام واحد مستمر من غير اتفاق و صدفة، لائح عليها آثار القدره و العلم و الحكم دال على أن خلقها و تدبير أمرها ينتهى إلى خالق مدبر قادر عليم حكيم.

فأى جانب قصد من جوانبها و أیه وجهه و لیت من جهات التدبير العام الجارى فيها كانت آیه بينه و برهاناً ساطعاً على وحدانيه ربها لا شريك له ينجلى فيه الحق لأهل اليقين ففيها آيات للموقنين.

قوله تعالى: ﴿ وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى و فى أنفسكم آيات ظاهره لمن أبصر إليها و ركز النظر فيها أفلا تبصرون.

و الآيات التي في النفوس منها ما هي في تركيب الأبدان من أعضائها و أعضاء أعضائها حتى ينتهي إلى البسائط و ما لها من عجائب الأفعال و الآثار المتحدده في عين تكثرها المدبره جميعا لمدبر واحد، و ما يعرضها من مختلف الأحوال كالجنينيه و الطفولييه و الرهاق و الشباب و الشيب.

و منها ما هي من حيث تعلق النفوس أعنى الأرواح بها كالحواس من البصر و السمع و الذوق و الشم و اللمس التي هي الطرق الأوليه لإطلاع النفوس على الخارج لتمييز بذلك الخير من الشر و النافع من الضار لتسعى إلى ما فيه كمالها و تهرب مما لا يلائمها، و في كل منها نظام و سيع جار فيه منفصل بذاته عن غيره كالبصر لا خبر عنده عما يعمله السمع بنظامه الجارى فيه و هكذا، و الجميع مع هذا الانفصال و التقطع مؤتلفه تعمل تحت تدبير مدبر واحد هو النفس المدبره و الله من ورائهم محيط.

و من هذا القبيل سائر القوى المنبعثه عن النفوس في الأبدان كالقوه الغضبيه و القوه الشهويه و ما لها من اللواحق و الفروع فإنها على ما للواحد منها بالنسبه إلى غيره من البيئونه و انفصال النظام الجارى فيه عن غيره واقعه تحت تدبير مدبر واحد تتعاضد جميع شعبها و تأتلف لخدمته.

و نظام التدبير الذي لكل من هذه المدبرات إنما وجد له حينما وجد و أول ما ظهر من غير فصل فليس مما عملت فيه خيرته و أوجده هو لنفسه عن فكر و رويه أو بغيره فنظام تدبيره كمنفسه من صانع صنعه و ألزمه نظامه بتدبيره.

و منها الآيات الروحانيه الواقعه في عالم النفوس الظاهره لمن رجع إليها و راقب الله سبحانه فيها من آيات الله التي لا يسعها وصف الواصفين و يفتح بها باب اليقين و تدرج المتطلع عليها في زمرة الموقنين فيرى ملكوت السماوات و الأرض كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾: الأنعام: ٧٥.

قوله تعالى: « وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ » قيل: المراد بالسمااء جهه العلو فإن كل ما علاك و أظلك فهو سماء لغه، و المراد بالرزق المطر الذي ينزله الله على الأرض فيخرج به أنواع ما يقتاتونه و يلبسونه و ينتفعون به و قد قال تعالى: « وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا »: الجاثيه: ٥، فسمى المطر رزقا فالمراد بالرزق سببه أو بتقدير مضاف أى سبب رزقكم.

وقيل: المراد أسباب الرزق السماويه من الشمس و القمر و الكواكب و اختلاف المطالع و المغارب الراسمه للفصول الأربعة و توالى الليل و النهار و هى جميعا أسباب الرزق فالكلام على تقدير مضاف أى أسباب رزقكم أو فيه تجوز بدعوى أن وجود الأسباب فيها وجود ذوات الأسباب.

وقيل: المراد بكون الرزق فيها كون تقديره فيها، أو أن الأرزاق مكتوبه فى اللوح المحفوظ فيها.

و يمكن أن يكون المراد به عالم الغيب فإن الأشياء و منها الأرزاق تنزل من عند الله سبحانه و قد صرح بذلك فى أشياء كقوله تعالى: «وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَنۢبُتۡ بِهِ الْأَشۡجَارَ» الزم: ٦٠، و قوله: «وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ»: الحديد: ٢٥، و قوله على نحو العموم: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنۢدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ»: الحجر:

٢١، و المراد بالرزق كل ما ينتفع به الإنسان فى بقائه من مأكّل و مشرب و ملبس و مسكن و منكح و ولد و علم و قوه و غير ذلك.

و قوله: «وَ مَا تُوَعِّدُونَ» عطف على «رِزْقِكُمْ» الظاهر أن المراد به الجنة لقوله تعالى: «عِنۢدَهَا جَنَّةُ الْمَأۡوَىٰ» النجم: ١٥، و قول بعضهم: إن المراد به الجنة و النار أو الثواب و العقاب لا يلائمه قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفۡتَحُ لَهُمۡ أَبۡوَابُ السَّمَاءِ وَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلۡجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» الأعراف: ٤٠.

نعم تكرر فى القرآن نسبة نزول العذاب الدنيوى إلى السماء كقوله: «فَأَنزَلْنَا عَلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجۡزًا مِّنَ السَّمَاءِ»: البقره: ٥٩، و غير ذلك.

و عن بعضهم أن قوله: «وَ مَا تُوَعِّدُونَ» مبتدأ خبره قوله: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرۡضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ» و الواو للاستئناف و هو معنى بعيد عن الفهم.

قوله تعالى: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرۡضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ» النطق التكلم و ضمير «إِنَّهُ» راجع إلى ما ذكر من كون الرزق و ما توعدون فى السماء و الحق هو الثابت المحتوم فى القضاء الإلهى دون أن يكون أمرا تبعا أو اتفاقيا.

و المعنى: أقسم برب السماء و الأرض أن ما ذكرناه من كون رزقكم و ما توعدونه من الجنة- و هو أيضا من الرزق فقد تكرر فى القرآن تسميه الجنة رزقا كقوله: «لَهُم

مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ»: الأنفال: ٧٤، و غير ذلك- في السماء لثابت مقضى مثل نطقكم و تكلمكم الذى هو حق لا ترتابون فيه.

و جوز بعضهم أن يكون ضمير « إِنَّهُ » راجعا إلى « مَا تُوعَدُونَ » فقط أو إلى الرزق فقط أو إلى الله أو إلى النبي ص أو إلى القرآن أو إلى الدين فى قوله: « وَ إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ » أو إلى اليوم فى قوله: « أَيَّامَ الدِّينِ » أو إلى جميع ما تقدم من أول السوره إلى هاهنا، و لعل الأوجه رجوعه إلى ما ذكر فى قوله: « وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ » كما قدمنا.

كلام فى تكافؤ الرزق و المرزوق

الرزق بمعنى ما يرتزق به هو ما يمد شيئا آخر فى بقاءه بانضمامه إليه أو لحوقه به بأى معنى كان كالغذاء الذى يمد الإنسان فى حياته و بقاءه بصيرورته جزء من بدنه و كالزوج يمد زوجه فى إرضاء غريزته و بقاء نسله و على هذا القياس.

و من السبب: أن الأشياء المادية يرتزق بعضها ببعض كالإنسان بالحيوان و النبات مثلا- فما يلحق المرزوق فى بقاءه من أطوار الكينونه و مختلف الأحوال كما أنها أطوار من الكون لاحقه به منسوبه إليه كذلك هى بعينها أطوار من الكون لاحقه بالرزق منسوبه إليه و إن كان ربما تغيرت الأسماء فكما أن الإنسان يصير بالتغذى ذا أجزاء جديدة فى بدنه كذلك الغذاء يصير جزءا جديدا من بدنه اسمه كذا.

و من البين أيضا: أن القضاء محيط بالكون مستوعب للأشياء يتعين به ما يجرى على كل شىء فى نفسه و أطوار وجوده، و بعبارة أخرى سلسله الحوادث بما لها من النظام الجارى مؤلفه من علل تامه و معلولات ضروريه.

و من هنا يظهر أن الرزق و المرزوق متلازمان لا يتفارقان فلا معنى لموجود يطرأ عليه طور جديد فى وجوده بانضمام شىء أو لحوقه إلا مع وجود الشىء المنضم أو اللاحق المشترك معه فى طوره ذلك فلا معنى لمرزوق مستمد فى بقاءه و لا رزق له، و لا معنى لرزق متحقق و لا مرزوق له كما لا معنى لزياده الرزق على ما يحتاج إليه المرزوق، و كذا

لبقاء مرزوق من غير رزق فالرزق داخل في القضاء الإلهي دخولا أوليا لا بالعرض و لا بالتبع و هو المعنى بكون الرزق حقا.

[بيان]

قوله تعالى: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ» إشاره إلى قصه دخول الملائكه المكرمين على إبراهيم(ع) و تبشيرهم له و لزوجه ثم إهلاكهم قوم لوط، و فيها آيه على و حدانيه الربويه كما تقدمت الإشاره إليه.

و في قوله: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ» تفخيم لأمر القصه و «الْمُكْرَمِينَ» -و هم الملائكه الداخلون على إبراهيم- صفه «ضَيْفٍ» و إفراده لكونه في الأصل مصدرا لا يثنى و لا يجمع.

قوله تعالى: «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَوْمٌ مُنْكَرُونَ» الظرف متعلق بقوله في الآيه السابقه: «حَدِيثُ» و «سَلَامًا» مقول القول و العامل فيه محذوف أى قالوا: نسلم عليك سلاما.

و قوله: «قَالَ سَلَامًا» قول و مقول و «سَلَامًا» مبتدأ محذوف الخبر و التقدير سلام عليكم، و فى إتيانه بالجواب جمله اسميه داله على الثبوت تحيه منه(ع) بما هو أحسن من تحيتهم بقولهم: سلاما فإنه جمله فعلية داله على الحدوث.

و قوله: «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ» الظاهر أنه حكاية قول إبراهيم فى نفسه، و معناه أنه لما رآهم استنكرهم و حدث نفسه أن هؤلاء قوم منكرون، و لا- ينافى ذلك ما وقع فى قوله تعالى: «فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ»: هود: ٧٠ حيث ذكر نكره بعد تقريب العجل الحنيذ إليهم فإن ما فى هذه السوره حديث نفسه به و ما فى سوره هود ظهوره فى وجهه بحيث يشاهد منه ذلك.

و هذا المعنى أوجه من قول جمع من المفسرين: إنه حكاية قوله(ع) لهم و التقدير أنتم قوم منكرون.

قوله تعالى: «فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ» الروغ الذهاب على سبيل

الاحتيال على ما قاله الراغب و قال غيره: هو الذهاب إلى الشيء في خفيه، والمعنى الأول يرجع إلى الثانى.

و المراد بالعجل السمين المشوى منه بدليل قوله: «فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ» أو الفاء فصيحه و التقدير فجاء بعجل سمين فذبحه و شواه و قربه إليهم.

قوله تعالى: «فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ» عرض الأكل على الملائكة و هو يحسبهم بشرا.

قوله تعالى: «فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ» الخ «الفاء فصيحه و التقدير فلم يمدوا إليه أيديهم فلما رأى ذلك نكرهم و أوجس منهم خيفه، و الإيجاس الإحساس فى الضمير و الخيفه بناء نوع من الخوف أى أضمر منهم فى نفسه نوعا من الخوف.

و قوله: «قَالُوا لَا تَخَفْ» جىء بالفصل لا- بالعطف لأنه فى معنى جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا كان بعد إيجاس الخيفه فقيل: قالوا: لا تخف و بشره بسلام عليهم فبدلوا خوفه أمنه و سرورا و المراد بسلام عليهم إسماعيل أو إسحاق و قد تقدم الخلاف فيه.

قوله تعالى: «فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرِّهِ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ» فى المجمع، الصره شده الصياح و هو من صرير الباب و يقال للجماعه صره أيضا. قال:

و الصك الضرب باعتماد شديد انتهى.

و المعنى فأقبلت امرأه إبراهيم (ع)- لما سمعت البشاره- فى صججه و صياح فلطمت وجهها و قالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ أو المعنى هل عجوز عقيم تلد غلاما؟ و قيل: المراد بالصره الجماعه و أنها جاءت إليهم فى جماعه فصكت وجهها و قالت ما قالت، و المعنى الأول أوفق للسياق.

قوله تعالى: «قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ» الإشاره بكذلك إلى ما بشرها به بما لها و لزوجها من حاضر الوضع هى عجوز عقيم و بعلمها شيخ مسه الكبر فربها حكيم لا يريد ما يريد إلا بحكمه، عليم لا يخفى عليه وجه الأمر.

قوله تعالى: «قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ» -إلى قوله- لِلْمُشْرَفِينَ «الخطب

الأمر الخطير الهام، والحجاره من الطين الطين المتحجر، والتسويم تعليم الشيء بمعنى جعله ذا علامه من السومه بمعنى العلامه.

والمعنى: «قَالَ إِبْرَاهِيمُ (ع) «فَمَا خَطْبُكُمْ» وَ الشَّانُ الْخَطِيرُ الَّذِي لَكُمْ «أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ» مِنَ الْمَلَائِكَةِ «قَالُوا» أَي الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ «إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ مُجْرِمِينَ» وَ هُمْ قَوْمُ لُوطٍ «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ» طِينًا مَتَحَجَّرًا سَمَاهُ اللَّهُ سَجِيلًا «مُسَوَّمَةً» مَعْلَمَةً «عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» تَخْتَصُّ بِهِمْ لِإِهْلَاكِهِمْ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّ اللَّامَ فِي الْمُسْرِفِينَ لِلْعَهْدِ.

قوله تعالى: «فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» -إلى قوله- «الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» الفاء فصيحىه و قد أوجز بحذف ما فى القصه من ذهاب الملائكه إلى لوط و ورودهم عليه و هم القوم بهم حتى إذا أخرجوا آل لوط من القرية، و قد فصلت القصه فى غير موضع من كلامه تعالى.

فقوله: «فَأَخْرَجْنَا» إلخ بيان إهلاكهم بمقدمته، و ضمير «فِيهَا» للقرية المفهومه من السياق، و «بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» بيت لوط، و قوله: «وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً» إشاره إلى إهلاكهم و جعل أرضهم عاليها سافلها، و المراد بالترك الإبقاء كناية و قد بينت هذه الخصوصيات فى سائر كلامه تعالى.

و المعنى: فلما ذهبوا إلى لوط و كان من أمرهم ما كان «فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا» فى القرية «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ» واحد «مِنَ الْمُسْلِمِينَ» و هم آل لوط «وَ تَرَكْنَا فِيهَا» فى أرضهم بقلبها و إهلاكهم «آيَةً» داله على ربوبيتنا و بطلان الشركاء «لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» من الناس.

قوله تعالى: «وَ فِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» عطف على قوله: «وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً» و التقدير و فى موسى آيه، و المراد بسُلْطَانٍ مُّبِينٍ الحجج الباهره التى كانت معه من الآيات المعجزه.

قوله تعالى: «فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» التولى الإعراض و الباء فى قوله: «بِرُكْنِهِ» للمصاحبه، و المراد بركنه جنوده كما يؤيده الآيه التاليه، و المعنى:

أعرض مع جنوده، و قيل: الباء للتعديه، و المعنى: جعل ركنه متولين معرضين.

و قوله: «وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» أى قال تاره هو مجنون كقوله: «إِنَّ رَسُولَكُمْ

الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونًا: الشعراء: ٢٧، وقال أخرى: هو ساحر كقوله: «إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ»: الشعراء: ٣٤.

قوله تعالى: «فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ» النبذ طرح الشيء من غير أن يعتد به، و اليم البحر، و المليم الآتى بما يلام عليه من الالم بمعنى أتى بما يلام عليه كأغرب إذا أتى بأمر غريب.

و المعنى: فأخذناه و جنوده و هم ركنه و طرحناهم فى البحر و الحال أنه أتى من الكفر و الجحود و الطغيان بما يلام عليه، و إنما خص فرعون بالملامه مع أن الجميع يشاركونه فيها لأنه إمامهم الذى قادهم إلى الهلاك، قال تعالى: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ»: هود: ٩٨.

و فى الكلام من الإيماء إلى عظمه القدره و هول الأخذ و هو أن أمر فرعون و جنوده ما لا يخفى.

قوله تعالى: «وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ» عطف على ما تقدمه أى و فى عاد أيضا آيه إذ أرسلنا عليهم أى أطلقنا عليهم الريح العقيم.

و الريح العقيم هى الريح التى عقت و امتنعت من أن يأتى بفائده مطلوبه من فوائد الرياح كتشئه سحاب أو تلقيح شجر أو تذييه طعام أو نفع حيوان أو تصفيه هواء كما قيل و إنما أثرها الإهلاك كما تشير إليه الآيه التاليه.

قوله تعالى: «مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ» «مَا تَذَرُ» أى ما تترك، و الرميم الشيء الهالك البالى كالعظم البالى السحيق، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ - إلى قوله - مُتَّصِرِينَ» عطف على ما تقدمه أى و فى ثمود أيضا آيه إذ قيل لهم: تمتعوا حتى حين، و القائل نبيهم صالح (ع) إذ قال لهم: «تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعِيدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ» هود: ٦٥ قال لهم ذلك لما عقروا الناقه فأمهلهم ثلاثه أيام ليرجعوا فيها عن كفرهم و عتوهم لكن لم ينفعهم ذلك و حق عليهم كلمه العذاب.

و قوله: «فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ» العتو - على ما ذكره الراغب - النبوء عن الطاعه فينطبق على التمرد، و المراد بهذا العتو العتو عن

الأمر و الرجوع إلى الله أيام المهله فلا يستشكل بأن عتوهم عن أمر الله كان مقدا على تمتعهم- كما يظهر من تفصيل القصة- والآيه تدل على العكس.

وقوله: «فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ» هذا لا ينافى ما فى موضع آخر من ذكر الصيحه بدل الصاعقه كقوله: «وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ»: هود: ٦٧ لجواز تحققهما معا فى عذابهم.

وقوله: «فَمَا اسْتَبَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتْتَعِبِينَ» لا يبعد أن يكون «إِسْتَبَاعُوا» مضمنا معنى تمكنوا، و«مِنْ قِيَامٍ» مفعوله أى ما تمكنوا من قيام من مجلسهم ليفروا من عذاب الله و هو كناية عن أنهم لم يمهلوا حتى بمقدار أن يقوموا من مجلسهم.

وقوله: «وَمَا كَانُوا مُتْتَعِبِينَ» عطف على «فَمَا اسْتَبَاعُوا» أى ما كانوا منتصرين بنصره غيرهم ليدفعوا بها العذاب عن أنفسهم، و محصل الجملتين أنهم لم يقدروا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم و لا بناصر ينصرهم.

قوله تعالى: «وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» عطف على القصص السابقه، و«قَوْمٌ نُوحٍ» منصوب بفعل محذوف و التقدير و أهلكتنا قوم نوح من قبل عاد و ثمود إنهم كانوا فاسقين عن أمر الله.

فهناك أمر و نهى كلف الناس بهما من قبل الله سبحانه و هو ربهم و رب كل شىء دعاهم إلى الدين الحق بلسان رسله فما جاء به الأنبياء (ع) حق من عند الله و مما جاءوا به الوعد بالبعث و الجزاء.

قوله تعالى: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ» رجوع إلى السياق السابق فى قوله: «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ» إلخ، و الأيد القدره و النعمه، و على كل من المعنيين يتعين لقوله: «وَأِنَّا لَمُوسِعُونَ» ما يناسبه من المعنى.

فالمعنى على الأول: و السماء بنيناها بقدره لا يوصف قدرها و إنا لذووا سعه فى القدره لا يعجزها شىء، و على الثانى: و السماء بنيناها مقارنا بناؤها لنعمه لا تقدر بقدر و إنا لذووا سعه و غنى لا تنفذ خزائنا بالإعطاء و الرزق نرزق من السماء من نشاء فنوسع الرزق كيف نشاء.

سميعا بصيرا، تغضب مره و ترضى مره، و تجوع مره و تشبع مره، و ذلك كله من آيات الله.

أقول: و نسبه في المجمع إلى الصادق (ع).

و في التوحيد، بإسناده إلى هشام بن سالم قال: سئل أبو عبد الله (ع) فقيل له:

بما عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزم و نقض الهم، عزمت ففسخ عزمي، و هممت فنقض همي..

أقول: و رواه في الخصال، عنه عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين (ع).

و في الدر المنثور، أخرج الخرائطي في مساوي الأخلاق عن علي بن أبي طالب * « وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » قال: سبيل الغائط و البول.

أقول: الروايه كالروايتين السابقتين مسوقه لبيان بعض المصاديق من طرق المعرفه.

و فيه، أخرج ابن النور و الديلمي عن علي عن النبي ص * في قوله: « وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ » قال: المطر..

أقول: و روى نحوه منه القمي في تفسيره، مرسلا و مضمرا.

و في إرشاد المفيد، عن علي (ع) في حديث: اطلبوا الرزق فإنه مضمون لطالبه.

و في التوحيد، بإسناده إلى أبي البختری قال: حدثني جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب (ع) عن النبي ص أنه قال: * يا علي: إن اليقين أن لا ترضى أحدا على سخط الله، و لا تحمدن أحدا على ما آتاك الله، و لا تذمن أحدا على ما لم يؤتك الله- فإن الرزق لا يجره حرص حريص، و لا يصرفه كره كاره. الحديث.

و في المجمع: « فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرِّهِ » و قيل: في جماعه. عن الصادق (ع).

و في الدر المنثور، أخرج الفاريابي و ابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: * الريح العقيم النكباء.

و في التوحيد، بإسناده إلى محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر (ع) فقلت:

قول الله عز و جل « يَا إِبْرَاهِيمُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ »؟ فقال: اليد في كلام العرب القوه و النعمه، قال الله: « وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ »، و قال: « وَ السَّمَاءِ »

«أى بقوه، وقال: «وَ أَيْدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» أى بقوه، و يقال: لفلان عندى يد بيضاء أى نعمه.

و فى التوحيد، بإسناده إلى أبى الحسن الرضا(ع) خطبه طويله و فيها: بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، و بتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له، و بمضادته بين الأشياء عرف أن لا ضد له، و بمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضد النور بالظلمه، و اليبس بالبلل، و الخشن باللين، و الصرد بالحور، مؤلفا بين متعادياتها، مفرقا بين متدانياتها، داله بتفريقها على مفرقتها، و بتأليفها على مؤلفها و ذلك قوله:

« مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ».

ففرق بين قبل و بعد -ليعلم أن لا- قبل له و لا- بعد له، شاهده بغرائزها أن لا- غريزه لمغرزها، مخبره بتوقيتها أن لا- وقت لموقيتها، حجب بعضها عن بعض -ليعلم أن لا حجاب بينه و بين خلقه.

و فى المجمع: فى قوله تعالى: «فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ» و قيل: معناه حجوا. عن الصادق(ع):.

أقول: و رواه فى الكافى، و فى المعانى، بالإسناد عن أبى الجارود عن أبى جعفر(ع):.

و لعله من التطبيق.

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٥٢ الى ٦٠]

إشارة

كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا - قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أ تَوَّاصَوْا بِهِ يَئِلُ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَ ذَكَرْنَا فِيكَ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

مختتم السوره وفيه إرجاع الكلام إلى ما فى مفتتحها من إنكارهم للبعث الموعود و مقابلتهم الرساله بقول مختلف ثم إعادهم باليوم الموعود.

قوله تعالى: «كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» أى الأمر كذلك، فقوله: «كَذَلِكَ» كالتلخيص لما تقدم من إنكارهم و اختلافهم فى القول.

و قوله: «مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» إلخ، بيان للمشبه.

قوله تعالى: «أَتَوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ» التواصى إيضاء القوم بعضهم بعضا بأمر، و ضمير «بِهِ» للقول، و الاستفهام للتعجيب، و المعنى: هل وصى بعض هذه الأمم بعضا-هل السابق وصى اللاحق؟-على هذا القول؟ لا بل هم قوم طاغون يدعوهم إلى هذا القول طغيانهم.

قوله تعالى: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ» تفریع على طغيانهم و استكبارهم و إصرارهم على العناد و اللجاج، فالمعنى: فإذا كان كذلك و لم يجيبوك إلا بمثل قولهم ساحر أو مجنون و لم يزدتهم دعوتك إلا عنادا فأعرض عنهم و لا تجادلهم على الحق فما أنت بملوم فقد أريت المحجه و أتممت الحجه.

قوله تعالى: «وَ ذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» تفریع على الأمر بالتولى عنهم فهو أمر بالتذكير بعد النهى عن الجدل معهم، و المعنى: و استمر على التذكير و العظه فذكر كما كنت تذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين بخلاف الاحتجاج و الجدل مع أولئك الطاغين فإنه لا ينفعهم شيئا و لا يزيدهم إلا طغيانا و كفرا.

قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» فيه التفات من سياق التكلم بالغير إلى التكلم وحده لأن الأفعال المذكوره سابقا المنسوبه إليه تعالى كالخلق و إرسال الرسل و إنزال العذاب كل ذلك مما يقبل توسط الوسائط كالملائكه و سائر الأسباب بخلاف الغرض من الخلق و الإيجاد فإنه أمر يختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه أحد.

□
و قوله: «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» استثناء من النفي لا ريب في ظهوره في أن للخلق غرضا و أن الغرض العباده بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبودا فقد قال: ليعبدون و لم يقل:

لأعبد أو لأكون معبودا لهم.

على أن الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض و يرتفع به حاجته و الله سبحانه لا- نقص فيه و لا- حاجه له حتى يستكمل به و يرتفع به حاجته، و من جهة أخرى الفعل الذى لا ينتهى إلى غرض لفاعله لغو سفهى و يستنتج منه أن له سبحانه فى فعله غرضا هو ذاته لا- غرض خارج منه، و أن لفعله غرضا يعود إلى نفس الفعل (1) و هو كمال للفعل لا لفاعله، فالعباده غرض لخلق الإنسان و كمال عائد إليه هى و ما يتبعها من الآثار كالرحمه و المغفره و غير ذلك، و لو كان للعباده غرض كالمعرفه الحاصله بها و الخلوص لله كان هو الغرض الأقصى و العباده غرضا متوسطا.

□ □ □ □ □
فإن قلت: ما ذكرته من حمل اللام فى «لِيَعْبُدُونِ» على الغرض يعارضه قوله تعالى: «لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لَذَلِكَ خَلَقَهُمْ» هود: ١١٩، و قوله:

□ □ □ □ □
«وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ» الأعراف: ١٧٩، فإن ظاهر الآيه الأولى كون الغرض من الخلقه الاختلاف، و ظاهر الثانيه كون الغرض من خلق كثير من الجن و الإنس دخول جهنم فلا محيص عن رفع اليد من حمل اللام على الغرض و حملها على الغايه.

قلت: أما الآيه الأولى فالإشارة فيها إلى الرحمه دون الاختلاف، و أما الآيه

ص: ٣٨٦

١ - ١) فالله تعالى خلق الإنسان ليثيبه و الثواب عائد إلى الإنسان و هو المنتفع و هو المنتفع به و الله غنى عنه، و أما غرضه تعالى فهو ذاته المتعاليه و إنما خلقه لأنه الله عز اسمه. منه.

الثانية فاللام فيها للغرض لكنه غرض تبعي و بالقصد الثاني لا غرض أصلي و بالقصد الأول و قد تقدم إشباع الكلام فى تفسير الآيتين.

فإن قلت: لو كان اللام فى «لِيُعْبُدُونَ» للغرض كانت العبادة غرضه تعالى المراد من الخلقه، و من المحال أن يتخلف مراده تعالى عن إرادته لكن من المعلوم المشاهد عيانا أن كثيرا منهم لا يعبدونه تعالى و هذا نعم الدليل على أن اللام فى الآية ليست للغرض أو أنها للغرض لكن المراد بالعبادة العبادة التكوينية كما فى قوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» :إسراء: ٤٤.

أو أن المراد بخلقهم للعبادة خلقهم على وجه صالح لأن يعبدوا الله يجعلهم ذوى اختيار و عقل و استطاعه، و تنزيل الصلاحيه و الاستعداد منزله الفعلية مجاز شائع كما يقال: خلق البقر للحرث، و الدار للسكنى.

قلت: الإشكال مبنى على كون اللام فى الجن و الإنس للاستغراق فيكون تخلف الغرض فى بعض الأفراد منافيا له و تخلفا من الغرض، و الظاهر أن اللام فيهما للجنس دون الاستغراق فوجود العبادة فى النوع فى الجملة تحقق للغرض لا- يضره تخلفه فى بعض الأفراد نعم لو ارتفعت العبادة عن جميع الأفراد كان ذلك بطلانا للغرض، و لله سبحانه فى النوع غرض كما أن له فى الفرد غرضا.

و أما حمل العبادة على العبادة التكوينية فيضعفه أنها شأن عامه المخلوقات لا موجب لتخصيصه بالجن و الإنس مضافا إلى أن السياق سياق توبيخ الكفار على ترك عبادة الله التشريعية و تهديدهم على إنكار البعث و الحساب و الجزاء و ذلك متعلق بالعبادة التشريعية دون التكوينية.

و أما حمل العبادة على الصلوح و الاستعداد بأن يكون الغرض من خلق الجن و الإنس كونهما بحيث يصلحان للعبادة و يستعدان لها أو لتعلق الأمر و النهى العباديين فيضعفه أن من البين أن الصلوح و الاستعداد إنما يتعلق به الطلب لأجل الفعلية التى يتعلق به الصلوح و الاستعداد فلو كان الغرض المطلوب من خلقهما كونهما بحيث يصلحان للعبادة أو لتعلق الأمر و النهى العباديين فقد تعلق الغرض أولا بفعله عبادتهما ثم بالصلوح و الاستعداد لمكان المقدميه.

ففى حمل العباده على الصلوح و الاستعداد اعتراف بكون الغرض من الخلق أولا و بالذات نفس العباده ثم الصلوح و الاستعداد فيعود الإشكال لو كان هناك إشكال.

فالحق أن اللام فى «الْجَنِّ وَ الْإِنْسِ» للجنس دون الاستغراق، و المراد بالعباده نفسها دون الصلوح و الاستعداد، و لو كان المراد هو الصلوح و الاستعداد للعباده لكان ذلك غرضا أدنى مطلوباً لأجل غرض أعلى هو العباده كما أن نفس العباده بمعنى ما يأتى به العبد من الأعمال بالجوارح من قيام و ركوع و سجود و نحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المثول بين يدى رب العالمين بذله العبوديه و فقر المملوكيه المحضه قبل العزه المطلقه و الغنى المحض كما ربما استفيد من قوله تعالى: «قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ»: الفرقان: ٧٧، حيث بدل العباده دعاء.

فحقيقه العباده نصب العبد نفسه فى مقام الذله و العبوديه و توجيه وجهه إلى مقام ربه، و هذا هو مراد من فسر العباده بالمعرفه يعنى المعرفه الحاصله بالعباده.

فحقيقه العباده هى الغرض الأقصى من الخلقه و هى أن ينقطع العبد عن نفسه و عن كل شىء و يذكر ربه.

هذا ما يعطيه التدبر فى قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» و لعل تقديم الجن على الإنس لسبق خلقهم على خلق الإنس قال تعالى: «وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ»: الحجر: ٢٧، و العباده هى غرض الفعل أى كمال عائد إليه لا إلى الفاعل على ما تقدم.

و يظهر من القصر فى الآيه بالنفى و الاستثناء أن لا- عنايه لله بمن لا- يعبده كما يفيداه أيضا قوله: «قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ».

قوله تعالى: «مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ» الإطعام إعطاء الطعام ليطعم و يؤكل قال تعالى: «وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَشْقِينِ»: الشعراء: ٧٩، و قال:

«الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ»: الإيلاف: ٤، فيكون ذكر الإطعام بعد الرزق من قبيل ذكر الخاص بعد العام لتعلق عنايه خاصه به و هى أن التغذى أوسع حوائج الإنسان و غيره و أحسها لكونه مسبوقا بالجوع و ملحوقا بالدفع.

و قيل: المراد بالرزق رزق العباد و المعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا عبادى الذين أرزقهم و ما أريد أن يطعمونى نفسى.

وقيل: المراد بالإطعام تقديم الطعام إليه كما يقدم العبد الطعام إلى سيده و الخادم إلى مخدومه فيكون المراد بالرزق تحصيل أصل الرزق و بالإطعام تقديم ما حصلوه و المعنى: ما أريد منهم رزقا يحصلونه لى فأرتزق به و ما أريد منهم أن يقدموا إلى ما ارتزق به و أطعمه.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ» تعليل لقوله: «مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ» إلخ، و الالتفات فى الآية من التكلم وحده إلى الغيبة لإنهاء التعليل إلى اسم الجلاله الذى منه يبتدى كل شىء و إليه يرجع كأنه قال: ما أريد منهم رزقا لأنى أنا الرزاق لأنى أنا الله تبارك اسمه.

و التعبير بالرزاق-اسم مبالغه-و كان الظاهر أن يقال: إن الله هو الرزاق للإشاره إلى أنه تعالى إذا كان رازقا وحده كان رزاقا لكثره من يرزقه فالآيه نظير قوله: «وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

و ذو القوه من أسمائه تعالى بمعنى القوى لكنه أبلغ من القوى، و المتين أيضا من أسمائه تعالى بمعنى القوى.

و التعبير بالأسماء الثلاثه للدلاله على انحصار الرزق فيه تعالى و أنه لا- يأخذه ضعف فى إيصال الرزق إلى المرتزقين على كثرتهم.

قوله تعالى: «فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ» الذنوب النصيب، و الاستعجال طلب العجله و الحث عليها، و الآيه متفرعه على قوله:

«وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» بلازم معناه.

و المعنى: فإذا كان هؤلاء الظالمون لا يعبدون الله و لا عناية له بهم و لا سعادته من قبله تشملهم فإن لهم نصيبا من العذاب مثل نصيب أصحابهم من الأمم الماضيه الهالكه فلا يطلبوا منى أن أعجل لهم العذاب و لا يقولوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، و أيان يوم الدين.

و فى الآية التفات من الغيبة إلى التكلم وحده و هو فى الحقيقه رجوع من سياق الغيبة الذى فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ» إلخ، إلى التكلم وحده الذى فى قوله:

«وَمَا خَلَقْتُ» إلخ، لتفرع الكلام عليه.

قوله تعالى: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ» تفرّيع على قوله:

«فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا» إلخ، و تنبيه على أن هذا الذنوب محقق لهم يوم القيامة و إن أمكن أن يجعل لهم بعضه، و هو يوم ليس لهم فيه إلا الويل و الهلاك و هو يومهم الموعود.

و فى تبديل قوله فى الآيه السابقه لِلَّذِينَ ظَلَمُوا من قوله فى هذه الآيه: «لِلَّذِينَ كَفَرُوا» تنبيه على أن المراد بالظلم ظلم الكفر.

بحث روائى

فى المجمع، و روى بالإسناد عن مجاهد قال: خرج على بن أبى طالب معتما مشتملا فى قميصه-فقال: لما نزلت «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ» لم يبق أحد منا إلا- أيقن بالهلكه-حين قيل للنبي: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ» فلما نزل «وَذَكَرْنَا الْذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» طابت نفوسنا، و معناه: عظ بالقرآن من آمن من قومك-فإن الذكرى تنفعهم.: عن الكلبي.

أقول: و رواه فى الدر المنثور، و روى أيضا ما فى معناه عن ابن راهويه و ابن مردويه عنه(ع): .

و فى التوحيد، بإسناده عن ابن أبى عمير قال*: قلت لأبى الحسن موسى بن جعفر (ع): ما معنى قول رسول الله ص: اعملوا-فكل ميسر لما خلق له؟ فقال:

إن الله عز و جل خلق الجن و الإنس ليعبدوه-و لم يخلقهم ليعصوه و ذلك قوله عز و جل:

«وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» فيسر كلا لما خلق له-فويل لمن استحب العمى على الهدى.

و فى العلل، بإسناده إلى أبى عبد الله(ع) قال: خرج الحسين بن على(ع) على أصحابه فقال: إن الله عز و جل ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عباده من سواه.

و فيه، بإسناده إلى أبى بصير قال: سألت أبا عبد الله(ع) عن قول الله عز و جل:

«وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» قال: خلقهم ليأمرهم بالعباده.

أقول: و روى القمى فى تفسيره، مثله مرسلا و مضمرا

، و قد مر فى تفسير الآيه ما يتضح به معنى هذه الروايات، و أن هناك أغراضا مترتبة: التكليف و العباده و المعرفة.

و فى تفسير العياشى، عن يعقوب بن سعيد عن أبى عبد الله (ع) قال*: سألته عن قول الله: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»[□]
قال: خلقهم للعباده. قال:

قلت: قوله: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»^{□□} - إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ[□] فقال: نزلت هذه بعد ذلك.

أقول: أى نزلت «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»^{□□} الخ، بعد «وَمَا خَلَقْتُ»[□] الخ، يريد النسخ، و فى تفسير القمى: و فى حديث آخر هى منسوخه بقوله: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»^{□□} الخ، و المراد بالنسخ البيان و رفع الإبهام دون النسخ المصطلح، و كثيرا ما ورد بهذا المعنى فى كلامهم (ع) كما أشرنا إليه فى تفسير قوله تعالى: «مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا»[□] X الآيه X البقره: ١٠٦.

و المراد أن الغرض الأعلى هو الرحمة الخاصه المترتبة على العباده و هى السعاده الخاصه بالمعرفه.

و فى التهذيب، بإسناده إلى سدير قال: قلت لأبى عبد الله (ع): أى شىء على الرجل فى طلب الرزق؟ فقال: إذا فتحت بابك و بسطت بساطك - فقد قضيت ما عليك.

تم و الحمد لله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
الغمامة
اصبحان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

